

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الأول

الناشر

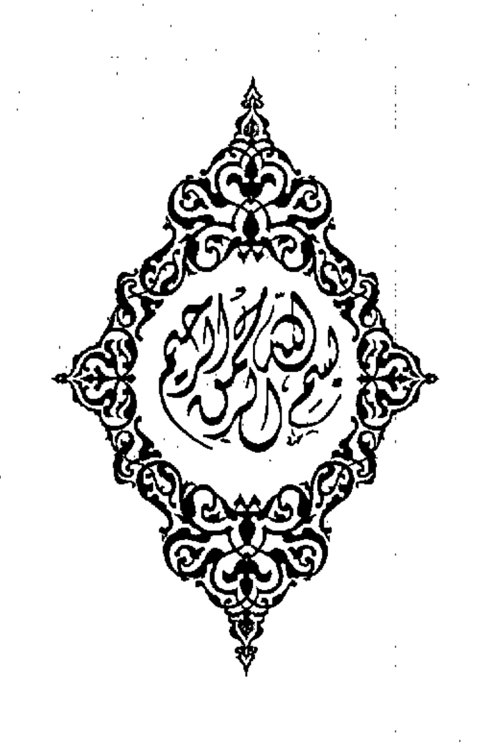
دار العفاني

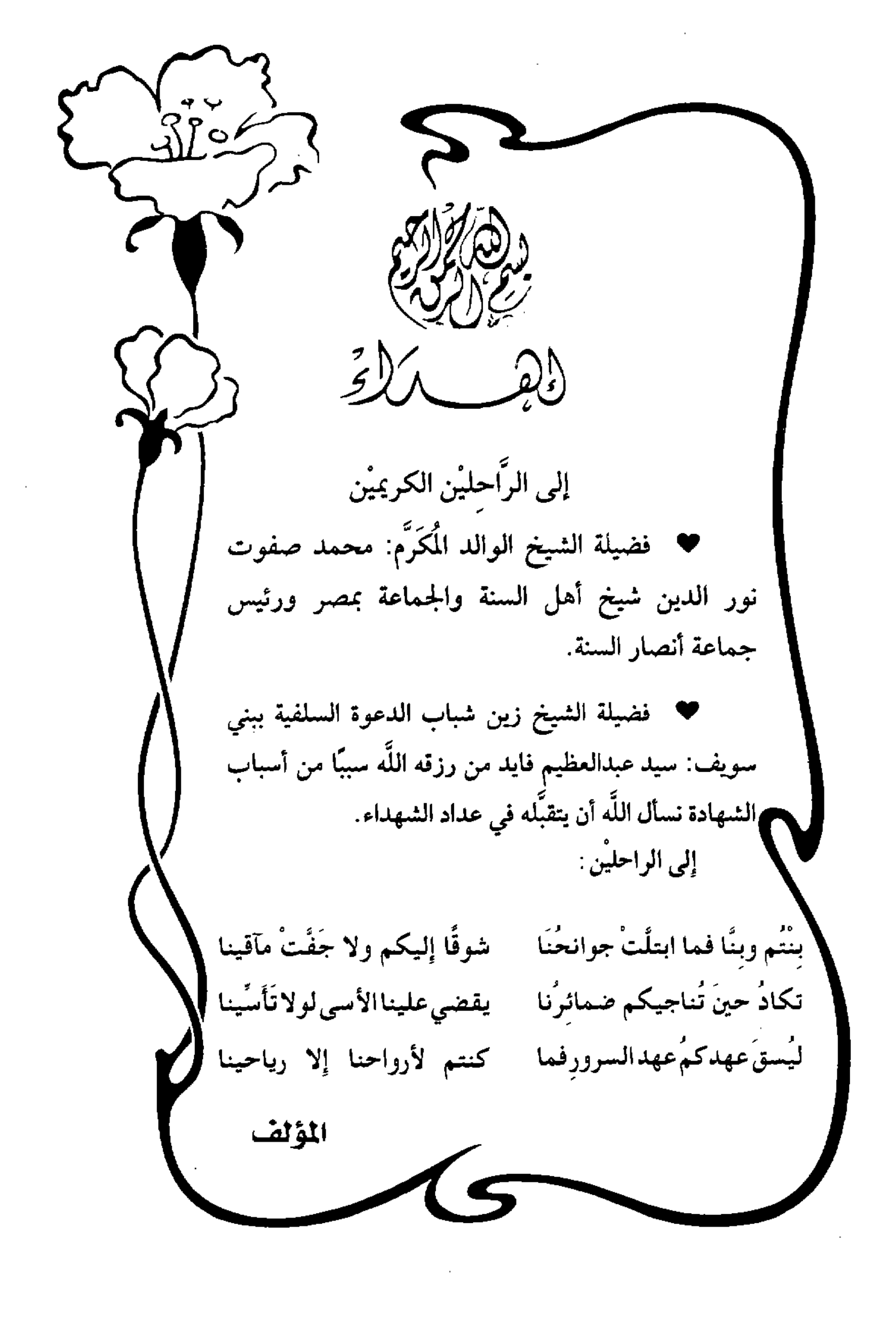
القاهرة : ٣ درب الأتراك . الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف : برج الزعيم . بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٢٣١٧٣٤٤/٠١٠١٧٥٦٢٩٦


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الراحلين الكريمين

❤ فضيلة الشيخ الوالد المُكَرَّم: محمد صفوت نور الدين شيخ أهل السنة والجماعة بمصر ورئيس جماعة أنصار السنة.

❤ فضيلة الشيخ زين شباب الدعوة السلفية ببني سويف: سيد عبدالعظيم فايد من رزقه اللَّه سببًا من أسباب الشهادة نسأل اللَّه أن يتقبَّله في عداد الشهداء.

إلى الراحليْن:

بِنْتُم وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنَا ... شوقًا إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا

تكادُ حينَ تُناجيكم ضمائرُنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

ليُسقَ عهدكمُ عهد السرورِ فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

المؤلف



المقدمـــة

✍ إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

✍ **أما بعد:**

فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

✍ **أما بعد:**

فإن طلب الحق أحلى في النفوس الأبيّة من الشمس في رائعة النهار،

وقطب تدور عليه همم الأخيار، وعُباب تنصبّ منه جداول شمائل الأطهار، ومتى علت الهمة في طلب الحق، حملت على مفارقة العوائد وطلب الأوابد، فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلّما يعرفه إلا واحد، وإذا عظم المطلوب قلّ المساعد، فإن البدع قد كثُرت، وكثرت الدعاة إليها، والتعويل عليها، وطالب الحق - اليوم - شبيه بطُلّابه في أيام الفتْرة، وهم سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نُفيل وأضرابهما، رحمهما اللَّه تعالى، فإنهم قدوة لطالب الحق، وفيهم له أعظم أُسوة، فإنهم لما حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه، بلّغهم اللَّه إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمّة، فكم أدرك الحق طالبُه في زمن الفترة! وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبُوّة! فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك، فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا، نفيسًا كريمًا، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه، وعدم التشوّف والتشوّق إلى سببه، ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يُفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل، ولا بطّال ولا غافل»[1] .

إن الحق لا ينثني ولا ينحني، إنما يسير في طريقه قيمًا لا عوج فيه، قويًّا لا ضعف فيه، صريحًا لا مداورة فيه، إنه ليس ملكًا لأحد حتى يجامل فيه، إنما هو للَّه عز وجل، والحق قد يغزو قلوب ذوي السلطان والجاه فيصبحون له جندًا وخدمًا فيفلحون، ولكنه هو لا يفلح إذا كان من جند السلطان وخدمه، فهو من أمر اللَّه، وهو أعلى من ذوي السلطان والجاه.

الحق له قوته وصدقه وثباته، والباطل له زهوقه واندحاره وجلاؤه، ومن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق.

مهما بدا للباطل وللزيف صولة ودولة، فإنه ينتفخ وينتفج وينفش؛ لأنه

(١) «إيثار الحق على الخلق» للسيد مرتضى اليماني ص(٢٤) - مطبعة الآداب والمؤيد.

لا يطمئن إلى حقيقة، ومن ثم يحاول أن يموّه على العين، وأن يبدو عظيمًا كبيرًا ضخمًا راسخًا، ولكنه هش سريع العطب، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عاليًا ثم تخبو سريعًا وتستحيل إلى رماد، بينما الجمرة الذكية تدفئ وتنفع وتبقى، وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ولا يبقى.

* وصدق اللَّه تعالى إذ يقول: ﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**﴾ الآية [الرعد: ١٧].

إن الحق له العقبى وله البقاء.

إن كلمة الحق الطيبة كالشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة، ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان.

والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك، ويُخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل نافشة هشة، لا قرار لها ولا بقاء.

والحق الأصيل لا يموت ولا يُزوي، مهما زحمه الشر والزيف وأخذ عليه الطريق، إن الخير بخير، وإن الشر بِشَرّ.

إن الحق نور تشرق به النفس، فترى الطريق واضحة إلى اللَّه لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام والخرافات، أو غبش الشهوات وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والحق نور يشرق في القلب، فيشرق به الكيان البشري يرقرقه ويجلوه ويطلقه من إسار الأرض ومن طينها اللازب المعتم.

ولا بد للحق من أناس يصدعون به ولا يكتمون، فالساكت عنه شيطان أخرس. قال ابن القيم: «فتارك حقوق اللَّه التي عليه أسوأ حالاً عند اللَّه ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهًا ذكرها شيخنا في تصانيفه، ومَن له خبرة بما بعث اللَّه به رسوله ﷺ، وبما كان عليه أصحابه رأى أن أكثر مَن يُشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينًا، واللَّه المستعان، وأيّ دين وأيّ خير فيمن يرى محارم اللَّه تُنتهك وحدوده تُضاع، ودينه يُترك وسنَة رسول اللَّه ﷺ يُرغَب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان؟ شيطان أخرس! كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين[١].

وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وُسعه. هؤلاء - مع سقوطهم من عين اللَّه ومَقْت اللَّه لهم - قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتمّ كان غضبه للَّه ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل».

□ ثم قال: «ورأس التقوى والإحسان خُلوص النية للَّه في إقامة الحق، واللَّه سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فَمَن الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان اللَّه مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومَن ينصره من بعده؟ فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أوّلاً، وكان قيامه باللَّه وللَّه لم يقم له شيء، ولو كادَتْه السموات والأرض والجبال لكفاه اللَّه مؤنتها، وجعل له فرجًا ومخرجًا، وإنما يُؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في

---

(١) وهل أفسد الدين إلاّ الملوك وأحبـار سوء ورهبانها
لقد رتـع القوم في جيفة يبين لذي اللب أنتـانها

هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد؛ فمن كان قيامه في باطل لم يُنصَر، وإنْ نُصِر نصراً عارضًا فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه للَّه وإنما قام لطلب المَحْمَدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تُضمَن له النصرة؛ فإن اللَّه إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه وهواه»[١] .

❑ وفي زمننا هذا الذي غلبت فيه المنكرات و«اقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظُلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدّرت الحياة من فسق الظلمة، وبكا ضوء النهار، وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة، والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون إلى ربهم من كثرة الفواحش، وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادْلهمّ ظلامه»[٢] .

وإذا تُرِكَ عوام المسلمين البسطاء لشُبَه الزنادقة والمجرمين والمنافقين، «وإذا صادفت هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة، وظنون كاذبة، جالت فيها وصالت، وقامت بها وقعدت، واتسع مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دويانها.

وما أكثر المستجيبين لهؤلاء والقابلين منهم، والقائمين بدعوتهم، والمحامين عن حوزتهم، والمقاتلين تحت ألويتهم، والمكثرين من سوادهم،

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن قيم الجوزية (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) «الفوائد» لابن القيم ص(٨٨) بتحقيق محمد عيون.

ولعموم البلية بهم، وضرر القلوب بكلامهم، هتك اللَّه أستارهم في كتابه غاية الهتك، وكشف أستارهم غاية الكشف، وبيّن علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم»(١).

◻ يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ: «أما عن مجابهة الغزو المتمثل في الإذاعات والكتب والصحف والمجلات والأقلام التي ابتليت بها المجتمعات الإسلامية في هذا العصر وأخذت تشغل أكثر أوقات المرء المسلم والمرأة المسلمة رغم ما تشتمل عليه في أكثر الأحيان من السم الزعاف والدعاية المضللة فهي من أهم المهمات لحماية الإسلام»(٢).

◻ ولا نجاة إلا بالمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وهنا تبدو الحاجة إلى العلم والعلماء وتربية الأمة على مواقف العلماء الربانيين الذين لا يخشون في اللَّه لومة لائم، فخير وسيلة للتربية هي التربية بالقدوة ولن تجدها إلا ببستان السلف تجد أريجها الفوّاح تعبق به القلوب والأرواح.

أزاهيرهم مؤمنات العبير　　　وأطيارهم قانتات الزَّجَلْ

أو:

حدّث عن القوم فالألفاظ ساجدة　　　خلف المحاريب والأوزان تبتهل

«فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلّة مبالاتهم بسطوة السلاطين، ولكنهم اتكلوا عى فضل اللَّه أن يحرسهم،

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم ص(١١٢).
(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» للشيخ ابن باز (١/ ٣٩٢).

ورضوا بحكم اللَّه تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا النيّة أثّر كلامهم في القلوب القاسية فليّنها وأزال قساوتها، وأما الآن فقد قيدّت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا؛ ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا فلم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر»[١] .

□ واعلم أن من استولى عليه شهود جلال اللَّه وعظمته وكبريائه، فغاب بذلك عن شهود هيبة الخلق، وخوف سطوتهم وطغيانهم، ولم يشغله الذهول بما هو مهتم به عن ملاحظة الحق ومشاهدة الإخلاص، وتحقق حسن القصد في كل حركة من حركاته مثله ينبغي أن يُتصدّى للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإلاّ فلا.

*** يقول الإمام ابن النحاس الدمشقي:**

«فمن أخلص للَّه النيّة أثّر كلامه في القلوب القاسية فليّنها، وفي الألسن الذربة فقيّدها، وفي أيدي السَلَطة فعقلها.

وأما زماننا هذا فقد قيّد الطمع ألسن العلماء، فسكتوا إذْ لم تساعدْ أقوالهم أفعالهم، ولو صدقوا اللَّه لكان خيراً لهم.

فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه فساد العلماء، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء وجدنا سببه ما استولى عليهم من حبّ المال والجاه وانتشار الصيت ونفاذ الكلمة، ومداهنة المخلوقين وفساد النيات في الأفعال والأقوال، وإذا أراد واحد منهم

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٧/ ٩٢).

أن ينكر على واحد من الرعية لم يستطع ذلك فكيف يستطيع الإنكار على الملوك والتعرض للمهالك ومفارقة ما استولى على قلبه من حب المال والجاه.

اللَّهم استر فضايحنا وتولّ مصالحنا، وخذ بأزمّة قلوبنا إليك، واستعملنا فيما يرضيك يا أرحم الراحمين»[1] .

❑ قال ابن النحاس: «خرّج البيهقي في الشعب بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا ينبغي لامرئ شهد مقامًا فيه حق إلا تكلم به، فإنه لن يُقدّم أجله ولم يحرمه رزقًا هو له**».

قلت: وهذا الحديث فيه الحض على الإقدام والشجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يعلم الإنسان يقينًا أن الأمر والنهي لن يقدما أجلاً أخره اللَّه، ولن يمنعا رزقًا قدّره اللَّه، فلا يلتفت إلى ما يلقيه الشيطان من تخذيله، وقوله: لا تتعرّض لهذا يضربوك ويقتلوك، ونحو ذلك، فإن الضرر وإن قلّ، والنفع وإن جلّ مقدّران، إذ لا يزيدان فتيلاً ولا ينقصان نقيرًا»[2] .

* قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ٢١].

❑ قال القرطبي: وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف مع خوف القتل[3] .

❑ وكثير من الناس غلب عليهم الجهل بوجوب الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين» لابن النحاس الدمشقي ص(٦٨) ـ دار الكتب العلمية.

(٢) المصدر السابق ص(١٠٧).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ٤٨).

عن المنكر، وفضله العظيم واستولى على قلوبهم الركون إلى مداهنة الخلق وإيثار مودتهم وبقاء صحبتهم، وثقل كلمة الحق على ألسنتهم، وما يلقيه الشيطان في قلوبهم من الخوف والجبن وتقدير البعيد من الضرورة قريبًا، واعتقاد السكوت على المنكر وجوبًا، وما علموا أن التهلكة هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن النجاة هي الأمر والنهي.

❑ قال الغزالي: «لا خلاف أن المسلم الواحد يجوز له أن يهجم على صف الكفار يقاتل، وإنْ علم أنه يُقتل، وكما أنه يجوز أن يقاتل الكفّار حتى يُقتل جاز ذلك أيضًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

❑ وقال ابن النحاس: «يجوز للمنكر بل يُستحب أن يُعرِّض نفسه للضرب أو القتل إذا كان لإنكاره تأثير في رفع المنكرات، أو كسر جاه الفاسق أو فيه تقوية قلوب أهل الدين»[(١)] .

وقال: «سقط عنه الوجوب وبقي الاستحباب، وهي مرتبة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلاّ من جاد بنفسه للّه الكريم»[(٢)] .

❑ والعلماء والربانيون ـ وهم ورثة الأنبياء ـ وأعلم الناس بالضوابط الشرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما أقدموا على الإنكار بقصد أن يؤثر أثرًا في الدين، وأن يصدعوا بما أمروا به من الإنكار على الظالمين، فإذا لم يحصل أثر كفاهم قصدهم حجّة عند اللّه تعالى ووقع أجرهم على من لا يُضيع أجر المحسنين.

كما أن المنغمس في الكفار لو حصل له حال انغماسه ضربة فمات قبل أن يقتل أحدًا منهم أو يجرحه لم يُؤاخذ بتغريره بنفسه، وكان شهيدًا باعتبار

---

(١) «تنبيه الغافلين» ص(٧٣).

(٢) المصدر السابق ص(١٠٧).

قصده وإن لم يحصل.

وزماننا هذا يصدق فيه قول حذيفة ﷺ: «يأتي على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم»؛ لأن من تصدّى في هذا الزمان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثقل على القلوب وإن كان خفيفًا، وسمج في العيون وإن كان لطيفًا، ورُمي بالكذب وساءت فيه الظنون، وقُصد بالأذى، وكثر أعداؤه، وقلّ أصدقاؤه، ورُمي وأُلقِي في مهاوي الردى، وأُعملت الفكر في كيفية الخلاص منه، والراحة من مشاهدته، بل في قتله واستئصال شأفته.

◻ فلا بد للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يجعل له من الصبر حصنًا حصينًا، ومن الاحتمال خِلاً أمينًا، وأن يوطّن نفسه على تجرّع كئوس المرارات، وتجنّب حلاوة المداهنة والمداراة، وأن يمرّن نفسه على هجر الخلق في جنب اللَّه، ويقنع في كل أحواله بنظر اللَّه، وألا يأسف على من قلاه لذلك، ولا يحزن على من فارقه وخذله في هذه المهالك، وليقطع أطماعه من الخَلق، ويثق بكفالة الحق، ويتوكّل على اللَّه فهو حسْب من توكل عليه، ويفوّض إليه في جميع أحواله، فمرجع الأمور كلها إليه.

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحّ منك الوُدُّ فالكُلُّ هيّنٌ ... وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ
فيا ليت شُرْبي من ورِادِك صافيًا ... وشُرْبيَ من ماء الفرات سرابُ
متى لم يكن بيني وبينك رِيبَةٌ ... فَكُلُّ نعيمٍ صدّ عنك عذابُ

◻ ومواقف الربانيين تُحيي الأمم والخير متواصل ونهره ريّان في هذه الأمة.

● وقد قال ﷺ : «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره»[١] .

● وقال ﷺ : «لكل قرن من أمتي سابقون»[٢] .

❏ لقد ذكرت في هذا الكتاب أي انحراف عن جادة الصراط المستقيم وطريق سلف هذه الأمة، ومن تصدى لهذا الانحراف.

❏ وتجد من الذين تصدوا لنصرة الإسلام في عصرنا والرد على العلمانيين تجد لبعضهم انحرافًا عن السنة والاتباع فذكرنا انحرافهم ومن تصدى لهم وبيّن عوجهم في هذا المجال فالحق أحق أن يُقال، ووجه اللَّه بغيتنا وقصدنا ومع هذا نقول: «ليس من قصد الحق فأخطأه كمن تعمّد قصد الباطل» ورحم اللَّه ابن القيم إذ يقول: «والبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم».

وهنا تبدو قيمة النصيحة لحث شباب هذه الأمة على العلم، فلولا حفظ اللَّه ثم العلم لاختلطت الأمور إذ كيف يتصدى رجل لانحراف العلمانيين والرد عليهم ثم تجد له انحرافًا عن الجادة في ميدان من ميادين الإسلام، فالأمة كلها محتاجة إلى العلم حتى يتخرّج كوادر من المدافعين على الإسلام ليس في أقوالهم أو اعتقادهم أي شائبة وحتى لا نحتج إلا بمن هو خير كله.

العلم جمال لا يخفى، ونسبٌ لا يُجفَى، بعيد المرام لا يصاد بالسهام،

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي والطيالسي وأحمد وأبو الشيخ في الأمثال عن أنس، وابن حبان والبزار والرامهرمزي في الأمثال عن عمار، والبزار عن عمران بن حصين، والسهمي في تاريخ جرجان عن ابن عمر والطبراني في «الكبير» عن ابن عمرو. وضعفه النووي في «فتاويه» ص(١٢٧) بحسب ما وقف عليه من طرق. ولكن الحديث قوي.

(٢) **صحيح**: رواه أبو يعلى في «الحلية» عن ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٧٢).

ولا يقسم بالأزلام، ولا يُورث عن الأعمام.

بحر لا يخوصه الملاّح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيّجه الرياح، جبل لا يُتسنّم إلا بُخطى الفكر، وسماء لا تصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد، لا يصلح إلا للغرس، ولا يُغرس إلا في النفس ولا يُسقى إلا بالدرس.

العِلم عِلْق لا يُباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يُدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، وردّ الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، بل وقف الهم كله عليه.

● قال رسول اللَّه ﷺ: **«فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم»**[(١)].

والعلماء سراج للناس، ومصابيح في الدنيا والآخرة، أعلى من القمرين والنجوم، مع أنها أرفع وأنور في المشارق والمغارب؛ لأنها يحجبها الغمام، ونور العلم لا يحجبه سبع سموات، والشمس تغيب ليلاً، والقمر يخفى نهارًا، والعلم لا يغيب ليلاً ولا نهارًا بل هو هو.

والقمران يفنيان والعلم لا يفنى، والقمران ينكسفان والعلم لا ينكسف، والقمران تارة يضران، وتارة ينفعان، والعلم ينفع ولا يضر بشرطه، والقمران في السماء زينة لأهل الأرض، والعلم في الأرض زينة لأهل السماء، وهما في الفوق ويضيئان ما تحت والعلم في قلب المؤمن، وهو في التحت، ويضيء ما فوقه وتحته، وضوءهما يقع على الولي والعدو، والعلم ليس إلا للوليّ.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٨٩).

وشعاع الكواكب إلى أسفل، وشعاع العلم يصعد إلى العلو.

والكواكب تطلع من خزانة الفلك، والعلم يطلع من خزانة الملك، والكواكب علامة، والعلم كرامة.

والكواكب موضع نظر المخلوقين، والعلم موضع نظر رب العالمين، والكواكب نفعها في الدنيا، والعلم نفعه في الدنيا والآخرة، الشمس تحرق، والعلم يُنجي.

وإنما كانوا كالمصابيح في الآخرة؛ لأن الناس يحتاجون إلى العلماء في الموقف للشفاعة، بل وبعد الدخول ـ دخول الجنة ـ فينتفع بهم فيها كالمصابيح؛ ولذا يُقال: إن ذات العالِم تُكسى نورًا يضيء كالمصباح حقيقة، ألا ترى أن هذه الأمة تُدعى غُرًّا محجلين من آثار الوضوء، فالعالِم يتميّز على آحاد المؤمنين بأن تصير جثته كلها مضيئة، فنعمة العلم من أفخر النعم وأجزل القسَم ومن أوتيه فقد أوتي خيرًا كثيرًا»[1] .

◘ ومع العلم لا بد من التجرد للَّه عز وجل وإخلاص النيّة، فعزيز على المرء عاطفة أن يجرح بعض مواقف لأناس يدافعون عن الإسلام، أما إذا كان الولاء كله والحب والبغض للَّه وفي اللَّه فالأمر هين.. من وجد اللَّه فماذا فقد:

مَنْ فاتَهُ منْكَ وَقْتٌ حَظُّهُ النَّدَمُ ... ومنَ تكُن هَمَّه تسمو به الهِمَمُ

ونَاظِرٌ في سِوى مَرْآكَ حُقَّ لَهُ ... يَفيضُ مَدْمَعُهُ بالدَّمْعِ وَهُوَ دَمُ

نسيتُ كُلَّ طريقٍ كُنْتُ أَعْرِفُهُ ... إلا طريقًا يُؤَدِّيني لبَابِكُمُ

فَسَلَّني كُلَّ حالٍ كنت آلَفُهُ ... في وَصْلِه القَطْعُ ما بيني وبينكُمُ

* * *

(١) «فيض القدير» للمناوي (١/ ١٠٧).

ولِلَّه درُّ القائل:

هَنيئًا لمن أَضْحَى وأَنتَ حَبيبُهُ ... وَلَوْ أَنّ لَوْعَاتِ الغَرَامِ تُذِيبُهُ
وطُوبى لِصَبٍّ أَنتَ ساكِنُ سرِّهِ ... ولو بانَ عنه إِلْفُهُ وقريبُهُ
وما ضَرّ صَبًّا أن يبيتَ ومالَهُ ... نصيبٌ من الدنيا وأنتَ نَصيبُهُ
ومَنْ تَكُ راضٍ عَنْهُ في طَيٍّ غيْبه ... فما ضَرَّهُ في الناس من يَسْتَغِيبُهُ
عُبَيْدُك في باب الرجا مُتَضَرِّعٌ ... إذا لم تجبه أنت من ذا يجيبه
بعيد عن الأوطان يبكي بذلة ... وهل ذاق طعمَ الذُل إلا غريبُه
تَصدَّقْ على من ضاع منه زمانُهُ ... ولمَ يدْرِ حتى لاح منه مشيبُهُ[1]

أخي: قد بيّنت في جمعي هذا أخطاء العقلانيين من المدرسة العقلية الحديثة، وزيف العلمانيين وأهل الحداثة المارقين الساخرين من دين اللَّه، وبيّنا دجل المعاندين للَّه ورسوله.

وذكرنا من تصدى لهم ودافع عن حياض الإسلام، وحرس بستانه حتى استوى على سوقه وفاح أريجه وعبقه يملأ ساحات الدنيا.

وللَّه در من دافع عن الإسلام ولسان حاله يقول:

أنا قُرْبَ النجوم والجارُ فَرْقَدْ ... وبقلبي شمسُ المجرّةِ تُوقدْ
موكبي العنفوانُ، يُذكي اشتياقي ... لزمان فيه العملاقُ يُولَدْ
فيه ألقى حقيقتي تتخطّى ... حاجزَ الوَهمْ نحوَ فَجرٍ تَجَدَّدْ
فيه يندك السورُ تحت يميني ... والأباطيلُ سحرُها يتبدَّدْ
لا دجى الليل يخطفُ العزَم مني ... كيف هذا؟ ولا طريقي تُوصَدْ

(١) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» لابن رجب الحنبلي ص(١٣٩) ـ المكتب الإسلامي.

قد سلكت الأشواكَ والقلبُ راضٍ وكتمت الأنينَ والدَّمُ يَشْهَدْ
بل تجاوزت الصمتَ، أعلِن عشقي للحصى والقذى، بدربي المُخدَّدْ
ها يدي ترفع (العُقَاب) جهارًا فوق أصنامٍ من دمٍ قد تجمَّدْ
هكذا تصنع العقيدة فينا نعشق الموت والمسارَ المهدَّدْ
أيها الخائفون من صدق قولي هل مذاقُ النفاقِ في النفس أجْوَدْ؟
أيها الخائفون شكرًا جزيلا فلقد حررتُمُ فؤادي المقيَّدْ
صرت أقسى من الرماح العوالي صرت أمضى من الحسام المهند

* * *

◻ اللَّهم اجعل جمعي هذا خالصًا لوجهك الكريم، اللَّهم واجعل جهادي بالحجة والبيان لأعدائك في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللَّه بقلب سليم.

اللَّهم إني أسالك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنانَ بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام.. اللَّهم صل على عبدك ونبيك محمد ﷺ.. اللَّهم اختم لي بأفضل الشهادة في سبيلك، وورِّث همي فيك منتهى أملي.. اللَّهم اجعلني ما أبقيتني في الدنيا شجى وقذى في أعين المارقين والزنادقة والمبتدعين.. اللَّهم احفظنا بعينك التي لا تنام.

اللَّهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

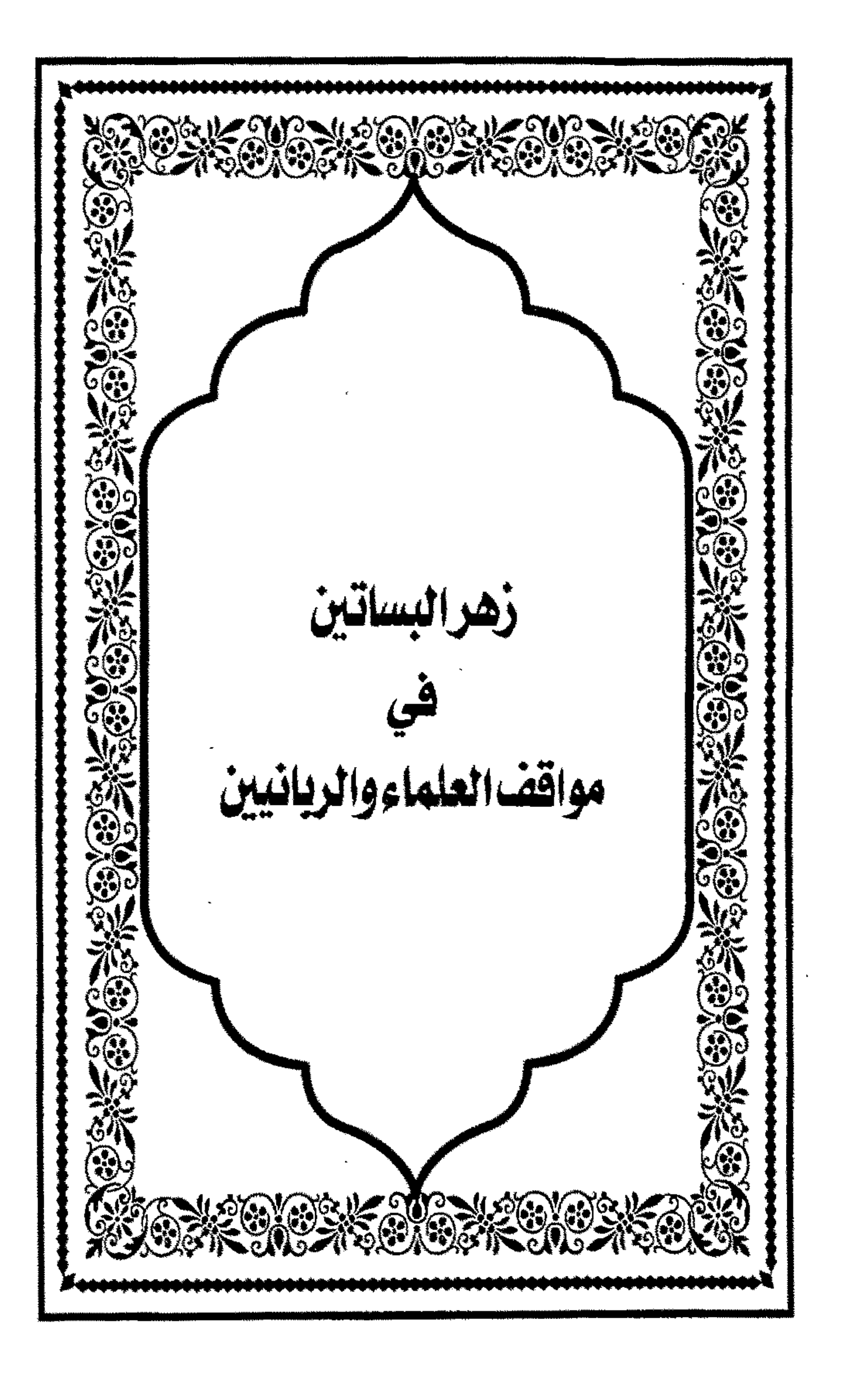
اللَّهم وما أعطيتنا مما نحب فاجعله قوة لنا فيما تحب.

اللَّهم وما زويت عنا مما نحب فاجعله فراغًا لنا فيما تحب، اللَّهم أحي قلوبنا بحبك، واجعل سعينا كله في مرضاتك.. استرنا بالعافية واجعل تحت

الستر ما تحب. . واجعل أنفاسنا وأموالنا وحركاتنا وسكناتنا وأهلينا وقفًا على دينك وفداء له. . اللَّهم إني أسالك لذة العيش بعد الموت والشوق إلى لقائك. .

وكتبه: الفقير إلى عفو ربه ورحمته

سيد العفاني



زهر البساتين
في
مواقف العلماء والربانيين

فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

[١] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وزبدة رسالات النبيين والمرسلين:**

□ قال أبو حامد الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطب الأعظم في الدين، وهو المُهمّ الذي ابتعث اللَّه له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأُهمل عمله، لتعطَّلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمَّت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتَّسع الخرق، وخربت البلاد وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التَّناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القُطب عَمَلُه وعِلمُه، وانمحق بالكلية حقيقتُه ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتِّباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في اللَّه لومةُ لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسَدِّ هذه الثُّلمة؛ إمَّا متكفِّلاً بعملها، أو متقلّدًا لتنفيذها، مجدِّدًا لهذه السُّنَّة الدَّاثرة، ناهضًا بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها ـ كان مُستأثرًا من بين الخلق بإحياء سُنَّة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًّا بقُربةٍ تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها»[١].

□ وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضًا انتهاؤه»[٢].

□ وقال القرطبي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبْين في

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٣٣).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٩٤).

الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة»[١].

* قال تعالى عن أنبيائه: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

❑ وقال العلامة محمد رشيد رضا: «وقد جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن كان محفوفًا بالمكاره والمخاوف»[٢].

❑ وقال الشوكاني: «هو من أعظم واجبات الشريعة وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها»[٣].

❑ وقال الرازي: «رأس المعروف الإيمان بالله، ورأس المنكر الكفر بالله، والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان والزجر عن الكفر، والجهاد داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٤].

❑ وقال السرخسي: «وقد سمى رسول الله ﷺ الجهاد سنام الدين، وفيه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وهو صفة هذه الأمة وفيه تعرّض لأعلى الدرجات وهو الشهادة»[٥].

❑ وقال الإمام الشاطبي في «الموافقات»: «الجهاد الذي شُرع بالمدينة فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو مقرر بمكة»[٦].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ٧٤).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢).
(٣) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٣٣٧).
(٤) «مفاتيح الغيب» للرازي (٤/ ٥٢١).
(٥) «شرح السير الكبير» (١/ ١٩ - ٢٠).
(٦) «الموافقات» للشاطبي (٣/ ٥٠).

«اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضُيِّع أكثره من أزمان مُتطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسومٌ قليلةٌ جدًا ، وهو بابٌ عظيمٌ به قوام الأمر وملاكهُ، وإذا كثر الخبث عمَّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم اللَّه تعالى بعقابه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضا اللَّه عز وجل أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعهُ عظيمٌ لا سيما وقد ذهب معظمهُ، وعلى الآمر بالمعروف أن يُخلصَ نيته ولا يهابنَّ من ينكر عليه لارتفاع مرتبته لأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، واعلم أن الأجر على قدر النصب ولا يتركهُ أيضًا لصداقته ومودَّته ومُداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمةً وحقًا، ومن حقِّه أن ينصحهُ ويهديه إلى مصالح آخرته، وينقذه من مضارِّها، وصديق الإنسان، ومحبُّه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدَّى ذلك إلى نقصٍ في دنياه، وعدوُّه من يسعى في ذهابِ أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورةَ نفعٍ في دنياه. وإنما كان إبليس عدوًّا لنا لهذا، وكانت الأنبياءُ ـ صلواتُ اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ـ أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل اللَّه الكريم توفيقنا وتوفيق أحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته. وينبغي للآمرِ بالمعروف والنَّاهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشافعيُّ ـ رحمه اللَّه ـ:

«من وعظ أخاهُ سرًّا فقد نصحهُ وزَانهُ، ومن وعظهُ علانيةً فقد فضحَهُ وشانَهُ»[١].

[٢] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخص أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل:

◻ قال ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: «هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه السلام».

* قال تعالى عن خليله محمد ﷺ: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ...**﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول أوصافه.

[٣] وهو أظهر صفات أولي العزم والكُمّل من المؤمنين وأبرز سماتهم:

أولئك الذين اقتفوا هدى رسول اللَّه ﷺ وجعلوه أسوتهم

ومن تكن برسول اللَّه أسوته ... كانت خلائقه روحًا وريحانًا

* قال تعالى فيهم: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١١٢] هذه صفة جليلة تتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة، وحفظ لحدود اللَّه يردّ عنها العادين والمُضيّعين ويصونوها من التهجم والانتهاك.

◻ قال ابن كثير: «ينفعون خلق اللَّه، ويرشدونهم إلى طاعة اللَّه بأمرهم

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ٢٤).

بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علمًا وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به»[١] .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرجال.

* قال تعالى في وصية لقمان لابنه: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾** [لقمان: ١٧].

❑ قال الألوسي: «**﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾** تكميلاً لنفسك، **﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾** تكميلاً لغيرك»[٢] .

❑ وقال الرازي: «إذا أكملت نفسك بعبادة فكمِّل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكمّلوا غيرهم»[٣] .

* وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾** [الحج: ٤١].

* وقال تعالى عن مؤمني أهل الكتاب الذين تابعوا النبي ﷺ: **﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٩٢).
(٢) «روح المعاني» للألوسي (٢١/ ٨٩).
(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٦/ ٥٧٨).

صورة وضيئة تُرفع أمام الراغبين في هذه الشهادة، وفي هذا الوعد، ليحققها في ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير.

[٤] منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي مرتبة الأنبياء عند الله:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

استنبط الحسن ـ رحمه الله ـ أن في الآية دلالة على أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي منزلته عند الله منزلة الأنبياء فلهذا ذكرهم عقيبهم[١].

[٥] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناط خيرية هذه الأمة وأهم خصائصها:

* قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

❏ قال ابن تيمية: «وصف الأمة بما وصف به رسولها صلوات الله وسلامه عليه»[٢] وذلك لأن صلاح المعاش والمعاد إنما يكون بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وذلك لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس»[٣].

❏ قال قتادة: «بلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ في حجة حجها رأى من

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي (٧/ ٢١٥)، و«غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري (٣/ ١١٥).

(٢) «مجموع فتاوي ابن تيمية» (٢٨/ ١٢٢ ـ ١٢٥).

(٣) المصدر السابق (٢٨/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

الناس رِعَةً[1] ، فقرأ هذه الآية : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ...﴾، ثم قال: «من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط اللّه فيها»[2] .

«ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمّهم اللّه بقوله: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ...﴾ [المائدة: ٧٩]»[3] .

▫ قال القرطبي: «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان سببًا لهلاكهم»[4] .

▫ وقال القرطبي ـ رحمه اللّه ـ: «إن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه»[5] .

أخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»[6] .

▫ قال ابن كثير: «وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطية العوفي وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ يعني خير الناس للناس. والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) الرعة: سوء الهيئة وسوء الأدب.
(٢) «تفسير ابن جرير» (٥/ ١٠٢).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٦).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٧٣).
(٥) المصدر السابق (٤/ ٤٧).
(٦) انظر «فتح الباري» (٨/ ٢٢٤) حديث رقم (٤٥٥٦) ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة آل عمران، باب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وانظر الحديث رقم (٣٠١٠).

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١) .

ولهذا كان الدعاء إلى الإسلام أعلى الأمر بالمعروف ورأسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

◘ قال ابن القيم قال الحسن: «هو المؤمن أجاب اللَّه في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب اللَّه فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، فهذا حبيب اللَّه، هذا ولي اللَّه، فمقام الدعوة إلى اللَّه أفضل مقامات التعبد»(٢) .

* **لطيفة:**

«في هذه الآية قدم اللَّه عز وجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان باللَّه مع أن الإيمان لا يتقدمه شيء من الأعمال ولا يفضله. ولكن قد يكون هذا التقديم في هذا الموضع يراد به إبراز خاصية وميزة لهذه الأمة على غيرها من الأمم، فإنهم وإن كانوا مطالبين به إلا أنه لم يكن تحقق فيهم كتحققه في هذه الأمة فاستحقوا التفضيل به على غيرهم من سائر الأمم التي سبقتهم وإن شاركوهم في تحقق الإيمان، فهذه الأمة خاتمة الأمم، ورسولها ﷺ خاتم الرسل، وكتابها آخر الكتب، وقد أُخرجت للناس لتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتشهد عليهم»(٣) .

* ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ....﴾.

أمة تخرج إخراجًا من الغيب من وراء الستار السرمدي، الذي لا يعلم

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩١)، و«الفتاوى» (٣٥/ ١٦٠).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٣).
(٣) انظر «التفسير الكبير» (٨/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ٥٠).

ما وراءه إلا اللَّه، تخرج إلى الوجود، أمة ذات دور خاص، لها مقام خاص، ولها حساب خاص.

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة ينبغي دائمًا أن تُعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذي يحتِّمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائمًا، وفي مركز القيادة دائمًا. ولهذا المركز تبعاته.

وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحريض على الخير، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، ومواجهة طواغيت الشر في عنفوانهم وجبروتهم.

الدعاة إلى الخير الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر يواجهون الشر في عنفوانه، ويواجهون طاغوت الشهوة في عَرَامتها وشدَّتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع وزادهم هو الإيمان باللَّه، وسندهم هو اللَّه، وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد، وكل عدة سوى عدّة الإيمان تُفَلّ، وكل سند غير اللَّه ينهار.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبودية ودينونة للَّه في أبهى صورها.

إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن للَّه وحده، تكن لغير اللَّه.. والعبودية للَّه وحده تُطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء.. والعبودية لغير اللَّه تأكل إنسانية الإنسان وكرامته وحريته وفضله.

إن اللَّه سبحانه وتعالى وصف الأمة المسلمة بأن الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر صفتها؛ ليدلّها على أنها لا توجد وجودًا حقيقيًّا إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تُعرف بها في المجتمع الإنساني، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بيّن أنهم كانوا به خير أمةٍ أخرجت للناس.

[٦] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين وتجافٍ عن صفات المنافقين:

* قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [التوبة: ٧١].

* وقال تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾ [التوبة: ٦٧].

قال البيهقي ـ رحمه الله ـ: «إن اللَّه تعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين؛ لأنه قال: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ...**﴾، وقال: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ**﴾ فثبت بذلك أن أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1] .اهـ.

فالأمر بالمعروف أخص أوصاف المؤمنين وضده أخص أوصاف المنافقين المفارقين للمؤمنين في منهجهم ومعتقدهم ومصيرهم.

[٧] الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر له مثل أجر من اتبعه:

● عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من دلّ على خير

---

(١) «شعب الإيمان» (٦/ ٨٤).

فله مثل أجر فاعله» رواه مسلم.

● وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

● وفي حديث سهل بن سعد عند البخاري: «فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلاً واحدًا، خير لك من حمر النعم».

● وقال ﷺ: «إن الدَّال على الخير كفاعله»[1].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «دليل الخير كفاعله»[2].

● وقال ﷺ: «من استن خيرًا فاستن به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استن به ولا ينتقص من أجورهم شيئًا ومن استن سُنَّةً سيئة فاستن به فعليه وزره كاملاً، ومن أوزار الذين استنوا به، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا»[3].

[٨] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل إلى الفلاح:

* وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

❑ قال الطبري: «﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ جماعة يدعون إلى الخير يعني إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها اللَّه لعباده»[4].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٠٥).
(٢) حسن: رواه ابن النجار عن علي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٩٠).
(٣) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٤٠).
(٤) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٤).

وبيّن الملك عز وجل أن الفلاح منوط بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون، عمَّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، وفيهم الجبار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحلّ الذي يكره الجدّ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم وفيهم، ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، ولا تُفلح الأمة، ولا تُفلح البشرية إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفًا، والمنكر منكرًا. والمعروف الأكبر هو الاعتراف بسلطان اللَّه ومنهجه للحياة، والعبودية له وحده. والمنكر الأكبر هو الشرك، ورفض ألوهية اللَّه، ورفض شريعته للحياة.

[٩] بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استقامة الحياة، وسبب للنجاة من العذاب:

* وقال تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [هود: ١١٦].

سُنّة من سنن اللَّه في الأمم؛ الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، فإن سنة اللَّه تحقّ عليها؛ إما باستئصال أو انحلال واختلال. فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهم يحُولون دون أممهم وغضب اللَّه واستحقاق النَّكال والضياع.

* وقال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

* وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

لا يبقون على منكرٍ وهم قادرون على تغييره، ولا يقعدون عن معروفٍ وهم قادرون على تحقيقه.

*** حين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

حينئذ تتحوَّل الحياة إلى مستنقعٍ آسن: حُكم بغير شرع اللَّه، اقتصاد يقوم على الرِّبا، مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمةً إلا في حالة الإكراه، ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة اللَّه، وخمور يباح تداولها، ولا يعاقب شاربها إلا على حالة السكر البين في الطريق العام، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد اللَّه، وشذوذ... وسبّ لدين اللَّه.

● عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: اللَّه اللَّه**»[1].

□ قال ابن كثير في أحد قوليه: معناه أن أحدًا لا يُنكر منكرًا، ولا يزجُر أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا، وعبّر عن ذلك بقوله: «حتى لا يقال: اللَّه اللَّه».

(١) رواه مسلم.

● وفي حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يأخذ اللَّه شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرون منكرًا**»[١].

وكما جاء في حديث البخاري، لما قيل للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُر الخبث**».

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذّب فيه الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين وينطق فيها... الرُّوَيْبِضَة**»[٢].

قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**السَّفيه يتكلم في أمر العامة**»[٣].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «من أشراط الساعة.. أن يعلو التُّحوتُ الوعول» أكذلك يا عبد اللَّه بن مسعود سمعته من حِبِّي؟ قال: نعم وربِ الكعبة. قلنا: وما التُّحوتُ؟ قال: «فسول الرجال، وأهل البيوت الغامضة، يرفعون فوق صالحيهم، والوُعُول: أهل البيوت الصالحة»[٤].

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد في مسنده (١١/ ١٨١ ـ ١٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
شريطته: أي: أهل الخير والدين، والأشراط من الأضداد يقع على الأشراف والأراذل والعجاجة والعجاج: الأراذل ومن لا خير فيهم.

(٢) الرويبضة: تصغير الرَّابِضة، وهو العاجز الذي رَبَض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، والتافه الخسيس الحقير.

(٣) **إسناده جيد**: رواه أحمد في «مسنده»، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/ ٣٧ ـ ٣٨): إسناده حسن ومتنه صحيح. وقال ابن كثير في «النهاية في الفتن والملاحم»: هذا إسناد جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه.

(٤) ذكره ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٥) من رواية الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، وقال الهيثمي: حديث أبي هريرة وحده في الصحيح بعضه، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة.

● قال ﷺ : «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب منه»(١) .

● وقال ﷺ : «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقابه»(٢) .

● وقال ﷺ : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه، إلا عمهم اللَّه تعالى منه بعقاب»(٣) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «مثل القائم على حدود اللَّه، والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا جميعًا»(٤) .

ووقوع الهلاك من جهتين:

الأولى: أن المعاصي التي تظهر ولا تُنكر سبب للمصائب والعقوبات.

والثانية: أن السكوت ذاته يعد معصية يستحق صاحبها العقوبة، كما أنه يدل على التهاون في دين اللَّه عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٧٣)، وجوّد إسناده الحافظ، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه أيضًا الأرناؤوط.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي بكر، ورواه الطحاوي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٧٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن جرير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٤٩).

(٤) رواه أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير.

هذا إذا كان الساكت عنه فردًا من أفراد المجتمع. أما حين تسكت الأمة بأسرها؛ فإن العقوبة تحل وتعمّ في هذه الحال.

* وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ الآية. [الأنفال: ٢٥].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أمر اللَّه المؤمنين أن لا يُقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب».

قال الحافظ: ولهذا الأثر شاهد من حديث عدي بن عميرة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه؛ فإذا فعلوا ذلك عذّب اللَّه الخاصة والعامة**»[١].

وعن جرير رضي الله عنه مرفوعًا: «**ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلاّ عمهم اللَّه بعقاب**»[٢].

قال ابن العربي: «وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها ما يعجّل اللَّه عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجّل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق»[٣].

---

(١) **سنده حسن**: قال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٣ ـ ٤): «أخرجه أحمد بسند حسن، وهو عند أبي داود حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدي. وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث رقم (٤٠٠٩)، (٢/ ١٣٢٩)، و«مشكل الآثار» (٢/ ٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٣٨) (٢/ ٣٦٨).

(٣) «عارضة الأحوذي» (٩/ ١٥)

● وعن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها قالت: «أنهلك وفينا الصالحون»؟ قال النبي ﷺ : «نعم إذا كثُر الخبث»[١] .

□ قال عمر بن عبد العزيز: كان يقال: «أن اللّه تعالى لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهارًا استحقوا كلهم العقوبة»[٢] .

□ وقال بلال بن سعد ـ رحمه اللّه ـ : «إن المعصية إذا خفيت لم تضرّ إلا صاحبها، وإذا أُعلنت فلم تغير ضرت العامة»[٣] .

[١٠] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موجب للرحمة، وتركهما يفضي إلى اللعنة:**

* قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١].

* وقال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

وطبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفًا مصطلحًا عليه، أو أن يُصبحا أمرًا سهلاً يجترئ عليه كل من يهمُّ به.

والقائمون بأمر اللّه ودينه، عليهم أن يؤدوا أمانتهم التي استُحفِظوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٩٨) «الفتح» (٦/ ٦١١).

(٢) «الموطأ» رقم (١٨٢٠) و«الزهد» لابن المبارك (١٣٥١).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (١٣٥٠)، و«الحلية» (٥/ ٢٢٢).

عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء، لا يخافون لومة لائم، سواءٌ جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم أو الأغنياء المتسلطين بالمال أو الأشرار المتسلطين بالأذى، أو الجماهير المتسلطة بالهوى، فمنهج اللَّه هو منهج اللَّه، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواءٌ.

والإسلام يشدِّد في الوفاء بهذه الأمانة، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر، إذا هي سكتت عليه، ويجعل الأمانة في عنق كل فردٍ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.

وفي الآية غاية التَّشدُّد، إذ علَّل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر.

* وقال تعالى: ﴿ **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٣].

وهذا صوت النذير لكل أهل دين.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**أكثر منافقي أمتي قُرَّاؤها**»[١].

● وقال ﷺ: «**غيرُ الدَّجال أخوف على أمتي من الدَّجّال، الأئمة المضلون**»[٢].

* وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ**

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر، والطبراني في «الكبير» وابن عدي عن عصمة بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٠٣)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٧٥٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٨٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٤١٦٥).

الظَّالمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وهذه صورة زرية بائسة، ومثل سيئ شائنٌ لكل الذين حملوا أمانة العلم والعقيدة، ثم لم يحملوها ويصدعوا بها.

□ يقول مصطفى صادق الرافعي في «وحي القلم» (٣/ ٥٨ ـ ٦٦) تحت عنوان «أمراء للبيع»: «إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه، لا بمعناها في نفسها، فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه، ولو نافق الدين، لبطل أن يكون دينًا، لو نافق العالم الديني، لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود والمنافق رجل مغطى في حياته لكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطّى، فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معني الظلمة، وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التَّبيين؛ فإذا نافق فقد كذب وغش وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النُّور، تحويه في نفسها، وتلقيه على غيرها، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معًا.

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء، وكلهم آخذٌ من نور واحدٍ لا يختلف؟!

أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلُّور يُظهر النور نفسه فيه، ويُظهر حقيقته البلورية، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب، يُظهر النور حقيقته الخشبية لا غير!

وعالم السوء يفكّر في كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأوَّل ويحتال، ويغير ويُبدِّل، ويُظهر ويُخفي، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب

الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كل حالةٍ؛ يسأله: ماذا تفعل؟ وماذا تقول؟

والرجل الديني لا تتحول أخلاقه، ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم، فهي بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا، الذي لو نطقت أفعاله لقالت للَّه بلسانه: هم يُعطوني الدراهم والدنانير، فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟!

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحًا في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعض، فهو زائف كله.

وأهل الحُكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء، يتعاملون مع قوَّة الهضم فيهم، فينزلون بذلك منزلة البهائم، تقدِّم أعمالها لتأخذ بطونها، والبطن الآكِل في العالم السّوء، يأكُل دين العالم فيما يأكله.

فإذا رأيت لعالم السوء وقارًا فهو البلادة، أو سكوتًا عن الظلم؛ فتلك رشوة يأكلون بها» اهـ.

* قال تعالى: ﴿**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة: ٦٣].

أخرج ابن جرير في تفسيره عن الضحاك أنه قال في هذه الآية: «ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أننا لا ننهى»[١].

◻ قال ابن جرير: «وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخًا للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها»[٢].

---

(١) إسناده صحيح.
(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٤٩) ـ طبع دار المعارف.

[١١] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنصر والتمكين :**

* قال تعالى : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج : ٤٠ - ٤١] . واللَّه ما استُجلب نصر بمثل الطاعة وأعلاها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

[١٢] **إقامة الملة والشريعة وحفظ الدين والعقيدة لتكون كلمة اللَّه هي العليا وإلا صار الدين غريباً :**

* قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

* قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾ [الحج : ٤٠] .

* قال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أُمِر بالشر ، ومن لم يزحف بمبادئه زُحِف إليه بكل مبدأ وفكرة وخواء روحي ، ومبادئ أرضية وأفكار متعفنة ، واختفت معالم الدين ، وتفشت المنكرات والكفر والظلم حتى يصبح المتمسك بدينه غريبًا بين الناس .

◻ قال الخلال : «أخبرني عمر بن صالح بطرسوس ، قال : قال لي أبو عبداللَّه ـ أحمد بن حنبل ـ : يا أبا حفص يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة ، ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع ، فقلت : يا أبا عبداللَّه ، وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟! فقال : يا أبا حفص صيّروا

أمر اللَّه فضولاً. وقال: المؤمن إذا رأى أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهي، يعني قالوا: هذا فضول. قال: والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه. فقالوا: نعم الرجل، وليس بينه وبين الفضول عمل»[١].

والدعوة إلى الإيمان باللَّه وتوحيده، ونبذ ما يخالفه في العقيدة والشريعة من شركيات وبدع وخرافات أعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[١٣] **بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ الضروريات الخمس:**

مجموع الضروريات خمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال.

ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم ونسلهم ومالهم.

وأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من ناحية الوجود، والعادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من ناحية الوجود، والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من ناحية الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل لكن بواسطة العادات، والجنايات راجعة إلى حفظ الجميع من جانب العدم.

والذي يجمعها من جانب الوجود: الأمر بالمعروف، ومن جانب العدم: النهي عن المنكر[٢].

[١٤] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم لتكفير السيئات:**

● قال ﷺ: **«فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفِّرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالعروف، والنهي عن المنكر»[٣].**

◻ قال سليمان: «قد كان يقول: الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف

---

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلاّل ص(٦٥).

(٢) «الموافقات» للشاطبي (٢/ ٨ ـ ٩).

(٣) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن حذيفة.

والنهي عن المنكر»[١] .

[١٥] وهو شكر لله على نعمه :

● عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «**يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»[٢] .

● عن أبي ذر ﷺ أن أناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ : يا رسول اللَّه ذهب أهل الدُّثور[٣] بالأجور، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «**أوليس قد جعل اللَّه لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا يا رسول اللَّه: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[٤] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الزكاة» ـ باب الصدقة تكفر الخطيئة حديث رقم (١٤٣٥)، وكذا رقم (٣٥٨٦)، (٧٠٩٦)، ومسلم في كتاب «الفتن وأشراط الساعة» ـ باب في الفتنة تموج كموج البحر حديث رقم (١٤٤) (٤/ ٢٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب صلاة المسافرين، باب: استحباب صلاة الضحى، والحث على المحافظة عليها حديث رقم (٧٢٠) (١/ ٤٩٩)، وفي كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم (١٠٠٦ ، ١٠٠٧)، وأخرج نحوه من حديث عائشة (٢/ ٦٩٨).

(٣) الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير.

(٤) رواه مسلم (١٠٠٦).

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنه خُلِقَ كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل. فمن كبَّر الله وحمد الله، وهلَّل الله، وسبَّح الله، واستغفر الله، وعزل حجرًا عن طريق الناس، أو شوكةً أو عظمًا عن طريق الناس، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السُّلامى[1] فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»[2].

● وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**»[3].

● عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**على كل مسلم صدقة**» قالوا يا رسول الله فإن لم يجد؟ قال: «**فيعملُ بيديه فينفعُ نفسه ويتصدق**» قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: «**فيعين ذا الحاجة الملهوف**» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فليأمر بالخير**» أو قال: «**بالمعروف**» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فليمسك عن الشر فإنه له صدقة**»[4].

[١٦] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم لإجابة الدعاء:

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**مروا بالمعروف، وانهوْا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يُستجاب لكم**»[5].

(١) السُّلامى: هو المفصل وجمعه سلاميات.
(٢) رواه مسلم (١٠٠٧).
(٣) حسن: رواه الترمذي في «سننه» (١٩٥٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال الأرناؤوط في تحقيق الأصول (٩/ ٥٦١): حديث حسن.
(٤) رواه البخاري، ومسلم.
(٥) حسن: رواه ابن ماجه في «سننه» (٤٠٠٤)، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن ابن =

● وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن اللَّه أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»[١].

[١٧] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من موجبات الجنة:**

● عن أبي كثير السُّحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذر قلت: دُلَّني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة؟ قال: سألت عن ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «**تؤمن باللَّه واليوم الآخر**» قلت: يا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم إن مع الإيمان عملاً؟ قال: «**يرضخ**[٢] **مما رزقه اللَّه**» قلت: يا رسول اللَّه، أرأيت إن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ به؟ قال: «**يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**» قال: قلت: يا رسول اللَّه، أرأيت إن كان عييًّا لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: «**يصنع لأخرق**» قلت: أرأيت إن كان أخرق أن يصنع شيئًا؟ قال: «**يعين مغلوبًا**». قلت: أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مغلوبًا؟ قال: «**ما تريد أن يكون في صاحبك من خير؟ يمسك عن أذى الناس**» فقلت: يا رسول اللَّه إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: «**ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذت بيده حتى تُدخله الجنة**»[٣].

● وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فقال: **يا نبي اللَّه**

= ماجه» (٢/ ٣٦٧).

(١) حسن: رواه الترمذي في «سننه» (٢١٦٩)، وقال: هذا حديث حسن، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٢)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٢٧).

(٢) يرضخ: أي يُعطي عطية قليلة.

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» واللفظ له، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٣٠) رواته ثقات، وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (١/ ٦٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

علمني عملاً يدخلني الجنة قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة[١] أعتق النسمة، وفك الرقبة». قال: أوليستا بواحد؟ قال: «لا، إن عتق النَّسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف[٢] والفيء على ذي الرحم[٣] الظالم؛ فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر؛ فإن لم تطق ذلك فكُفَّ لسانك إلا من الخير»[٤].

[١٨] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظهر عظيم للغيْرة وإجلال الله وتعظيم لحرماته ودليل حياة القلب:

لا أحد أغير من اللَّه، ولذا حرّم اللَّه الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعظيم لحرمات اللَّه.

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

* وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر يغضبون لمحارم اللَّه إذا استحلت، كما يغضب النمر إذا حَرِب.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمن يغار واللَّه أشد غيرًا»[٥].

---

(١) أعرضت المسألة: أي جئت بها عريضة أي: واسعة.

(٢) المنحة الوكوف: الغزيرة اللبن الكثيرة الدر.

(٣) الفيء على ذي الرحم: الرجوع عليهم بما رد اللَّه تعالى عليك من أموال.

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٩٩) واللفظ له، والبغوي في «شرح السنة» (٩/ ٣٥٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ١٥١)، ورجاله ثقات وسنده صحيح.

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وغيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه مِلاك الغيرة وأعلاها، كيف لا يأمر المسلم وينهى ويغار على شرع اللَّه المعطل المغيّب عن ديار المسلمين، والقرآن الذي عُطّلت أحكامه، والسنة التي انمحى نورها وقلّ اتباعها في زمن علا فيه شأن الذوق والمواجيد. كيف لا يغار وأعراض المسلمين تنتهك، وتغتصب الطاهرات حتى بعد موتهن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة حياة القلب وأن همه كله في اللَّه وحبه كله له، كلما عرض له من ربه أمرٌ ونهيٌ أحسّ من قلبه ناطقًا ينطق: «لبيك وسعديك، إني آمر بالمعروف وناه عن المنكر ولك المنة عليّ في ذلك والحمد فيه عائد إليك».

◘ قال أحد السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعوا اللَّه وأن لحمي قُرِض بالمقاريض.

◘ قال عبدالملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: «وددت أنى غلتْ بي وبك القدور في اللَّه تعالى».

[١٩] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شدٌّ لظهر المؤمن وإرغام لأنف المنافق والزنديق:

◘ قال الثوري ـ رحمه اللَّه ـ : «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»[1].

فإن المنافق يخنس ويشرق إذا اضمحلت المنكرات بنهي الصالحين عنها، فكيف إذا ألزم الاستقامة أمام الناس.

أمام المؤمن فإن سعادته لا تقدر ولا تُحد حينما ينتشر الخير فينشرح صدر الآمرين بالمعروف بترفع المجتمع عن الدنايا، وقرب الناس من ربهم،

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلاّل ص(٦٧).

ومحاسبتهم لأنفسهم على أصغر الزلات وترك الأمر بالمعروف يُجرّئ العصاة والفسّاق على أهل الإيمان فينالون منهم ويتطاولون عليهم بل ويسخرون منهم.

[٢٠] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نشر للعلم والسنة وذيوع للخير، وتركهما اندراس للعلم وظهور للجهل وتزيين للمعاصي:

فإن المنكر إذا ظهر ولم يوجد من ينكره نشأ عليه الصغير وألفه وظن أنه من الحق ويصير الواقع فتنة للعامة يصدَّق فيها الكاذب ويُكّذب فيها الصادق، ويؤتمن فيه الخائن ويُخوّن الأمين وينطق الرويبضة وهو السفيه الذي يتكلم في أمر العامة بل وفي دين اللَّه.

وضد ذلك أن يجلو أمر المنكر أمام الناس ويعرفه الصغير والكبير فينتشر العلم ويظهر نور السنة في المجتمع ودنيا الناس، وإذا كثر الفاعلون للخير تداعى الناس إلى فعله؛ لأن النفوس مجبولة على تشبه بعضها ببعض فالناس كأسراب القطا. وصاحب المنكر كالبعير الأجرب يختلط بالإبل فتجرب جميعًا، وأهل الفساد لا يرضون إلا بموافقة الناس لهم، ويكرهون من تنزه عن ذلك، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن المرأة الزانية تود أن النساء كلهن يزنين، ونقل ذلك عن السلف.

[٢١] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة لحجة اللَّه على خلقه:

□ كما قال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (١/ ١٧٦).

* قال تعالى: **﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٥].

[٢٢] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شهادة على الخلق:

□ قال الإمام مالك بن أنس: «ينبغي للناس أن يأمروا بطاعة اللَّه؛ فإن

عُصوا كانوا شهودًا على من عصاه»[1].

وبالمقام الشهادة من مرتبة تتضاءل دونها الرتب، واللَّه لو لم يكن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا هذه المنقبة لكفى.

[٢٣] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خروج من عهدة التكليف:

* وقال تعالى: ﴿**وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٥].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب يؤدَّى للَّه؛ لنبلغ إلى اللَّه عذرنا، ويعلم أن قد أدينا واجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية، فيثير فيها وجدان التقوى.

❑ قال ابن العربي في قصة أصحاب السبت: «فاستمروا على نهيهم لهم ولم يمنع من التمادى على الوعظ والنهي عدم قبولهم؛ لأنه فرْض قُبِل أو لم يُقبَل».

❑ وقال القاسمي: «دل قوله تعالى: ﴿**مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ**﴾ على أن المنكر لا يسقط ولو علم المنكِر عدم الفائدة فيه، إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان

---

(١) «الجامع» لابن أبي زيد القيرواني ص(١٥٦).

الدين والغيرة على حدود اللَّه والاعتذار إليه تعالى إذا شدّد في تركه لكفاه فائدة».

□ قال النووي: «قال العلماء ﷺ: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب فعله؛ فإن الذكرى تنفع المؤمن، وقد قدّمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال اللَّه عز وجل: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾».

والقول بالوجوب هو رواية عن الإمام أحمد وصححه أبو يعلى، وهو اختيار ابن تيمية، وعزاه ابن رجب إلى أكثر أهل العلم»[1].

□ وقال ابن تيمية: «لو فُرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة ـ مشابهة الكفار ـ لكان في العلم بها معرفة القبيح والإيمان بذلك؛ فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه اللَّه خير، وإن لم يعمل به، بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لا يقترن به علم؛ فإن الإنسان إذا عرف المعروف، وأنكر المنكر كان خيرًا من أن يكون ميت القلب لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

«ثم لو فُرض أنا علمنا أن الناس لا ينكرون المنكر، ولا يعترفون بأنه منكر، لم يكن ذلك مانعًا من إبلاغ الرسالة وبيان العلم؛ بل ذلك لا يُسقط وجوب الإبلاغ، ولا وجوب الأمر والنهي ـ في إحدى الروايتين عن أحمد ـ وقول كثير من أهل العلم»[2].

والقول الثاني: «القول بالاستحباب، وإنما يكون مستحبًا حيث لم يخش الضرر وهو رواية عن أحمد، واختاره الجصاص والشنقيطي في

(١) «انظر الآداب الشرعية» (١/ ١٥٨)، و«مختصر الفتاوى المصرية» ص(٥٨).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٤٨، ١٤٩).

أضواء البيان»[١] .

● عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما شبك النبي ﷺ أصابعه وقال: «**كيف أنت يا عبد اللّه بن عمرو إذا بقيت في حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فصاروا هكذا**» قال: فكيف أصنع يا رسول اللّه؟ قال: «**تأخذ ما تعرف وتدع ما تنكر وتُقبل على خاصتك وتدعهم وعوامهم**»[٢] .

● وفي لفظ آخر: بينما نحن جلوس عند رسول اللّه ﷺ إذ ذُكرت الفتنة فقال: «**إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا**» ـ وشبّك بين أصابعه ـ قال ابن عمرو: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني اللّه فداك؟ قال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودعْ ما تُنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»[٣] .

[٢٤] الشهادة بالإيمان لفاعله وجعله من أفضل أعمال المؤمنين:

● قال رسول اللّه ﷺ : «**أحب الأعمال إلى اللّه إيمان باللّه، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى اللّه الإشراك باللّه ثم قطيعة الرحم**»[٤] .

---

(١) «انظر الآداب الشرعية» (١/ ١٥٨)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢١٨)، و«أضواء البيان» (١/ ١٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» رقم (٦٥٠٨)، والبخاري تعليقًا في كتاب الصلاة ـ باب تشبيك الأصابع ـ حديث (٤٧٩)، «الفتح» (١/ ٥٦٥)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧٤٥، ٧٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢١٢)، وأبو داود في «الملاحم» باب الأمر والنهي حديث رقم (٤٣٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٢).

(٤) حسن: رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٦).

[٢٥] وصف تاركه والقاعد عنه بالظلم:

* قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

«أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات»[(١)] .

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

◘ قال الزمخشري: «ليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه»[(٢)] .

وذهب بعض المفسرين في تفسير هذه الآية إلى نكتة لطيفة هي أن الآية تقول: إن المؤمنين لن ينال منهم الضالون شيئًا إذا كانوا مهتدين. وإنما يكون الإنسان مهتديًا إذا لم يقتصر على إصلاح نفسه بل يسعى لإصلاح غيره. والذي يترك السعي لذلك فإنه جائر عن قصد السبيل مهما كان صالحًا متورعًا في نفسه. وإن ما ذهبوا إليه ليس نكتة دقيقة فحسب، بل هي تمثل روح الكتاب والسنة»[(٣)] .

● وعن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: يا أيها الناس! إنكم تقرءون

---

(١) «التفسير الكبير» (١٨/ ٧٥)، «فتح القدير» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٨٠).
(٢) «الكشاف» (١/ ٣٨٦).
(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسيد جلال الدين العمري ص(٢٨) ـ شركة الشعاع للنشر.

هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب**»[(١)] .

❑ وفي قصة أصحاب السبت قال الحافظ ابن كثير:

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق:

فرقة ارتكبت المحظور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من اللَّه؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿**مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ**﴾ قرأ بعضهم بالرفع[(٢)]، كأنه على تقدير هذه معذرة، وقرأ آخرون بالنصب[(٣)] أي: نفعل ذلك ﴿**مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ**﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ يقولون: ولعلّ بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى اللَّه تائبين؛ فإذا تابوا تاب اللَّه عليهم ورحمهم.

* قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة. ﴿**أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿**بِعَذَابٍ بَئِيسٍ**﴾ فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) وهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة والكسائي.

(٣) وهي قراءة عاصم.

كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

□ قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.. فلما وقع عليهم غضب اللَّه نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وأهلك اللَّه أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة.

□ وقال حماد بن زيد: عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا، وكساني حلة».

وساق ابن كثير رواية عكرمة التي ذكرها عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٤٠، ٢٤٢)، وابن جرير (١٣/ ١٥٢٧٢) ومنها قال ابن عباس: «فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت: أي جعلني اللَّه فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم، وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال: فأمر لي، فكُسيت ثوبين غليظين، وكذا روى مجاهد عنه.

□ ثم قال ابن كثير: القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحُرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان، ينظرون إليها في البحر؛ فإذا انقضى السبت ذهبت، فلم تُر حتى السبت المقبل؛ فإذا جاء السبت جاءت شُرّعًا، فمكثوا ما شاء اللَّه أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا فخزمه بأنفه، ثم ضرب له وتدًا في الساحل، وربطه وتركه في

الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا يُنكرون، ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففُعل علانية، قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

❑ قال ابن عباس: كانوا أثلاثًا: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنه تبيّن حالهم بعد ذلك، والله أعلم»[1]، وعلى أي حال فإن الأمة الثالثة قد سكت عنها النص، ربما تهوينًا لشأنها ـ وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ فاستحقت الإهمال، وإن لم تستحق العذاب.

❑ قال شيخ الإسلام ابن القيم: «ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأمور المحبوبة لله، وأكثر الديّنين لا يعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ولرسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله وكتابه ودينه؛ فهذه الواجبات لا يخطرْن ببالهم، فضلاً عن أن يريدوا فعلها، فضلاً عن أن يفعلوها.

وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلّ أن يُرى منهم من يحمّر وجهه ويتمعّر في الله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٨) ـ مكتبة أولاد الشيخ.

وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند اللَّه من هؤلاء.

◻ قال الشيخ حمد بن عتيق: «قد فتح الشيطان لكثير من الناس أبوابًا من الشر في إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألقاها على أُناس فيهم شبهة دين، حتى اعتقدوها أعذاراً لهم، وإنما هي من زخارف الشياطين، ولكن إذا تبين أن الزاني والسارق وشارب الخمر أحسن حالاً عند اللَّه من هؤلاء الجنس فهذا كافٍ من شناعة مذهبهم وسوء منقلبهم»[١].

◻ قال بعض السلف: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة المخلوقين نزعت منه الطاعة، فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفّ بحقه.

◻ قال جامع بن شدّاد: «كنت عند عبد الرحمن بن يزيد بفارس، فأتاه نعي الأسود بن يزيد، فأتيناه نعزيه. فقال: مات أخي الأسود. ثم قال: قال عبداللَّه: يذهب الصالحون أسلافًا ويبقى أصحاب الرِّيب. فقالوا: يا أبا عبدالرحمن، وما أصحاب الرِّيب؟! قال: «قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر»[٢].

[٢٦] **نفي الإيمان عمّن قعد عنه ولو بالقلب:**

● عن ابن مسعود مرفوعًا: «**ما من نبي بعثه اللَّه في أمة قبلي إلاَّ كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[٣].

---

(١) «مجموعة رسائل» الشيخ حمد بن عتيق ص(٣٧)، و«الدرر السنّية» (٧/ ٣٦ ـ ٣٩) في الأجوبة النجدية جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ٩٤) رقم ٧٥٨٤).

(٣) رواه أحمد ومسلم.

● وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[١]. لا رخصة لأحد في ترك الإنكار بالقلب.

□ قال ابن تيمية: وإنكار القلب: هو الإيمان بأن هذا منكر، وكراهته لذلك»[٢].

ومتى لا يعرف القلب المعروف ولا ينكر المنكر فهذا علامة موته:

● عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعًا: «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أَنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا، كالكوز مُجَخّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشرب من هواه**»[٣].

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وذلك أضعف الإيمان» مراده أنه لم يبق بعد هذا الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن، بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان ليس مراده أن من لم ينكر لم يكن معه من الإيمان حبة خردل، ولهذا قال: «**ليس وراء ذلك**» فجعل المؤمنين ثلاث طبقات، فكل منهم فعل الإيمان الذي يجب عليه..»[٤].

□ قال القرافي: «ما معنى قوله ـ عليه السلام ـ وذلك أضعف الإيمان؟ جوابه: المراد بالإيمان هنا الإيمان الفعلي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي، والترمذي وأبو داود وابن ماجه.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/١٤٨).

(٣) أخرجه في «صحيحه» كتاب الإيمان ـ باب أن الإسلام بدأ غريبًا حديث رقم (١٤٤) (١/١٢٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١٢٧).

كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم لبيت المقدس، والصلاة فعل.

وأقوى الإيمان الفعلي إزالة اليد، ثم القول لأنه قد لا تقع معه الإزالة، وقد تقع، والإنكار القلبي لا يورّث إزالة البتة»[1].

اعلم أن كثيرًا من الناس يظنون أنه ما دام كارهًا للمنكر فلا بأس عليه بمخالطة فاعله أو الجلوس معه حاله مواقعته للمنكر، أو البقاء في مكان فيه منكر، وهذا مخالف للشرع.

* قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وهذا نهي صريح عن مجالستهم حال مواقعتهم لهذا المنكر، فما دام لا يقدر على الإنكار باليد أو اللسان فلا بد إذًا من مفارقته للمنكر ـ هذا هو الصحيح»[2].

❑ قال الإمام القرطبي: «فدلّ بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم والرضا بالكفر كفر، قال اللَّه عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها؛ فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية، وإذا ثبت تجنب أهل المعاصي فتجنب أهل البدع والأهواء أولى»[3].

---

(١) انظر «الفروق» للقرافي (٤/ ٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٩).

(٣) القرطبي (٥/ ٤١٨).

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «أي إن قعدتم معهم في الحال المذكور ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

والحاصل أن من حضر مجلسًا يعصى اللَّه به فإنه يتعيّن عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها»(١).

● عن عُرْس بن عميرة الكندي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض كان من شهدها وكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»**(٢).

● وعن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا: **«ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرِف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع»**(٣).

[٢٧] **الثواب العظيم للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر:**

● قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: **«إن من أمتي قومًا يُعطَون مثل أجور أولهم، يُنكرون المنكر»**(٤).

● وقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: **«إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف**

---

(١) «تفسير السعدي» (٢/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) حسن: رواه أبو داود في «سننه» ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي حديث رقم (٤٣٢٣)، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٨٩)، والأرناؤوط في «جامع الأصول» (١/ ٣٣٣) رقم (١١٥).

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب وجوب الإنكار على الأمراء مما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا حديث رقم (١٨٥٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن رجل، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٢٢٤).

في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة»(١) .

● وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والله لأن يُهدى بهداك واحد، خيرٌ لك من حمر النَّعَم**»(٢) .

● وعن أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم**»، قال ابن المبارك وزادني غير عتبة: قيل يا رسول الله: أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين منكم**»(٣) .

● وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو في قبة من أدم حمراء في نحو أربعين رجلاً. فقال: «**إنه مفتوح لكم، وأنتم منصورون مصيبون، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، وليصل رحمه، ومثل الذي يعين قومه على غير الحق كمثل البعير يتردَّى**

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن سلمان وقبيصة وابن عباس، ورواه أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٣١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠٩٤).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠٠٥)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» ص(٩) من حديث عتبة بن غزوان، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٤٨)، وقال محققه: للحديث شواهد يتقوّى بها.

فهو يمد بذنبه»[١].

☐ وهذي بعض أحاديث أُخر نلحقها هنا:

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**» فقالوا: مالنا بُدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «**فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها**». قالوا: ما حق الطريق؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأذى وردُّ السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر**»[٢].

● وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومَن يُوق بطانة السوء فقد وُقِيَ**»[٣].

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم اللَّه تعالى**»[٤].

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قام خطيبًا فكان فيما قال: «**ألا لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه**»[٥].

● وعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا:

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٩)، والترمذي (٢٢٥٧)، وقال: حسن صحيح والحاكم في «المستدرك» واللفظ له (٤/ ١٥٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقرّه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٥)، «الفتح» (٥/ ١١٢)، ومسلم (٢١٢١) (٣/ ١٦٧٥)، (١٧٠٤).

(٣) رواه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذي واللفظ له (٢٣٦٩)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٤) رواه البخاري حديث رقم (٧١٩٨).

(٥) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٠٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٣٧) وفي «الصحيحة» (١٦٨).

لمن؟ قال: «للَّه، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[١].

● وعن جرير البجلي رضي الله عنه قال: «بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[٢].

● وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في اللَّه لومة لائم»[٣].

*** أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر:**

● قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**أحب الجهاد إلى اللَّه كلمة حق تُقال لإمام جائر**»[٤].

● وقال صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) رواه البخاري (١, ١٤) واللفظ له، ومسلم (٥٦).

(٣) رواه البخاري (٧١٩٩، ٧٢٠٠)، ومسلم (١٧٠٩) (٣/ ١٤٧٠).

(٤) **حسن**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٨).

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢/ ٢٦)، وابن ماجه (٤٠١١)، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، والحاكم (٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦)، والحميدي في «مسنده» (٧٥٢)، وأحمد (٣/ ١٩، ٦١) عن أبي سعيد الخدري. ورواه ابن ماجه (٤٠١٢)، وأحمد (٥/ ٢٥١، ٢٥٦)، والروياني في «مسنده» (٣٠/ ٢١٥/ ٢)، وابن عدي (٢/ ١١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٣٨/ ١) عن أبي أمامة.
ورواه النسائي (٢/ ١٨٧)، وأحمد (٤/ ٣١٥)، والبيهقي والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (ق ٢١/ ٢) عن طارق بن شهاب وصححه النووي والمنذري، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٩١). و«صحيح الجامع» رقم (١١٠٠).

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[(١)].

● وقال ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاهُ، فقتله»[(٢)].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه في ذات اللَّه فقتله على ذلك»[(٣)].

* ضوابط في أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر:

هناك ضوابط في أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر:

أولاً: بالنسبة للحاكم المسلم:

(١) «لا يجوز بحال إنكار منكر الإمام المسلم بالسيف، وإنما يُكتفَى بإنكار منكره بالقلب، واللسان؛ وذلك أن الضرر الواقع على جمهور المسلمين من الخروج عليه أشد من انحراف الحاكم وظلمه؛ فإن السيف إذا وقع بين الأمة وقعت بسببه مفاسد كثيرة، فالإمام لا بد أن ينحاز له كثيرون معه وخاصة إذا كانت الشوكة بيده، كالسلاح والجيوش، وهؤلاء حتمًا سيتعصبون له، ومن ذا يستطيع أن يصل إلى الإمام دون أن يقع القتل في مسلمين كثيرين يتترس بهم الإمام؟»[(٤)]. هذا مذهب أهل السنة والجماعة

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٤٩١)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٢٠٩).

(٢) حسن: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٥)، وقال: صحيح الإسناد، والضياء عن جابر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٣٧٤).

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك»، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) من كتاب «فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى اللَّه» للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ص(١١٧).

خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين أوجبوا إنكار منكر الإمام بكل صورة من صور الإنكار: اليد واللسان، والقلب.

● عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من كره من أميره شيئًا فليصبر؛ فإنه من خرج من السلطان شبرًا فمات مات ميتة جاهلية**»[١] .

□ قال في «الفتح» (٧/١٣): قال ابن بطال: «في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن للدماء، وتسكين الدهماء».

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت الصادق المصدوق يقول: «**هَلَكَةُ أمتي على يد غلمة من قريش**»، فقال مروان: لعنة اللَّه عليهم غلمة، فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت»[٢] .

□ قال في الفتح (١١/١٣): «وفي الحديث أيضًا حجة لما تقدم من ترك القيام على السلطان ولو جار؛ لأنه ﷺ أعلم أبا هريرة بأسماء هؤلاء، وأسماء آبائهم، ولم يأمرهم بالخروج عليهم مع إخباره بأن هلاك الأمة على أيديهم لكون الخروج أشد في الهلاك، وأقرب في الاستئصال من طاعتهم، فاختار أخف المفسدتين، وأيسر الأمرين».

● وفي حديث أم سلمة عند مسلم عن النبي ﷺ قال: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون، وتُنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع**» قالوا: يا رسول اللَّه أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ : «**لا، ما صلوا**».

---

(١) رواه البخاري (٥/١٣) برقم (٧٠٥٣).

(٢) رواه البخاري (٩/١٣) برقم (٧٠٥٨).

● وعند مسلم عن عوف بن مالك ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم ويُصلون عليكم، وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»، قيل: يا رسول اللَّه أفلا ننابذهم بالسيوف؟ فقال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة**»[١] .

وإقامة الصلاة بالنسبة إلى الحاكم تعني شهود صلاة الجماعة في المساجد، والدعوة إليها، وإقامة الحدود المتعلقة بها.

وحديث مسلم السابق نص ظاهر واضح في أن الإمام وإن استحق اللعن من المسلمين وكان بغيضًا إليهم، مبغضًا لهم، لا يجوز الخروج عليه بالسيف ما أقام الصلاة.

□ وقال أهل السنة والجماعة، والسلف قاطبة: إنه لا يجوز الخروج على الإمام الذي ما زال يصلي إلا أن يكفُر كفرًا بواحًا، والبواح هو العلانية الشائع أي: يُعلن ذلك، ولا يكون مُسرًّا به لأهل خاصته مثلاً.

واستندوا في ذلك إلى حديث جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، فقلنا: حدثنا ـ أصلحك اللَّه ـ بحديث ينفع اللَّه به، سمعته من رسول اللَّه ﷺ فقال: دعانا رسول اللَّه ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشَطِنا ومكْرهـنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من اللَّه فيه برهان**»[٢] .

وهذا نص ظاهر في عدم جواز منازعة الإمام الأمر إلا أن يعلن الكفر علانية، وقوله: «**عندكم من اللَّه فيه برهان**» أي: نص آية، أو خبر صحيح لا

(١) مسلم كتاب الإمارة ـ باب: خيار الأئمة وشرارهم.
(٢) رواه البخاري (١٣/ ٥) برقم (٧٠٥٦).

يحتمل التأويل، ومقتضاه: لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل.

◻ قال أبو جعفر الطحاوي: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف».

◻ وقال - رحمه اللَّه -: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى أن طاعتهم من طاعة اللَّه - عز وجل - فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»(١) .

◻ قال النووي - رحمه اللَّه - «أجمع أهل السنة أن لا ينعزل السلطان بفسق، وسبب عدم انعزاله، وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه»(٢) .

«وأما استدلال الخوارج والمعتزلة بقول عمر رضي الله عنه : «وإذا أسأت فقوّموني» فقال له رجل: «لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناك بسيوفنا». في وجوب الخروج على الإمام المسلم بالسيف إذا انحرف أو ظلم في نظرهم عما يعتقدونه، ففيه نظر، وذلك لأن عمر رضي الله عنه قال: «قوّموني» ولم يقل: «قوّموني بالسيف»، كما أن قول الرجل في رده على عمر رضي الله عنه تطاول منه على أمير المؤمنين، ولم يشأ عمر رضي الله عنه أن يردّ عليه، وهو في مقام الإمام، وفي خطبته الأولى حتى لا يُتّهم بالدفاع عن نفسه، وإلا فهذا الأمر أشبه بين السلف مما هو معلوم من الدين بالضرورة»(٣) . وهذا إن صحت الرواية.

(١) «شرح الطحاوية» ص(٤٢٨).
(٢) «صحيح مسلم» بشرح النووي (١٢/ ٢٢٩).
(٣) انظر إلى كتاب «فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى اللَّه» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص(١١٦).

❑ وكذا لا يجوز إقامة المظاهرات والاعتصامات والإضرابات وأعمال الشغب وما شابهها والتي لم يجر عليها عمل السلف الصالح ويترتب عليها ضياع الأمن وإثارة الفتن.

«ولنعلم أن كلمة الحق أقوى من ظلم أي سلطان مهما كان، وصبر أهل الحق على حقهم وتعرضهم للأذى في سبيله، وانتظارهم لفرج اللّٰه ورحمته عوامل رئيسية لانكسار الباطل، واندحاره مهما كان.

كما أن افتراض الشر دائمًا بالسلاطين من اتباع الظن، ومن الحكم على القلوب التي لا يطلع عليها إلا اللّٰه تعالى، ونحن نعتقد أن القلوب بيد اللّٰه يصرّفها كيف يشاء»[١] .

(٢) على المأموم والمحكوم أن يطيع الحاكم المسلم في طاعة اللّٰه، ويعصيه في معصية اللّٰه؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

● قال ﷺ : «**لا طاعة في معصية اللّٰه، إنما الطاعة في المعروف**»[٢] .

* نصح الحاكم المسلم سرًا من غير تشهير مستحب :

ويستحب نصيحة الحاكم المسلم سرًا من غير تشهير، ولا تعيير لحديث عياض بن غنم قال: قال رسول اللّٰه ﷺ : «**من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبده علانية، ولكنْ ليأخذ بيده، فيخلو به؛ فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدّى الذي عليه**»[٣] .

● وعن أبي وائل شقيق قال: قيل لأسامة بن زيد: ألا تدخل على

(١) المصدر السابق ص(١١٨).
(٢) «صحيح مسلم» كتاب الإمارة حديث رقم (١٢٢٥).
(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦)، (١٠٩٧)، و(١٠٩٨) (٢/ ٥٢١)، والحاكم (٣/ ٢٩٠).

عثمان فتُكَلِّمه؟ فقال: أترون أني لا أكلمه إلاّ أُسمعكم؟ واللّه لقد كلمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من فتحه»، وفي لفظ للبخاري: «إنكم لترون أني لا أكلمه! إلا أُسمعكم؟! إني أكلمه في السر»[١] .

□ قال ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٧): فقال أسامة قد كلمته سرًّا دون أن أفتح بابًا، أي: باب الإنكار على الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة. ثم عرّفهم أنه لا يداهن أحدًا ولو كان أميرًا بل ينصح له في السر جهده».

□ وقال عياض: مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لما يخشى من عاقبة ذلك، بل يتلطف به وينصحه سرًّا، فذلك أجدر بالقبول.

□ قال النووي: «وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سرًّا وتبليغهم ما يقوله الناس فيهم لينكفوا عنه»، «ويأخذوا حذرهم بلطف وحسن تأدية بحيث يبلغ المقصود من غير أذية للغير»[٢] .

● وأخرج أحمد بسنده عن سعيد بن جمهان قال: أتيت عبد اللّه بن أبي أوفى وهو محجوب البصر فسلمت عليه، قلت: فإن السلطان يظلم الناس ويفعل بهم، قال: فتناول يدي فغمزها بيده غمزة شديدة، ثم قال: ويحك يا ابن جمهان عليك بالسواد الأعظم، عليك بالسواد الأعظم، إن كان

---

(١) رواه البخاري في كتاب «بدء الخلق» باب: صفة النار وأنها مخلوقة حديث رقم (٣٢٦٧)، «الفتح» (٦/ ٣٣١)، وفي كتاب «الفتن» باب الفتنة التي تموج كموج البحر «الفتح» (١٣/ ٥٢) رقم (٧٠٩٨)، ومسلم في كتاب «الزهد» باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله حديث رقم (٥١) (٤/ ٢٢٩٠).

(٢) انظر «الفتح» (١٣/ ٥٧).

السلطان يسمع منك فأته في بيته فأخبره بما تعلم؛ فإن قبل منك وإلا فدعه فإنك لست بأعلم منه»[١] .

◻ وقد كان الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ لا يُحدِّث بالأحاديث التي توهم بجواز الخروج على الأئمة.

◻ قال ابن القيم: «ومن دقيق الفطنة: أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ، فتحمله رُتبته على نُصرة الخطأ، وذلك خطأ ثانٍ، ولكن تلطف في إعلامه به بحيث لا يشعر به غيره»[٢] .

◻ وقال الإمام الشوكاني ـ رحمه اللَّه ـ: «ولكن ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يُظهر الشناعة عليه على رءوس الأشهاد، بل كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده، ويخلو به، ويبذل له النصيحة، ولا يذل سلطان اللَّه؛ وأنه لا يجوز الخروج على الأئمة ـ وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ـ ما أقاموا الصلاة، ولم يظهر منهم الكفر البواح»[٣] .

*** وقفة هامة جدًّا:**

◻ القول باستحباب نصح الإمام المسلم سرًّا لا يمنع من الإنكار عليه علانية على الصحيح إن احتمل المقام ذلك وكانت المصلحة تقتضيه؛ لا سيما إذا صدر المنكر منه علانية، فالأمر دائر مع المصلحة وهذا هو الوسط في هذه المسألة، كما أن في هذا القول جمعًا لأدلة هذا الباب والآثار الواردة فيه.

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٤/٣٨٢ ـ ٣٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/٥٢٣)، وحسّنه الألباني في «السنة».

(٢) «الطرق الحكيمة» لابن قيم الجوزية ص(٥٤)..

(٣) «السيل الجرار» للشوكاني (٤/٥٥٦).

□ قال النووي عند كلامه على حديث أسامة بن زيد السابق: «وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سرًّا وتبليغهم ما يقوله الناس فيهم لينكفوا عنه.

وهذا كله إذا أمكن ذلك؛ فإن لم يمكن الوعظ سرًّا والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق»[1] اهـ.

فإذا احتجب الولاة عن رعيتهم، وحالت دونهم الستور والأبواب والحراس بحيث تكون عنقاء مغرب أقرب ملايين المرات للناس من هؤلاء الذين يصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : **«من ولى من أمور المسلمين شيئًا، فاحتجب دون خلّتهم وحاجتهم، وفقرهم وفاقتهم، احتجب الله عنه يوم القيامة، دون خلّته، وحاجته، وفاقته وفقره»**[2] .

إذا قامت السدود بين الراعي والرعية بحيث أن الوصول إلى الحاكم صار ضربًا من المحال، وصار المنكر عامًّا هل يظل النصح سرًّا؟!!!

إن المنكر إذا كان عامًّا فإن النهي عنه يكون عامًّا، ففتوى الإمام مالك المتعلقة بطلاق المكره كانت عامة كذا، وموقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كان جهادًا وعلانية، ومن قبله موقف الإمام سفيان الثوري، وإنكار سلطان العلماء العز بن عبد السلام على السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارى ضد سلطان مصر كانت عامة، وفي خطبة جمعة في المسجد الأموي بدمشق، ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان على مرأى ومسمع من وفد علماء دمشق الذين كانوا يرافقون ابن تيمية، وأمام

---

(١) النووي على مسلم (٩/ جزء ١٨/ ١١٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود وابن ماجه، والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الحاكم، وقال: هذا إسناد شامي صحيح، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: هو كما قالا، انظر «صحيح الجامع» (٩٤٧١)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٦٢٩).

كبار قادة جيش قازان، ثم طارت أخبار هذا اللقاء فسمع بها الخواقين والأمراء الذين أحاطوا بهذا العالم الجليل عند عودته إلى دمشق يتبرّكون به، ويسألونه الدعاء لهم، ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلى سلاطين عصره كانت عامة؛ لأن عددًا من كبار العلماء الذين كانوا يوقّعون عليها من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الرسائل تتعلق بقضايا عموم الناس، وسنفصل بعد قليل سير العلماء الربانيين وجهرهم وصدعهم بالحق أمام الأمراء والسلاطين.

وأما الولاة الذين لا يحكمون بالشرع ويحاربون الإسلام وأهله؛ فإن لكل حالة لبوسًا ولكن ترك الخروج المسلح حتى لا تراق دماء المسلمين الأبرياء فيه الخير كل الخير، والصبر على الأذى هو طريق النبيين والمرسلين ويكفي قول النبي ﷺ لخباب وقد لاقى ما لاقى هو والصحابة: «**ولكنكم تستعجلون**» فلينظر إلى فتاوى العلماء الربانيين الصادقين ولا يندفع الناس بعواطفهم إلى تيه مظلم وفتن تعجز عن حملها الجبال، وكم مدينة فُتِحت بالسيف والسنان، وكم من مدينة فُتحت بالعلم والقرآن الرواس.

❑ قال الشيخ رشيد رضا: «ومن المسائل المجمع عليها قولاً واعتقادًا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. وأن إباحة المجمع على تحريمه: كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به اللَّه كفر وردة»[1].

❑ وما يقول العلماء فيمن سن القوانين التي تجعل البنوك الربوية لا يكاد يخلو منها حي أو قرية، وفي هذه المؤسسات التشريعية والقضائية التي لا يُسمح فيها لمن يشاء من القضاة أن يساوي بين شريعة اللَّه، والشريعة التي سنّها زعيم الدولة فضلاً عن تفضيله لشريعة اللَّه، وهذه المصانع والمحلات التي تبيع الخمور، ليست المشكلة هنا فيمن يرابي أو يشرب الخمر أو يشاهد

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٦).

مناظر العرايا من النساء والرجال؛ ولكن المشكلة فيمن سن القوانين التي تبيح هذه المنكرات.

لقد كثر النفاق والتزلف من قبل أناس يتسربلون بسربال العلم والمعرفة، ويتدثرون بدثار التقوى والورع:

- فمنهم من أباح المعاملات الربوية، وشن حملات ظالمة ضد البنوك الإسلامية.

- ومنهم من زعم أن أحكام الشريعة الإسلامية مطبقة في مصر؛ لأن القانون المدني مستمد من أحكام الشريعة، وهو أول من يعلم بأنه يكذب في هذا الادعاء.

- ومنهم من زعم أن أهل الجنة يعيشون حالة من الفرح ليس لها مثيل من قبل؛ لأنهم يستعدون لاستقبال أحد أبناء الطغاة الذي أهلكه اللَّه سبحانه وتعالى، والولد سرّ أبيه.

- ومنهم من سمعته أذناي، كما سمعه مثلي مئات المصلّين الذين كانوا يصغون إليه وهو يخطب الجمعة، وينسب إلى رسول اللَّه ﷺ في حديث حبكه قوله: «ثم يأتي جمال الدين فينتصر كما انتصر صلاح الدين» يريد من وراء هذا الكذب على رسول اللَّه ﷺ والتزلف إلى نظام جمال عبد الناصر إبان حكمه وطغيانه»[1].

❑ وإن تعجب فاعجب للشيخ الباقوري الذي كان يُحلِّق في غير سربه، ينضم إلى الجوقة التي صفّقت لأنور، وقال في كلمته التي ألقاها في مؤتمر نظّمته الحكومة لتأييد أنور والتنديد بمعارضيه، وكان مما قال فيه: «إن السلطان هو ظل اللَّه في الأرض.. وظل اللَّه في الأرض له حرمة ومهابة، فلا يجوز

---

(١) «العلماء وأمانة الكلمة» لمحمد سرور بن نايف ص(١٧) دار الجابية ودار الأرقم.

المساس بالسلطان أو الإساءة إليه بكلمة حتى أن الفقهاء قالوا: إذا كان السلطان يركب بغلة، وذيل بغلة السلطان مقطوع، فلا يجوز التهكم على ذيل بغلة السلطان.. فكيف بالتهكم على السلطان»[1] .

وهذا الدفاع عن السلطان وذيل بغلته جاء بعد زيارة السادات لإسرائيل وتوقيع معاهدة الذل والعار، وكان من المنتظر أن يقول الشيخ في هذه المناسبة كلمة يتقرّب بها من ربه، ولا سيما أنه قد بلغ من الكبر عتيًا.

* قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٩].

❑ قال الطبري: «وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاصّ من الناس؛ فإنها معنىٌّ بها كل كاتم علمًا فرض اللَّه بيانه للناس، وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**من سُئِل عن علم فكتمه، أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار**»[2] .

❑ قال الشيخ رشيد رضا: «إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصًّا، فكل من يكتم آيات اللَّه وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة، ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمهم، حاولوا التقصّي منه، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سئل العالم عن حكم اللَّه تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما

---

(٢) مجلة المجتمع العدد (٤٧٦) تاريخ ٩/ ٥/ ١٤٠٠هـ عن الصحف المصرية الصادرة في هذا التاريخ.

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ٢٥٢) دار المعارف قال الشيخ أحمد شاكر: هذا حديث صحيح رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، وخرّجناه في شرح المسند، وفي صحيح ابن حبان.

أنزل اللَّه تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم؛ وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سُئِل عما يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلاّ كان له أن يحيل على غيره.

وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين إلى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردّها أهل العلم الصحيح، فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هذا للناس، وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصّروا فيها من قبل، ثم قال: «ما ورد عن تدافع علماء السلف في الفتوى فإنما هو في الوقائع العملية الاجتهادية، التي تعرض للناس، لا في الدعوة إلى مقاصد الدين الثابتة بالنصوص وسياجها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(1) .

إن هؤلاء كتموا ما أوجب اللَّه عليهم بيانه والصدع به، وسكتوا عن بيان قواعد الدين وإسقاطها على الواقع خوفًا من السلطان، واللَّه جل وعلا أحق بالخوف والخشية من أعتى سلاطين الأرض وهذه واللَّه هي الفتنة؟!!

كان العلماء الربانيون يقولون والخطر محدق بهم من كل جانب: «إذا أجاب العالم تُقية والجاهل يجهل متى يتبيّن الحق؟» وهذا يعني أن بعضهم كان يفضّل الموت على التقية.

كانوا يعتقدون وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها عملاً بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ ويؤمنون بحرمة السكوت عن بيان الأحكام، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بليّ أعناق النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه كما يفعل البعض في أيامنا هذه.

ولقد كانوا ينأون بأنفسهم عن مجالسة السلاطين والتزلف لهم وقبول

---

(1) «تفسير المنار» (2/ 51).

وظائفهم وأعطياتهم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بعدًا**»(١).

□ ورحم الله الإمام سفيان الثوري الذي قال: «ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم»(٢).

ولما احتج قوم على أبي حامد الغزالي ـ لما أفتى بعدم جواز أخذ أعطيات الظالمين ـ وقالوا: إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يأخذون أُعطيات وجوائز الظالمين فقال ـ رحمه الله ـ: «إن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء والراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوّقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبول عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرّقون ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يُكثّرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم، ولم يكن يأخذهم بأس؛ فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمّل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية، والإطراء في حضورهم ومغيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد بالخدمة

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٧١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٢٦٧) رقم (١٢٧٢).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي ص(١٢٢) ـ دار الفكر.

ثانيًا، وبالثناء والدعاء ثالثًا، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعًا، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسًا، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة على أعدائه سادسًا، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعًا، لم يُنعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ مثلاً؛ فإذًا لا يجوز أن يُؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبّه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحّدادين»[1] .

● «إن غشيان العلماء لمجالس الأئمة العدول بقصد تذكيرهم بالقيامة والمعاد، وتحذيرهم من الركون إلى الدنيا وتبليغهم بمظالم الرعية التي لم تبلغهم واجب شرعي لقوله ﷺ : **«الدين النصيحة»**، قلنا: لمن؟ قال: **«للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**[2] .

بل هو النصح وهو أصل عظيم من أصول الإسلام، قال جرير بن عبداللَّه: «بايعت النبي ﷺ على النصح لكل مسلم»[3] .

● عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : **«سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد عليَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يُصدِّقهم بكذبهم، فهو مني، وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض»**[4] .

❑ قال أبو سليمان الخطابي: «ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ١٣٩).
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان.
(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان.
(٤) **صحيح الإسناد**: رواه أحمد عن ابن عمر، والترمذي، وقال أحمد شاكر: صحيح الإسناد، «المسند» (٨/ ٦٢).

فلا يصدقهم على كذبهم، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم؟ إن أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تقلّ عن مخالطتهم وغشيان أبوابهم»[٥] .

□ ولله در القائل عن صون العلماء الربانيين لأنفسهم عن الركون إلى الظالمين أو التزلف لهم وإهانة العلم الذي يحملونه وهو ميراث الأنبياء:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجُلاً عن موقف الذّل أحجما

أرى الناسَ من داناهُمُ هان عندهُمْ ... ومَن أكرمَتْــهُ عِزّةُ النفس أُكرِما

وما كلُّ بْرقٍ لاح لي يستفزُّني ... ولا كلُّ من لاقيتُ أرضــاهُ مُنعما

وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أبتْ ... أُقلّب كَفّى إثْــرهُ مُتَنــدِّمــا

ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كُلّما ... بَدا طمعٌ صيّرتُــه لي سُـلَّما

إذا قيل هذا مَنْهَلٌ قلتُ قد أرى ... ولكنّ نفس الحــرِّ تحتملُ الظَّــمَا

ولم أبتذل في خدمةِ العلم مُهجتي ... لأخــدُمَ منْ لاقيتُ لكنْ لأُخدما

أأشقى به غَرْسًا وأجنيه ذلَّةً ... إذًا فاتباع الجهــلِ قد كان أحزما

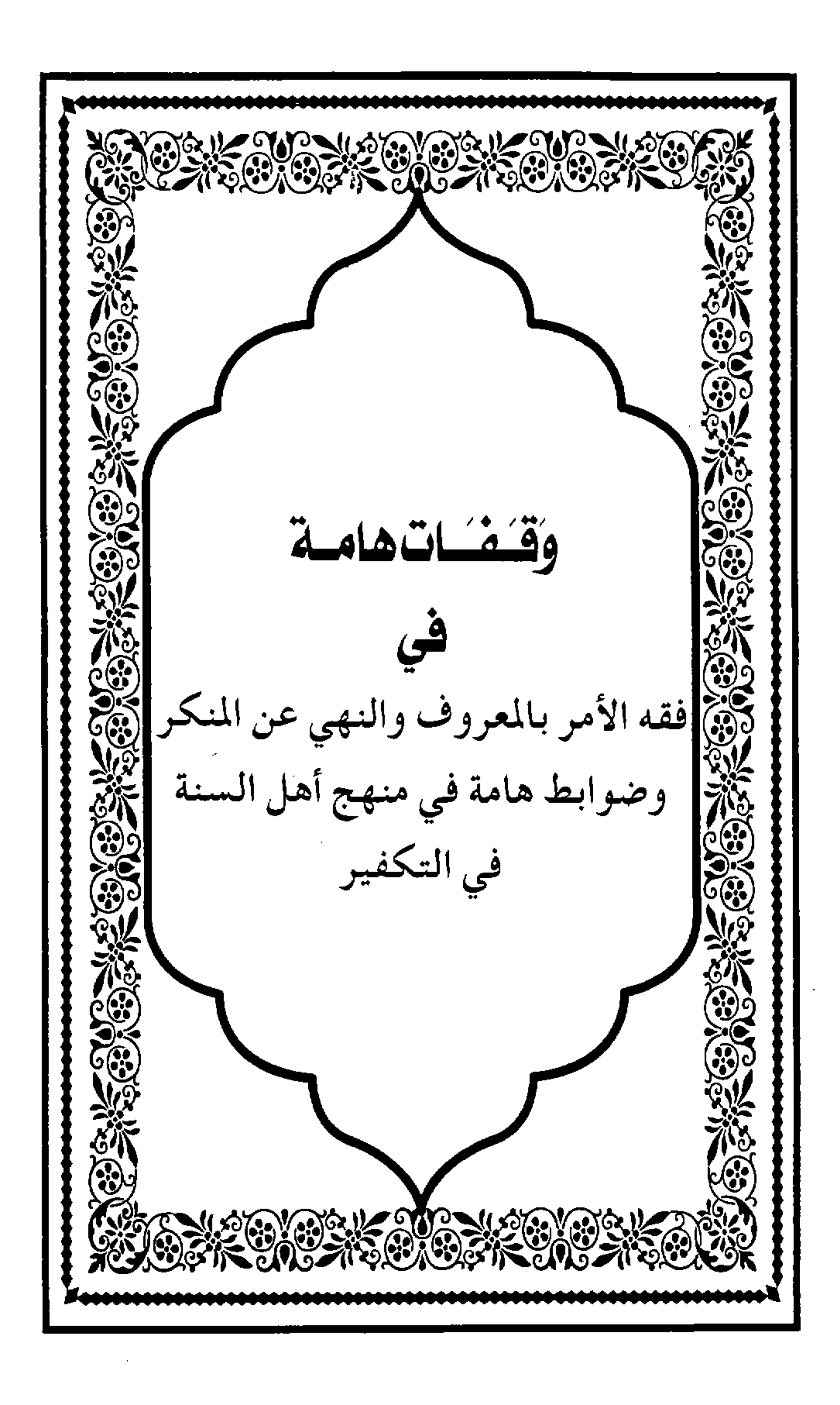
ولو أنَّ أهــلَ العلمِ صانوه صانهمْ ... ولو عظّموه في النفوس لعُظِّما

ولكنْ أهــانوه فهــان ودنّســوا ... مُحَيّاه بالأطمــاع حتى تجهّما[١]

* * *

(١) «العزلة والخلطة».

(٢) للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٤٦٠).



وَقَفَاتٌ هامة
في
فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وضوابط هامة في منهج أهل السنة
في التكفير

المعروف الأكبر والمنكر الأكبر

◻ قال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن أخصّ أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام»[1] .

وأس الدعوة إلى الإسلام ومبتدأ دعوة الرسل هي العقيدة. . القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات. . العقيدة حتى تستقر استقرارًا مكينًا ثابتًا. . القضية التي تصدى لها القرآن المكي ثلاثة عشر عامًا كاملة لم يتجاوزها إلى غيرها مثلما دعا إليها نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عامًا. .

المعروف الأكبر هو التوحيد والتسليم ودينونة الناس لمولاهم ولألوهيته وسلطانه ومنهجه وحكمه وأمره وعبوديتهم له والمنكر الأكبر الشرك وهو رفض ألوهية اللَّه ورفض شريعته وأمره ونهيه والجرأة على اللَّه وادعاء خصائص الألوهية. هذا هو المنكر الكبير الجذري الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار، فكل المنكرات بعد ذلك فرع عنه وعرض.

هذه هي الأمانة الكبرى: الدعوة إلى العبودية للَّه وحدهَ والتسليم لأمره وشرعه، ونبذ كل عبودية لسواه. . تفرد اللَّه سبحانه بالألوهية، والحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال، حتى يكون الناس أمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة اللَّه ينفذونها، وعلى عدل اللَّه يقيمونه دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم؛ إنما يكون السلطان الذي في أيديهم للَّه ولدينه وشريعته؛ لأنهم يعلمون أنه من اللَّه، هو الذي آتاهم إياه. .

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/٤٧).

لا يكون البدء بالدعوة إلى إصلاح سياسي أو إصلاح اقتصادي أو عسكري أو قومي أو اجتماعي أو أخلاقي وإنما بلا إله إلا اللَّه، راية لا ترفع معها سواها، راية التوحيد وطريقها وعر شاق في ظاهره؛ مبارك ميسّر في حقيقته.

لقد كان الهم الأكبر، والغاية العظمى للأنبياء والرسل، وللعلماء العاملين من بعدهم عبر التاريخ الإنساني وإلى يوم القيامة تحقيق عبودية العباد للَّه، ونبذ كل مألوه سواه، لا يصرفهم عن ذلك صارف، ولا يشغلهم عنه شاغل.

وهذه قضية لا تقبل المساومة.. إنها قضية لا بد أن تحسم أولاً وبوضوح وكل من شم رائحة العلم يعلم أن لا صلاح إلا بإصلاح العقيدة.. العقيدة أولاً، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة.

وتقرير عبودية الناس لربهم سبحانه، وإخلاص التوحيد للَّه عز وجل، والتحذير من كل أنواع الشرك، والتسليم والإذعان لكل ما جاء عن اللَّه ورسوله، وملء قلوب الناس بالحب للَّه والخوف منه والرجاء فيه هو شغل الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الشاغل قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

* وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥].

حين يكون الهم الأكبر تربية الناس على العقيدة الحقة وتوحيد اللَّه الصافي والصبر على هذا تنتصر الدعوة بمثل هؤلاء تقام وتؤسس الدول، يثبتون إذا ولَّى الناس، ويقبلون إذا أعرض الناس، ويبذلون إذا بخل الناس، ويقلّون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع لا يريدون مالاً ولا جاهًا ولا منصبًا، وإنما يبتغون ما عند اللَّه وحده.

استنجد بعمر بن الخطاب عمرو بن العاص ليبعث لهم مددًا بضعة آلاف، فبعث إليه أربعة ممن تربوا في مدرسة الإسلام، وقال: كل واحد من هؤلاء بألف.

وقفة مع ﴿فقولا له قولاً ليِّنا﴾

أمر اللَّه موسى وهارون عليهما السلام عندما وجههما إلى فرعون ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

«يقف بعض المسلمين في هذا الزمان أمام هذا الأمر الإلهي، فلا يفهمونه حق فهمه، بل يحرّفون معناه، ويجعلونه وثيقة إدانة ضد الدعاة الجريئين، والخطباء الصريحين، والعاملين الصادقين، الذين يجهرون بالحق أمام المسئولين، فينصحون ويذكِّرون وينكرون، إنهم يتهمون هؤلاء بمخالفة هذا الأمر، وأنهم لا يقولون للمسئولين قولاً لينًا، بل قولاً عنيفًا شديدًا قاسيًا منفّرًا، ينفّرهم من الطاعة بدل أن يقرّبهم منها.

ويقدم هؤلاء الناصحون النصائح للدعاة بوجوب مراعاة القول اللّين في خطاب المسئولين، ويفسّرون لهم القول اللين تفسيرًا خاصًّا خاطئًا:

إن القول اللين يتمثل في السكوت عن مخالفات المسئولين ومنكراتهم ومفاسدهم، وغض النظر عن الممارسات والسلوكيات الخاطئة التي يقومون بها. القول اللين: يعني إذا شاركهم في مجلس أو حفلة أو لقاء أو اجتماع، وجرت فيه منهم مخالفات ومنكرات، أن يصمت الدعاة، وكأنهم لم يروا ولم يسمعوا ولم يلاحظوا. القول اللين يعني: إذا فكرّ هؤلاء في الكلام والتذكير، فليكن بأخفض صوت وألينه وأضعفه، وبلهجة بسيطة ذليلة، تُخرج النصيحة الخافتة والتذكير الميت، بسيل من الثناء والمدح والإشادة.

أما إذا وقف الداعية أمام المسئول برجولة وثبات، وأنكر عليه مخالفاته ومنكراته بوضوح وتحديد، وقال كلمة الحق بجهر وجرأة وشجاعة، وذكّره بالواجب بإقدام وثبات، إذا فعل هذا فقد خالف الأمر الوارد في الآية، وما قال لهذا المسئول قولاً ليّنًا.

ولم يخرج موسى عليه السلام عن القول الليّن، وهو يحاور فرعون هذا الحوار الدعوي ويقدّم له نفسه بشجاعة وجرأة وصراحة، ويقدّم له دعوته بصفاء وبيان وتحديد: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-٣٣].

هل تريد بيانًا للدعوة أوضح من هذا البيان؟ وهل تريد جرأة وشجاعة وثباتًا أصدق من هذا؟ وهل تريد قولاً ألين من هذا القول؟ ولكنه لين مع الوضوح والحسم والجزم والتحديد، وهل تريد لهجة أصدق وأثبت من هذه اللهجة؟

هكذا يكون القول اللين. ويا ليت الناصحين يوضحون هذا للآخرين.

وما زلنا مع موسى الكريم عليه السلام لنتعلم منه كيفية القول اللين.

ففي موقف من مواقف مواجهته لفرعون، وكلامه معه بالقول اللين، آذاه فرعون بالكلام توقّح عليه، ووجّه له ما يشبه الشتم والإهانة. فماذا فعل موسى عليه السلام؟ ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

كان من القول اللين: أن يكشف موسى عليه السلام لفرعون مغالطاته، وأن يبين له علمه بأن الآلهة المزيّفة لا تملك شيئًا، ومعرفته بأنه لا إله إلا رب العالمين، لكنه يغالط في هذا، ويزعم إنكار الألوهية للّه رب العالمين.

قال فرعون: إني لأظنك يا موسي مسحوراً. فأجابه موسى عليه السلام برجولة وجرأة وتحديد وصراحة: إني لأظنك يا فرعون مثبوراً.. والمثبور هو الهالك الخاسر.

❑ والسؤال الذي نوّجهه للناصحين المنظِّرين: هل كان موسى عليه السلام مخالفًا للقول اللين عندما قال لفرعون: إني لأظنك يا فرعون مثبوراً؟

والتساؤل الذي نطرحه: لو كان موسى عليه السلام يعيش في زماننا هذا، وقال الكلام هذا، فبماذا يصفه الواصفون؟ ومع من يصنفونه؟.

بهذا التفسير الواضح من موسى عليه السلام يجب أن نفهم المراد بالقول اللين وكيفية ومجال قوله؟ ويجب أن نعرف كيف قال موسى هذا القول اللين لفرعون، من خلال الاطلاع على مشاهد المواجهة بينهما التي أشار إليها القرآن الكريم، والتي تعتبر هي التفسير العملي للأمر الربّاني بالقول الليّن.

❑ بعد هذا نقول: إن القول اللين هو في أسلوب مخاطبة المدعوين ـ

ومنهم المسئولون ـ وفي ألوان هذا الخطاب، وفي درجته ومستواه، وفي القالب الذي تُقدَّم فيه الحقائق، والصورة التي تُعرض فيها، والإطار الذي تكون ضمنه، وفي اختيار الألفاظ والمفردات والتراكيب والعبارات التي تدل على الموضوع.

ولا يمكن أن يكون القول اللين في الموضوع والمضمون، والحقائق والمقررات، والمعالم واليقينيات، والخطة والمنهج، لأن هذه الأمور لا تقبل المساومة ولا المفاوضة، ولا المداهنة ولا التنازل، ولا تأجيلها ولا إخفاءها.

والقول اللين في أسلوب الخطاب لا مضمونه، القول اللين في عرض الحقيقة لا في جوهرها وكنهها.

يريد ناصحون من الدعاة أن يتنازلوا عن المضمون والجوهر باسم القول اللين، وأن يخفوا الحقائق والمقررات باسم القول اللين، وأن يباركوا الفساد والانحراف والمنكر باسم القول اللين، وأن يتخاذلوا ويجبنوا ويذلوا أمام المسئولين باسم القول اللين.

وهم ظالمون لأنفسهم ولإخوانهم ولدينهم وإسلامهم. هم ظالمون لمفهوم ومعنى القول اللين، ظالمون لموسى في فهمهم عنه التزام القول اللين.

نأخذ معنى القول اللين وطريقة تنفيذه من أوامر اللَّه لمحمد عليه السلام، التي بلّغها بطريقة القول اللين: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...**﴾ الآيات [المائدة: ٦٧ ـ ٦٨].

* وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**

﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ونأخذ القول اللين من ذلك «المسلم الذي قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: اتق اللَّه. فقال له أحدهم: أتقول هذا لأمير المؤمنين؟ فأجابه عمر: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها؟»[١، ٢].

*** الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الضوابط الشرعية لا يُحاد عنها أنملة بدعوى «مصلحة الدعوة» التي أصبحت صنماً:**

إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابطَ شرعية فصلتها كتب الفقه؛ بل وأفردت لها المجلدات وما غفل عنها علماء الأمة بل قاموا بهذا الواجب من غير إفراط ولا تفريط.. ليس حماسًا واندفاعًا وتهورًا كحماس أصحاب المقاهي ينخدع به التابع والمتبوع وتعمّ به البلوى وتُصاب الدعوات في مقتل بسبب هذا التهور الذي لا ينضبط بمنهج السلف الكرام ويستعجل الناس قطف الثمار وينسون حديث خباب ﷺ.

وعلى الطرف الآخر قوم يفرّطون ويفرطون يعتبرون الدعوة فنًّا لا يهتدي إليه إلا هم.. يضبطونه بهواهم وآرائهم وفكرهم وفلسفتهم وذكائهم بدون هدى من كتاب ولا سنة يقول أحدهم: «ارضهم ما دُمت في أرضهم»، ويقول الآخر: «مصلحة الدعوة» لا يريد بهذا القواعد الشرعية في درء المفاسد وجلب المصالح وغيرها ولكن تفلتًا من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفريطًا وتسيبًا.. بل إن جماعة لها انتشار واسع كجماعة التبليغ تجعل من أصولها «الأمر بالمعروف» ولا تضم إليه «النهي عن المنكر» وفي هذا

(١) «الإسلام بين العلماء والحكام» ص(١٧١).

(٢) «تصويبات في فهم بعض الآيات» للدكتور صلاح الخالدي ص(١١٤ ـ ١٢٠) ـ دار القلم ـ دمشق.

تعطيل وإهدار لهذا الواجب.

نعم العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والدعاة بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعزّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتًا لعلّ الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة!، ويودون مثلاً لوْ جاروْهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودون.. ويودون.. من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد اللَّه أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. فالكسب الحقيقي للدعوة - في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم - هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت في أول الطريق، فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو مَن هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء.

الدعوة إلى اللَّه عز وجل كريمة عظيمة رفيعة، تستغني عن كل أحد، وعن كل سند، وعنايتها فقط بمن يريدها لوجه اللَّه كائنًا ما كان وضعه ووزنه في ميزان الدنيا.

وهي عزيزة لا يتصدى بها للمُعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها هي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها.

انظر كم سنة دعا نبي اللَّه نوح أول رسول أُرسل إلى قضية التوحيد وفي هذا أكبر العظات ـ ليست العبرة بالنتائج فهذه موكولة إلى اللَّه عز وجل؛ قال ﷺ : «**عُرِضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[1] .

*** وقفات هامة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

(١) الأمر بالمعروف الواجب واجب، والنهي عن المنكر المحرم واجب. نقل الإجماع على الوجوب الجصاص والغزالي وابن حزم والنووي وغيرهم.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على الأمة قاله جمهور علماء المسلمين، أي إذا قام به البعض حتى وُجد المعروف الواجب وزال المنكر المحرَّم سقط عن الباقين وإلا أثم كل قادر.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظروفنا الحاضرة متعيّن بالقلب للجميع.

وباللسان في كثير من الأحوال وباليد أحيانًا بالشروط الشرعية لعموم المنكرات وعدم من يأمر وينهى.

(٤) يصبح فرض الكفاية فرض عين في بعض الأحوال: كمن كان في موضع يُطمس فيه بالمعروف أو يرتكب فيه المنكر لا يعلم به إلا واحد، أو من تعيِّنه الدولة الإسلامية لذلك.

(٥) في حديث ابن مسعود الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ : «... **ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»، نفي الإيمان هنا في الحديث على معنيين:

الأول: أنه في المستحل فيكون نفي الإيمان عنه بالكلية مستلزمًا لكفره،

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس.

فمن جحد المعلوم من الدين بالضرورة أو رأى أنه لا يلزمه فعل الواجب ولا ترك المحرم، فإنه كافر باتفاق أهل العلم.

الثاني: أن المقصود في هذا الحديث من رضي بالمنكر وفرح به وأقرَّه، وإن لم يستحله. وهذا لا يكفر كفرًا ناقلاً عن الملة.

ومعنى: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»: أي: في عمله ذلك أي من غير المنكر بقلبه وهو قادر على أن يغيره بلسانه أو بيده فقد قصر وأثم، ولكن فعله هذا وهو التغيير بالقلب بكراهية المنكر وبغضه له وتمني زواله فيه شيء من الإيمان، أما من لم يكره المنكر بل رضي بوجوده وفرح بنيل شهوته وهواه من خلاله ليس في هذا الفعل شيء من الإيمان ولا يلزم أن لا يكون في قلبه شيء من الإيمان في أمور أخرى كتصديق اللَّه ورسوله ﷺ.

والالتزام إجمالاً بالشرع، وإن كان الالتزام التفصيلي غير موجود في هذه المعصية.

فمن ترك الواجب عليه من التغيير ولو بالقلب فهذا قد يكون معه إيمان مجمل، وليس معه الإيمان الكامل الواجب[1].

* **معنى المعروف**:

«**المعروف**: هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة اللَّه والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع من المحسنات.

صوره:

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ:

«ويجب على أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراءها ومشايخها أن

---

(١) تراجع في هذه النقاط المذكورة هنا رسالة «الأمر بالمعروف» لأخينا الحبيب فضيلة الشيخ الدكتور ياسر برهامي؛ فإنها قيمة جداً حفظ اللَّه كاتبها ورفعه بها وقد لخصنا ها هنا.

يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيأمرونهم بما أمر اللَّه به ورسوله، مثل: شرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها، وكذلك الصدقات المفروضة والصوم المشروع وحج البيت الحرام.

ومثل الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

ومثل الإحسان وهو أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك.

ومثل ما أمر اللَّه به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة، مثل: إخلاص الدين للَّه والتوكل عليه، وأن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، والرجاء لرحمة اللَّه والخشية من عذابه والصبر لحكمه والتسليم لأمره.

ومثل: صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك، والعدل في المقال والفعال، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق مثل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الفرقة والاختلاف وغير ذلك.

*** معنى المنكر:**

معناه: هو ضد المعروف وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه.

صوره:

◻ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ:

«المنكر الذي نهى اللَّه عنه ورسوله، أعظمه الشرك باللَّه، وهو أن يدعو مع اللَّه إلهًا آخر كالشمس والقمر والكواكب، أو كملك من الملائكة، أو نبيًّا

من الأنبياء، أو رجل من الصالحين، أو أحد من الجن، أو تماثيل هؤلاء، أو قبورهم، أو غير ذلك مما يدعى من دون اللَّه، أو يستغاث به، أو يسجد له فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه اللَّه على لسان جميع رسله. ومن المنكر كل ما حرمه اللَّه، كقتل النفس بغير حق، وأكل أموال الناس بالباطل بالغصب، أو الربا، أو الميسر والبيوع والمعاملات التي نهى رسول اللَّه ﷺ.

كذلك قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وتطفيف الكيل والميزان والإثم والبغي بغير الحق.

وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها اللَّه ورسوله ﷺ».

❐ فيتضح لك من هذا الكلام النفيس أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل الدعوة إلى الإيمان والإسلام ومحاربة الكفر والشرك والبدع والمعاصي كما يشمل الجهاد في سبيل اللَّه وهو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ويشمل إصلاح الأمة وتربيتها وتبليغ الشرع وتأليف الكتب الشرعية ونصيحة الإخوان، وأن يبذل كل جهد مستطاع لنشر الدين ونصره وتمكينه.

وليست الحسبة محصورة في صورة معينة كتكسير أماكن الفساد، أو تحريقها ومن لم يفعل ذلك فهو مضيع لهذه الفريضة كما يظنه البعض بل هذه الأمور. عند توافر شروطها هي بعض صور هذه الفريضة ولا ينفي ما عداها فضلاً عن تحقيره والاستهانة به «**ورأس المعروف توحيد اللَّه ورأس المنكر الشرك باللَّه**»، وإنما يعرف المعروف والمنكر بأدلة الشرع سواء جرت به عادة الناس أم لا؛ لأن إعطاء هذا الوصف هو حكم شرعي والحكم للَّه وحده ولا عبرة بعرف الناس إذا خالف الشرع، وإنما العرف المعتبر هو ما لا يخالف النصوص - وقد تغير عرف الناس حتى أنكروا المعروف وأقروا المنكر وعرفوه فكيف يكون ميزانًا لمعرفة الحق»[1].

---

(١) «الأمر بالمعروف» للشيخ ياسر برهامي ص(٢٠ - ٢٣) - طبع دار العقيدة.

*** شروط المنكر:**

أن يكون ظاهرًا بدون تجسس، وأن يكون قائمًا في الحال فما لم يقع بعد من المنكرات فلا يجوز الاحتساب فيها بغير الوعظ والإرشاد إذا ظهرت بوادره، وما وقع وانتهى من المنكرات فالعقوبة عليه من حد أو تعزير لولي الأمر، ومن يقوم مقامه.

◻ ومن شرطه أن يكون غير مختلف فيه اختلافًا سائغًا، وأما الخلاف غير السائغ وهو الذي دل صريح القرآن أو السنة أو الإجماع أو القياس الجليٍّ على بطلانه وشذوذه فلا يمنع الإنكار.

فمن خالف السنة أو الإجماع يُنكر عليه، ولو كان متأولاً.

*** درجات التغيير:**

أولاً: يبدأ بالتعريف: وهذا في حق الجاهل.

ثم: الوعظ والنصح والتخويف باللَّه تعالى: وهذا في حق من يعلم ويصر، ويكون برفق من غيرعنف وشدة.

ثم: التعنيف والتغليظ بالقول الخشن: عند العجز عن المنع بالرفق.

ثم: تغيير المنكر باليد: كإراقة وكسر آلات اللهو والباطل كالموسيقى وغير ذلك ويدخل في ذلك إتلاف كتب البدع والضلال من غير تعرض لمرتكبه.

ثم: التهديد والتخويف بالعقوبة لمرتكبه،

ثم: مباشرة العقوبة كالضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ـ وذلك مشروع للآحاد حال وجود المنكر بشرط الضرورة، والاقتصار على قدر الحاجة للدفع، ولو أدى للقتل كدفع الصائل على نفسه، أو غيره وإن احتاج إلى شهر سلاح وجمع أعوان فللآحاد ذلك ما لم يثر فتنة ومفسدة أعظم ومن العلماء من قيد ذلك بإذن إمام وخلفائه كما سبق عن إمام

الحرمين[١] »[٢] .

* **شروط المحتسب :**

١ ـ **الإسلام**: فالإسلام شرط للمخاطبة به في الدنيا، وكذا في صحته وقبوله عند اللَّه.

ولكن لو أن كافرًا رأى مسلمًا يزني مثلاً فنهاه عن ذلك لوجب على المسلم قبول ذلك لحق اللَّه تعالى.

فالحق يُقبل من كل قائل به، ولو كان أكفر الكفار كما قال النبي ﷺ في صلح الحديبية عن المشركين.

«**واللَّه لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمات اللَّه إلا أجبتهم إليها**»[٣] .

فهذه طاعة لأمر اللَّه لا لأمر الكافر، ولا متابعة لهم؛ ولكنه انقياد للحق الواجب.

ولكن لا يجوز تولية الكافر ولاية الحسبة ولا الشرطة ولا نحوها مما فيه

---

(١) هذا استثناء في الأغلب، وليس بأصل إذ الأغلب حصول الفتن بالنسبة للجماعة التي تمارس الحسبة بدون ولاية بل تعم المفسدة غيرها من الجماعات كما هو مشاهد.
ملحوظة: ذكر الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ هذه المراتب وتبعه عليها غيره من أهل العلم والدليل عليهما هدي الرسول في التغيير كما سبق في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد ومعاوية ابن الحكم وغيرها كثير.
ومن القواعد العامة في الشريعة مثل استعمال الرفق مع المسلمين ما أمكن لقول النبي ﷺ : «**الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**»، وأن الأصل حرمة المسلم في دمه وماله وعرضه، وارتكابه المنكر استوجب عقابه إذا أصر عليه والضرورات تقدر بقدرها، فإن اندفع بالأخف لم يجز الانتقال إلى الأشد مراعاة لأصل الحرمة.
(٢) المصدر السابق.
(٣) رواه البخاري في «صحيحه» عن المسور بن مخرمة ﷺ.

سلطة على مسلم.

* قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

● وقال النبي ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»[1].

وهذا مجمع عليه.

٢ ـ **التكليف**: وهو شرط وجوب: فالاحتساب واجب على العقلاء البالغين وليس معنى ذلك أن يمنع من كان من أهل القربة كالصبي المميز من القيام بالأمر والنهي.

* قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

◻ والعدالة لا تشترط في المحتسب على الراجح من أقوال العلماء إذ أن الاحتساب فرض كسائر الفروض لا يتوقف القيام به على أكثر مما يتطلبه هذا الفرض، وترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضًا غيرها.

قال بعض أهل العلم: «فرض على شاربي الكئوس أن يتناهوا فيما بينهم».

◻ وعدم اشتراط الولاية أو إذن الإمام هو مذهب جماهير العلماء؛ لعموم الأدلة وعدم المخصِّص ثم إجماع المسلمين في الصدر الأول الذي نقله إمام الحرمين فقد قال في عدم اشتراط الولاية، أو إذن الإمام: «والدليل عليه إجماع المسلمين؛ فإن غير الولاة في الصدر الأول، والعصر الذي يليه كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية» اهـ.

ومما يدل على أن هذا هو فهم السلف قصة أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره» إنما كان في التغيير على مروان بن الحكم حينما بدأ بالخطبة قبل الصلاة في العيد.

فحاول أبو سعيد منعه من الخروج للخطبة قبل الصلاة في العيد، فلم يستجب فقام رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة.

فقال مروان: قد ترك ما هنا لك.

فقال أبو سعيد: أما هذا ـ يقصد الرجل ـ فقد أدى ما عليه.

● سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره..»[1] وذكر الحديث.

وفي بعض الروايات أن أبا سعيد حاول منع مروان من الخطبة قبل الصلاة فلم يمكنه.

فدل ذلك على تغيير منكرات الأئمة أنفسهم.

وإنما يشترط استئذان الإمام المسلم إذا كانت الحسبة تؤدي إلى فتنة، أو قتال فيلزم الإذن لرفع الضرر لا لمجرد الإذن.

٣ ـ العلم: ويشترط العلم في القائم بالحسبة قال تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف: ١٠٨].

◘ قال النووي: إنما يأمر وينهى من كان عالـمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها،

(١) القصة والحديث في «صحيح مسلم».

وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام فيه مدخل، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.

☐ والعلم المشترط في الحسبة يشمل العلم بخطاب الشارع والعلم بالواقع.

٤ ـ القدرة: وشرط القدرة إنما هو في تغيير المنكر باليد واللسان.

أما الإنكار بالقلب فيجب أن يكون كاملاً، ودائمًا وهو متعين إذ هو مستطاع كل أحد.

ومن معنى حصول القدرة: غلبة الظن بالسلامة من الأذى والمكروه لنفسه وغيره من المسلمين.

☐ قال الغزالي: «لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي[١]، بل يلحق به ما يخاف عليه من مكروه يناله فذلك في معنى العجز»[٢].

ويلاحظ هنا أن العجز الحسي يسقط التكليف بالكلية وهو مثل الإكراه الملجئ مثل امرأة قيدت واغتصبت قهرًا فهذه لم يقع منها فعل ولا يوصف ما وقع لها في حقها بإباحة ولا كراهة؛ لأن العجز هنا عجز حسي كامل.

أما العجز المعنوي، فإنه لا يسقط التكليف بالكلية، ولكنه يسقط الوجوب في الواجب ويصبح مستحبًا أو مباح الترك، وقد يوصف بالتحريم إذا كان فيه ضرر متعدٍّ لغيره إذا كان يترتب عليه منكرًا أعظم، وكذا يسقط التحريم في المحرم، ويصبح مكروهًا أو مباح الفعل.

٥ ـ الإكراه: تحت هذا العنوان أتى الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه اللَّه ـ

---

(١) العجز الحسي: كالأخرس مثلاً لا يجب عليه التغيير باللسان لعجزه، وكالمشلول اليد لا يجب عليه التغيير باليد.

(٢) العجز المعنوي: وهو أن يصيب الإنسان أذى معتبر في الإكراه يزول عنه الحكم من الوجوب أو التحريم.

في رسالته «الأمر بالمعروف» بدرر من كلام السلف فقال ـ رحمه اللَّه ـ:

◻ قال النووي في «روضة الطالبين»(١) : «واعلم أنه لا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بأن يخاف منه على نفسه أو ماله أو يخاف على غيره مفسدة أعظم من مفسدة المنكر الواقع»، وكذا قال ابن مفلح: وأطلق القاضي وغيره سقوط الأمر بالمعروف بخوف الضرب والحبس. وأسقطه أيضًا بأخذ المال اليسير. . .

◻ قال الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ: «من شرطه أن يأمن على نفسه وماله خوف التلف»(٢).

◻ قال ابن دقيق العيد(٣) : «وفي الحديث دليل على أن من خاف القتل أو الضرب سقط عنه التغيير، وهو مذهب المحققين سلفًا وخلفًا، وذهبت طائفة من الغلاة إلى أنه لا يسقط وإن خاف ذلك».

◻ قال القرطبي(٤) : قال ابن عطية: «والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض على من أطاقه وأمن القدر على نفسه وعلى المسلمين فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه».

◻ وقال النووي(٥) : قال ابن بطال: «النصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل قوله، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشي أذى فهو في سعة».

◻ وقال ابن رجب: «ومن هذا من خاف منهم على نفسه السيف أو

(١) «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٣١).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣٥٥).
(٣) «فتح المبين» (٩٠).
(٤) القرطبي (٢٢٥).
(٥) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ٥٤).

السوط أو الحبس أو القيد أو النفي أو أخذ المال أو نحو ذلك من الأذى سقط أمرهم ونهيهم وقد نص الأئمة على ذلك منهم مالك وأحمد وإسحاق وغيرهم».

وأدلة أهل العلم الذين سبق كلامهم هي أدلة اعتبار الإكراه قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

- وفي حديث عمار قال النبي ﷺ: «**إن عادوا فعد**»[١].
- وقال النبي ﷺ: «**وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢]. حديث حسن.

📖 وقال عمر: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا سجن، أو أوثق، أو عذب»، وعنه: «أربع كلهن كره: السجن والضرب والوعيد والقيد» راجع «تفسير القرطبي».

📖 قال ابن حجر الهيثمي في الرد على من قال: يجب الإنكار على كل حال: «وإن قتل المنكر ونيل منه أنه غلو مخالف لظاهر الحديث إلى أن قال: ولا حجة لهم في خبر: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقول اللَّه تعالى: (**ما منعك إذا رأيت كذا وكذا أن تنكره فيقول يا رب خشيت الناس. فيقول اللَّه تعالى: إياي كنت أحق أن تخشى**)»[٣].

---

(١) حديث عمار رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)، وابن سعد في «طبقاته» (٣/ ١٧٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ١٨٢) كلهم عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر.

(٢) رواه البيهقي في «السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧١١٠)، وفي «إرواء الغليل» برقم (٨٢).

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه في «سننه»، وابن حبان في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٨١٨)، وفي «السلسلة» برقم (٩٢٩).

لأن المراد بالخشية فيه مجرد رعايتهم مع القدرة، إذ لو وجب الإنكار مطلقًا لم يتأت قوله ﷺ: «**فإن لم يستطع**»، وإذا جاز التلفظ بالكفر عند الخوف والإكراه كما في الآية فليجز ترك الإنكار بالأولى؛ لأن الترك دون الفعل في القبح.

◘ قال ابن رجب: «قال ابن شبرمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد، ويجب على الواحد أن يصابر في الاثنين ويحرم عليه الفرار منهما، ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك؛ فإن خاف السب أو سماع الكلام السيء لم يسقط عنه الإنكار ـ نص عليه أحمد ـ وإن احتمل فهو أفضل» اهـ.

فإن قال قائل: المنكر الحاصل أمر مقطوع به والأذى أمر مظنون فكيف نترك المقطوع به للمظنون؟

قيل له: المقصود بالخوف المعتبر ـ غلبة الظن بحصوله ولا عبرة بالشك والتوهم، وإمكان حصول الأذى ولو صح تطبيق هذا الكلام لا نسد باب الإكراه أصلاً إذ مبناه على غلبة الظن فالتهديد بالقتل والسجن والتعذيب كل ذلك مما أجمع العلماء على اعتباره في الإكراه في الجملة وهو من أمور المستقبل وليس قطعيًا بالمعنى الاصطلاحي، ولكن الشرع وضع غلبة الظن محل العلم وجريان العادة في الواقع المشهود والتجربة كاف في حصول غلبة الظن؛ ولذا فينطبق على هذه مسألة ـ خوف الضرر ـ شروط الإكراه المعتبر كما ذكرها ابن حجر ـ رحمه اللَّه في «الفتح».

الأول: أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ما هدد به فوريًا فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك

غدًا لا يعد مكرهًا ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًّا أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور به ما يدل على اختياره. اهـ.

وهذا الكلام يتضح منه أن جريان العادة بعدم تخلف الأذى مدة معينة أو منًا قريبًا يعد عذرًا أما إذا كان الأذى متوقعًا في الجملة فهذا غير معتبر.

فإن قيل: نحن نتمكن من التخلص بالفرار ـ فالواجب أن من يعلم أن فراره سوف يلحق الأذى المتوقع بأقاربه وأهله وإخوانه أو غيرهم من المسلمين العاجزين عن الفرار لم يكن فعله مشروعًا إذ ترتب عليه هذا المنكر الآخر.

فإن قيل: فالجهاد والحسبة من باب واحد وهو لا يخلو من خوف الأذى والمكروه. وأين آيات الابتلاء والصبر نحو قوله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٢].

الجواب: أن المسلمين في الجهاد لا يغلب على ظنهم الانهزام كما لا يغلب على ظن إنسان بعينه حصول القتل أو الجرح له بل هو مظنون في الجملة أما بالنسبة لشخص بعينه فهو محتمل وممكن.

وقد سبق أنه لا عبرة بالإمكان والاحتمال. وأما عند غلبة اظن بحصول الهزيمة والقتل للمسلمين لكونهم أقل من نصف عددهم فقد رخص الشرع لهم في الانصراف، والخلاف في استحباب الثبات أو الانصراف إن كان في الثبات نكاية للعدو، أما إذا كان القتال فيه هزيمة المسلمين من غير نكاية وجب الإنصراف وحرم القتال إجماعًا نقله ابن جزي عن إمام الحرمين بلا خلاف، وذكر مثله النووي في «الروضة» (ح١٠). بل يكون الواجب عند ذلك تحريز المؤمنين استمرارًا للدعوة وحفظًا للدين. أما الصبر الواجب على الأذى فهو عند الأذى الذي لا يعتبر عذرًا في الإكراه. أما الأذى فسيأتي تفصيله إن شاء اللَّه.

فإن قيل: فالأذى الواقع على البعض منكر خاص والمنكرات العامة منكر عام والموازنة تقتضي دفع الضرر العام بتحمل الضرر الخاص؟

والجواب: إن هذا تطبيق للقواعد في غير موضعها وإهمال لكلام أهل العلم الذي سبق في أمر الموازنة، إذ جعلوا الأذى الحاصل للمحتسب أو غيره منكرًا يقدم دفعه على دفع المنكر الأصلي ـ وهذا لأن المنكر إنما يضر من فعله مختارًا ومن رضي به ـ ولا يضر من كره وأباه ممن عجز عن تغييره، وأما إيذاء المسلمين الأبرياء الذين لا ذنب لهم فهو ضرر محض لمن لا يستحقه.

❑ قال ابن رجب ـ رحمه اللَّه ـ[1]: ولعمري إن أيام عبدالملك والحجاج والوليد وأضرابهم[2] كانت من الأيام التي سقط فيها فرض الإنكار عليهم بالقول واليد لتعذر ذلك والخوف على النفس.

وقد حكى أن الحجاج لما مات قال الحسن: اللَّهم أنت أمته فاقطع عنا سنته فإنه أتانا أخيفش أعيمش يمد بيد قصيرة البنان واللَّه ما عرق فيها عنان في سبيل اللَّه، يرجل جمته ويخطر في مشيته ويصعد المنبر فيهذر حتى تفوته الصلاة، لا من اللَّه يتقي، ولا من الناس يستحي، فوقه اللَّه وتحته مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل ثم قال الحسن: هيهات، واللَّه حال دون ذلك السيف والسوط.. قال: «فهؤلاء السلف كانوا معذورين في ذلك الوقت في ترك النكير باليد واللسان».

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه الأمور العدل فيها أن لا يطلب العبد أن يبتلى، وإذا ابتلى بها فليتق اللَّه وليصبر والاستعداد لها أن تصيبه من غير طلب الابتلاء بها»، وقال: «والتعرض للفتنة هو من الذنوب».

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٨٢).

(٢) أضرابهم: أمثالهم.

* المكروه المعتبر في إسقاط الحسبة:

المكروه نوعان:

١ ـ فوات الحاصل. ٢ ـ خوف امتناع المنتظر.

وهو في أربعة أشياء:

١ ـ الصحة والسلامة في البدن. ٢ ـ المال.

٣ ـ الجاه والمنزلة. ٤ ـ العلم.

ولا يتصور فوات الحاصل في العلم؛ لأنه لا يمكن لأحد أن ينسى غيره ما يعلمه، ولا يحصل فوات الحاصل في العلم إلا بتقصير منه.

فأما فوات الحاصل في الصحة والسلامة في البدن فمثاله أن يقتل أو يضرب ضربًا مؤلمًا أو يقطع عضو من أعضائه أو يحبس حبسًا يُدخل عليه الضيق.

وفوات الحاصل في المال أن يؤخذ ماله ويهدم داره وتسلب ثيابه.

وفوات الحاصل في الجاه أن يهان الإنسان أمام أهله أو جيرانه أو أصدقائه بما يسقط مرؤته.

وكل من هذه الثلاثة لها حد في الكثرة لا بد من اعتباره وحد في القلة لا بد من إهداره، وما بينهما محل اجتهاد ونظر وترجيح.

والترجيح في ذلك بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع.

☐ **فمثال:** ما لا بد من اعتباره ما ذكرناه من القتل وسلب المال وهدم الدار والإهانة أمام الأهل والجيران.

☐ ويستثنى من عدم اعتبار خوف امتناع المنتظر عذرًا يسقط الوجوب ما تشتد الحاجة إليه، ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر فهذا يلحق بفوات الحاصل في اعتباره عذرًا يسقط الوجوب.

* إسقاط الوجوب في الحسبة لحصول المكروه لا يسقط استحبابها :

إذا لم يتعدى الضرر على المحتسب إلى غيره فإن الوجوب إذا سقط فلا يسقط الاستحباب إذا كان للحسبة أثر في رفع المنكر أو في كسر جاه صاحبه أو في تقوية قلوب أهل الدين وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

● وقال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الجهاد: «كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

لكن إذا علم المحتسب أن لا أثر لحسبته عاجلاً، ولا آجلاً ولا خاصًّا ولا عامًّا لا على المحتسب عليه ولا غيره مع حصول الأذى الجسيم كقتله أو انتهاك عرضه فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فسقط الجواز عندئذ.

حكم تعدي الضرر إلى الغير

وأما إذا غلب على ظنه تعدي الأذى إلى غيره من أقاربه أو أصحابه أو رفقائه أو عموم المسلمين حرم الاحتساب، ولو قدر زوال المنكر؛ لأنه يفضي إلى منكر آخر وهو إلحاق الأذى بالآخرين وليس له أن يسامح في حق غيره[2]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، وابن ماجه في «سننه»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي أمامة ﷺ، ورواه النسائي في «سننه» من حديث شهاب ﷺ وصحح الحديث الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١١٠٠)، وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩١).

(٢) الأخذ بالعزيمة مستحب والأخذ بالرخصة جائز، وقد يكون مستحبًّا، وليس للإنسان أن يفرض على الآخرين الأخذ بالعزيمة، وقد جعل اللَّه لهم سعة في الرخصة فمن عرض =

إلا من أذى يسير لا تنفك عنه الحسبة كالشتم والسب فهذا فيه نظر.

❑ قال ابن رجب: «إن خشي في الإنكار على الملوك أن يؤذي أهله أو جيرانه لم ينبغ له التعرض لهم حينئذ من تعدي الأذى إلى غيره كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره».

❑ قال الغزالي: «فإن كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها؛ فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو في نفس، ولكن ينالهم الأذى بالسب والشتم فهذا فيه نظر ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدمه في العرض»، وقال: «وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي إلى منكر آخر وليس ذلك من القدرة في شيء بل لو احتسب لبطل ذلك المنكر، ولكن كان ذلك سببًا لمنكر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار على الأظهر؛ لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقًا لا من زيد أو عمرو».

❑ قال الشيخ أحمد الدردير[1] في شروط جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «وفي المنكرأن لا يخاف أن لا يؤدي إلى منكر أعظم منه».

❑ قال أحمد الصاوي معلقًا: «أي كنهيه عن أخذ مال شخص فيؤدي إلى قتله وفي الحقيقة هو شرط في الأمر أيضًا».

= غيره للأذى فهو يلزمه بما لا يلزمه شرعًا، ومن هنا كان له أن يسامح في حق نفسه لا في حق غيره.

(١) «الشرح الصغير» (٢/ ٤٨٣).

◻ قال الشيخ عز الدين: «وإذا حدث رد فعل سيء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فله نوعان: أحدهما أن يصيب القائم به أذى والآخر ألا يضر نفسه، ولكن تحدث مفسدة أخرى نحو أن يقتل رجل بريء أو يزيد مرتكب المنكر تماديًا وإصرارًا وغير ذلك.

أما النوع الثاني من رد الفعل فقد أجمع العلماء على عدم القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الوجه»[(١)] .

* مراعاة المصلحة والمفسدة في الحسبة:

* قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

* وقال عن شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

* وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

◻ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «إنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بالكلية.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليتان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة»[(٢)] .

◻ قال ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «ولهذا قيل: وليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات

(١) «ميثاق الأزهار» (١/ ٥٠).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤).

لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، واللَّه لا يحب الفساد بل كل ما أمر اللَّه به فهو صلاح، وقد أثنى اللَّه على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر اللَّه وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم» اهـ.

◻ قال النووي في «شرح مسلم»: «قال إمام الحرمين ـ رحمه اللَّه ـ ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح؛ فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان».

*** الموازنة بين المصالح والمفاسد:**

«لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام» اهـ[1].

◻ ويقصد بالمصالح: المصالح التي شهد الشرع لاعتبارها: وهي ما دلَّت أصول الشرع لنوعها أو لجنسها.

◻ والنصوص الشرعية هي الأصل في معرفة المصالح وليس العكس، ولا شك أن الموازنة بين المصالح والمفاسد من أعظم الأمور خطرًا وهي تحتاج إلى علم واجتهاد وبصيرة وفقه عظيم في دين اللَّه وسنن الأنبياء في الكتاب والسنة ليكون الترجيح بموجب الدين لا بموجب الطبع والهوى.

هل يشترط الانتفاع بالاحتساب لوجوبه؟

◻ الأظهر من قول العلمـاء أن الحسبة واجبة مع ظن التأثير والنفع.

---

(١) «الحسبة» لابن تيمية ص(٧٥).

ومع عدمه إذا كانت فيه مصلحة أخرى كانتفاع غير المحتسب أو إظهار شعائر الإسلام أو الأثر والنفع آجلاً لا عاجلاً[١] ، فإن عدم ذلك سقط الوجوب وعليه تحمل الأحاديث الواردة في ترك الأمر والنهي ونحوها مما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥].

● مثل قوله ﷺ : «**حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام...**»[٢] الحديث ـ رغم أن في سنده مقال.

والهداية لا تتم للعبد إلا بأداء الواجبات، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تجب العزلة إذا لم يمكن للإنسان حفظ دينه والنجاة من الفتن إلا بالعزلة.. وهذا أمر مخصوص في أحوال مخصوصة[٣] ، وليس عامًا في

(١) احتج من يرى سقوط وجوب الحسبة إذا ظن عدم التأثير بقوله تعالى: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ فمفهومه أنها إذا لم تنفع لم يجب التذكير وهو مفهوم شرط، وجمهور أهل العلم يقولون به والأصل عدم تقدير محذوف نحو قولهم: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ أي: وإن لم تنفع مثل قوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أي: والبرد والحق أن هذا الاستدلال إنما يتم إذا تصور انتفاع جميع أنواع النفع فإن المسلم إذا لم يستجب للحسبة من أول مرة فإن ذلك يحدث في قلبه أثرًا ولا شك وهو ما يسميه بعض أهل العلم نكاية في قلبه وبتكرار ذلك عليه يشعر بأن فعله مستقبح لدى الناس ففعله في الآجل يترك هذا المنكر أو حتى يفعله وهو في حرج لا أن يتعود عليه إذا لم ينكر عليه أحد ـ حتى يصبح هذا المنكر معروفًا، وكذلك قد ينتفع بالحسبة آخرون غير المحتسب عليه ـ وينتفع المجتمع كله بظهور شعار الإسلام فيه وامتناع العذاب العام والفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه في «السنن»، وابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي ثعلبة الخشني، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٣٤٤).

(٣) كمن لم يجد على الخير أعوانًا وخشي على نفسه الوقوع في الفتن أو على حصول الأذى الذي لا يصبر عليه.

الأرض كلها في أي زمن لقول النبي ﷺ : «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم إلى قيام الساعة**»[١] »[٢] .

*** هام جدًا : السعيدُ من وُعِظ بغيره :**

العيش مع أهل العلم الربانيين هو الحياة. . ومن حاد عن طريقهم قيد أنملة عرف الهجير الكالح والأخذ بالأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ، ومن أراد اللَّه به الخير التزم بكل صغيرة وكبيرة من قواعد أهل السنة والجماعة، وعرف معنى قول الشاعر:

غزلت لهم غزلاً دقيقًا فلم أجد ... لغزلي نسّاجًا فكسّرت مغزلي

وقول الشاعر:

نصحتُ لهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

✍ منذ عام ١٩٧٧م بمصر والصادقون يحذرون الشباب من خطورة الخروج المسلح وأنه لن يعود إلا بالدمار على الأمة، وكان ما كان وفي التسعينات أدرك أصحاب الخروج المسلح خطورة ما حدث وأثره السيء على الأمة والعمل الإسلامي. . وما جرى فيه من إراقه دماء المسلمين والجرأة على العلماء الربانيين فعادوا عن العمل المسلح[٣] ، والعود أحمدُ وعدلوا عن

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان وعن المغيرة بن شعبة، ورواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والحاكم وابن حبان والدارمي بألفاظ مقاربة عن جملة من الصحابة.

(٢) انتهى النقل من الرسالة القيمة «الأمر بالمعروف» للشيخ ياسر برهامي نقلنا أكثرها للفائدة.

(٣) وإن كنا نعتب عليهم أن صوت الناصحين قد بحّ، ولو أنهم سألوا العلماء الربانيين واتبعوا نصحهم لوفّروا على شباب الأمة عشرين عامًا من التعذيب وإراقة دماء الأبرياء ودموع ومآسي وتشريد الأسر والدمار الذي لحق بالعمل الإسلامي.

موقفهم السابق جعل اللَّه توبتهم في سجل حسناتهم.

ويرحم اللَّه عبيداللَّه بن الحسن العنبري فقيه البصرة حين قال: «لأن أكون ذنبًا في الحق، أحبّ إليّ من أن أكون رأسًا في الباطل»[1] .

فسؤال العلماء الربانيين عن كل صغيرة وكبيرة، والتقيد بكلامهم وما يسوقونه من أدلة شرعية، والاقتباس من خبرتهم وعلمهم بالواقع. فالحمد للَّه أن علماء الآخرة ليسوا في غيبوبة فكرية والواقع يشهد بهذا، وفتاوى السادة الأئمة الربانيين تنير الطريق للحائرين: الشيخ ابن باز والشيخ الألباني والشيخ ابن عثيمين والشيخ بكر أبو زيد والشيخ صالح الفوزان مصابيح تنير في قلب الدجى« وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر. . .».

فالرجوع إلى الحق في كل شيء بالضوابط الشرعية أولى من التمادي في الباطل وإليك نص كلامهم:

*** نظرات في التاريخ:**

«إن للخروج على الحكام والأمراء أمثلة عديدة سجلتها كتب التاريخ من أيام السلف إلى أيامنا هذه، والعاقل اللبيب من ينظر إلى هذه الأمثلة نظرة اعتبار وتفحص ليستخلص منها بعد ذلك الدروس والعبر، وليس بعاقل من يغفل عن هذه التجارب والأمثلة.

وقديمًا قلنا: إنه ينبغي أن نبدأ من حديث انتهى الآخرون لا من حيث بدأوا، لنكون بالفعل مستوعبين لما سبقنا من تجارب.

وليس الحديث هنا دفاعًا عن هؤلاء الحكام ولا إقراراً لهم على مذهبهم، ولكنها نظرة شاملة إلى الآثار والعواقب التي تحدث عند الخروج عليهم وهي عواقب لم يختلف عليها أحد.

(١) «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني (٧/٧).

ومع تقديرنا ومحبتنا العظيمة لأولئك الأخيار الذين آثروا الآخرة على الأولى والباقية على الفانية وتحملوا الصعاب والمشاق في خروجهم، فإننا لسنا في معرض الحديث عن التصويب أو التخطئة لكنها النظرة إلى عواقب هذا الخروج على أمة الإسلام والمسلمين حكامًا ومحكومين.

*** أمثلة من تاريخ سلفنا الصالح في الخروج على أمراء الجور وما جرَّه من مُبكيات:**

أولاً: خروج الحسين بن علي ﵄ على يزيد بن معاوية سنة ٦١هـ(١) :

❏ لما مات معاوية وبويع ليزيد، بايع ابن عمر وابن عباس وفَرَّ الحسين وابن الزبير إلى مكة.

❏ كثرَ ورود الكتب إلى الحسين من بلاد العراق يدعونه إليهم ويستحثونه في القدوم إليهم ليبايعوه عوضًا عن يزيد بن معاوية ويخبروه أنهم لم يبايعوا أحدًا حتى الآن وينتظرونه.

❏ أرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل إلى العراق ليكشف له حقيقة الأمر.

❏ لما دخل مسلم الكوفة تسامع أهلها بقدومه فجاءوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين وحلفوا لينصرنه بأنفسهم وأموالهم، ووصل عدد المبايعين إلى ثمانية عشر ألف مبايع.. كتب مسلم إلى الحسين ليقدم إلى الكوفة فقد تمهدت له البيعة والأمور قد استتبت له.

وهنا تجهز الحسين من مكة قاصدًا الكوفة، وكتب في الوقت ذاته يزيد إلى ابن زياد أن يقدم الكوفة ويطلب مسلم بن عقيل، ثم يقتله إذا قدر عليه أو ينفيه.

---

(١) «البداية والنهاية» (٤/٦٦٦) وما بعدها بتصرف.

□ قام عبيدالله بن زياد بإخراج بعض الأمراء وأمرهم أن يركبوا في الكوفة يُخَذِّلون الناس عن مسلم بن عقيل ففعلوا، وهنا انفض الناس من حوله فبقي وحده ليس معه من يدله على الطريق، ثم ألقى القبض عليه وبكى عندها قائلاً: «أما والله لست أبكي على نفسي؛ ولكن أبكي على الحسين وآل الحسين، إنه قد خرج إليكم اليوم من مكة».

□ وتوجه الحسين إلى الكوفة رغم توسلات الناس إليه بعدم الخروج: قال له ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبرني إن كانوا قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حيًّا وهو مقيم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستنفروا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك، والله لأظنك ستقتل غدًا بين نسائك وبناتك ولولا أن يُزرى ذلك بي وبك لنشبت يدي في رأسك، ولو أعلم أنا إذا تناشبنا أقمتَ لفعلتُ».

□ ولحقه ابن عمر رضي الله عنهما وهو في مسيره إلى العراق على مسيرة ثلاث ليال فقال: أين تريد؟ قال: العراق وإذا معه صحف وكتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم فقال: لا تأتهم، فأبى، فقال ابن عمر: إني محدثك حديثًا. إن جبريل أتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا[1] ، وإنك بضعة من رسول الله ﷺ، والله ما يليها أحد منكم أبدًا وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، قال: فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.

□ وقال له ابن الزبير رضي الله عنهما: «أتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك».

(١) رواه البخاري (٢٤٤٤/٨٤) عن عائشة رضي الله عنها.

وعلم الحسين بمقتل مسلم بن عقيل لكنه رفض أن يرجع.

❑ كان جيش الحسين مائة وخمسين رجلاً ومعهم أهل بيته جميعًا، وقد عرض الحسين على جيش ابن زياد بقيادة عمرو بن سعد وشمر بن ذي الجوشن ثلاث خصال فلم يقبلوها منه، وأصرا على أن ينزل الحسين على حكم ابن زياد.

❑ وكانت المعركة وقتل الحسين رضي الله عنه وقتل معه ستة عشر رجلاً كلهم من أهل بيته، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه كما قال الحسن البصري. وأرسلت رأس الحسين إلى عبداللَّه بن زياد ثم إلى يزيد.

❑ قال سعيد بن المسيب: «لو أن حسينًا لم يخرج - أي إلى العراق - لكان خيرًا له».

❑ وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن: «قد كان ينبغي لحسين أن يعرف أهل العراق ولا يخرج إليهم».

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك، وصار سببًا لشر عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن» اهـ.

ثانيًا: وقعة الحرة[1] في عام ٦٣ هجرية:

وكان سببها خلع أهل المدينة ليزيد وتولية عبداللَّه بن مطيع على قريش وعبداللَّه بن حنظلة بن أبي عامر على الأنصار، واجتمع الناس على إخراج عامل يزيد من المدينة، وعلى إجلاء بني أمية منها، فاجتمع بنو أمية في دار

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٧٥٠).

مروان بن الحكم وحاصرهم أهل المدينة فيها، وقد أنكر ابن عمر على أهل المدينة بيعتهم لابن مطيع وابن حنظلة على الموت واعتزل هو بآل بيته الناس، وقد أرسل يزيد جيشًا قوامه خمسة عشر ألف رجل على رأسهم مسلم بن عقبة، وقال له: ادع القوم ثلاثًا فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فَأَبحْ المدينة ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، ثم إذا فرغت من المدينة فاذهب إلى مكة لحصار ابن الزبير، وانهزم أهل المدينة بعد قتال شديد، واستباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وقتل خلقًا من أشرافها وقراءها وانتهب أموالاً كثيرة منها، وقيل: إنهم وقعوا على النساء حتى قيل: حبلت ألف امرأة بغير زواج في تلك الأيام.

❑ قال الزهري عن عدد القتلى: إنهم سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي، وممن لا أعرف من حرٍّ وعبدٍ عشرة آلاف.

ثالثًا: خروج سليمان بن صرد على رأس جيش التوابين على مروان بن الحكم في سنة ٦٥هـ[1] :

اجتمع إلى سليمان بن صرد الخزرجي الأنصاري ﵁ وهو صحابي جليل روى عن النبي ﷺ أحاديث في «الصحيحين»، اجتمع إليه نحو من سبعة عشر ألفًا كلهم يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله، وكان هؤلاء يرون أنهم كانوا سببًا في قتل الحسين لخذلانهم له فسموا أنفسهم بجيش التوابين، وتواعدوا على الخروج في يوم فلما خرج الناس أخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم: يا لثارات الحسين، فسمع الناس فخرجوا، وخرج أشراف الكوفة فكانوا قريبًا من عشرين ألفًا فلما عزم على المسير بهم لم يصف معه منه

---

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٧٩٢) وما بعدها بتصرف.

سوى أربعة آلاف، فسار بهم مراحل: ما يتقدمون مرحلة إلى الشام إلا تخلف عنه طائفة من الناس الذين كانوا معه، فلما سمع أهل الشام بهم أعدوا جيشًا كبيرًا قوامه أربعون ألف مقاتل، وتقدم جيش الخلافة وقابل جيش التوابين في موقعة عين وردة. وكانت موقعة رهيبة إذ اقتتل الجيشان قتالاً شديدًا، وكانت مقتلة عظيمة بين المسلمين حتى خاض المقاتلون في الدماء، وكانت الدائرة لجيش الخلافة فقد قتل سليمان بن صرد رضي الله عنه وأمراءه وعامة جيشه، ولم يبق إلا القليل منهم الذين فروا عائدين إلى الكوفة.

رابعًا: خروج ابن الأشعث على عبدالملك بن مروان سنة ٨٠هـ[١] :

وهذه الفتنة من أعظم ما ابتليت به أمة الإسلام بعد الفتنة الكبرى بسبب ما أصاب المسلمين فيها من قتل لأئمة الهدى وأعلام الدين.

◻ **سببها**: كان الحجاج يبغض ابن الأشعث ويقول: ما رأيته قط إلا هممت بقتله، وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه. فلما أمره الحجاج على الجيوش التي غزت بلاد الترك وحدث ما حدث من فتح لبعض البلدان، ثم التوقف حتى صلحوا من حالهم ويتقووا إلى أن ينصرم فصل الشتاء، ثم يغزون رتبيل.

◻ بعث ابن الأشعث بذلك إلى الحجاج فكتب الحجاج إليه يستهجن هذا الرأي ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب ويأمره حتمًا بدخول بلاد رتبيل، ثم أردف بكتاب ثان ثم بكتاب ثالث، فغضب ابن الأشعث وقال: يكتب إلي بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي، ولا من بعض خدمي، ثم جمع ابن الأشعث رؤوس أهل العراق، وقال لهم موضحًا رأيه ورأي الحجاج وأعلمهم أنه لن يتراجع عن رأيه فثار

---

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٤٨) وما بعدها.

الناس إليه. وقالوا: لا بل نأبى على عدو اللَّه الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع.

◻ وخلع الناس الحجاج ولم يخلعوا عبدالملك.. ووثبوا إلى عبدالرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضًا عن الحجاج.

صَالَح ابن الأشعث رتبيل وانقلب عائدًا إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق. وفي منتصف الطريق خلعوا عبدالملك بن مروان أيضًا وبايعوا ابن الأشعث على الكتاب والسنة.

◻ بلغ المهلب بن أبي صفرة ما صنع ابن الأشعث، فأرسل إليه ناصحًا: أبقِ على أمة محمد ﷺ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسكفها، والجماعة فلا اتفرقها، والبيعة فلا تنكثها، اجتمع إلى ابن الأشعث ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل وخرج الحجاج إليه في جيش عظيم والتقى الجيشان في يوم الأضحى عند نهر دُخيل وانهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقًا كثيرًا نحو ألف وخمسمائة، دخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بها وبايعهم وبايعوه على خلع عبدالملك ونائبه الحجاج، وقال لهم ابن الأشعث: ليس الحجاج بشيء، ولكن اذهبوا بنا إلى عبدالملك لنقاتله، ووافقه على خلعها جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب.

◻ ثم كانت واقعة الزواية سنة ٨٢هـ بين الحجاج وابن الأشعث وكانت الجولة للحجاج وقتل خلق كثير من القراء من أصحاب ابن الأشعث.. ثم كانت وقعة دير الجماجم بين الجيشين، وكان ابن الأشعث معه مائة ألف ومثلهم من الموالي واستمر القتال قرابة العام والأيام دول بين الجيشين.

◻ أمر الحجاج بالهجوم على كتيبة القراء في جيش ابن الأشعث فقتل منهم خلقًا كثيرًا ثم حمل على بقية أصحاب ابن الأشعث فانهزموا وذهبوا في

كل وجه وهرب ابن الأشعث ومعه نفر قليل من الناس.

قتل الحجاج خمسة آلاف أسير ودخل الكوفة، وجعل لا يبايع أحدًا من أهلها إلا قال: أَشْهِد على نفسك أنك قد كفرت، فإذا قال: نعم. بايعه، وإن أبى قتله؛ فقتل منهم خلقًا كثيرًا أبى أن يشهد على نفسه بالكفر.

تتبع الحجاج أصحاب ابن الأشعث وقتل منهم بين يديه صبرًا مائة وثلاثين ألفًا منهم من الأخيار والسادات والعلماء والأبرار مثل محمد بن سعد ابن أبي وقاص وكان آخرهم سعيد بن جبير ـ رحمهم اللَّه ورضي عنهم.

كان جملة من قتل في هذه الفتنة من المسلمين حوالي مائة وخمسين ألفًا.

◻ قال ابن كثير: وابن الأشعث من كِنْدَةَ وليس من قريش ثم قال: «وكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير؛ فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. اهـ.

خامسًا: خروج محمد بن عبداللَّه بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وأخيه إبراهيم على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور[1]:

وقصة هذا الخروج تتلخص في الآتي: تغيب محمد وأخوه من مبايعة أبي جعفر المنصور وذهبا هربًا في البلاد الشاسعة، فسأل المنصور أباهما عنهما فحلف أنه لا يدري أين صارا من أرض اللَّه، ثم ألح المنصور على عبداللَّه في طلب ولديه فغضب عبداللَّه من ذلك وقال: واللَّه لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما. فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بحبس بني حسن عن

---

(١) «البداية والنهاية» (٥/٥٦٩) وما بعدها.

آخرهم، فحبسهم وجَدَّ في طلب إبراهيم ومحمد، وبعث الجواسيس في البلاد فلم يقع لهما على خبر، ونقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس العراق وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال، وقد أرسل معهم محمد ابن عبداللَّه بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالديباج لحسن وجهه وأمه هي فاطمة بنت الحسين بنت علي بن أبي طالب، وكان محمد هذا أخًا لعبداللَّه ابن حسن لأمه، وكانت ابنته تحت «أي زوجة» إبراهيم بن عبداللَّه بن حسن وقد حملت منه فاستحضره الخليفة وقال: قد حلفت بالعتاق والطلاق أنك لم تغشني وهذه ابنتك حامل، فإن كان من زوجها فقد حبلت منه وأنت تعلم به، وإن كان من غيره فأنت ديوث.

فأجابه عثمان بجواب أغاظه فأمر به فجُرِّدت عنه ثيابه، ثم ضربه بين يديه مائة وخمسين سوطًا منها ثلاثون فوق رأسه أصاب أحدها عينه فسالت، ثم رد إلى السجن، وقد بقى كالعبد الأسود من زرقة الضرب وتراكم الدماء فوق جلده، وكان في المحبس محمد بن إبراهيم بن عبداللَّه، وكان فتى جميلاً، وكان يقال له الديباج الأصفر من حسن جماله وبهائه، فأحضره المنصور بين يديه، وقال له: أما لأقتلنك قتلة ما قتلها أحدًا من قبل. ثم ألقاه بين أسطوانتين وسد عليه حتى مات، وقد هلك كثير من آل حسن في السجن فكان فيمن هلك في السجن عبداللَّه بن حسن بن حسن بن على بن أبي طالب وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما، وقَلَّ من خرج منهم من الحبس، وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذانًا ولا يعرفون فيه وقت الصلاة، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبداللَّه العثماني فأمر بضرب عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان. وأما ما كان من أمر محمد بن عبداللَّه فما زال بعض الناس يؤنبونه على اختفائه وعدم ظهوره، حتى عزم على الخروج فواعد أصحابه على الظهور في الليلة الفلانية، وأقبل محمد بن عبداللَّه بن حسن في مائتين وخمسين في المدينة المنورة فمر بسجن المدينة

فأخرج من فيه وجاء دار الإمارة فحاصرها، وأمسك الأمير رباح بن عثمان أمير المدينة وسجنه في دار مروان، واستظهر محمد بن عبدالله على المدينة ودان له معظم أهلها، وجعل محمد يستميل رؤوس أهل المدينة فمنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه، وقال له بعضهم: كيف أبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيها مال تستعين به على استخدام الرجال.

ولزم بعضهم منزله فلم يخرج منه.

وأما ما كان من أمر المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبدالله وعلى رأسهم عيسى بن موسى فلما قدم عيسى بن موسى المدينة فر أهلها منها وتركوا محمدًا وقليلاً من أصحابه، وكانوا زهاء ثلاثمائة رجل، والتحم الجيشان وقتل كثير من جيش محمد وهرب أكثرهم وبقي محمد في شرذمة قليلة، ثم بقي وحده وليس معه أحد، ثم قتل وقطعت رأسه وأرسل بها إلى المنصور.

سادسًا: ذكر خروج إبراهيم بن عبدالله بن حسن بالبصرة سنة ١٤٣هـ:

أرسل محمد بن عبدالله بن حسن أخاه إبراهيم إلى البصرة وتواعدوا على الخروج في يوم واحد، ولما بلغ إبراهيم خبر ظهور أخيه محمد في المدينة خرج في البصرة وبايعه عدد كبير من أهل البصرة، وكان الناس يقصدونه من كل فج لمبايعته، وجعل المنصور يرصد لهم الجنود في الطرق المؤدية إلى البصرة فيقتلوهم، ويأتون برؤوسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ الناس، ثم أرسل المنصور جيشًا كبيرًا لقتال إبراهيم، فخرج إبراهيم في جيشه والتقى الجيشان وهزم جيش إبراهيم وثبت إبراهيم ونفر قليل معه، ثم قتل إبراهيم وقطعت رأسه وأرسلت إلى المنصور.

وبعد...

فرغم أن هذه التجارب التاريخية تتناول زمانًا غير زماننا وظروفًا غير

ظروفنا ووقائع قد تختلف في بعض جزئياتها، أو تتفق في أخرى مع جزئيات واقعنا، ولكن هذه الوقائع تحمل لنا أعظم الدروس وأسمى الخبرات، فالعبرة عظيمة والفائدة جليلة والحكمة باهرة في هذا التاريخ العظيم، وهل هناك أفضل من تاريخنا لكي نأخذ منه العبرة والعظة؟ إنها حكمة السنين تأتينا سهلة سلسة في عدة صفحات، إنها عظة التاريخ الإسلامي لكل جيل بعد هذا الجيل العظيم.. وهؤلاء العظماء من السلف قد جربوا.. وقديمًا قال حكماء السلف: «سلوا المجرِّب فقد استطلع الحقيقة ووقف على الدقيقة وعلم ما لم تعلموا».

□ ونحن لن نستطيع أن نحيا حياتين أو نعيش أعمارنا مرتين عمر نجرب فيه ونخطئ وعمر نتعلم فيه من أخطائنا، فالحل أن نستعير خبراتهم ودروس حياتهم. فمن عاش مع دروس التاريخ كله ـ وليس الإسلامي فحسب ـ طال عمره وازدادت خبرته، فالتاريخ كله عبر وعظات، وقد قص علينا القرآن قصص الأولين والآخرين وقال: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ [يوسف: ٣].

فالبشرية مر من عمرها آلاف السنين، ومن لم ينتفع بخبرة كل هذه السنوات فلا يستحق أن يحيا أو أن يعيش، وصدق المثل الذي يقول: «من لم ينتفع بخبرة آلاف السنين لم يتجاوز زاده في الحياة خبز يوم بيوم»، أي: لم يستفد شيئًا وعليه أن يتخبط تحت نظرية التجربة والخطأ ويحمل بخبرة يوم بيوم، وهذه نظرية مهلكة للأفراد والجماعات والدول والأمم، وهذه النظرية تجعلك كل يوم تقع في خطأ جديد؛ لأنك لم تتعلم تلافي الخطأ من تجربة المحنكين من قبلك، أو لم تتعلمه من تجربة أخيك، أو لم تتعلمه من تجربة سلفك، فأين لنا العمر الطويل؟ وأين لنا من الإمكانيات المادية وأنى لنا بالقدرة المادية التي تهلك بين الحين والآخر لنستطيع تعويضها بعد فقدها؟

ومن أجمل ما قرأت في ذلك عن الخليفة المأمون قوله الحكيم: «ألذ الأشياء التنزه في عقول المجربين».

❑ ولكن كيف يتنزه في عقولهم؟ إنه يتعرف على حكمة عمرهم وخبرات حياتهم وعمق تجاربهم في الحياة؛ وذلك ليضيف أعمارهم إلى عمره وخبراتهم إلى خبرته، وتجاربهم إلى تجربته، وقد علمنا القرآن خبرة البشرية كلها من لدن آدم وهو في الجنة حتى يوم القيامة، ومن أقوى وأعظم أحاديث رسول اللَّه ﷺ قوله: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»، فمن لدغ من جحر مرتين فقد ضاعت منه حكمة وخبرة وتجربة اللدغة الأولى، ومن كان كذلك فهو مؤهل أن يخدع مرات ومرات من نفس الباب ويلدغ مرات ومرات من نفس الجحر.

ويقاس على هذا الحديث قول القائل الحكيم: «لا تلدغ من جحر لدغ منه أخوك».

وقول القائل الحكيم: «لا تكرر أخطاء الآخرين».

وقول الحكيم الآخر: «ابدأ من حيث انتهى الآخرون ولا تبدأ من حيث بدأوا»؛ وذلك حتى لا تكرر أخطاءهم وحتى تجتنب عثراتهم، فالمؤمن كيس فطن، ومن مبادئ الجماعة الإسلامية التي لم تنل حظًا كبيرًا من الرعاية والعناية ذلك المبدأ الشهير: «وتستوعب ما سبقها من تجارب»، فقد قصرنا في العمل بهذه الفكرة العظيمة، وقد يكون سبب التقصير هو عدم انفتاحنا على الآخرين من الحركات الإسلامية في سياق التنافس الشريف على العمل لدين اللَّه، أو الانشغال بالعمل اليومي الدائب الذي يحرم القائمين على العمل للإسلام من الراحة الذهنية للتفكير المتأني، أو تلك المواجهات التي كانت مستعرة بدرجات متفاوته. فالعاملون للإسلام إذا لم يأخذوا الوقت الكافي للتفكير في أمورهم لم تكن خطواتهم سليمة صحيحة، وأفضل شيء في

ذلك أن تفكر وأنت بعيد عن الصدام وتنظر إلى خريطته كاملة من بعيد متأملاً متفكرًا فيه[١] ، وهذا ما حرم منه القائمون على العمل الإسلامي في السنوات الأخيرة تحت ضغط المطاردات الفظيعة التي تعرضوا لها، فأصبحت كل الأمور هي أفعال وردود أفعال، وقد أوردنا هذه الأمثلة من العصر الأول للإسلام لنبين كم من الدماء الزكية أريقت دون فائدة تذكر، وكم شغلت الأمة بنفسها عن أعدائها الأساسيين، وكم من حمامات الدماء التي سفكت من أمة الإسلام دون جدوى، ونحن لسنا في معرض الدفاع عن الحكام ممن سردنا قصصهم ولسنا في معرض اللوم لأئمتها العظماء الأبرار مثل الحسين سيد شباب أهل الجنة أو ابن الأشعث وسعيد بن جبير، ولكن لاستخلاص العبرة والعظة، وحتى لا تسفك الدماء الموحدة الطاهرة دون هدف في مواقع لم تحسب جيدًا وفي حوادث لم تدرس بعناية، فلا أرضًا قطعت ولا ظهرًا أبقت»[٢] .

---

(١) وأين كانوا من سؤال أهل العلم الربانيين أمثال الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ، والشيخ ناصر الدين الألباني ـ رحمه اللَّه ـ والشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه اللَّه ـ والشيخ بكر أبو زيد والشيخ صالح الفوزان والشيخ عبدالرزاق عفيفي ـ رحمه اللَّه ـ. . لِمَ لم يسألوهم. . وهل يُترك الأمر لطلبة العلم دون العلماء الربانيين. . وهل كانت هذه الأمور غائبة في بطون الكتب ولم يعثروا عليها طيلة عشرين عامًا. . حتى تجرأ من تجرّأ ووصل الأمر إلى القول بأن هؤلاء علماء الحيض والنفاس، ولم يخرجوا بعد من أبواب المياة والطهارة. . عفا اللَّه عن الجميع وتقبّل توبتهم، ونحن نحسن الظن بهم. . عاملنا اللَّه وإياهم بلطفه. . ولكن أقولها مئات المرات. . : «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». . لا يترك الأمر لطلبة العلم ويُنحى العلماء الربانيين الورعين. . فأهل الورع كانوا يدققون وترتعش أجسادهم خوفًا من الفتيا من مسائل البيع والشراء فكيف بمسائل الأعراض والدماء.

(٢) تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء لقادة الجماعة الإسلامية الثمانية بمصر ناجح إبراهيم عبداللَّه، وأسامة حافظ، وكرم زهدي، وعاصم عبدالماجد، وعصام دربالة، وفؤاد الدواليبي، وحمدي عبدالرحمن، وعلي الشريف ـ ص(١٠٣ ـ ١٢٠) ـ مكتبة =

ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة

*** نحكم للمرء بالإسلام بأدنى شبهة وعلامة، ولا نخرج المرء من الإسلام إلا بيقين كفر وقيام الحجة الرسالية عليه، ونحن أبعد الناس عن تكفير المعين إلا بضوابط الشرع:**

لا تحكمنا العواطف في الحكم على الناس وسط غربة الإسلام وبُعد الناس عن دينهم في أيامنا هذه.. نحكم للرجل بالدخول في الإسلام بنطقه للشهادتين بإجماع علماء أهل السنة من رجالات السلف.. بل نُجري عليه أحكام المسلم بأقل من هذا، فلو أن طائرة قادمة من دول الإفرنج احترقت بمن فيها، ووجدنا من بينهم من يحمل مصحفًا في جيبه، أو في جبهته أثر السجود أجرينا عليه حكم المسلم وصلينا عليه صلاة الجنازة.

◻ ولا نخرج من الإسلام إلا بيقين كفر كالشمس في رابعة النهار، لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان وقيام الحجة الرسالية عليه.

◻ والسلفيون أبعد الناس عن تكفير المسلمين... وشيخ الإسلام ابن تيمية من أشد الناس نهيًا عن تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة الرسالية عليه، ولا عبرة بافتراء وكذب من يقول: «إن السلفية اغتراب زمني يأخذ صاحبه نحو كتابات المتشددين ويجد ملاذًا في هجرة عصره من خلال الاستغراق فيما يدعو إليه «ابن حزم» من حق الثورة على الحاكم الذي لا يطبق شرع اللَّه وصولاً إلى ما يستشرفه من فكر ابن تيمية حول تكفير الجماعة أحيانًا، ولا يخفى على أحد أن هذه اجتهادات يقابلها على الجانب الآخر عشرات بل

= التراث الإسلامي ـ الطبعة الأولى.

مئات من تراث الفقهاء الكبار الذين يتجهون في منحنى آخر مضيًّا مع التيار العام للإسلام الحنيف، والذي يأخذ بالسماحة مع الغير والحكمة في معالجة الأمور والموعظة الحسنة في الدعوة إلى دين اللَّه»[1] .

---

(١) من مقال «دعوة ونداء» للدكتور مصطفى الفقي بجريدة الأهرام ص(١٣) يوم ٣١ ديسمبر ٢٠٠٢م.

وهو القائل في نفس المقال:

«إن المصري صوفي بطبيعته!!، بسيط بفطرته، يعبد اللَّه في عمق حيث يشغل الدين حيزًا كبيرًا في أعماق وجدانه، ولا شك أن الحركة الصوفية هي نقيض التوجهات السلفية والأصولية ذلك لأن الصوفية إيمان عميق يرتبط باللحظة وليست نزعة ماضوية، بينما السلفية اغتراب زمني. . .».

وهو القائل ـ ويا ليته لم يقل ـ:

«إن مصر هي بحر المذهب السني في العالم الإسلامي ومع ذلك فإنها لا تتعصب له ضد أهل الشيعة بل إنني أزعم ـ وأرجو ألا أكون مغاليًا ـ أن المصري سني المذهب شيعي المزاج، فالفاطميون بنوا الجامع الأزهر لكي يكون مركز انطلاق لمذهبهم الشيعي إلى أن سقطت دولتهم وبدت مصر فجأة وكأن لم يكن فيها شيعي واحد، ومع هذا فإن مصر تحفل بالمزارات المقدسة فهي البلد الذي استقبل أهل البيت في القرن الأول الهجري عندما طاردهم بنو أمية خصوصًا في عهد خلفائهم الأوائل، وها هي قباب القاهرة تغطي أضرحة غالية للسيدة نفيسة والسيدة زينب والسيدة عائشة والحسين سيد الشهداء، وقد ينازعنا غيرنا مزارات لأهل البيت تحمل بعض هذه الأسماء ذاتها، ولكن تبقى مصر هي حضانة ذلك السلف الصالح وحامية الإسلام الصحيح وراعية شريعته السمحاء ولغته الثرية، وما زلت أذكر أن السيد «رافسنجاني» رئيس جمهورية إيران الأسبق قال: إن أحد أحلام حياته هي أن يتمشى يومًا داخل صحن الأزهر الشريف توقيرًا من أهل الشيعة لذلك المركز الإسلامي الأول في الدنيا كلها، فمصر بحق هي بلد المزارات الإسلامية لأهل السنة والشيعة معًا تفد إليها الطوائف الإسلامية كلها ساعية إلى بعض مساجدها تتمسح بها وتتدعي الانتماء إليها طائفة «البهرة» ببعيدة عن هذا السياق ولعلنا نتذكر في هذه المناسبة ذلك الاجتهاد الرفيع الذي قام به الإمام المستنير الشيخ «محمود شلتوت» شيخ الأزهر الأسبق عندما أصدر فتواه الشهيرة التي تقتضي بالمساواة بين أهل السنة وأهل الشيعة «الاثنى عشرية»، وهو ما كان انقلابًا حقيقيًا أدى إلى نزع فتيل الجفوة بين أكبر =

✍ ونقول: إن شيخ الإسلام ابن تيمية جبل أشم.. والشهادة له بأنه شيخ الإسلام قالها شيوخ الإسلام الربانيين من بعده، ومن يحاول الافتراء عليه بأن يكفر الجماعة أحيانًا يبين قدر جهله عند من يعرف ابن تيمية من أقواله وكتبه واللَّه الموعد بينه وبين شانئية:

زعمتم أنكم أحبار علم ... وتطعن في ابن تيمية الأمينا
وكلكمُ خُواءٌ وهو بحرٌ ... هو الصبارُ شيخ المسلمينا
وذا قول الأئمة من قديم ... وما بالطعن صار التبرطينا
أنأخذ عنكمُ الدين النديّ ... وقد صرتُم رعاة الفسق فينا

✍ وها نحن نفرد من كلام ابن تيمية ما ينسف هذه الفرية:

📖 قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«إني من أعظم الناس نهيًا عن أيُنسب معين إلى تكفر وتفسيق ومعصية إلا إذا عُلِم أنه قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى»(١) .

وقال: «وكنت أبين لهم أنما نُقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق؛ لكن يجب التفريق بين

= مذهبين إسلاميين وإيجاد حالة من الارتياح المذهبي الذي يعد إضافة إيجابية مطلوبة للأمة الإسلامية، ومنذ ذلك الحين والأزهر الشريف يواصل رسالته في تدريس الفقه والشريعة والدعوة وفقًا للمذاهب السنية الأربعة مضافًا إليها الفقه الجعفري لأهل الشيعة وهو ما يؤكد استنارة الأزهر واعتداله وشخصيته الرحبة التي يسعى إليها المسلمون جميعًا ،بل تتجاوز ذلك حاليًا إلى الحوار البناء مع أهل الكتاب واتباع الديانات السماوية الغراء» اهـ. كلام الفقي.

وسنرد على هذه الجهالات في رسالة مستقلة تبيّن تخبط الرجل ورحم اللَّه من قال:

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو لطّخت وجهـــــك بالمدادِ

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣/ ٢٢٩).

الإطلاق والتعيين.

◻ وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار، وهي مسألة «الوعيد» فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمْا**﴾ الآية، وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا، فإن هذه مطلقة عامة.

وهي بمنزلة قول من قال من السلف: من قال كذا: فهو كذا ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه: بتوبة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة.

والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ؛ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا.

وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم، فواللَّه لئن قدر اللَّه علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال اللَّه: ما حملك على ما فعلت. قال خشيتك فغفر له».

فهذا رجل شك في قدرة اللَّه، وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنه لا يُعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف اللَّه أن يعاقبه، فغفر له بذلك»[1].

◻ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن المقالة تكون كفرًا: كجحد وجوب الصلاة

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

والزكاة والصيام والحج وتحليل الزنا والخمر والميسر، ونكاح ذوات المحارم، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب وكذا لا يكفر به جاحده، كمن هو حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة بحيث لم تبلغه شرائع الإسلام، فهذا لا يُحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذا لم يعلم أنه أُنزل على الرسول»[١] .

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير، والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعين، إلاّ إذا وُجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول، والفروع. هذا في عذاب الآخرة، فإن المستحق للوعيد من عذاب اللَّه ولعنته وغضبه في الدار الآخرة، خالد في النار، أو غير خالد، وأسماء هذا الضرب من الكفر والفسق، يدخل في هذه القاعدة، سواء كان بسبب بدعة اعتقادية، أو عبادية، أو بسبب فجور في الدنيا، وهو الفسق بالأعمال»[٢] .

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً يُعذَر به، فلا يُحكم بكفر أحدٍ حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿**لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل**﴾، وقال: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾، ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه؛ أو لم يعلم أن الخمر يحرُم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا؛ بل ولم يُعاقَب حتى تبلغه الحجة النبوية».

وقال: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث اللَّه به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث اللَّه به رسوله ولا يكون هناك من

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٥٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٥) طبع دار الوفاء.

يبلغه لك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث: «**يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًّا إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا اللَّه، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجًّا، فقال: ولا صوم ينجيهم من النار**».

وقد دلَّ على هذا الأصل ما أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال رجل ـ لم يعجل حسنة قط ـ لأهله: إذا مات فحرِّقوه، ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فواللَّه لئن قدر اللَّه عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبنه أحدًا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر اللَّه البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت أعلم؛ فغفر اللَّه له**».

وفي لفظ آخر: «**أسرف رجل على نفسه فلماحضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في البحر، فواللَّه لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذَّبه أحدًا. قال: ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدِّ ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال:خشيتك يا رب، أو قال: مخافتك، فغفر له بذلك**»، وفي طريق آخر: «**قال اللَّه لكل شيء أخذ منه شيئًا: أدِّ ما أخذت منه**».

وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة، وعقبة بن عمرو أيضًا عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**كان رجل فيمن كان قبلكم كان يسيء الظن بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا، فجمعه اللَّه، ثم قال: ماحملك على الذي فعلت[1] ؟ فقال: ما حملني إلا**

---

(١) وفي نسخة: صنعت.

مخافتك، فغفر له».

وفي طريق آخر: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت، فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا، وأوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمي، ووصلت إلى عظمي، فامتحشت، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يومًا فذروني في اليم، فجمعه اللَّه فقال له: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك. فغفر اللَّه له». قال عقبة بن عمرو: أنا سمعته - يعني النبي ﷺ - يقول ذلك، وكان نبَّاشا».

فهذا الرجل ظن أن اللَّه لا يقدر عليه إذا تفرّق هذا التفرّق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة اللَّه تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرَّقت كفر، لكنه كان مع إيمانه باللَّه وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك، ضالاً في هذا الظن مخطئًا، فغفر اللَّه له ذلك.

والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكًا في المعاد، وذلك كفر - إذا قامت حجة النبوة على مُنكره حكم بكفره - هو بين في عدم إيمانه باللَّه تعالى».

وقال: «فغاية ما في هذا أنه كان رجلاً لم يكن عالمًا بجميع ما يستحقه اللَّه من الصفات، وبتفصيل أنه القادر، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك، فلا يكون كافرًا.

ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه.. فهذه عائشة أم المؤمنين سألت النبي ﷺ هل يعلم اللَّه كل ما يكتم الناس[1] فقال لها النبي ﷺ: «نعم». وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها بأن اللَّه عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة، وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء

---

(١) ورد في حديث عائشة عند مسلم أنها قالت للنبي: «... قالت: قلتُ: مهما يكتم الناس يعلمه اللَّه؟ قال: نعم!.

كإنكار قدرته على كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب، ولهذا لهزها النبي ﷺ وقال: أتخافين أن يحيف اللَّه عليك ورسوله؟ وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع.

فقد تبيَّن أن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يُحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها»[1].

☐ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعيَّن، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيَّن إلا إذا وُجدَت الشروط وانتفت الموانع. يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه.

فإن الإمام أحمد ـ مثلاً ـ قد باشر «الجهمية» الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق، وردِّ الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولى الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم: يكفِّرون كل من لم يكن جهميًّا موافقًا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القران، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفكُّونه من عدو، ولا يعطونه شيئًا من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة، ولا فُتيا، ولا رواية ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة، والافتكاك من الأسر وغير ذلك، فمن أقرّ بخلق القران حكموا له بالإيمان، ومن لم يقرّ به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان، ومن كان داعيًا إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه أو حبسوه.

✍ ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/٤٠٦ ـ ٤١٣).

قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب.

ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحلَّلهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعيَّنين من الجهمية، الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وأن اللَّه لا يُرى في الآخرة».

وقال عن حديث الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط: «فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة اللَّه على إعادة ابن آدم، بعدما أحرق وذري، وعلى أنه يُعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق باللَّه تعالى، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثاني: متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن اللَّه يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلما كان مؤمنًا باللَّه في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة، وهو أن اللَّه يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملاً صالحًا ـ وهو خوفه من اللَّه أن يعاقبه على ذنوبه ـ غفر اللَّه له بما كان منه من الإيمان باللَّه، واليوم الآخر والعمل الصالح...

وأيضًا فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل، واتفقوا على عدم التكفير بذلك، مثل ما أنكر بعضُ الصحابة أن يكون الميت يسمع دعاء الحي، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف، وكذلك لبعضهم في قتال بعض ولعن بعض وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة.

□ وكان القاضي شريح يُنكر قراءة مَنْ قرأ: ﴿**بل عجبتُ**﴾، ويقول:

إن اللَّه لا يعجب؛ فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه. كان عبداللَّه أفقه منه، فكان يقول: ﴿بل عجبتُ﴾. فهذا قد أنكر قراءة ثابتة، وأنكر صفة دلَّ عليها الكتاب والسنَّة، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة، وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف القرآن، مثل إنكار بعضهم قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ وقال: إنما هي: أو لم يتبين الذين آمنوا، وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾، وقال: إنما هي: ووصى ربك، وبعضهم كان حذف المعوذتين، وآخر يكتب سورة القنوت. وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر.

◻ وأيضًا فإن الكتاب والسنة قد دلَّ على أن اللَّه لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسًا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل﴾، وقوله: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ الآية، وقوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾، وقولهم: ﴿وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، وقوله: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾، وقوله: ﴿ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قامت أيديهم فيقولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك

ونكون من المؤمنين﴾ ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة.

فمن كان قد آمن باللَّه ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول، فلم يؤمن به تفصيلاً، إما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يُعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان باللَّه وبرسوله ما يُوجب أن يثيبه اللَّه عليه، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها.

❑ وأيضًا فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه؛ بل ولا يفسق، بل ولا يأثم؛ مثل الخطأ في الفروع العملية؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطئ فيها آثم، وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب، فهذان القولان شاذان، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع فيها بالنصوص والإجماع القديم، مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر، واستحلال آخرين للقتال في الفتنة...».

❑ وقال: «إن التكفير العام ـ كالوعيد العام ـ يجب القول بإطلاقه وعمومه.

وأما الحكم على المعين بأنه كافر، أو مشهود له بالنار فهذا يقف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه».

وقال: «وإذا عُرِف هذا فتكفير «المُعيَّن» من هؤلاء الجهال وأمثالهم ـ بحيث يُحكم عليه بأنه من الكفار ـ لا يجوز الإقدام عليه، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية، التي يتبيَّن بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كُفر. وهكذا الكلام في تكفير جميع «المعينين» مع أن بعض هذه البدعة أشدّ من بعض وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان

ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يُكفر أحدًا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تُقام عليه الحجة، وتُبين له المحجة.

ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة»[١].

◻ والنقولات كثيرة عن شيخ الإسلام ابن تيمية مشهورة، وهي مثل الشمس في وضوحها وألفاظه صريحة في أن هناك فرق كبير بين كفر النوع وكفر العين، وأن الرجل قد يرتكب فعل الكفر ولا يكفر به فربما كان الرجل جاهلاً أو متأولاً، أو مخطئًا، أو مُكرهًا، أو نشأ ببلدة لا تعرف الإسلام، أو كان حديث عهد بإسلام، أو غلبة علماء السوء على البلدة.

*** بيان شيخ الإسلام ابن تيمية أن ما يُعرَف بنظر العقل لا يكفر الإنسان بمخالفته، بل ولا يكفر بجحده وإنكاره، وإنما يكفَّر بمخالفة الرسول وهو عالم بذلك:**

◻ فقال ـ رحمه اللّه ـ: «والكفر هو من الأحكام الشرعية، وليس كل من خالف شيئًا عُلم بنظر العقل يكون كافرًا، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يُحكم بكفره حتى يكون قوله كفرًا في الشريعة، وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع»[٢].

◻ وقال ـ رحمه اللّه ـ: «فإن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى اللّه ورسوله، ليس لأحد في هذا حكم، وإنما

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٢/ ٤٨٧ ـ ٥٠١).
وانظر «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٣ ـ ٣٦)، و«الرد على البكري» ص(٣٢٨)، و«الأصفهانية» (١٤٤ ـ ١٤٥)، و«الاستقامة» (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، و«منهاج السنة» (٤/ ٧٦، ٧٧، ٩٩، ١٠٠)، (٧/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٢٥).

على الناس إيجاب ما أوجبه اللَّه ورسوله، وتحريم ما حرَّمه اللَّه ورسوله»[١].

□ وقال: «فإن الكفر والفسق أحكام شرعية، ليس ذلك من الأحكام التي يستقل بها العقل، فالكافر من جعله اللَّه ورسوله كافر، والفاسق من جعله اللَّه ورسوله فاسقًا، كما أن المؤمن والمسلم من جعله اللَّه ورسوله مؤمنًا ومسلمًا، والعدل من جعله اللَّه ورسوله عدلاً، والمعصوم الدم من جعله اللَّه ورسوله معصوم الدم»[٢].

*** مذهب أهل السنة والجماعة عدم تكفير كل من خالفهم وإنْ كان مكفِّرا لهم، وطريقة أهل البدع تكفير كل من خالفهم، واستحلال دمه:**

□ قال شيخ الإسلام: «أهل السنة لا يبتدعون قولاً ولا يكفِّرون من اجتهد فأخطأ، وإن كان مخالفًا لهم، مكفرًا لهم، مستحلاً لدمائهم، كما لم يكفِّر الصحابة الخوارج مع تكفيرهم لعثمان وعلي ومن والاهما، واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم»[٣].

وقال: «كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان المخالف يكفِّرهم؛ لأن الكفر حكم شرعي. فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله؛ لأن الكذب والزني حرام لحق اللَّه تعالى، وكذلك التكفير حق للَّه فلا يكفَّر إلا من كفَّره اللَّه ورسوله»[٤].

□ ويقول عن أئمة العلم والعدل والرحمة من أهل السنة والجماعة:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٤٥).
(٢) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٥/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٩٥).
(٤) «الرد على البكري» لابن تيمية (٢٥٦ ـ ٢٥٨).

«يرحمون الخلق فيريدون لهم الخير والهدي والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداءً بل إذا عاقبوهم وبيَّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله للَّه، وأن تكون كلمة اللَّه هي العليا»[١] .

*** مَن كفّر غيره بغير حجَّة ولا برهان يستحق العقوبة الشديدة التي تردعه عن رمي الناس بالعظائم:**

▢ قال ابن تيمية: «وأما تكفير شخص عُلِم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم. فقد ثبت في الصحيح عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: **«ولعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمنًا بكفر فهو كقتله»**[٢] .

▢ وثبت في «الصحيح» أن: **«من قال: لأخيه يا كافر، فقد باء به أحدهما»**[٣] .

▢ ثم قال: «وإذا كان تكفير المعيَّن على سبيل الشتم كقتله، إذ كل كافر يباح قتله، وليس كل من أُبيح قتله يكون كافرًا، فقد يُقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده، مع إمكان أن اللَّه يغفر له في الآخرة؛ لما معه من الإيمان، فإنه قد تواترت النصوص بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[٤] .

▢ وقال: «وأما من قال: إن من نفى التوسل الذي سمَّاه استغاثة بغيره

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٨، ٤٩) (كتاب الأدب)، والشطر الأول منه رواه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب الإيمان (١/ ٧٣).

(٣) رواه البخاري كتاب الأدب (٨/ ٤٨)، ومسلم كتاب الإيمان (١/ ٥٧).

(٤) «الاستقامة» (١/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

كفر، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب، بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثال من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبي ﷺ: **«أيما رجل قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما»**[١].

* دفع التكفير عن علماء المسلمين من أحق الأغراض الشرعية، ودفع إطلاق الكفر عن المسلمين من الأغراض الشرعية:

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رجل دفع التكفير عن بعض علماء المسلمين، وقد كفّرهم بعض الناس لقولهم إن النبي ﷺ أخطأ في مسألة تأبير النخل، فقال: «وهذا القائل إنما ذكر لدفع التكفير عن مثل الغزالي وأمثاله من علماء المسلمين الذين تكلموا في هذا الباب، بل دفع التكفير عن علماء المسلمين؛ وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية، حتى لو فُرض أن دافع التكفير عن القائل - يقصد المتكلم في مسألة تأبير النخل - يعتقد أنه ليس بكافر حماية له، ونصرًا لأخيه المسلم: لكان هذا غرضًا شرعيًّا حسنًا، وهو إن اجتهد في ذلك فله أجران، وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر واحد.

فبكل حال هذا القائل محمود على ما فعل، مأجور على ذلك، مثاب عليه إذا كانت له فيه نيّة حسنة، والمنكر لما فعله أحق بالتعزير منه، فإن هذا يقتضي قوله القدح في علماء المسلمين من الكفر، ومعلوم أن الأول أحق من الثاني إن وجب التعزير لأحدهما، وإن كان كل منهما مجتهدًا اجتهادًا سائغًا، **بحيث يقصد طاعة اللَّه ورسوله بحسب استطاعته، فلا إثم على واحد منهما**»[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١٠٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥/١٠٣ - ١٠٤).

* **وقال فيمن قال ببعض مقالات الباطنية جاهلاً، ولم تقم الحجة عليه:**

«فهذه المقالات هي كفر، لكن ثبوت التكفير في حق الشخص المعين موقوف على قيام الحجة التي يكفر تاركها، وإن أطلق القول بتكفير من يقول ذلك، فهو مثل إطلاق القول بنصوص الوعيد، مع أن ثبوت حكم الوعيد في حق الشخص المعين موقوف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه[١]».

□ وفي التفريق بين كفر النوع وكفر العين، والفرق بين العام المطلق والخاص المعين استدل بما ثبت في «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله، وكان يُلقّب حمارًا، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به فُجلد، فقال رجل من القوم: اللَّهم العنه، ما أكثر ما يُؤتى به، فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنوه، فواللَّه ما علمت إلا أنه يحب اللَّه ورسوله»**[٢].

□ قال: «فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب اللَّه ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة: **«لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها»**[٣]، ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين، الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة به. وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد

---

(١) «بغية المرتاد» لابن تيمية (٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٨٤).

(٣) قال ﷺ: «لعن اللَّه الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه». رواه أبو داود في «سننه» ـ كتاب الأشربة (٣٦٧٤)، وابن ماجه في «سننه» ـ كتاب الأشربة (٣٣٨٠)، وصححه الحاكم والسيوطي، وقال المنذري: رجال ثقات، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٩٦٧).

المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط، وانتفاء موانع»[١].

□ وهناك موانع من إلحاق التكفير بالمعين، وهي الخطأ، والجهل، والعجز، والإكراه، والتأويل، والجنون، وغلبة علماء السوء على البلدة، والصغر.

موانع إطلاق الكفر على المعين

الأول: الخطأ:

والمقصود هنا غير العمد، وهذا الخطأ سواءً وقع في المسائل العلمية الخبرية، أو المسائل العملية فهو خطأ مغفور، ما لم تقم الحجة على صاحبه.

وهو يشمل صنفين من الناس:

الصنف الأول: المجتهد في إطلاق الحكم على المسألة.

الصنف الثاني: المتوقف عن الحكم في مسألة ما.

وقد يحصل أجر لبعض المجتهدين المخطئين أو المتوقفين في هذه المسائل، وقد لا يحصل لهم ذلك؛ إذ أن المسائل التي يخطئ فيها المجتهدون تنقسم - من حيث حصول أجر الاجتهاد وعدمه - إلى قسمين:

أحدهما: خطأ لا يعاقب عليه صاحبه ولا يثاب، حتى تبلغه الرسالة، وتقوم عليه الحجة، وهذا الخطأ فيما لم يشرع جنسه؛ كالشرك مثلاً.

□ قال شيخ الإسلام في ذلك، بعد أن ذكر ما يشرع جنسه، وحكم المخطئ فيه: «بخلاف ما لم يشرع جنسه مثل الشرك، فإن هذا لا ثواب فيه، وإن كان اللّه لا يعاقب صاحبه إلا بعد بلوغ الرسالة، كما قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾. لكنه وإن كان لا يعذب فإن هذا لا يثاب بل

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٢٩ - ٣٣٠).

هذا كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

❑ قال ابن المبارك هي: «الأعمال التي عملت لغير اللَّه». وقال مجاهد: «هي الأعمال التي لم تقبل».

* وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. فهؤلاء أعمالهم باطلة لا ثواب فيها. وإذا نهاهم الرسول عنها فلم ينتهوا، عوقبوا، فالعقاب عليها مشروط بتبليغ الرسول، وأما بطلانها في نفسها فلأنها غير مأمور بها، فكل عبادة غير مأمور بها فلا بد أن ينهى عنها، ثم إن علم أنها منهي عنها وفعلها استحق العقاب، وإن اعتقد أنها مأمور بها، وكانت من جنس المشروع فإنه يثاب عليها، وإن كانت من جنس الشرك فهذا الجنس ليس فيه شيء مأثور به، لكن قد يحسب بعض الناس في بعض أنواعه أنه مأمور به، وهذا لا يكون مجتهدًا؛ لأن المجتهد لا بد أن يتبع دليلاً شرعيًا، وهذه لا يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يفعلها باجتهاد مثله؛ وهو تقليده لمن فعل ذلك من الشيوخ والعلماء والذين فعلوا ذلك قد فعلوه لأنهم رأوه ينفع، أو لحديث كذب سمعوه. فهؤلاء إذا لم تقم عليها الحجة بالنهي لا يعذبون، وأما الثواب فقد يكون ثوابهم أنهم أرجح من أهل جنسهم، وأما الثواب بالتقرب إلى اللَّه فلا يكون بمثل هذه الأعمال»[1].

القسم الثاني: خطأ المجتهد الذي لا يعاقب على خطئه وله أجر على اجتهاده وهذا الخطأ يشترط فيه ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون قصدة متابعة النبي ﷺ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٢ ـ ٣٣).

الثاني: أن يكون استفرغ وسعه في طلب الحق ومعنى الوسع [هو ما تسعه النفس، فلا تضيق عنه ولا تعجز عنه، فالوسع فعل بمعنى مفعول، كالجهد][(١)].

الثالث: أن يكون متبعًا دليلاً شرعيًّا؛ إلا أن هذا الدليل تخلف فيه شرط قبوله في الاستدلال ـ وهو لا يعلم ذلك ـ؛ كالصحة، وعدم النسخ، وعدم التخصيص، ونحو ذلك. أو فهم أمرًا غير مقصود منه.

◻ قال شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه تعالى ـ مبينًا هذه الشروط: «والمجتهد المخطئ له أجر؛ لأن قصده الحق وطلبه بحسب وسعه وهو لا يحكم إلا بدليل، كحكم الحاكم بإقرار الخصم بما عليه، ويكون قد سقط بعد ذلك بإبراء أو قضاء، ولم يقم به حجة، وحكمه بالبراءة مع اليمين، ويكون قد اشتغلت الذمة باقتراض، أو ابتياع غير ذلك، لكن لم يقم به حجة، وحكم لرب اليد مع اليمين، ويكون قد انتقل الملك عنه، أو يده يد غاصب؛ لكن لم يقم به حجة.

وكذلك الأدلة العامة؛ يحكم المجتهد بعمومه، وما يخصه ولم يبلغه[(٢)]، أو بنص وقد نسخ ولم يبلغه، أو يقول بقياس ظهرت فيه التسوية؛ وتكون تلك الصورة امتازت بفرق مؤثر؛ وتعذرت عليه معرفته؛ فإن تأثير الفرق قد يكون بنص لم يبلغه، وقد يكون وصفًا خفيًّا.

ففي الجملة الأجر هو على اتباعه الحق بحسب اجتهاده؛ ولو كان في الباطن حق يناقضه؛ هو أولى بالاتباع، لو قدر على معرفته لكن لم يقدر.

فهذا كالمجتهدين في جهات الكعبة، وكذلك كل من عبد عبادة نُهِيَ عنها ولم يعلم بالنهي ـ لكن هي من جنس المأمور به ـ؛ مثل من صلى في

(١) «الاستقامة» (١/ ٢٧).

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها (بعمومها وما يخصصها لم يبلغه).

أوقات النهي، وبلغه الأمر العام بالصلاة، ولم يبلغه النهي، أو تمسك بدليل خاص مرجوح»[1].

فإذا فقدت أحد هذه الشروط كان الحكم بحسب ما يقتضيه مخالفة الشرط فإن كان قصده عدم متابعة النبي ﷺ، بل قصده شقاقه وعناده فهو كافر.

وإن قصر في طلب الحق أو تكلم بغير دليل شرعي، فهو عاص، وقد يكون فاسقًا.

□ قال شيخ الإسلام: «وأما التكفير فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد ﷺ وقصد الحق فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه، ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر. ومن اتبع هواه، وقصَّر في طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب، ثم قد يكون فاسقًا، ثم قد تكون له حسنات ترجح على سيئاته»[2].

* المجتهد المخطئ في التأويل:

ويدخل ضمن أقسام الخطأ الذي يعذر فيه المسلم: الخطأ في التأويل، قال شيخ الإسلام: «لكن ليس كل مخطئ يكفر، لا سيما إذا قاله متأولاً باجتهاد أو تقليد»[3]، أما وقوع الذنب عليه وعظم الذنب وصغره فيتناسب مع حجم تقصيره في طلب الحق تناسبًا طرديًا؛ بمعنى: أنه كلما كان تقصيره في طلب الحق أعظم، كان الذنب عليه أعظم. وفي هذا يقول شيخ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٠ ـ ٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٨٠).

(٣) «الرد على البكري» (٣٢٨).

الإسلام: «وعلى هذا فالمتأول الذي أخطأ في تأويله، في المسائل الخبرية والأمرية، وإن كان في قوله بدعة يخالف بها نصًّا، أو إجماعًا قديمًا، وهو لا يعلم أنه يخالف ذلك بل قد أخطأ فيه، كما يخطئ المفتي والقاضي في كثير من مسائل الفتيا والقضاء باجتهاده، يكون أيضًا مثابًا من جهة اجتهاده الموافق لطاعة اللَّه تعالى، غير مثاب من جهة ما أخطأ فيه، وإن كان معفوًّا عنه.

ثم قد يحصل فيه تفريط في الواجب، أو اتباع لهوى يكون ذنبًا منه، وقد يقوى فيكون كبيرة، وقد تقوم عليه الحجة التي بعث اللَّه عز وجل بها رسله، ويعاندها مشاقًا للرسول من بعد ما تبين له الهدى، متبعًا غير سبيل المؤمنين، فيكون مرتدًّا ردة ظاهرة»[١] .

□ ومن الأمثلة على وقوع الخطأ في التأويل ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه ـ بقوله: «وذلك كالمتأولين في تناول المسكر من صالحي أهل الكوفة، ومن اتّبعهم على ذلك، وإن كان المشروب خمرًا لا يشك في ذلك من اطلع على أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة، وكذلك المتأولون للمتعة[٢]، والصرف[٣] من أهل مكة، متبعين لماكان يقوله ابن عباس ـ وإن كان قد رجع عن ذلك، أو زادوا عليه ـ إذ لا يشك في ذلك، وأنه من أنواع الربا المحرم والنكاح المحرم، من اطلع على نصوص النبي ﷺ ، وكذلك المتأولون في

(١) «الأصفهانية» (١٤٤ ـ ١٤٥).

(٢) «سنن البيهقي» (٧/ ٢٠٥)، و«المغني» (١٠/ ٤٨).

(٣) وردت عدة أحاديث في ذلك منها: ما رواه الشيخان عن أبي المنهال قال: «باع شريك لي ورقًا بنسيئة إلى الموسم، أو إلى الحج، فجاء إلي فأخبرني، فقلت: هذا أمر لا يصلح، قال: قد بعته في السوق، فلم ينكر ذلك علي أحد...». وكذلك ما ورد عن ابن عباس من إباحة ربا الفضل، متأولاً قوله النبي ﷺ: «لا ربا إلاّ في النسيئة»، فلما بين له رجع عن ذلك. رواه البخاري (٣/ ١٥٥) كتاب البيوع، ومسلم (٥/ ٤٥، ٤٩) كتاب البيوع.

بعض الأطعمة والحشوش[1] من أهل المدينة، وإن كان لا يشك في تحريم ذلك من اطّلع على نصوص النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك ما دخل فيه من دخل من السابقين والتابعين من القتال في الفتنة والبغي بالتأويل[2] ، مع علم في ذلك من نصوص الكتاب والسنة: من ترك القتال، والصلح. فما تأول فيه قوم من ذوي العلم والدين من مطعوم أو مشروب أو منكوح، أو مملوك، أو مما قد علم أن اللَّه قد حرمه ورسوله لم يجز اتباعهم في ذلك ـ مغفورًا لهم ـ وإن كانوا خيار المسلمين، واللَّه قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان، كما دل عليه الكتاب والسنة، وهو سبحانه يمحو السيئات بالحسنات، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات»[3] .

□ وقال أيضًا: «فالاستحلال الذي يكون من موارد الاجتهاد، وقد أخطأ المستحل في تأويله، مع إيمانه وحسناته، هو مما غفره اللَّه لهذه الأمة من الخطأ في قوله: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ [البقرة: ٢٦٨].

كما استحل بعضهم بعض أنواع الربا، واستحل بعضهم بعض أنواع الخمر، واستحل بعضهم استماع المعازف، واستحل بعضهم من دماء بعض بالتأويل ما استحل. فهذه المواضع التي تقع من أهل الإيمان والصلاح تكون سيئات مكفرة أو مغفورة، أو خطأ مغفورًا، ومع هذا فيجب بيان ما دل عليه الكتاب والسنة من الهدي ودين الحق، والأمر بذلك والنهي عن خلافه بحسب الإمكان. ثم هذه الأمور التي كانت من أولئك تكثر وتتغلظ في قوم آخرين بعدهم، حتى تنتهي بهم إلى استحلال محارم اللَّه والخروج عن دين

---

(١) الحشوش: الأدبار. وقد روي عن ابن عمر، ونافع، وزيد بن أسلم، ومالك إباحة اتيان النساء في أدبارهن، متأولين قوله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]. انظر «تفسير الطبري» (٢/ ٣٩٤)، «المغني» (١٠/ ٢٢٦).

(٢) المقصود بذلك ما وقع بين الصحابة في الجمل وصفين.

(٣) «الاستقامة» (١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

اللَّه، وإذا تغلظت هذه الأمور عاقب اللَّه أصحابها بما يشاء، وقد كان بعض الصحابة ظن أن الخمر حرِّمت على العامة دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فشربها متأولاً فأحضره عمر، واتفق هو وأئمة الصحابة كعلي وغيره على أنهم إن أصروا على استحلالها كفروا، وإن أقروا بالتحريم جلدوا، فأقروا بالتحريم. ثم حصل لذلك نوع من اليأس والقنوط لمن فعل، فكتب إليه عمر ﴿**حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾ [غافر:١، ٢]، وأظنه قال: ما أدري أي ذنبيك أعظم: استحلالك الرجس، أم يأسك من رحمة اللَّه؟[1] .

وهذا كما أنه مثل لوقوع الخطأ في التأويل، فهو دليل أيضًا على أن التكفير يدرء عن المتأول.

*** والأدلة على أن المخطئ معذور كثيرة منها:**

ما رواه مسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ**﴾. قال دخل قلوبهم منها شيء، لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «**قولوا سمعنا، وأطعنا، وسلَّمنا**». قال: فألقى اللَّه الإيمان في قلوبهم، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾. قال: قد فعلت ﴿**رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾. قال: قد فعلت ﴿**وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا**﴾ قال: قد فعلت»[2] .

وأيضًا فإن اللَّه سبحانه وتعالى قد أخبر في غير ما موضع أنه لا يكلِّف

(١) «صحيح مسلم» ـ كتاب الإيمان (١/ ٨١).
(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ١٠٣).

نفسًا إلا وسعها، كقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصاحات لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾، وقوله: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾، وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

◻ وقال بعد إيراده لهذه الآيات: «ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك فاللَّه يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه اللَّه لنبيه وللمؤمنين، حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1] .

◻ وقال أيضًا: «ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافرًا، ولا فاسقًا، بل قد عفا اللَّه لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وثبت في الصحيح أن اللَّه قال: قد فعلت»[2] .

* وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

◻ ومنها ما رواه ابن ماجه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

◻ **ومنها**: الإجماع، قال شيخ الإسلام: «وأجمع الصحابة وسائر أئمة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٢٠).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه ـ كتاب الطلاق (٢٠٤٥)، وحسنه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٨٥)، والنووي في «الأربعين النوويه»، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٢).

المسلمين على أنه ليس كل من قال قولاً أخطأ فيه أنه يكفر بذلك، وإن كان قوله مخالفًا للسنة، فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع»[١] .

❑ ومنها: قياس الأولَى؛ وذلك أن المجتهد المخطئ أولى بالعذر من الجاهل الذي لم يطلب العلم.

*** ثانيًا: الجهل:**

بيَّن شيخ الإسلام أن من شرط الإيمان وجود العلم بالمؤمن به، لذا من أنكر أمرًا من أمور الشرع جاهلاً به، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله، فإنه لا يكفر[٢] . حتى الوقوع في مظهر من مظاهر الشرك، والواقع فيه لم يكن عالمًا بتحريمه في دين الإسلام؛ كأن يكون حديث عهد بالإسلام، وقد اعتاد على هذا المظهر الشركي قبل إسلامه، ولم يعلم مناقضته للإسلام، أو كان يعيش في بلد جهل، فهذا لا يستحق العقوبة حتى تقام عليه الحجة[٣] .

وهذا المانع ذكره السلف قبل شيخ الإسلام، فقد ذكره سفيان الثوري ضمن رده على المرجئة، قال: «ركوب المحارم من غير استحلال معصية، وترك الفرائض متعمدًا من غير جهل ولا عذر، هو كفر»[٤] .

كما ذكره ابن قدامة المقدسي[٥] .

وقد سبق ذكر أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في أن الجهل مانع من إلحاق الكفر بالمعين.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٣٨).

(٣) «الرد على الأخنائي» (٦١ ـ ٦٢).

(٤) «السنة» لعبدالله بن أحمد (٧٤٥).

(٥) «المغني» (١٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

* **ثالثًا: العجز:**

شريعة الإسلام شريعة سهلة ميسرة، فهي كما أنها جاءت محكمة شاملة لجميع نواحي الحياة، فهي كذلك متناسبة مع أحوال البشر وطاقاتهم وقدرهم؛ لذا جعلت الأحكام في حال الضرورة مختلفة عن الأحكام في حال السعة والرخاء، ومن هذا التناسب في التشريع مع طاقات البشر وقدرهم: أن المرء لا يكلف ما لا يطيق[1]؛ ولا يقدر على أدائه.

* وقد جاء هذا المعنى مصرحًا به في مواضع كثيرة من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾، وقوله: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾، وغيرها من الآيات.

□ وانطلاقًا من ذلك عد شيخ الإسلام العجز عن أداء ما شرع اللَّه عز وجل من الموانع التي تمنع من التكفير؛ وذلك كأن تبلغ دعوة النبي ﷺ لبعض الكفار وهم في دار كفر، فعلموا أنه رسول اللَّه فآمنوا به، وآمنوا بما أنزل عليه واتقوا اللَّه ما استطاعوا، ولم يتمكنوا من الهجرة إلى دار الإسلام، ولا الالتزام بجميع شرائع الإسلام؛ لكونهم ممنوعين من الهجرة، وممنوعين من إظهار دين اللَّه، وليس عندهم من يعلمهم جميع شرائع الإسلام، فهؤلاء مؤمنون من أهل الجنة[2].

□ قال شيخ الإسلام مبينًا هذا المانع: «فمن ترك بعض الإيمان الواجب

---

(١) انظر (النساء: ١٦٥)، والإسراء (١٥)، و«مجموع الفتاوى» (١١/٤٠٦، ٤٠٩ ـ ٤١٠، ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«مجموع الفتاوى» (٣/٢٣١)، و«الرد على البكري» (٢٥٩)، و«مجموع الفتاوى» (٣٥/١٦٥ ـ ١٦٦)، (٢٠/٣٦)، (٦/٦١)، و«الاستقامة» (١/٣٠)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/٢٣٨)، و«الرد على الأخنائي» (٦٦)، و«الأصفهانية» (١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/٢١٧).

لعجزه عنه؛ إما لعدم تمكنه من العلم؛ مثل أن لا تبلغه الرسالة، أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأموراً بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه؛ وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل؛ بمنزلة المريض والخائف والمستحاضة، وسائر أهل الأعذار؛ الذين يعجزون عن إتمام الصلاة، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه، وبه أمروا إذ ذاك، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل، كما قال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»[١].

*** واستدل شيخ الإسلام على ذلك بما يأتي:**

الدليل الأول:

أن النجاشي كان ملك النصارى في الحبشة، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، ولم يدخل معه سوى نفر يسير منهم، فلما مات، صلى عليه النبي ﷺ بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى، فصفهم صفوفًا، وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، فقال: «**قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم فصلوا عليه**»[٢].

وكثير من شرائع الإسلام لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم. ويُعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن؛ لأن قومه لا يقرونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**

(١) رواه مسلم (٧/ ٥٦) ـ كتاب القدر انظر «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).

(٢) رواه البخاري ـ كتاب الجنائز (٢/ ١٨٥)، ومسلم ـ كتاب الجنائز (٣/ ٥٥).

لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهذه الآية قد قال طائفة من السلف: إنها نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه[1].

الدليل الثاني:

* قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

◘ ذكر شيخ الإسلام أن هذه الآيات في جماعة من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم بمكة، وهم عاجزون عن الهجرة، فعذرهم اللَّه تعالى[2].

الدليل الثالث:

* قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

◘ قال شيخ الإسلام مبينًا وجه الدلالة من هذه الآية: «فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط ما عجزوا عنه، فإذا كان هذا فيمن كان مشركًا وآمن فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن»[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢١٧ - ٢١٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٢٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٢٠ - ٢٢١).

الدليل الرابع:

ما أخبر به عن حال مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وعن حال إمرأة فرعون وكما كان يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ مع أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفارًا ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام؛ لأنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه[1] .

*** رابعًا: الإكراه:**

الإكراه لغة هو: إلزام الغير بأمر هو له كاره.

واصطلاحًا: بيَّنه شيخ الإسلام بأنه: كل ما أدى بشخص لو لم يفعل المأمور به إلى ضرب، أو حبس، أو أخذ مال، أو قطع رزق يستحقه، أو نحو ذلك.

وشروطه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع؛ ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظن المكره أنه إذا امتنع أوقع به ما هدده به.

الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًّا، أو بعد زمن قريب جدًّا، أو جرت العادة أنه لا يخلف ما هدده به.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

* والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢١٧).

أما اعتبار هذا المانع، وإباحة اظهار ما يخالف الدين في حال الإكراه، فقد ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه ـ، فقال ضمن رده على التقية؛ أحد عقائد الرافضة: «وكتمان الدين شيء، وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبحه اللَّه قط؛ إلا لمن أكره، بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر»[١] .

◻ وقال في موضع آخر: «فأباح سبحانه عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، بخلاف من شرح بالكفر صدراً. وأباح للمؤمنين أن يتقوا من الكافرين تقاة، مع نهيه لهم عن موالاتهم.

● وعن ابن عباس: «إن التقية باللسان»[٢] ، ولهذا لم يكن عندنا نزاع في أن الأقوال لا يثبت حكمها في حق المكره بغير حق، فلا يصح كفر المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق»[٣] .

وفي موضع آخر قال: «وإذا أكره على كلمة الكفر، جاز له التكلم بها، مع طمأنينة في قلبه بالإيمان»[٤] .

وهذا المانع معتبر عند السلف لدلالة النصوص عليه، فقد روي عن الحسن أنه قال: «التقية إلى يوم القيامة».

● وعن ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص، فيطلق امرأته، قال: ليس بشيء. وبه قال ابن عمر، وابن الزبير، والشعبي والحسن[٥] ، كما

---

(١) «منهاج السنة» (٦/ ٤٢٤).

(٢) رواه صالح بن أحمد في «مسائل الإمام أحمد» (٥٧١)، والطبري في «التفسير» (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٠٨).

(٣) «الاستقامة» (٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٠٤).

(٥) انظر «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢). ويقصد بالتقية هنا: إبطان الإسلام إذا خشي على نفسه في بلد الكفر.

اعتبره الشافعي[١]، وأبو حنيفة[٢]، وذكره البخاري في «صحيحه».

□ وقال بعد أن سرد بعض الأدلة عليه: فعذر اللَّه المستضعفين الذين لا يمتنعون من ترك اللَّه ما أمر اللَّه به، والمكره لا يكون إلا مستضعفًا غير ممتنع من فعل ما أمر به[٣].

كما ذكر القرطبي: أن النطق بكلمة الكفر تسقط الأحكام المترتبة عليه والإثم في حال الإكراه باتفاق العلماء[٤].

وضمن تقرير شيخ الإسلام لارتباط الأعمال الظاهرة لأعمال القلوب بين أن وجود هذا المانع يمنع من إيقاع الكفر.

□ فقال ـ رحمه اللَّه ـ مستدلاً على ذلك: «أما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطنًا وظاهرًا، فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط، ونظير هذا لو قيل: أن رجلاً من أهل السنة قيل له: ترضّ عن أبي بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضي عنهما، فهذا لا يقع أبدًا.

وكذلك لو قيل أن رجلاً يشهد أن محمدًا رسول اللَّه باطنًا وظاهرًا وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبة ولا رغبة لأجلها، فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدًا رسول اللَّه؛ ولهذا كان القول في الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف، والأولين والآخرين؛ إلا الجهمية ـ جهمًا ومن وافقه ـ.

فإنه إذا قدر أنه معذور لكونه أخرس، أو لكونه خائفًا من قوم إن أظهر

---

(١) انظر «الأم» (٤/ ٣٠٤).
(٢) انظر «المبسوط» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٤).
(٣) «صحيح البخاري» (١٢/ ٣١١ فتح الباري).
(٤) «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢).

الإسلام آذوه ونحو ذلك، فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمانه في قلبه، كالمكره على كلمة الكفر، قال اللَّه تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦] وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه.

فإنه جعل[1] كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»[2].

وهل يشمل الإكراه الأفعال كما يشمل الأقوال، أم لا؟

بين شيخ الإسلام أن هذه المسألة مختلف فيها على قولين، وأن الجمهور على أنه شامل للأفعال كما أنه شامل للأقوال، وهذا الذي مال إليه ـ رحمه اللَّه ـ.

□ فقال ضمن كلامه على من أكره على السجود لمخلوق: «وأما إذا أكره الرجل على ذلك بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه، أو حبسه، أو أخذ ماله الذي يستحقه من بيت المال، ونحو ذلك من الضرر، فإنه يجوز عند أكثر العلماء؛ فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه وهو المشهور عن أحمد وغيره، ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان. ومن علم منه الصدق أعانه اللَّه تعالى، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك. وذهب طائفة إلى أنه لا يبيح إلا الأقوال دون الأفعال، ويروى ذلك عن ابن عباس، ونحوه، وقالوا: إنما التقية باللسان. وهي الرواية الأخرى عن أحمد»[3].

---

(١) لعلها: فإنها جعلت...، ويرجع الضمير إلى الآية.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٣) «مجموع الفتاوى المصرية» (١/ ٥٦)، ورواية الإمام أحمد الثانية رواها صالح عنه. انظر «مسائل الإمام إحمد» لابنه صالح (٥٧٠)، أما حكاية المشهور فانظر «المغني» (١٢/ ٤٩٩).

☐ وأما فعل الأفعال الكفرية، أو قول الأقوال الكفرية للحصول على فضل رئاسة أو مال، وإذا لم يفعل ذلك فاتته هذه الرئاسة أو هذا المال فلا يعتبر إكراهًا.

☐ يقول شيخ الإسلام في ذلك: «وأما فعل ذلك لأجل فضل الرئاسة والمال فلا»[١].

☐ وبين ـ رحمه اللَّه ـ وجهًا حسنًا يسلكه المكره على مثل ذلك، ونوى بقلبه إن هذا الخضوع للَّه تعالى كان حسنًا، مثل أن يكرهه على كلمة الكفر وينوي معنى جائزًا، واللَّه أعلم»[٢].

*** شروط تكفير المعين:**

الأول: أن يقصد المعيَّن بكلامه المعنى المكفِّر.

فلزام قبل تكفير المعين معرفة قصد المعين، والتزامه بالمعنى الكفري أو عدم التزامه؛ وذلك لأن بعض الألفاظ متشعبة المعاني، فربما قصد المعين من لفظ معنى غير المعنى الكفري، أو قال قولاً يستلزم أمورًا مكفرة لم يقصدها، ولا يلتزمها، فمن كان هذا حاله يكون رميه بالكفر أمرًا مشكوكًا، لا يجوز التجرؤ عليه.

☐ يقول: «لازم المذهب ليس بمذهب، إلا أن يلتزمه صاحب المذهب. فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظًا أو يثبتونها، بل ينفون معاني أو يثبتونها، ويكون ذلك مستلزمًا لأمور هي كفر وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون، وما أكثر تناقض الناس لا سيما في هذا الباب، وليس التناقض كفرًا»[٣].

---

(١) «مجموعة الفتاوى المصرية» (١/٥٦).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/٣٠٦ ـ ٣٠٧).

وقال: «فالصواب أن مذهب الإنسان ليس بمذهب له إذا لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره أو نفاه، كانت إضافته إليه كذبًا عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال، غير التزامه اللوازم التي يظهر أنها من قبل الكفر والمحال مما هو أكثر[1] .

فالذين قالوا بأقوال يلزمها أقوال يُعلم أنه لا يلتزمها، لكن لم يعلم أنها تلزمه، ولو كان لازم المذهب مذهبًا للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات أنه مجاز ليس بحقيقة، فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون بشيء من أسمائه أو صفاته حقيقة... لكن نعلم أن كثيرًا ممن ينفي ذلك لا يعلم لوازم قوله»[2] .

واستدل شيخ الإسلام بقول اللَّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال: «وهذه العبارة كانت مما يقصد به اليهود إيذاء النبي ﷺ، والمسلمون لم يقصدوا ذلك فنهاهم اللَّه تعالى عنها، ولم يكفرهم بها»[3] .

فإن المسلمين «كانوا يقولون: راعنا يا رسول اللَّه. من المراعاة أي: أرعنا سمعك؛ أي: فرِّغ سمعك لكل منا، وكانت هذه اللفظة سبًّا قبيحًا بلغة اليهود، قيل: كان معناها عندهم: اسمع لا سمعت، وقيل: هي من الرعونة، فكانوا إذا أرادوا إطلاق الحمق على أحد قالوا: راعنا. فنهى اللَّه المسلمين من إطلاق هذه الكلمة، حتى لا يتخذها اليهود وسيلة لسبِّ النبي ﷺ جهارًا»[4] .

---

(١) الكلام مبتور في هذا الموضع.
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٢١٧ ـ ٢١٨).
(٣) «الرد على البكري» لابن تيمية (٣٤١ ـ ٣٤٢).
(٤) «تفسير البغوي» (١/١٠٢).

الشرط الثاني: قيام الحجة:

فقيام الحجة شرط في تكفير المعين، وقيام الحجة في حق الكفار هو وجود الرسول المبلِّغ، والتمكن من الاستماع له.

❑ قال ابن تيمية: «والحجة قامت بوجود الرسول المبلِّغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر، لا بنفس الاستماع»[1] .

أما في المسلم فيراعي اختلاف أحوال الناس، من حيث قرب عهدهم بالإسلام أو قدمهم فيه، ومن حيث انتشار العلم في بلدانهم، أو قصوره عنها، كما يراعى حال السنة التي جحدها الجاحد من حيث ظهورها وخفائها. فإن كانت السنة خافية، أو البلد ينتشر فيه الجهل، أو كان الشخص قريب عهد بإسلام، أو لم يبلغه العلم بالسنة، اشترط فيه قيام الحجة، وإلا ينظر هل تعلقت بجحده شبهة أم لا؟

❑ قال شيخ الإسلام: «وقد ينكر أحد القائلين على القائل الآخر قوله إنكارًا يجعله كافرًا، أو مبتدعًا أو فاسقًا، يستحق الهجر، وإن لم يستحق ذلك، وهو أيضًا اجتهاد، وقد يكون ذلك التغليظ صحيحًا في بعض الأشخاص، أو بعض الأحوال، لظهور السنة التي يُكفَّر من خالفها، ولما في القول الآخر من المفسدة التي يُبدع قائلها، فهذه أمور ينبغي أن يعرفها العاقل، فإن القول الصدق إذا قيل فإن صفته الثبوتية اللازمة: أن يكون مطابقًا للمخبر.

أما كونه عند المستمع معلومًا، أو مظنونًا، أو مجهولاً، أو قطعيًّا، أو ظنيًّا، أو يجب قبوله، أو يحرم، أو يكفر جاحده، أو لا يكفر، فهذه أحكام عملية تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/١٦٦).

فإذا رأيت إمامًا قد غلّظ على قائل مقالته، أو كفَّره فيها، فلا يُعتبر هذا حكمًا عامًّا في كل من قالها، إلا إذا حصل فيه الشرط الذي يستحق به التغليظ عليه، والتكفير له، فإن من جحد شيئًا من الشرائع الظاهرة، وكان حديث العهد بالإسلام، أو ناشئًا ببلد جهل لا يكفر حتى تبلغه الحجة النبوية.

وكذلك العكس إذا رأيت المقالة المخطئة قد صدرت من إمام قديم فاغتفرت، لعدم بلوغ الحجة له، فلا يغتفر لمن بلغته الحجة ما اغتُفِر للأول، فلهذا يُبدَّع من بلغته أحاديث عذاب القبر أو نحوها إذا أنكر ذلك، ولا تُبدَّع عائشة ونحوها ممن لم يعرف بأن الموتى يسمعون في قبورهم، فهذا أصل عظيم فتدبره فإنه نافع»[1].

* اشتراط الايضاح التام في قيام الحجة، وإزالة الشبهات:

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن اللَّه تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرًا لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهَّال، وكان هذا خطابًا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم. وأصل جهلهم شبهات عقلية، حصلت لرؤوسهم، في قصور من معرفة المنقول الصحيح، والمعقول الصريح الموافق له»[2].

وقال: «ليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحجة، وتُبيَّن له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٦٠ ـ ٦١). وأثر عائشة ﵂ رواه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الجنائز (٢/ ٢٠٤)، ولفظه أنها قالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم ليعلمون الآن أنما كنت أقول حق وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢].

(٢) «الردُّ على البكري» ص(٢٥٩).

بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[1] .

* **الفرق بين قيام الحجة وإقامة الحجة :**

إقامة الحجة تكون بتبليغ أدلة الشرع القطعية التي يكفر المخالف لها بواسطة القاضي أو العالم الذي يُفتي بكفر هذا الشخص، فينتفي بذلك عذره ظاهرًا، ويثبت حكم كفره في الظاهر، ويثبت حكم الكفر عليه في الحقيقة أي في الباطن.

وقد يكون الشخص قد قامت عليه الحجة وبلغته النصوص القاطعة وخالفها مستحلاً لمحرم أو مستحلاً لترك واجب، وصار بذلك كافرًا، ولكننا لا نعلم بقيام الحجة عليه، فلا نحكم بكفره ظاهرًا في أحكام الدنيا حتى نستيقن من إقامة الحجة.

□ وإقامة الحجة شرط لإجراء الحكم الظاهر على الشخص المرتكب للكفر في المسألة المعيَّنة التي ثبت أنها كُفر.

وقيام الحجة بالفعل تكون ببلوغ الأدلة القطعية، وعلى ذلك لو ارتكب شخص ما عملاً كفريًّا ومات على ذلك، ولا ندري أقيمت عليه الحجة أم لا، والمسألة فيها شبهة، فهذا الشخص ليس مجهول الحكم، بل هو ما زال على حكم الإسلام؛ لأنه ثبت إسلامه من قبل بيقين لا يُخرج منه إلا بيقين.

فمقصودنا: أن بلوغ الحجة شرط في ثبوت الحكم بالكفر حقيقة (أي باطنًا).

وإقامتها شرط في ثبوت الحكم ظاهرًا، فمن بلغته الحجة ولم نعلم نحن بها ظاهرًا فهو كافر باطنًا، وإنْ كُنَّا في الظاهر لم نكفره لعدم علمنا بإقامة الحجة عليه، أيْ: لا بدَّ قبل حكمنا بكفره ظاهرًا من إقامة الحجة عليه ظاهرًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦٦).

فليس هناك مرحلة متوسطة لا يُحكم فيها على الشخص بعدم الإسلام وبعدم الكفر ويتوقف فيها الحكم عليه.

☐ وترك الاستتابة لا تمنع إثبات حكم الكفر عليه، فالاستتابة شيء، وإقامة الحجة شيء آخر.

لا يوجد شخص حكمه مجهول، لا يُعرف حاله من جهة الإسلام والكفر حتى تدَّعي ذلك جماعة التوقف والتبين وشيخها عبدالمجيد الشاذلي صاحب كتاب «حد الإسلام»، ومن أتى بعده من «القطبيين» وشيخهم محمد قطب عفا اللَّه عنه.

لا يوجد شخص لا يُعرف حاله أكافر هو أم مسلم، ولو مات على وضعه لا يُدرَى ما حكمه. هذا الكلام لا أصل له من كلام علماء أهل السنة والجماعة. من نتوقف في تكفيره وقد ثبت مِن قبلُ إسلامه فما زال حكمه الإسلام، ولو توقَّفنا في إثبات إسلام شخص عُلِم كفره من قَبلُ فهو ما زال على كفره.

☐ ولا نقول بأنه مجهول الحكم ومحل بحث ودعوة.

ولا يلزم من مشروعية الاستتابة أن نتوقف في حكم من شرعت في حقه، فالاستتابة للشخص من الردة فرع على ثبوت ردته.

والاستتابة من أجل إقامة الحد، وليست شرطًا في تكفير الشخص، بل تكفيره شرط في استتابته الاستتابة الاصطلاحية.

✍ وقفة هامة: «حد الإسلام» للشاذلي وأصل بدعة التوقف والتبين وكتابات محمد قطب:

ومما ينبغي أن ننبه له هذه الكتابات المنحرفة عن عقيدة أهل السنة والجماعة لكتاب «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» لعبدالمجيد الشاذلي وهو أصل بدعة «التوقف والتبيّن» فهو يشترط لإسلام الرجل غير نطقه بالشهادتين معرفة

«النسك، والولاية، والحكم»[١] ويوهم أنه من كلام ابن القيم في الطبقة السابعة عشرة من طبقات المكلفين، ويطبقها على أهل القبلة، وكلام ابن القيم في هذه الطبقة إنما هو على الكفار الجهال المقلدين كعوام اليهود والنصارى ونسائهم وخدمهم.

☐ يقول عبدالمجيد الشاذلي في بدعته: «حد الإسلام»:

«يحكم بالإسلام لمجرد التلفظ به ما لم يقترن مع تلفظه ما يدل على الشرك، أو مظاهرة المشركين، أو امتناعه عن قبول الحكم، ويفترض فيه ترك الشرك والتزام الشرائع.

وإن اقترن مع التلفظ ما يدل دلالة قطعية على الشرك، أو رفض الشرائع، أو مظاهرة المشركين فلا عبرة بأقوال كذَّبتها الأفعال، فلا يحكم بالإسلام مع هذه الحال.

☐ إذ وُجِد لوث ظاهر يدخل شبهة على إرادته لمدلول الشهادتين، أو كان في تلفظه ما يشكل فلا بد من التبين لموضع اللبث».

☐ ثم أتى الأستاذ محمد قطب من بعده فذكر كلامًا يقارب كلام عبدالمجيد الشاذلي صاحب هذه البدعة، فقسَّم الناس إلى ثلاثة: مسلمين بلا شبهة، وكفار بلا شبهة، والطبقة الثالثة قال عنها: «ومنهم كتلة متميعة غير واضحة السمات اختلط فيها الحابل بالنابل، ولكن مظهرها العام بعيد عن مقتضيات الإسلام وهم الذين يختلف الناس في حكمهم عليهم.. ولا نشغل أنفسنا بالحكم عليها»[٢] .

---

(١) انظر ص(٨٣، ٥٦٨) من كتابه «حد الإسلام».

(٢) وقريب من هذا قول الشيخ سفر الحوالي عفا اللّٰه عنه: «تارك جنس العمل الذي لم يستتاب ولم تقم عليه الحجة كافر في الحقيقة، لكن هذا الأمر سوف يُكتم في أنفس الدعاة!!! وهم يدعونه ـ أي يدعون إظهاره ـ تحقيقًا للمصلحة ودفعًا للمفسدة»، وقوله:=

وللرد على هذا الكلام المنحرف عن عقيدة أهل السنة والجماعة نقول: أنه يثبت حكم الإسلام في الدنيا لمن «اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا ونطق بالشهادتين» كما ذكر الإمام النووي في الجزء الأول - كتاب الإيمان - من شرحه لصحيح مسلم تحت عنوان «إطلاق الإيمان على الأعمال»[1].

*** وقفات هامة وكلام أحلى من الشهد للعالمْين الربانييْن الشيخ عبدالعزيز ابن باز والشيخ محمد بن صالح العثيمين:**

☐ نقل الدكتور ياسر برهامي - حفظه اللَّه - في رسالته العلمية في الرد على الشيخ سفر الحوالي نقلاً هامًا وقيمًا عن الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين نوردهما:

☐ نظمت إدارة الدعوة بوزارة الأوقاف والشئون القطرية لقاء عبر الهاتف مع فضيلة الشيخ ابن عثيمين وبعد موعظة عامة أجاب الشيخ على هذه الأسئلة وتشتهر هذه الأسئلة باسم «الأسئلة القطرية».

س: شخص قال لا إله إلا اللَّه مخلصًا من قلبه مصدقًا بقلبه مستسلمًا منقادًا لكنه لم يعمل بجوارحه خيرًا قط مع إمكان العمل هل هو داخل في المشيئة أم كافر؟

= «تارك جنس العمل قبل الاستتابة أو إقامة الحجة في حقيقة الأمر أنه مجهول الحكم» أو موضع دعوة وموضع بحث ونظر. فالقول بأن شخص ما حكمه مجهول، لا يُعرف حاله من جهة الإسلام والكفر، ولو مات على وضعه لا يدرى ما حكمه، هذا الكلام لا أصل له من كلام علماء أهل السنة والجماعة...» وهناك رسالة هامة في الرد العلمي على كتاب «ظاهرة الإرجاء» للشيخ سفر الحوالي، وهذه الرسالة القيمة للشيخ الحبيب الفاضل الدكتور ياسر برهامي مدّ اللَّه في عمره وجعله من الربانيين، وهي مآخذ هامة على ما أخطأ فيه الشيخ سفر بالأدلة الشرعية وكلام أهل العلم، عفا اللَّه عنا وعن المسلمين.

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ١٣٣).

ج: أقول ـ والحمد للَّه رب العالمين ـ إذا كان لا يصلي فهو كافر ولو قال: لا إله إلا اللَّه[1] ، لو كان صادقًا في قول: «لا إله إلا اللَّه» مخلصًا بها واللَّه لن يترك الصلاة؛ لأن الصلاة صلة بين الإنسان وبين اللَّه عز وجل، فقد جاء في الأدلة من القرآن والسنة والنظر الصحيح في إجماع الصحابة كما حكاه غير واحد على أن تارك الصلاة كافر مخلد في نار جهنم وليس داخلاً تحت المشيئة، ونحن إذا قلنا بذلك لم نقله عن فراغ، ونحن إذا قلنا بذلك فإنما قلناه لأنه من مدلولات كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ وأقوال الصحابة التي حكى إجماعهم عليها، قال عبداللَّه بن شقيق: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة»، ونقل إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة الحافظ ابن راهوية ـ رحمه اللَّه ـ وهو إمام مشهور[2] ، أما سائر الأعمال إذا تركها الإنسان كان تحت المشيئة يعني لو لم

(١) كفر تارك الصلاة مسألة خلافية، والخلاف فيها معتبر بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة، انظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٢/ ٩٣٢ ـ ٩٣٨)، و«الإشراف على مذاهب أهل العلم» لابن المنذر (٤١٠ ـ ٤١٧)، وانظر «التمهيد» لابن عبدالبر (٤/ ٢٢٤ ـ ٢٤٣)، (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٦٧)، و«الاستذكار» لابن عبدالبر (٥/ ٣٤٨ ـ ٣٥٥)، و«المغني» لابن قدامة (٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٧)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٢١)، (٢٢/ ٤٧ ـ ٤٩)، (٢٢/ ٥٠ ـ ٥١)، (٢/ ٥٦)، (٢٢/ ٦٠، ٦٢)، و«حكم تارك الصلاة» لابن القيم (٢٦ ـ ٤٥)، و«تحفة الأحوذي» (٧/ ٣٠٧ ـ ٣١١)، و«مشكل الآثار» للطحاوي (٤/ ١٥٧)، و«معالم السنن» للخطابي (٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠)، و«المحلى» لابن حزم (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، و«الفصل» لابن حزم (٣/ ١٢٨ ـ ١٣٨).
وانظر أيضًا «التمهيد» لابن عبدالبر (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٦٧)، و«شرح السنة» للبغوي (١/ ١٠٣) و«بداية المجتهد» (١/ ١١٩ ـ ١٢١)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٢٩١٣ ـ ٢٩١٤)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٩١ ـ ٩٤)، (٢٨ ـ ٣٠٨)، و«فتح الباري» (١/ ١٤٠)، (٣/ ٢١٦).

(٢) أجمع العلماء على الرواية بإكفار تارك الصلاة، واختلفوا في تفسير هذا الكفر هل هو أصغر أو أكبر. راجع «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ١٣٣)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٩٠ ـ ٩٤)، وأثر عبداللَّه بن شقيق التابعي لا يدل على هذه المسألة.

يزكِّ مثلاً فهذا تحت المشيئة؛ لأن النبي ﷺ لما ذكر عقوبة مانع الزكاة قال: «**ثم يرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار**»، ومعلوم أنه لو كان كافرًا لم يكن له سبيل إلى الجنة، والصيام والحج كذلك من تركها لم يكفر، وهو تحت المشيئة ولكنه يكون أفسق عباد اللَّه.

س: الشق الثاني يقول: وهل يوجد خلاف بين أهل السنة في حكم هذا الرجل بناء على حكم تارك مباني الإسلام الأربع[1] والخلاف فيها؟

ج: مسألة الخلاف لا أستطيع حصره، ولكن يجب أن نعلم أن الكفر حكم شرعي لا يُتلقى إلاّ من الشرع، وأن الأصل في المسلمين الإسلام حتى يدل دليل على خروجهم منه، والتسرع في التكفير خطير جدًّا جدًّا جدًّا حتى أن النبي ﷺ قال محذرًا منه: «**من دعا رجلاً بالكفر أو قال يا عدوا اللَّه وليس كذلك حار عليه**» ـ أي على القائل ـ أي رجع على القائل.

سائل آخر: كيف نفهم حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم وفيه «**فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط**»؟

ج: نفهم هذا أنه عام، وأن أدله كفر تارك الصلاة خاصة، ومعلوم عند العلماء أن العام يُخصَّص بخاص؛ لأن هذا الحديث لم يقل لم يصل حتى نقول أنه معارض للنصوص الدالة على كفر تارك الصلاة، بل قال لم يعمل خيرًا قط، فلم ينص على الصلاة بل عمم، ونصوص كفر تارك الصلاة خاصة فتخص ما خصصت به.

س: الخلاف الواقع في حكم تارك الصلاة هل هو خلاف داخل دائرة أهل السنة أم لا؟

ج: نعم، خلاف داخل دائرة أهل السنة، وأهل اسنة أنفسهم مختلفون

(١) أي: الصلاة والزكاة والصوم والحج.

في هذا، كما يختلفون في فروض الوضوء، ووجوب الوضوء من لحم الإبل وما أشبه ذلك.

س: يقول البعض: إذا ترك عمل الجوارح بالكلية خرج من الإيمان ولكن لا يقتضي عدم انتفاعه بأصل الإيمان والشهادتين بل ينتفع بهما كمن أراد الحج وشهد عرفة وهو ركن، فإنه ينتفع بالأركان الأخرى فما قول فضيلتكم؟

ج: نقول هذا ليس بصواب، إنه لن ينتفع بإيمانه مع ترك الصلاة التي دلّت النصوص على كفر تاركها، وكذلك لو ترك الوقوف بعرفة ما صح حجه كما دلّ على ذلك سنة النبي ﷺ، أما من أدرك عرفة قبل الفجر يوم النحر فقد أدرك، ومن لا فلا حتى لو جاء بعد ذلك بالرمي والمبيت في مني والطواق والسعي لم يكن حج.

س: تارك جنس العمل كافر، تارك آحاد العمل ليس بكافر، فما رأيكم في ذلك؟

ج: هذه القاعدة من قائلها؟ هل قالها محمد رسول اللّه ﷺ؟ كلام لا معنى له.

نقول: من كفره اللّه ورسوله فهو كافر، ومن لم يكفره اللّه ورسوله فليس بكافر هذا هو الصواب، أما جنس العمل أو نوع العمل أو آحاد العمل فهذا كله طنطنة لا فائدة فيها.

س: هل أعمال الجوارح شرط في أصل الإيمان وصحته أم أنها شرط في كمال الإيمان الواجب؟

ج: تختلف، فتارك الصلاة مثلاً كافر، إذ فعل الصلاة من لوازم الإيمان. وإني أنصح إخواني أن يتركوا هذه الأشياء والبحث فيها، وأن يرجعوا إلى ما كان عليه الصحابة رضوان اللّه عليهم، والسلف الصالح لم يكونوا يحرفون مثل هذه

الأمور، المؤمن من جعله اللَّه ورسوله مؤمنًا، والكافر من جعله اللَّه ورسوله كافرًا.

س: إذا كنا في بلد يُفتي أهل العلم فيها بأن تارك الصلاة ليس كافرًا كفرًا أكبر، فإذا مات تارك الصلاة في هذه البلد، فهل يترك الناس غسله والصلاة عليه؟ وهل يمنعون دفنه في مقابر المسلمين في هذا البلد؟

وهل مات مسلمًا لأنه مقلد لعلماء بلده؟

ج: أما من يعتقد أنه كافر فلا يصلي عليه، وأما من لا يعتقد فليصل عليه، وهكذا ينظر في الخلاف» اهـ.

◘ وفي الحوار الذي أجرته مجلة الفرقان «العدد ٩٤ ص(١١، ١٢)» مع الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

س: العلماء الذين قالوا بعدم كفر من ترك أعمال الجوارح مع تلفظه بالشهادتين ووجود أصل الإيمان القلبي هل هم من المرجئة؟

ج: قال ـ رحمه اللَّه ـ: «هذا من أهل السنة والجماعة، فمن ترك الصيام، أو الزكاة أو الحج لا شك أن ذلك كبيرة عند العلماء ولكن على الصواب لا يكفر كفرًا أكبر.

أما تارك الصلاة فالأرجح أنه كافر كفرًا أكبر إذا تعمَّد تركها، وأما تارك الزكاة والصيام والحج فإنه كفر دون كفر.

السائل: أعمال الجوارح هل هي شرط كمال أم شرط صحة الإيمان؟

الشيخ: إن أعمال الجوارح كالصوم هي من كمال الإيمان والصدقة والزكاة من كمال الإيمان وتركها ضعف في الإيمان، أما الصلاة فالصواب أن تركها كفر، فالإنسان عندما يأتي بالأعمال الصالحة فإن ذلك من كمال الإيمان».

◘ قال ابن رجب بعد ما نقل الخلاف في ترك المباني الأربعة: «فأما بقية خصال الإسلام والإيمان فلا يخرج العبد بتركها من الإسلام عند أهل السنة

والجماعة، وإنما خالف في ذلك الخوارج ونحوهم من أهل البدع»[١] اهـ.

✍ وقـفـــة:

مذهب أهل السنة والجماعة في العمل وارتباطه بالإيمان، أن الأعمال داخلةٌ في مسمَّى الإيمان. والأعمال على نوعين:

أعمال القلوب: وأصل أعمال القلوب شرط في صحة الإيمان.

أعمال الجوارح: تنقسم إلى قسمين:

١ ـ **المباني الأربعة**: وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، وتاركها تكاسلاً أو عمدًا لا جحودًا بين أهل السنة خلاف معتبر هل يكفر أم لا، ولا يُبدَّع المخالف فنطاق أهل السنة يجمعهم وعلى هذا فالخلاف في المباني الأربعة هل هي شرط صحة أم كمال يسع أهل السنة، يشتد الخلاف في مسألة الصلة ثم تخفُّ شدته في الزكاة فالصوم فالحج على الترتيب.

٢ ـ خلاف المباني من أعمال الجوارح هي شرط كمال لا شرط صحة، ولم يقل بأنها شرط صحة إلا الخوارج.

❑ نقول هذا إبراءً للذمة فلسنا من المرجئة ولا الخوارج ولسنا من جماعة التوقف والتبين ولسنا من القطبين[٢] ولسنا ممن يُطلق عليهم اسم السروريين.. لسنا من دعاة التنظيمات السرية ولا الجماعات المسلحة..

---

(١) شرح ـ كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» لابن رجب ص(٣٠)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٢) لا نحمل فكر الأستاذ سيد قطب ولا نوافقه على أي خطأ من أخطائه ويكفي في الرد عليه «المورد العذب الزلال في الرد على الظلال» للشيخ الدويش، ولا ننكر له دعوته إلى اللَّه عز وجل ومواقفه والصالح من أعماله ويكفي قول الشيخ بكر أبو زيد في هذا والشيخ الألباني والشيخ ابن باز.. فالرجل كان أديبًا ولم يكن عالمًا.. وظهر في فترة عمّ فيها الجهل وفشا، ولم يتمكن من الاطلاع على عقيدة أهل السنة والجماعة على التفصيل.. ولذا وردت له أقوال في الإيمان لا تُقبل منه ولا من المخالف.. نقول هذا ونهتف.

وبالســـــلفية إعجابنا إذا قلَّ بالسلف المعجب

وإنما ندعو اللَّه على منهج سلفنا الصالح ندعو إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة برفق ولين، ونصبر على المخالف ولا نشتط في تبديع الناس أو العجلة في تكفيرهم.. والحق هو بغيتنا ووجه اللَّه مرادنا وبغيتنا.

* **الزنديق:**

هو المنافق على عهد رسول اللَّه ﷺ، وكل من يظهر طعنًا في الإسلام.

□ قال ابن تيمية: «لما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ «الزنديق» وشاعت في لسان الفقهاء. وتكلم الناس في الزنديق: هل تُقبل توبته في الظاهر؟:

إذا عُرِف بالزندقة، ودُفع إلى ولي الأمر قبل توبته: فمذهب مالك وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وطائفة من أصحاب الشافعي، وهو أحد القولين في مذهب أبي حنيفة: أن توبته لا تقبَل.

والمشهور من مذهب الشافعي قبولها كالرواية الأُخرى عن أحمد وهو القول الآخر في مذهب أبي حنيفة، ومنهم مَن فصَّل.

والمقصود هنا: أن الزنديق في عُرف هؤلاء الفقهاء، هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ وهو أن يظهر الإسلام ويُبطن غيره، سواءً أبطن دينًا من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلاً جاحدًا للصانع، والمعاد، والأعمال الصالحة.

ومن الناس من يقول: «الزنديق» هو الجاحد المعطل، وهذا يُسمَّى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة، ونقلة مقالات الناس، ولكن الزنديق الذي تكلَّم الفقهاء في حكمه هو الأول؛ لأن مقصودهم هو التميز بين الكافر وغير الكافر، والمرتد وغير المرتد، ومن أظهر ذلك ومن أسرَّه، وهذا الحكم يشترط فيه جميع أنواع الكفار والمرتدين، وإن تفاوتت درجاتهم في الكفر والردة»[1].

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٧/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).

* **ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المعين:**

وقوع التوبة من المعيَّن أمر يمحو إلحاق التكفير به بعد وقوعه عليه:

قال شيخ الإسلام: «واللَّه تعالى يقبل توبة العبد من جميع الذنوب: الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ [البروج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٤]، وقال: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال: ٣٨].

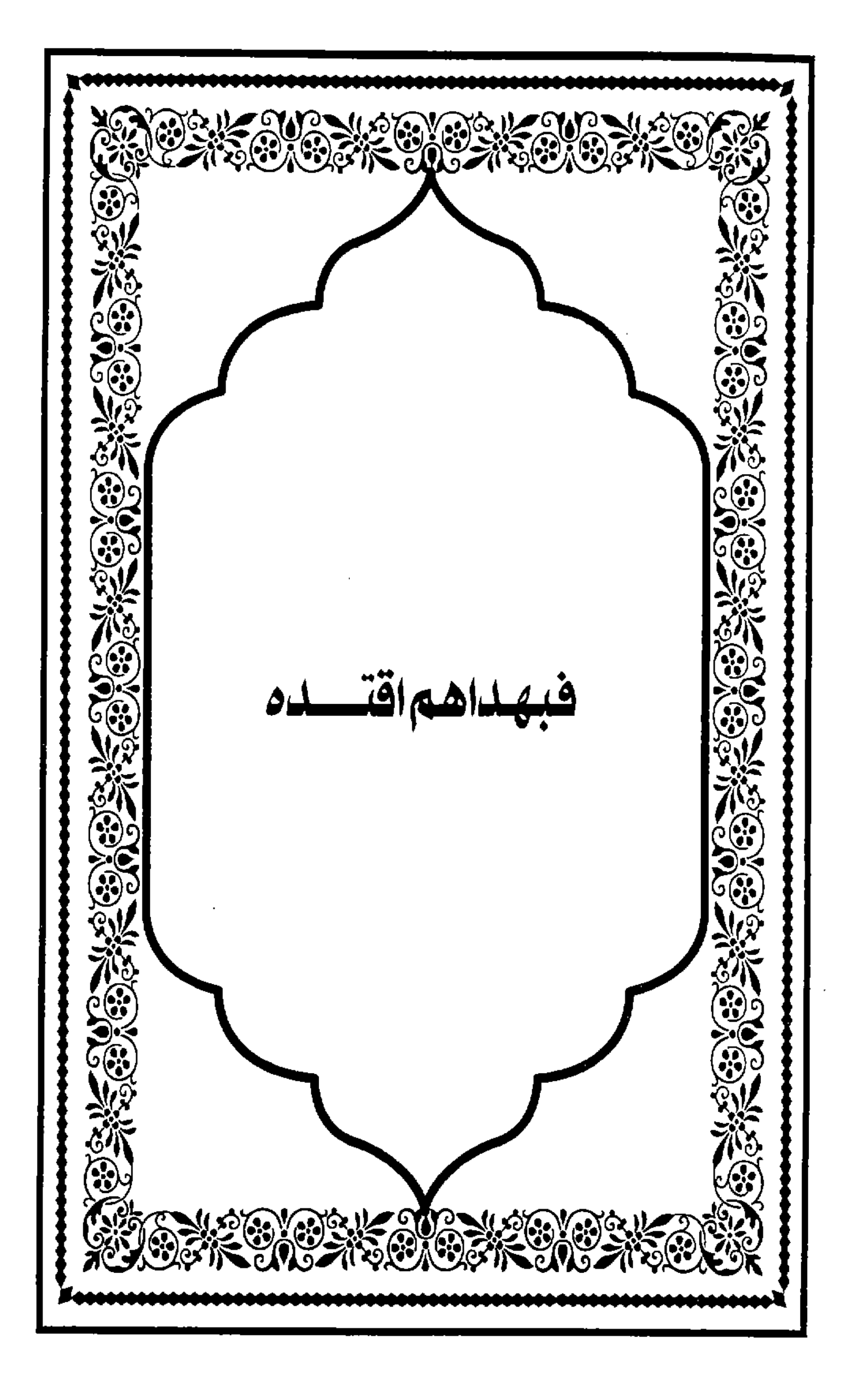
فمن تاب من هذه الاعتقادات الفاسدة، وهو استحلال شيء من المحرمات، أو التديُّن بشيء منها، قبل اللَّه توبته، وأما من استحلَّ ذلك أو تديَّن به وإن لم يفعله، فالذي يفعل ذلك وهو معتقد للتحريم خير منه، فإن هذا مؤمن مذنب، وأما الاستحلال لها والتديّن بها فهو كفر»[1] فالتوبة تمنع إطلاق اسم الكفر على المعيَّن بعد رجوعه عن الكفر الذي وقع فيه، بخلاف تلك الموانع الأربعة فهي تمنع إلحاق الكفر به ابتداءً.

وبهذا الاعتبار يكون حصول التوبة المانع الوحيد، الذي يمنع تكفير المعين إذا رجع عن الكفر الذي قد ثبت عليه، وعلى هذا انعقد الإجماع[2] .

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) انظر «مراتب الإجماع» لابن حزم ص(١٧٦).



فبهداهم اقتده

فبهداهم اقتده

مواقف أهل الإيمان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضاربة في أعماق الزمن.. ومواكب النور لهذا الدين الواحد لها جذورها الراسخة منذ القدم وهذه قطوف من بساتين الصالحين قبل بعثة الحبيب ﷺ.

*** مؤمن آل يس:**

قصّ اللَّه علينا في سورة يس موقف أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون وكيف كذبوا المرسلين الثلاثة، وكيف أخذتهم العزة بالإثم، وكيف عمد هؤلاء المكذبون الضالون إلى الأسلوب الغليظ العنيف ـ فالباطل على مدار التاريخ ضيق الصدر عربيد ـ وأسفر الباطل عن غشمه، وأطلق على الهداة المرسلين تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة الراسخة، وكيف عربد في التعبير والتفكير ﴿**قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

يرجموهم لأنهم باللَّه ذكروهم!! قلوب ميتة ختم اللَّه عليها وطبع.

وهناك على الطرف الآخر قلب خشع للرحمن ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٥].

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق، والبساطة، والحرارة، واستقامة الإدراك وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق ما يتحدث

عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحرّكت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقرّ في ضميره وتحرّك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم يكذّبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفّهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين. وألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة وأشهد المرسلين عليها ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

وكانت الشهادة لهذا الرجل الذي جهر بكلمة الحق، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

هل رأيتم داعيًا بعد رحيله عن الدنيا يتمنى لو يرى قومه ما هو فيه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق ويثوبوا إليه.

*** مؤمن آل فرعون وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وكلماته الخالدة في ضمير الزمان:**

ما أجمل هذه السورة «غافر» وهي تسجل المواقف العظيمة لكليم اللَّه موسى عليه السلام وتبجح فرعون وسخريته وكلماته الفاجرة وحججه الواهية.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

وهي بعينها كلمة كل طاغية مستبد عن كل داعية مصلح، هي بعينها

كلمة الباطل الكالح في وجه الإيمان الهادئ، منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

❑ هنا انتدب رجل من آل فرعون، وقع الحق في قلبه، ولكنه كتم إيمانه، انتدب يدفع عن موسى، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٨ - ٣٥].

إنها جولة ضخمة هذه التي جالها الرجل المؤمن مع فرعون وملئه. وإنه

منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة كذلك إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ . . فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل، ويردّ عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة.

❑ ثم يخطو بهم خطوة أخرى، فالذي يقول هذه الكلمة البريئة ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ . . يقولها ومعه حجته وفي يده برهانه ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهم ـ فيما بينهم وبعيدًا عن الجماهير ـ يصعب أن يماروا فيها!

❑ ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ وهو يحمل تبعة عمله، ويلقى جزاءه ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوّغ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقًا، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال وعدم التعرض لنتائجه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام.

❑ ثم يهددهم من طرف خفي ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

❑ وحين يصل بهم إلى فعل اللّه بمن هو مسرف كذّاب، يهجم عليهم مخوّفًا بعذاب اللّه، محذّرًا من بأسه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملك وسلطان.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾.

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أن بأس اللّه أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض، فهم أحق الناس أن يحذروه،

وأجدر الناس أن يحسوه ويتقوه، وأن يبيتوا منه على وجل، فهو يتربص بهم في كل لحظة ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ ليشعرهم أن بأس اللّه إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف.

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة.. تأخذه العزة بالإثم، ويرى في النصح الخالص افتياتًا على سلطانه، ونقصًا من نفوذه، ومشاركة في النفوذ والسلطان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا وإنه لهو الصواب والرشد والخير لا شك ولا جدال! وهل يسمح الطغاة بأن يظن أحد أنهم مخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟!

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا؛ ويجد أن عليه واجبًا أن يحذّر وينصح ويُبدي من الرأي ما يراه.. ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائنًا ما كان رأي الطغاة.

ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين.. يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس اللّه في أخذ المكذبين والطغاة.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

ولكل حزب كان يوم، ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد ﴿مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ فهو اليوم الذي يتجلّى فيه بأس اللّه، وهو يوم واحد في طبيعته على تفرّق الأحزاب.

□ ثم يذكرهم بيوم القيامة يوم التناد.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ

اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته «يوم التناد» تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصوّر يوم زحام وخصام وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لعلّ فيها إشارة خفية إلى قول فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.. وتلميحًا بأن الهدى هدى اللَّه، وأن من أضلّه اللَّه فلا هادي له.

❑ وينذرهم بإضلال اللَّه الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

ثم يشتد في مواجهتهم بمقت اللَّه ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات اللَّه بغير حجة ولا برهان، وهم يفعلون هذا في أبشع صورة ويندد بالتكبر والتجبر، وينذر بطمس اللَّه لقلوب المتكبرين المتجبرين!

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

❑ وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظلّ فرعون على ضلاله، مُصرًّا على التنكّر للحق.

وأمام مراوغتهم واستهتارهم، ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية

صريحة بعد ما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى اللّه، وهو طريق الرشاد، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوّقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذّرهم عذاب الآخرة، وبيّن لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إنه يقول في مواجهة فرعون ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وقد كان فرعون منذ لحظات يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فهو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون.

❑ ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار، فيهتف بهم في استنكار ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وهم لم يدعوه إلى النار، إنما دعوه إلى الشرك، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب. فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

❑ وشتان بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضحة مستقيمة. إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار. يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره.. يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر فإلى أي شيء يدعونه؟ يدعونه للكفر باللّه على طريق إشراك ما لا علم له به من مدّعيات وأوهام وألغاز!

❑ ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم في الأمر

شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المردّ للّه وحده، والمسرفين المتجاوزين للحدّ في الادعاء سيكونون أهل النار: ﴿**لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾.

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تعلثم، بعدما كان يكتم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان؟ لا يبقى إلاّ أن يفوّض أمره إلى اللّه، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى والأمر كله إلى اللّه.

﴿**فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ وينتهي الجدل والحوار. وقد سجّل مؤمن آل فرعون كلمة الحق خالدة في ضمير الزمان.

* قال تعالى: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾.

*** سحرة فرعون.. في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة قالوا كلمة الحق عند أكبر طاغية إعلاناً لحرية القلب المؤمن:**

* قال تعالى عن موقف السحرة في بداية أمرهم ثم ما آل إليه أمرهم: ﴿**فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ**

اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٦٠ - ٧٣].

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله، وينبعث النور ويُشرق الظلام، إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

ولكن أَنَّى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنيّ لهم أن يدركوا كيف تتقلّب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن اللَّه هو مقلب القلوب؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ .. قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون ـ وقد لمس الإيمان قلوبهم ـ أن يدفعوه عنها، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

فذلك سر الاستسلام في نظره، لا أنه الإيمان الذي دبّ في قلوبهم ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلّطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة، قوة الوحوش في الغابة، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرّق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت. فإذا هي قوية قويمة، وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة، وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة، وكانت قد تفتّحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن ينظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه.

□ قال ابن كثير: «قال ابن عباس ﷺ وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة».

□ وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفًا، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشرة ألفًا، وقال الأوزاعي: لما خرّ السحرة سُجّدًا رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم ابن أبي بزة.

﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

أي: لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى﴾ أي: أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك أن تُسلّط في هذه الدار وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار، ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: خير لنا منك وأدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنّيتنا وهو رواية عن ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أُطيع، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: منك عذابًا إن عُصي» اهـ.

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعدّ القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ فهي أعزّ وأغلى

وهو جلّ شأنه أكبر وأعلى، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فسلطانك مقيّد بها، ومالك من سلطان علينا في غيرها، وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا، وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل باللَّه، ويأمل في الحياة الخالدة أبدًا. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ خير قسمةً وجوارًا، وأبقى مغنمًا وجوارًا، إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى..

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾.

❑ قال الحافظ ابن كثير: «الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة اللَّه وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد».

«ألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي. فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى، فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرمًا هي أشد عذابًا وأدوم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع، إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾، وتطهر من الآثام.

❑ وانظر إلى سورة أخرى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ويتلقّون من فرعون

الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم!.

جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع، وها هو فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر، يعدهم أن يكونوا من المقرّبين إليه، وهو بزعمه الملك والإله ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يجعلون قسمهم الأعلى بعزّة فرعون.

وفي نهاية الأمر سجدوا لرب موسى وهارون وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية، ولكن الحق الذي الذي مسّ قلوبهم قد حوّلهم تحويلاً، لقد كانت هزة رجتهم رجًّا، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حيّة خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار.

كلمة لفرعون الطاغية تقابلها كلمة مؤمنة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تحرّج من قلب أو ضمير.. إنها كلمة فرعون الطاغية المتجبّر الذي يملك تنفيذ ما يقول فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور!

إنها كلمة القلب الذي وجد اللَّه فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل باللَّه فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل

بالطغيان.. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لا ضير.. لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا ضير في التصليب والعذاب، لا ضير في الموت والاستشهاد.. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون.

يا للَّه! يا لروعة الإيمان إذ يُشرق في الضمائر وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين، وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

روعة غامرة ومشهد له جلاله الباهر وإيقاعة العميق.. وهو يربي النفوس حين تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.

وفي سورة أخرى ماذا قال السحرة: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

أسلموا للَّه وحده، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت، إنها المعركة على العقيدة؛ لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين.. بل بمجرد إعلان أن اللَّه رب العالمين! ومن ثم قالوا لفرعون ردًّا على اتهامه لهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فلجأوا إلى ربهم ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فكان هذا فرقانًا جعله اللَّه في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام للَّه فيها.

☐ هزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية، وباستعلاء الإيمان الواثق، وبتحذير الإيمان الناصع وبرجاء الإيمان العميق.

«ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانًا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع، في المثوبة والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان.

وهكذا ينتصر الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة:

انتصار آية العصا على السحر، وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل، والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسّمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظلّ الإيمان مظهراً لم يتجسّم في القلب، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقّق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه، ومن ثم انتصر الحق في الأرض».



مواقف العلماء والربّانيين

مواقف العلماء والربانيين

نعطر جمعنا هذا بهذه التراجم من سادات سلفنا من الربانيين الذين صدعوا بالحق أمام الأمراء والسلاطين، وقاموا بأداء هذه الأمانة الغالية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهدوا أفضل الجهاد وأشرفه وأعظمه، فسرْ على دربهم تنزل بأرضهم، وصَوِّت بحاديهم تحل بواديهم.

وهذه أمثلة وضيئة شفافة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفع الشبه الباطلة وتبيين الحق للناس، لسادة من سادات سلفنا، تبقى مدى الأيام ناصعة منيرة بيضاء، تهدي وتشد أزر العاملين.

*** الإمام القدوة أبو الوليد عبادة بن الصامت الخزرجي رضي الله عنه:**

أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين.

● عن قبيصة بن ذؤيب أن عبادة أنكر على معاوية شيئًا، فقال: لا أساكنك بأرض، فرحل إلى المدينة، قال له عمر: ما أقدمك؟ فأخبره بفعل معاوية، فقال له: ارحل إلى مكانك فقبح اللَّه أرضًا لست فيها وأمثالك، فلا إمرة له عليك[1].

● عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول اللَّه ﷺ[2] على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق حيث كنا، لا نخاف في اللَّه لومة لائم. وثمة بيعة أخرى[3].

---

(١) رجاله ثقات. رواه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢/٧).

(٢) أي: ليلة العقبة.

(٣) رواه أحمد والبخاري، ومسلم والنسائي.

● وعن عبيد بن رفاعة: أن عبادة بن الصامت مرت عليه قطارة[١] وهو بالشام تحمل الخمر، فقال: ما هذه، أزيت؟ قيل: لا، بل خمر يباع لفلان. فأخذ شفرة من السوق، فقام إليها، فلم يذر فيها راوية إلا بقرها، وأبو هريرة إذا ذاك بالشام ـ فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنّا أخاك عبادة؛ أما بالغدوات، فيغدو إلى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشيِّ، فيقعد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبنا! قال: فأتاه أبو هريرة، فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية؟ ذره وما حمِّل، فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يأخذنا في اللَّه لومة لائم. فسكت أبو هريرة وكتب فلان إلى عثمان: إن عبادة قد أفسد عليَّ الشام[٢] .

* أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

● عن محمد بن كعب قال: كان أبو أيوب يخالف مروان، فقال: ما يحملك على هذا؟ قال: إني رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي الصلوات؛ فإن وافقته، وافقناك، وإن خالفته خالفناك[٣] .

● وعن سالم بن عبد اللَّه بن عمر قال: أعرست، فدعا أبي الناس، فيهم أبو أيوب، وقد ستروا بيتي بجُنادي أخضر، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه، فنظر فإذا البيت مستر، فقال: يا عبد اللَّه، تسترون الجدر؟ فقال أبي واستحيا: غلبنا النساء يا أبا أيوب. فقال: من خشيت أن تغلبه النساء، فلم أخش أن يغلبنك، لا أدخل لكم بيتًا، ولا آكل لكم طعامًا[٤] .

---

(١) القطارة والقطار: أن تشد الإبل على نسق واحد خلف واحد.
(٢) «السير» (٢/ ٩ ـ ١٠).
(٣) رجاله ثقات. أخرجه الطبراني (٣٩٩٣).
(٤) إسناده قوي: أخرجه الطبـــراني (٣٨٥٣، والذهبي في «الســير» (٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).=

*** أبو هريرة ﷺ :**

قام أبو هريرة ﷺ إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة، فقال له: أتظل عند ابنة فلان تُروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل. ثم قال: اسمعوا من أميركم(١) .

*** أبو ذر ﷺ :**

عن الأوزاعي حدثني أبو كثير عن أبيه، قال: أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه، ثم قال: أرقيب أنت عليّ! لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول اللّه ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها(٢) .

*** أبو سعيد الخدري ومروان بن الحكم :**

روى عبد الرزاق عن الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: أوّل من قدّم الخطبة على الصلاة يوم العيد مروان، فقال له رجل: خالفت السنة، فقال له مروان: إنه قد تُرك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أمّا هذا فقد قضى ما عليه. سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٣) .

= والجنادي: هو جنس من الأنماط والثياب يستر بها الجدران.

(١) «العقد الفريد» (١/ ٥٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٦٤).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ٢٦١) ـ طبع دار الريان.

* ابن عمر والحجّاج:

وابن عمر ابن عمر.. أشد الصحابة اتباعًا.. وردت الآثار بذلك وشأنه عجيب في هذا المضمار.

● عن القعقاع بن الصلت قال: خطب الحجاج، فقال: إن ابن الزبير غيّر كتاب اللَّه، فقال ابن عمر: ما سلّطه اللَّه على ذلك، ولا أنت معه، ولو شئت أقول: كذبتَ لفعلت.

وروى شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول: الصلاة الصلاة مرارًا، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس، فصلّى الحجاج بالناس، فلما انصرف قال لابن عمر: ما حملك على ذلك؟ فقال: إنما نجيء للصلاة، فصلِّ الصلاة لوقتها ثم تفتق[1] ما شئت بعد من تفتقه[2].

وقام ابن عمر إلى الحجاج وهو يخطب فقال: يا عدو اللَّه! استَحَلَّ حرم اللَّه، وخرّب بيت اللَّه، فقال: يا شيخًا قد خرف. فلما صدر الناس، أمر الحجاج بعض مُسَوَّدته فأخذ حربة مسمومة وضرب بها رجْل ابن عمر فمرض ومات منها. ودخل عليه الحجاج عائدًا، فسلّم فلم يردَّ عليه، وكلمّه فلم يجبه[3].

* عبد الملك بن مروان وأم الدرداء رضي الله عنها:

أخرج ابن كثير عن إبراهيم بن هشام بن يحيى القبّاني عن أبيه عن جده قال: كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك، فقال: أي واللَّه،

(١) تفتق: تفتق فلان بالكلام: أنطق به لسانه.
(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ١٢٧).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٣٠).

والدما أيضًا قد شربتها. ثم جاءه غلام قد بعثه في حاجة، فقال: ما حسبك لعنك اللَّه؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ: «**لا يدخل الجنة لعّان**»[١].

❑ قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والإسلام سهم، وقد خاب من لا سهم له»[٢].

* صحابي يقتل من سبَّتِ النبي ﷺ:

● عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كانت ذات ليلة، جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المغول[٣]، فوضعه في بطنها، واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل، فلطخت ما هناك بالدم، فلما أصبح، ذُكر لرسول اللَّه ﷺ، فجمع الناس فقال: «أنشد اللَّه رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق، إلا قام»، فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتزلزل حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه أنا صاحبها، كانت تشتمك، وتقع فيك، فأنهاها لا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المغول فوضعته في بطنها، واتكأت عليها حتى قتلتها، فقال النبي ﷺ: «**ألا اشهدوا أن دمها هدر**»[٤].

● وعن ابن سعد عن عبد اللَّه بن معقل قال: نزل ابن أم مكتوم على

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٧١). والطلا: الخمر.
(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٧).
(٣) سيف قصير دقيق.
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

يهودية بالمدينة كانت ترفقه وتؤذيه في النبي ﷺ، فتناولها فضربها فقتلها، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال: أما واللَّه إن كانت لترفقني، ولكن آذتني في اللَّه ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**أبعدها اللَّه فقد أبطلت دمها**»[1].

* ابن عباس رضي الله عنهما يفحم الخوارج:

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، خرج فريق كفَّر عليًّا ومعاوية، وجاءوا بأمور لم تكن معروفة من قبل، وذهب ابن عباس إليهم ليوضِّح الحق، ويكشف الشُّبهة.

❑ قال ابن عباس: دخلت عليهم وهم قائلون، فإذا هم مسهمة وجوههم من السهر، قد أثر السجود في جباههم، كأنَّ أيديهم ثفن الإبل، (ثفن الإبل: ما يقع على الأرض من الإبل كالركبتين)، عليهم قمص مرحضة، (المرحضة: المغسولة)، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ وما هذه الحلة التي عليك؟ قال: قلت: ما تعيبون من ذلك؟ فلقد رأيت رسول اللَّه ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية. قال: ثم قرأت هذه الآية: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]. فقالوا: ما جاء بك؟ قال: جئتكم من عند أصحاب رسول اللَّه ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول اللَّه ﷺ وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم، وأبلغهم عنكم. فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشًا؛ فإن اللَّه يقول: ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٥٨]، فقال بعضهم: بلى فلنكلمه. قال: فكلمني منهم رجلان أو ثلاثة قال: قلت: ماذا نقمتم عليه؟ قالوا: ثلاثًا، فقلت: ما هنَّ؟ قالوا: حكم الرجال في أمر اللَّه، وقال اللَّه تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ [الأنعام: ٥٧].

(١) صححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٥١)، وضعفه في ضعيف أبي داود (٩٣٧).

قال: هذه واحدة، وماذا أيضًا؟ قالوا: فإنه قاتل، فلم يَسْبِ، ولم يَغْنَم، فلئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم، ولئن كانوا كافرين، لقد حلَّ قتالهم وسَبْيُهم، قال: قلت: وماذا أيضًا؟ ومحا نفسه من إمرة المؤمنين؛ فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا، أترجعون؟ قالوا: وما لنا لا نرجع!! قال: قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر اللَّه؛ فإن اللَّه قال في كتابه: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾** [المائدة: ٩٥]. وقال في المرأة وزوجها: **﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾** [النساء: ٣٥]. فصير اللَّه ذلك إلى حكم الرجال، فناشدتكم اللَّه، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم، وفي بضع امرأة؟ قالوا: بلى، هذا أفضل. قال: أخرجتم من هذه، قالوا: نعم، قال: وأما قولكم: «قاتل ولم يسب ولم يغنم»، أتسبون أمكم عائشة؟! فإن قلتم: نسبيها، فنستحلَّ منها ما نستحل من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم ترددون بين ضلالتين، أخرجتم من هذه؟ قالوا: بلى. قال: وأما قولكم: «محا نفسه من إمرة المؤمنين» فأنا آتيكم بمن ترضون، إن نبي اللَّه ﷺ يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو، قال رسول اللَّه ﷺ : **«اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه»**، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول اللَّه، ولو نعلم أنك رسول اللَّه ما قاتلناك، قال رسول اللَّه ﷺ : **«اللَّهم إنك تعلم أني رسولك، يا علي اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد ابن عبد اللَّه وأبو سفيان وسهيل بن عمرو»**[1] .

---

(١) انظر «الاعتصام» للشاطبي (٢/ ١٨٧).

لقد كان ابن عباس بحرًا زخّارًا، كشف الشبهة ودحضها، وأتى بالأدلة البينة من الكتاب والسنة، ولقد أثمرت جهوده، فرجع منهم عن باطلهم ألفان.

◘ للَّه در ابن عباس من إمام.. ورضي اللَّه عن ترجمان القرآن وحبره، وما أحوج المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس، كي يقارعوا أهل الباطل، ويكشفوا عن شبهاتهم، ويوضِّحوا الطريق الحق، وفي الأمة بقية خير، واللَّه غالب على أمره ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العظيم.

*** أم المؤمنين عائشة ﵂ ومروان بن الحكم:**

روى البخاري في «صحيحه» عن يوسف بن ماهك قال: «كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل اللَّه فيه: ﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي**﴾ فقالت عائشة من وراء حجاب: ما أنزل اللَّه فينا شيئًا من القرآن إلا أن اللَّه أنزل عذري»[(١)] .

◘ وقد جاءت مقالة عبد الرحمن مفسّرة في بعض الروايات ففي بعضها: «ماهي إلا هرقلية»، وفي رواية: «سنة هرقل وقيصر» بعد أن قال مروان: «سنة أبي بكر وعمر»، وفي رواية: «أجئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم، وفي رواية: «هرقلية؟ إن أبا بكر واللَّه ما جعلها في أحد من ولده، ولا في أهل بيته»، قال ذلك بعد أن قال مروان: «وإن يستخلف فقد استخلف أبو بكر وعمر»[(٢)] .

(١) البخاري في كتاب التفسير باب: ﴿**والذي قال لوالديه أف لكما**﴾ حديث رقم (٤٨٢٧) (٨/ ٥٧٦).

(٢) انظر «فتح الباري» (٨/ ٥٧٧).

* أسماء ذات النطاقين ﷺ والحجاج:

● عن أبي الصديق الناجي أن الحجّاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعدما قُتل ابنها عبد اللَّه، فقال: إن ابنك ألحد[١] في هذا البيت، وإن اللَّه أذاقه من عذاب أليم، وفعل. فقالت: كذبت، كان بارًّا بوالديه، صوّامًا قوّامًا، واللَّه لقد أخبرنا رسول اللَّه ﷺ: «أنه يخرج من ثقيف كذّابان الآخر منهما شر من الأول، وهو مبير»[٢، ٣].

● وفي «صحيح مسلم» عن أبي نوفل قال: رأيت عبد اللَّه بن الزبير على ثنية الحجون مصلوبًا فجعلت قريش تمّر عليه والناس حتى مّر عليه عبداللَّه بن عمر فوقف عليه، فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما واللَّه لقد كنت أنهاك عن هذا، أما واللَّه لقد كنت أنهاك عن هذا، أما واللَّه لقد كنت أنهاك عن هذا، أما واللَّه إن كنت ما علمتُ صوّامًا قوّامًا وصولاً للرحم، أما واللَّه لأمة أنت شرها لأمة خير، ثم بعد عبد اللَّه بن عمر، فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه، وقوله ما قال، فأرسل إليه فأنزله عن جذعه وأُلقي في قبور اليهود، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك، فأبت وقالت: واللَّه لا آتيه حتى يبعث إليّ من يسحبني بقروني، فقال الحجاج: أروني سبتيتي فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذف[٤] حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتيني صنعت بعدو اللَّه؟، قالت: رأيتك أفسدْت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول: يا ابن

(١) ألْحَدَ: أي ظلم وجار.
(٢) مبير: مُهلك.
(٣) «البداية والنهاية» (٩/ ١٢٦).
(٤) وذَف: يتوذّف: يقارب الخطو ويُسرع.

ذات النطاقين[١] ، أنا واللَّه ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول اللَّه ﷺ وطعام أبي بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه؛ أما إن رسول اللَّه حدثنا أن في ثقيف كذّابًا ومبيرًا، فأما الكذّاب فرأيناه؛ وأما المُبير فلا إخالك إلا إياه. قال: فقام عنها ولم يراجعها»[٢] .

* **أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول اللَّه ﷺ :**

◻ قال عبد العزيز بن أبي بكرة: «إن أباه تزوج امرأة فماتت، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها، فقال: أنا أحق بالصلاة عليها. قالوا: صدق صاحب رسول اللَّه ﷺ ، ثم إنه دخل القبر فدفعوه بعنف، فغشي عليه، فحُمِل إلى أهله، فصرخ عليه عشرون من ابن وبنت، وأنا أصغرهم فأفاق، قال: لا تصرخوا، فواللَّه ما من نفس تخرج أحبّ إلي من نفسي. ففزع القوم، وقالوا: لم يا أبانا؟ قال: إني أخشى أن أدرك زمانًا لا أستطيع أن آمر بمعروفٍ ولا أنهى عن منكر وما خير يومئذٍ»[٣] .

* **عامر بن عبد قيس راهب العرب :**

مرّ ـ رحمه اللَّه ـ في الرّحبة، وإذا رجل يظلم فألقى رداءه، وقال: لا أرى ذمّة اللَّه تخفر وأنا حي. فاستنقذه.

● ويُروى أن سبب إبعاده إلى الشام، كونه أنكر وخلّص هذا الذِّمّي[٤]، وبعث إليه أمير البصرة: ما يمنعك أن تأتي الأمراء؟ قال: إن لدي أبوابكم

---

(١) النطاقين: شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها.

(٢) انفرد به مسلم ـ انظر «البداية والنهاية» (٨/ ٣٤٦).

(٣) «معجم الطبراني»، و«تاريخ ابن عساكر» (١٧/ ٣١٩/ب)، (٣٢٠/أ)، و«السير» (٣/ ٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨).

طلاب الحاجات، فادعوهم واقضوا حاجاتهم، ودعوا من لا حاجة له إليكم.

* أويس القرني:

▢ قال أويس القرني لرجلٍ من مراد: يا أخا مراد، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمنٍ فرحًا، وإن علمه بحقوق اللَّه لم يترك له في ماله فضةً ولا ذهبًا، وإن قيامه للَّه بالحق لم يترك له صديقًا[١].

▢ قال الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ مُروا بالمعروف وانهوْا عن المنكر، وإلا كنتم أنتم المُوعِظات[٢، ٣].

* عبد اللَّه بن مُحيريز بن جُنادة:

كان من العلماء العاملين، ومن سادة التابعين.

▢ قيل: إنه رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّة خزٍّ، فقال: أتلبس الخز؟ قال: إنما ألبس لهؤلاء. وأشار إلى الخليفة، فغضب وقال: ما ينبغي أن يعدل خوفك من اللَّه بأحدٍ من خلقه[٤].

رحم اللَّه ابن محيريز الذي قال فيه الأوزاعي: من كان مقتديًا فليقتد بمثل ابن محيريز، إن اللَّه لم يكن ليضل أمة فيها ابن محيريز، وقال رجاء بن حيوة: بقاء ابن محيريز أمان للناس.

* أبو مسلم الخولاني ومعاوية:

«السلام عليك أيها الأجير»:

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٨٣).
(٢) الموعظات: أي يوعظ بكم غيركم لما يحلّ بكم من سخط اللَّه تعالى ولعنته بسبب إهمال هذا الأصل.
(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلاّل ص(٤٩).
(٤) «سير أعلام النبلاء».

أتى أبو مسلم الخولاني إلى معاوية بن أبي سفيان، فقام بين السِّماطين، فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال من عنده: أبا مسلم، السلام عليك أيها الأمير، فقال أبو مسلم: السلام عليك أيها الأجير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم؛ فإنه أعلم بما يريد، فقال: اعلم أنه ليس من أجير استُرعي رعية إلا ربُّ الرعية سائله عنها؛ فإن داوى مرضاها وجبر كسراها، وهَنَأ جرباها، ورد أولاها على أخراها، ووضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء؛ وفاه أجره، وإن كان لم يُداوِ مرضاها، ولم يهنأ جرباها، ولم يجبر كسراها، ولم يرد أولاها على أخراها، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء؛ لم يؤته أجره، فانظر أين أنت يا معاوية من ذلك. فقال معاوية: يرحمك اللَّه يا أبا مسلم[1] .

● دخل معاوية ﷺ يومًا مسجد دمشق وجلس على المنبر فناداه أبو مسلم الخولاني قائلاً: «يا معاوية إنما أنت قبر من القبور، إن جئتَ بشيء كان لك شيء، وإن لم تجئ بشيء فلا شيء لك. يا معاوية لا تحسبنّ الخلافة جمع المال وتفرّقه، ولكن الخلافة العمل بالحق، والقولُ بالمعدلة، وأخذ الناس في ذات اللَّه عز وجل، يا معاوية إننا لا نبالي بكدر الأنهار ما صفا لنا رأس عيننا، وأنت رأس عيننا، يا معاوية إياك أن تحيف على قبيلة من قبائل العرب، فيذهب حيفك بعدلك»[2] .

رحم اللَّه ريحانة الشام عبد اللَّه بن ثوب أبا مسلم الخولاني، وحبس معاوية بن أبي سفيان العطاء يومًا، (العطاء: مرتبات ثابتة لجميع أفراد الشعب تؤدَّى لهم من بيت المال) فلما صعد المنبر قام إليه أبو مسلم الخولاني، وقال: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدّك ولا كد أبيك، ولا كد أمك

(١) «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

(٢) «الآمرون بالمعروف في الإسلام» للمنجد ص(٥٢).

حتى تحبس. فغضب معاوية غضبًا شديدًا ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعةً، ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء؛ فإذا غضب أحدكم فليغتسل**»، وإني دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم؛ إنه ليس من كدي ولا كد أبي فهلمُّوا إلي عطائكم.

فانظر رحمك اللَّه إلى صدع أبي مسلم بالحق، وانظر إلى حلم خال المؤمنين معاوية ﷺ وقبوله، وأين نحن من غبار قدم معاوية... من أقزام نصبوا أنفسهم آلهة، يقولون فلا يُرد قولهم.

هُبَل هُبَل.. رمز السخافة والخيانة والعمالة والدَّجَلْ
هتافة التهريج ما ملوا الثناء... زعموا له ما ليس عند الأنبياء
ملك تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء
هو عالم ومعلم... هو عبقري ملهم
ومن الجهالة ما قتل..
وسعى القطيع غباوة يا للبطل
وثنٌ يقود جموعهم يا للخجل

* شيخ زاهد وعبد الملك بن مروان:

□ قال الحافظ ابن كثير، قال الهيثم بن عدي: أذن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذنًا خاصًّا، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يُدر أين ذهب، وإذا فيها: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، يا أيها الإنسان إن اللَّه قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم بالحق ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ**

اللَّه لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾، وإني أحذرك يوم ينادي المنادي ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

قال: فتغيّر وجه عبد الملك فدخل دار حرمه ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أيامًا[١].

*** زرّ بن حبيش وعبد الملك:**

كتب زر بن حبيش إلى عبد الملك كتابًا وفي آخره: ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك فأنت أعلم بنفسك واذكر ما تكلّم به الأولون:

إذا الرجال ولدت أولادها وَبَلِيَتْ من كِبَر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بلّ طرف ثوبه، ثم قال: صدق زر، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق[٢].

*** سيد التابعين سعيد بن المسيب:**

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ : لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم[٣].

◻ وقال عبد اللَّه بن جعفر: استعمل ابن الزبير جابر بن الأسود بن

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٧٠).
(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٧١).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٣٢).

عوف الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير، فقال سعيد بن المسيب: لا، حتى يجتمع الناس، فضربه ستين سوطًا، فبلغ ذلك ابن الزبير فكتب إلى جابر يلومه ويقول: ما لنا ولسعيد دعه[1].

لما ضرب سعيد بن المسيب، صاح بجابر بن الأسود ـ وكان تزوج الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ـ : واللّه ما ربعت على كتاب اللّه وإنك قد تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هي إلا ليالٍ فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره. فما مكث إلا يسيراً حتى قتل ابن الزبير.

وعقد عبدالملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدة، وعامله يومئذ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فبايعوا، وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما، وقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار. فقيل: ادخل واخرج من الباب الآخر، قال: واللّه لا يقتدي بي أحد من الناس، فضربه هشام ستين سوطًا، وطاف به في تبان من شعره وسجنوه، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع، ويقول: سعيد! كان واللّه أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه.

◻ وقيل لسعيد بن المسيب: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يحركك ولا يؤذيك؟ قال: واللّه ما أدري إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد، فصلى صلاة لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذت كفًّا من حصى فحصبته بها، زعم أن الحجاج قال: ما زلت بعد أُحسن الصلاة.

◻ وفي الطبقات الوسطى لابن سعد (٥/ ٣٠): عن ميمون بن مهران، قال: قدم عبد الملك بن مروان المدينة، فامتنعت منه القائلة، واستيقظ، فقال لحاجبه: انظر هل في المسجد أحد من حداثنا، فخرج فإذا سعيد بن المسيب في حلقته، فقام حيث ينظر إليه، ثم غمزه وأشار بإصبعه، ثم ولّى فلم

(١) «طبقات ابن سعد» (٧/ ١٢٢، ١٢٣).

يتحرك سعيد، فقال: لا أراه فطن، فجاء ودنا منه، ثم غمزه وقال: ألم ترني أشير إليك؟ قال: ما حاجتك؟ قال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إلي أرسلك؟ قال: لا، ولكن قال: انظر بعض حُدَّاثنا. فلم أر أحدًا أهيأ منك. قال: اذهب فأعلمه أني لست من حداثه، فخرج الحاجب وهو يقول: ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونًا، وذهب فأخبر عبد الملك، فقال: ذاك سعيد بن المسيب فدعه.

❑ فللَّه دره من إمام في عزة نفسه وصدعه بالحق.

❑ وذكر الحافظ بن كثير أن الحجاج بن يوسف صلّى مرة بجنب سعيد ابن المسيب، وذلك قبل أن يلي شيئًا فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود، فلما سلـم أخذ سعيد بطرف ردائه - وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة - فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره، ثم أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق يا خائن، تصلي هذه الصلاة، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك، فلم يرد عليه ثم مضى الحجاج إلى الحج، ثم رجع فعاد إلى الشام، ثم جاء نائبًا على الحجاز، فلما قتل ابن الزبير كر راجعًا إلى المدينة نائبًا عليها، فلما دخل المسجد إذ مجلس سعيد بن المسيب، فقصده الحجاج فخشي الناس على سعيد منه، فجاء حتى جلس بين يديه، فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدره بيده، وقال: نعم! قال: فجزاك اللَّه من معلم ومؤدب خيرًا - ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك. ثم قام ومضى[1].

* رجل والحجّاج:

❑ قال الحافظ ابن كثير: «وقيل إن الحجاج خطب يومًا، فقال: أيها

(١) «البداية والنهاية» (٩/١١٩ - ١٢٠).

الناس الصبر عن محارم اللَّه أيسر من الصبر على عذاب اللَّه، فقام إليه رجل فقال له: ويحك يا حجاج ما أصفق وجهك وأقل حيائك، تفعل ما تفعل، وتقول مثل هذا الكلام؟ خبث وضل سعيك، فقال للحرس: خذوه فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذي جرأك عليَّ؟ فقال: ويحك يا حجاج، أنت تجترئ على اللَّه، ولا أجترئ أنا عليك؟ ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ على اللَّه رب العالمين، فقال: خلوا سبيله، فأطلق»[1] .

*** جهبذ العلماء سعيد بن جبير:**

● عن عمرو بن ميمون عن أبيه، قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه.

❑ قال سالم بن أبي حفصة: لما أتي الحجاج بسعيد بن جبير قال: أنا سعيد بن جبير، قال: أنت شقي بن كسير، **لأقتلنك**. قال: فإذن أنا كما سمتني أمي، ثم قال: دعوني أصل ركعتين، قال: وجهوه إلى قبلة النصارى، قال: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال: إني أستعيذ منك بما عاذت مريم، قال: وما عاذت به؟ قال: قالت: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ [مريم: ١٨].

❑ قال ابن عيينة: «لم يقتل بعد سعيد إلا رجلاً واحداً»[2] .

وجعل الحجاج يقول بعد قتله: ما لي ولسعيد بن جبير.

● وعن خلف بن خليفة عن أبيه قال: شهدت مقتل سعيد بن جبير، فلما بان رأسه قال: لا إله إلا اللَّه، لا إله إلا اللَّه ولم يتم الثالثة.

❑ قال سليمان التيمي: كان الشعبي يرى التقية، وكان ابن جبير لا يرى

---

(١) المصدر السابق (٩/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

(٢) «الحلية» (٤/ ٢٩٠)، و«السير» (٤/ ٣٣٨).

التقية؛ وكان الحجاج إذا أتي بالرجل ـ يعني: ممن قام عليه ـ قال له: أكفرت بخروجك علي؟ فإن قال: نعم. خلّى سبيله. فقال: أكفرت؟ قال: لا، قال: اختر أي قتلةٍ أقتلك، قال: اختر أنت؛ فإن القصاص أمامك[1].

● وعن داود بن أبي هند قال: «لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولاً وسأخبركم: إني كنت وأنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا اللَّه الشهادة، فكلا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها، قال: فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء»[2].

❑ قال الذهبي: قلت: ولما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل ولم يكترث، ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له ـ رحمه اللَّه ـ»[2].

❑ قال ابن كثير: عن سالم بن أبي حفصة قال: لما أتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له: أنت الشقي بن كسير؟ قال: لا، إنما أنا سعيد بن جبير، قال: لأقتلنك، قال: أنا إذن كما سمتني أمي سعيداً، قال: شقيت وشقيت أمك. قال: الأمر ليس إليك، ثم قال: اضربوا عنقه، فقال: دعوني أصلي ركعتين.

● وفي رواية أنه قال له: لأبدلنك بالدينار ناراً تلظى، قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا. وفي رواية أنه لما أراد قتله قال: وجهوه إلى قبلة النصارى، فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فقال: اجلدوا به الأرض، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. فقال: اذبح فما أنزعه لآيات اللَّه منذ اليوم. فقال: اللَّهم لا تسلطه على أحدٍ بعدي.

وقد ذكر أبو نعيم هنا كلامًا كثيراً في مقتل سعيد بن جبير، أحسنه هذا

(١) «السير» (٤/٣٣٨).
(٢) «السير» (٤/ ٣٤٠).

والله أعلم.

◻ قال ابن كثير عن سعيد بن جبير: «قال له الحجاج: ويلك. فقال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار، فقال: اضربوا عنقه. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، استحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة؛ فأنا خصمك عند الله، فذبح من قفاه فبلغ ذلك الحسن فقال: اللَّهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج، فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود، فأنتن منه فمات. وقال سعيد للحجاج لما أمر بقتله وضحك فقال له: ما أضحكك؟ فقال: أضحك من غيرتك علي وحلم الله عنك».

◻ قال ابن كثير: لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير؟.

* أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار الأفزر[1] التمار:

◻ قال ابن خزيمة: لم يكن في زمانه مثله.

«اعرض نفسك على كتاب الله»:

لما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة زائرًا لقبر النبي ﷺ سأل عن أحدٍ ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ فقيل له: ها هنا رجل يقال له: أبو حازم فبعث إليه فجاءه، فقال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء الذي ظهر منك، وأنت توصف برؤية أصحاب رسول الله ﷺ مع فضل ودين تذكر به؟ فقال أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان: إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها، وأنت معدودٌ منهم،

---

(١) أي: الأحدب الذي في ظهره عجرة عظيمة.

ولم تأتني. فقال أبو حازم: أعيذك باللَّه أن تقول ما لم يكن، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال سليمان: صدق الشيخ، فقال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال أبو حازم: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال سليمان: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الآخرة؟ قال: نعم أما المحسن؛ فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد، وأما قدوم المسيء، فكالعبد الآبق. يؤخذ فيشد كتافه، فيؤتى به إلى سيده؛ فإن شاء عفا عنه وإن شاء عذب. فبكى سليمان بكاء شديدًا، وبكى من حوله، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند اللَّه يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب اللَّه، فإنك تعلم ما لك عند اللَّه، قال سليمان: يا أبا حازم، وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب اللَّه تعالى؟ قال: عند قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. قال سليمان: يا أبا حازم، فأين رحمة اللَّه؟ قال: قريب من المحسنين. قال سليمان: يا أبا حازم من أعقل الناس؟ قال: أبو حازم أعقل الناس من تعلم الحكمة والعلم، وعلم بها الناس. قال سليمان: فمن أحمق الناس؟ فقال: من حط في هوى رجل هو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: فما أسمع الدعاء ؟ قال أبو حازم: دعاء المخبتين الخائفين. فقال سليمان: فما أزكى الصدقة عند اللَّه تعالى؟ قال: جهد المقل، قال: فما تقول فيما ابتلينا به؟ ـ يعني الخلافة ـ قال: أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه، أصلحك اللَّه. قال سليمان: نصيحة تلقيها. فقال: ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين، ولا اجتماع المسلمين، فسفكت فيه الدماء الحرام، وقطعت به الأرحام، وعطلت به الحدود، ونُكثت به العهود، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها فيا ليت شعري ما تقولون؟ وماذا يقال لكم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا أعور أمير المؤمنين يستقبل بهذا. فقال أبو حازم: اسكت يا كاذب، فإنما أهلك فرعون هامان وهامان

فرعون، إن اللَّه قد أخذ على العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه.

«كيف لنا أن نصلح ما فسد»:

◻ قال سليمان بن عبد الملك: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسد منا؟ فقال: المأخذ في ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين. فاستوى سليمان جالسًا من اتكائه، فقال: كيف ذلك؟ فقال: تأخذ المال من حله وتضعه في أهله، وكُفّ الأكف عما نهيت، وتمضيها فيما أمرت به، قال سليمان: ومن يطيق ذلك؟ فقال أبو حازم: من هرب من النار إلى الجنة، ونبذ سوء العادة إلى خير العبادة. فقال سليمان: اصحبنا يا أبا حازم وتوجه معنا تصب منا ونصب منك. قال أبو حازم: أعوذ باللَّه من ذلك. قال سليمان: ولم يا أبا حازم؟ قال: أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا فيذيقني اللَّه ضعف الحياة وضعف الممات. فقال سليمان: فتزورنا. قال أبو حازم: إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء، ولم يكن العلماء يأتون الملوك، فصار في ذلك صلاح الفريقين، ثم صرنا الآن في زمان صار العلماء يأتون الملوك والملوك تقعد عن العلماء، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعًا. قال سليمان: فأوصنا يا أبا حازم وأوجز، قال: اتق اللَّه ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك. قال سليمان: ادع لنا بخير، فقال أبو حازم: «اللَّهم إن كان سليمان وليك، فبشره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته». قال: زدني. قال: قد أوجزت؛ فإن كنت وليه فاغتبط، وإن كنت عدوه فاتعظ، فإن رحمته في الدنيا مباحة، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتقى في الدنيا، فلا نفع في قوسٍ ترمي بلا وترٍ. فقال سليمان: هات يا غلام ألف دينار. فأتاه بها، فقال: خذها يا أبا حازم. فقال: لا حاجة لي بها؛ لأني وغيري في هذا المال سواء؛ فإن سويت بيننا وعدلت، أخذت وإلا فلا؛ لأني أخاف أن يكون ثمنًا لما قلت من كلامي. قال سليمان: يا أبا حازم، عظني

وأوجز. قال: حلال الدنيا حساب وحرامها عقاب، وإلى اللَّه المآب، فاتق عذابك أو دع. قال: لقد أوجزت فأخبرني ما مالك؟ قال: الثقة بعدله، والتوكل على كرمه، وحسن الظن به، والصبر إلى أجله، واليأس مما في أيدي الناس قال: يا أبا حازم، ارفع إلينا حوائجك، قال: رفعتها إلى من لا تخذل دونه، فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني رضيت، مع أني نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئين: أحدهما لي والآخر لغيري، فأما ما كان لي، فلو احتلت عليه بكل حيلة، ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذي قدر لي، وأما الذي لغيري، فذلك لا أطمع فيه فكما منعني رزق غيري، كذلك منع غيري رزقي، فعلام أقتل نفسي في الإقبال والإدبار. قال سليمان: لا بد أن ترفع إلينا حاجةً نأمر بقضائها. قال: فتقضيها. قال: نعم، قال: فلا تعطني شيئًا حتى أسألكه ولا ترسل إليَّ حتى آتيك[1].

«حلالها حساب»:

قدم هشام بن عبد الملك إلى المدينة، فأرسل إلى أبي حازم، فقال: يا أبا حازم عظني وأوجز. قال: اتق اللَّه وازهد في الدنيا؛ فإن حلالها حساب، وإن حرامها عذاب. قال: لقد أوجزت يا أبا حازم، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين. فقال أبو حازم: هيهات هيهات، قد رفعت حوائجي إلى من تُنجز الحوائج دونه، فما أعطاني منها قنعتُ، وما منعني منها رضيت. وقد نظرت في هذا الأمر؛ فإذا هو نصفان: أحدهما لي والآخر لغيري.

● وعن زيد بن أسلم قال: كنت مع أبي حازم في الصائفة، فأرسل عبد الرحمن بن خالد ـ وكان أصلح من بقي من أهل بيتنا ـ إلى أبي حازم أن ائتنا حتى نسائلك وتحدّثنا، فقال أبو حازم: معاذ اللَّه، أدركت أهل العلم لا يأتون الدِّين أهل الدنيا، فلن أكون بأول من فعل ذلك؛ فإن كان لك حاجة

(١) كتاب «الإمامة والسياسة».

فأبلغنا. فتصدى له عبد الرحمن وسأل عنه، وقال له: لقد ازددت علينا بهذا كرامة[١] .

* الأفريقي والسفاح:

أما الأفريقي فهو شيخ الإسلام الإمام القدوة أبو أيوب عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قاضي إفريقية وعالمها. . كان الثوري يعظمه جدًّا.

□ قال إسماعيل بن عياش: ولي السفاح، فظهر جور بإفريقية، فوفد ابن أنعم على أبي جعفر مشتكيًا. ثم قال: جئت لأعلمك بالجور ببلدنا؛ فإذا هو يخرج من دارك؟! فغضب وهم به، وقيل: قال له: كيف لي بأعوان؟ قال: أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول: الوالي بمنزلة السوق، يجلب إليه ما ينفق فيه؟ فأطرق طويلاً، فأومأ إلى الربيع الحاجب بالخروج[٢] .

* الحكم بن عمرو الغفاري ووالي العراق زياد بن أبيه: «كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين»:

روى الأعمش عن الشعبي، أن زيادًا كتب إلى الحكم بن عمرو الغفاري، وكان على الصائفة ـ أي: الغزاة في زمن الصيف ـ أن أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهبًا ولا فضة. واقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه الحكم: إني وجدت كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين، واللَّه لو أن السموات والأرض كانتا رتقًا على عبدٍ فاتقى اللَّه، لجعل له منهما مخرجًا، ثم نادى في الناس وقسم فيهم ما اجتمع له من الفيء[٣] .

---

(١) «حلية الأولياء».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٤١٢).

(٣) «العقد الفريد».

* **أحد الرعية وعبد الملك بن مروان: «والحاكم عليك عادل»:**

قام عبد الملك بن مروان ليخطب في الناس ذات يوم ـ وكان بالكوفة ـ فقام إليه رجل اسمه سمعان بن معمر، وقال له: مهلاً يا أمير المؤمنين، اقض لصاحبي بحقه، ثم اخطب. فقال عبد الملك: وما ذاك؟ فقال سمعان: إن لهذا الرجل مظلمة، فجئتك به لأنظر عدلك الذي كنت تعدنا به قبل توليتك، فقال عبد الملك: ما بدا لك أن تقول، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيرتكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟! فإن قلتم: أطيعوا أمرنا واقبلوا نُصحنا. فكيف ينصح غيره من غشّ نفسه؟! وإن قلتم: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها. فعلام قلدناكم أزمة أمورنا، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا؟! أو ما تعلمون أن منّا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات، وأبلغ في العظات؛ فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فينا، فخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها، أما واللَّه لئن بقيت في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المرة، لتضمحلّ حقوق اللَّه وحقوق العباد، فقال عبد الملك: وكيف ذلك؟ فقال سمعان: لأن من كلّمكم في حقه زُجر، ومن سكت عن حقه قهر، فلا قوله مسموع، ولا ظلمه مرفوع، ولا من جار عليه مردوع، وبينك وبين رعيتك مقام تزول منه الجبال؛ حيث ملكك هناك خامل، وعزُّك زائل وناصرك خاذل والحاكم عليك عادل. فبكى عبدالملك، ثم قال للرجل: ما حاجتك؟ فقال: عاملك بالسماوة ظلمني، وليله لهو، ونهاره لغو ونظره زهو. فكتب إليه بإعطائه ظلامته، ثم عزله.

* **أحد الرعية وسليمان بن عبد الملك: «اذكر يوم الأذان»:**

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامة، فقال: يا سليمان أذكرك يوم الأذان. فارتاع لما دعاه باسمه،

وقال: ويحك، وما يوم الأذان؟. قال: قول اللَّه جل ذكره: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جارٌ في ضيعتك الفلانية، وقد ظلمني وكيلك، فأضر ذلك بي وبعيالي. قال: قد وهبت لك الضيعة. وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه[1].

*** أعرابي وسليمان بن عبد الملك: «وأنت المسئول عما اجترحوا»:**

☐ قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن عبد الملك: إن بالباب - يا أمير المؤمنين - رجلاً له حزم ولسان، قال: أدخله، فدخل، فقال له سليمان: ممن الرجل؟ فقال: من عبد القيس بن أقصى، وإني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته؛ فإن وراءه ما تحب إن قبلته. فقال: قل يا أعرابي. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في اللَّه ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة سلم للدنيا، فلا تأتمنهم على ما ائتمنك اللَّه عليه؛ فإنهم لن يألوا الأمانة إلا تضييعًا، والأمة خسفًا، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبنًا بائع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: أما أنت يا أخا ربيعة، فقد سللت لسانك، وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك. قال: أما خاصة دون عامة فلا. ثم قام فخرج. فقال سليمان: للَّه دره ما أشرف أصله وأجمع قلبه، وأذرب لسانه وأصدق بينته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل[2].

---

(١) كتاب «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

(٢) «المصباح المضيء» لابن الجوزي، و«عيون الأخبار»، و«العقد الفريد».

* طاووس طاووس العلماء والزهاد وزينتهم:

جاء الخليفة سليمان بن عبدالملك يومًا إلى طاووس فلم ينظر إليه، فقيل له في ذلك: فقال: أردت أن يعلم أن للَّه رجالاً يزهدون فيما لديه[١].

□ وعن ابن طاووس قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن يُخرج على هذا السلطان[٢]، وأن يفعل به. قال: فخرجنا حجّاجًا، فنزلنا في بعض القرى، وفيها عامل - يعني لأمير اليمن - يُقال له ابن نجيح، وكان من أخبث عمّالهم، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد فجاء ابن نُجيح فقعد بين يديْ طاووس فسلّم عليه فلم يُجبه، ثم كلّمه فأعرض عنه، ثم عدل إلى الشق الآخر فأعرض عنه، فلما رأيتُ ما به قمتُ إليه فمددت يده وجعلت أسائله وقلت له: إن أبا عبدالرحمن لم يعرفك، فقال العامل: بلى معرفته لي فَعَلَتْ ما رأيت!، قال: فمضى أبي لا يقولُ لي شيئًا، فلمّا دخلت المنزل قال: أيِ لُكَع بينما أنت زعمت تريد أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنه لسانك[٣].

□ وروى الذهبي أن أبا جعفر المنصور استدعى طاووس ومعه مالك بن أنس رحمهما اللَّه تعالى، فلما دخلا عليه، أطرق ساعة ثم التفت إلى طاووس.

فقال له: حدثني عن أبيك يا طاووس.

فقال: حدثني أبي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أشد الناس عذابًا يوم**

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٢٤).

(٢) هذا القول مرجوح فلا يجوز الخروج على الحاكم المسلم الفاسق والصبر عليه أولى خشية الفتنة.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤١).

القيامة رجل أشركه اللَّه في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله». فأمسك ساعة.
قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظني يا طاووس. قال: نعم يا أمير المؤمنين ـ إن اللَّه تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

□ قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه، فأمسك عنه ثم قال: ناولني الدواة، فأمسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا طاووس ناولني هذه الدواة فأمسك عنه.

فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟

فقال: أخشى أن تكتب بها معصية للَّه، فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال: قوما عني.

قال طاووس: ذلك ما كنا نبغ منذ اليوم، قال مالك: فمازلت أعرف لطاووس فضله[1].

* * *

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٦٠)، «وفيات الأعيان» (٢/ ٥١١).

* سيد أهل اليمن وإمامهم طاووس: «طاووس وسليمان: أتعلمون من أبغض الخلق إلى اللَّه»:

روي أن رجاء بن حيوة نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد الحرام، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام، فقال: إني رأيت طاووسًا بالمسجد، فهل لك أن ترسل إليه؟ قال: فأرسل إليه سليمان. فلما أتاه قال رجاء لسليمان: يا أمير المؤمنين، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلم. فلما قعد طاووس سكت طويلاً، ثم قال: ما أول شيء خلق؟ فقلنا: لا ندري. فقال طاووس: أول شيء خلق القلم. ثم قال: أتدري ما أول شيء كتب؟ قلنا: لا، قال: فإن أول ما كتب: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، ثم كتب القدر خيره وشره إلى يوم القيامة. ثم قال: أتعلمون من أبغض الخلق إلى اللَّه؟ قلنا: لا، فقال: إن أبغض الخلق إلى اللَّه تعالى، عبد أشركه اللَّه في سلطانه، فعمل فيه بمعاصيه، ثم نهض، قال رجاء: فأظلم عليَّ البيت فما زلت خائفًا عليه حتى توارى، فرأيت سليمان يحكُّ رأسه بيده، حتى خشيت أن تخرج أظافره لحم رأسه[1].

* طاووس وهشام بن عبد الملك: «ما الذي حملك على ما صنعت»:

قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا إلى مكة، فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة. فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا. قال: فمن التابعين، فأتوه بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم بإمرة أمير المؤمنين، ولكن قال: السلام عليك. ولم يكنه ولكن جلس بإزائه. قال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا، حتى هم بقتله، فقيل

---

(١) كتاب «الإمامة والسياسة».

له: أنت في حرم الله ورسوله، فلا يمكن ذلك فقيل له: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟! فازداد هشام غضبًا، وقال: لقد خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم بإمرة أمير المؤمنين ولم تُكنني وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: كيف أنت يا هشام، فقال: أما ما خلعت نعلي بحاشية بساطك؛ فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني ولا يغضب علي. وأما قولك: لم تقبل يدي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد، إلا امرأته من شهوة أو ولده برحمةٍ، وأما قولك: لم تسلم بإمرة أمير المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك، فكرهت أن أكذب، وأما قولك: جلست بإزائي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله ناسٌ قيام، وأما قولك: لم تكنني فإن الله عز وجل سمى أولياءه، وقال: يا داود يا يحيى، يا عيسى، وكنى أعداءه، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، فقال هشام: عظني. فقال: سمعت أمير المؤمنين عليًّا ﷺ يقول: «إن في جهنم حيات كأمثال القلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أميرٍ لا يعدل في رعيته» ثم قام وذهب[١].

* **عمر بن عبد العزيز:**

❑ لله دره من آمر بالمعروف وناه عن المنكر ووزير صدق قبل توليه الخلافة.

---

(١) «مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين» ص(٦٢) نقلاً من كتاب نزهة الناظرين لعبيد الضرير.

«لا تُحي ذكرى الحجاج»:

لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن أسلم، قال له عمر بن عبد العزيز: أسألك باللَّه ـ يا أمير المؤمنين ـ أن لا تُحيي ذكرى الحجاج باستكتابك إياه. فقال: يا أبا حفص، إني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم. قال عمر: أنا أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم. قال: ومن هو؟ قال: إبليس، ما مس ديناراً ولا درهمًا، وقد أهلك هذا الخلق(١).

وحجّ سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرفا على قبة عسفان، نظر سليمان إلى السرادقات قد ضربت، فقال له: يا عمر، كيف ترى؟ قال: أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضًا، وأنت المسئول عنها والمأخوذ بها. فبينما هما كذلك، إذ طار غراب من سرادقات سليمان في منقاره كسرة، فصاح فقال سليمان: ما يقول هذا الغراب؟ قال عمر: ما أدري ما يقول، ولكن إن شئت أخبرتك بعلم. قال: أخبرني قال: هذا غراب طار من سرادقاتك في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ، وعنها مسئول من أين دخلت ومن أين خرجت. قال: إنك لتُخبرنا بالعجائب. قال: أفلا أخبرك بأعجب من هذا؟ قال: بلى، قال: من عرف اللَّه كيف عصاه؟! ومن عرف الشيطان كيف أطاعه؟! ومن أيقن الموت، كيف يهنيه العيش؟! قال: لقد غششت علينا ما نحن فيه ثم ضرب فرسه وسار.

«فكيف سلطانه عند غضبه»:

وحج سليمان بن عبد الملك في خلافته ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرف من ثنية قديد رأى سواد عسكره، فأعجبه ذلك فقال: يا أبا حفص ما

---

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

ترى هنالك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أرى ذئابًا يأكل بعضها بعضًا، أنت المبتلى بها والمسئول عنها. فبينما هو على ذلك برقت برقة فصعقت صاعقة، فاعتنق سليمان دابته فلما تجلى ذلك قال: يا أبا حفص، ما ترى هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، هذا سلطان اللَّه عز وجل عند رحمته فكيف سلطانه عند غضبه، ثم قال: والعجب واللَّه ممن عرف اللَّه عز وجل فعصاه، وعرف الشيطان فأطاعه، ورأى الدنيا وتقلبها بأهلها فاطمأن إليها.

*** زياد [1] العبدي: «ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك»:**

قدم زياد العبدي على عمر، فقال له عمر: يا زياد ألا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ قال: يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف، وأعمل نفسك في المخرج مما وقعت فيه، فلو أن كل شعرةٍ منك نطقت، ما بلغت كُنه ما أنت فيه. ثم قال زياد: يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد، ما حاله؟ قال: سيئ الحال. قال: فإن كانا خصمين ألدّين؟ قال: ذاك أسوأ لحاله. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذلك حين لا يهنؤُه عيشٌ. قال: فواللَّه يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك، قال: فبكى عمر حتى تمنيت أن لا أكون قلت له. وقال له عمر مرَّةً: يا زياد، إني أخاف أن أكون قد هلكت؟ قال: أنا أخاف عليك أن لا تكون تخاف.

*** أبو قلابة:**

حكي عن أبي قلابة، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له: يا أبا قلابة عظني، فقال: يا أمير المؤمنين إنه لم يبق من لدن آدم إلى يومنا هذا خليفة غيرك، قال له: زدني، قال: وأنت أول خليفة يموت. قال: زدني،

---

(١) زياد العبدي: هو زياد بن أبي زياد ميسرة مولى عبد اللَّه بن عياش بن أبي ربيعة المتوفي سنة ١٣٥هـ.

قال: إذا كان اللَّه معك فمن تخاف! وإذا كان عليك فمن ترجو! قال: حسبي[1].

*** عطاء بن أبي رباح وهشام:**

دخل عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: مرحبًا مرحبًا، هاهنا هاهنا. فرفعه حتى مست ركبته ركبته، وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا، فقال هشام: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين، أهل اللَّه وجيران رسول اللَّه ﷺ، تقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم. قال: نعم يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطائهم وأرزاقهم لسنة، ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب ومادة الإسلام، ترد فيهم فضول صدقاتهم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأن ترد فيهم صدقاتهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم، قد أجريت لهم أرزاقًا تردّها عليهم، فإنهم إن هلكوا غُزيتم. قال: نعم، اكتب يا غلام، تُحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم لا يكلفون إلا ما يطيقون فإنما يجيئون معونة لكم على عدوكم. قال: نعم، اكتب يا غلام أن لا يحملوا ما لا يطيقون، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق اللَّه في نفسك؛ فإنك خلقت وحدك وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا واللَّه ما معك ممن ترى أحد. فأكب هشام يبكي. وقام عطاء فلما كان عند الباب، وإذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري فيه دراهم أو دنانير، وقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا.

---

(1) «فضائح الباطنية» للغزالي.

فقال: ما أصنع بهذا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، ثم خرج عطاء فوالله ما شرب عنده حسوة من ماء فما فوقها[١].

* أعرابي وهشام: «هذا جزاء من يطفف في الكيل»:

دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: عظني يا أعرابي، فقال: كفى بالقرآن واعظًا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]. ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذا جزاء من يطفف الكيل والميزان، فما ظنك بمن أخذه كله[٢].

* سالم بن عبد الله بن عمر: «ما أعظم ما ابتليت به يا عمر»:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من أمره هذه الأمة، من غير مشورة مني فيها ولا طلب مني لها، إلا قدر من الرحمن قدَّره عليَّ، فأسأل الذي ابتلاني أن يعينني على ما ولاني من عباده وبلاده، أن يرزقني فيهم العمل بطاعته، وأن يرزقهم مني الرأفة والرحمة، ويرزقني فيهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة؛ فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث إليَّ بكتب عمر وسيرته وقضائه في أهل القبلة وأهل الذمة؛ فإني سائر بسيرته ومتبع أثره إن الله أعانني على

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين».

(٢) «العقد الفريد».

ذلك إن شاء اللَّه. والسلام».

فكتب إليه سالم: من سالم بن عبد اللَّه إلى عمر بن عبد العزيز، سلام عليك؛ فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن اللَّه تعالى خلق الدنيا لما أراد، فجعل لها مدة قصيرة، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء. ثم إنك يا عمر قد وليت أمرًا عظيمًا؛ فإن استطعت أن لا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة، فافعل، وإن استطعت أن تجيء يوم القيامة لا يتبعنك أحد بمظلمة، ويجيء من قبلك وهم غابطون لك فافعل، فإنهم قد عالجوا نزع الموت، وعاينوا أهوال المطلع، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذتها، وانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون فيها، واندقت رقابهم غير متوسدين، بعد تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم. فصاروا جيفًا في بطون الأرض تحت آكامها لو كانوا إلى جنب مساكين تأذّوا من ريحهم بعد إنفاق ما لا يُحصى من الطيب؛ فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. ما أعظم ما ابتليت به يا عمر. فمن بعثت من عمالك فازجره زجرًا شديدًا، شبيهًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال المال يا عمر، الدم الدم يا عمر. كتبت إلي أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته. إن عمر عمل في غير زمانك وبغير رجالك، وأنا أرجو إن عملت على النحو الذي عمل به عمر، بعد ما بلوت من المظالم، أن تكون أفضل من عمر عند اللَّه، وقل كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨][1] .

*** سالم وهشام بن عبد الملك:**

حج هشام بن عبد الملك أيام خلافته، فدخل الكعبة، فوجد فيها سالم

---

(١) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

ابن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب ﷺ جميعًا، فقال الخليفة: يا سالم سلني حاجة، فقال له سالم: إني لأستحي من اللَّه أن أسأل في بيته غيره. فلما خرج سالم من الكعبة، خرج هشام في إثره، وقال له: الآن خرجت من بيت اللَّه، فسلني حاجة. فقال سالم: من حوائج الدنيا، أم حوائج الآخرة؟ فقال هشام: من حوائج الدنيا. فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟!

* الحسن البصري:

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يعظه ويحذره من الدنيا، أما بعد يا أمير المؤمنين:

فإن الدنيا دار ظعن وانتقال وليست بدار إقامة على حال، وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها؛ فإن الراغب تارك والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها. إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق، وجدها تذل من أعزها، وتفرِّق من جمعها فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله وفيه ـ واللَّه ـ حتفه فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً. الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها؛ فإنها غدارة ختالة خدّاعة، قد تعرضت بآمالها، وتزينت لخطابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهي ـ والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ـ لأزواجها قاتلة فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مُؤَدّ إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق. والفطن اللبيب من خاف ما خوفه اللَّه، وحذره ما حذره، وفرّ من دار الفناء إلى دار البقاء،

فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف من سوء العافية. والدنيا ـ وايم اللَّه ـ يا أمير المؤمنين حلم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام.

□ وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تَنْجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ   وإلا فإنّي لا أخَالُكَ ناجِيًا

ولما وصل كتابه إلى عمر، بكى وانتحب، حتى رحمه من كان عنده، وقال: رحم اللَّه الحسن؛ فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة وينبهنا من الغفلة، وللَّه هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري: عظني، فكتب إليه الحسن: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فكن للمثل من المسلمين أخًا، وللكبير ابنًا، وللصغير أبًا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار»[1].

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين»:

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل. فكتب الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ:

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده؛ يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم في مماته.

---

(١) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين اللَّه وبين عباده، يسمع كلام اللَّه ويُسمعهم، وينظر إلى اللَّه ويُريهم، وينقاد إلى اللَّه ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك اللَّه كعبد ائتمنه سيده، فاستحفظه ماله وعياله، فبدَّد المال وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن اللَّه أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن اللَّه أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر. واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحبّاؤك، ويسلموك في قعره وحيداً فريداً، فتزود له. واذكر إذا بعثر ما في القبور، وحصِّل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد اللَّه بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا، وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي اللَّه في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين لم آلك شفقةً ولا نصحًا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة؛ لما يرجوه له من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته»[1] .

«إن استقمت استقاموا»:

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتل الحسن ـ أصيب بعلة بفتق في بطنه ـ وكتب إليه:

«يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا. يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوحٍ وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان، ما كان لك بُدٌّ أن تقتحم العقبة الجنة أو النار، من أخطأته هذه دخل هذه». فلما أتاه الكتاب، أخذه فوضعه على عينيه، ثم بكى ثم قال: كيف لي بعمر نوح، ويقين إبراهيم، وسلطان سليمان، وحكمة لقمان؟! ولو نلت ذلك، لم يكن لي بد أن أشرب بكأس الأولين.

*** الحسن والحجاج:**

روي أن الحجاج بنى داراً بواسط، وأحضر الحسن ليراها، فلما دخلها قال: الحمد للَّه، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزًّا، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبراً، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فراش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمعٍ وفراش ونارٍ، وأصحاب سوءٍ، فيقول: انظروا ما صنعت: فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين! أما أهل السموات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء، وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور. ثم خرج وهو يقول: إن اللَّه سبحانه وتعالى أخذ عهده على العلماء، ليبينه

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه.

للناس ولا يكتمونه. وبلغ الحجاج ما قال، فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، فقال: يا أهل الشام، أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور، فلا تنكرون؟! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع، حتى دخل على الحجاج، فقال له الحجاج: هاهنا اجلس. فأجلسه قريبًا منه، وقال: ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك. قال: قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]، علم علي وعثمان عند اللَّه. قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد. ودعا بغالية ـ طيب ـ وعلف بها لحيته، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: «يا عدتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارزقني مودته واصرف عني أذاه» ففعل ربي عز وجل[1].

*** الحسن البصري يذبُّ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أمام الحجاج ابن يوسف الثقفي:**

دعا الحجّاج فقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، وكان من بينهم الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ وكان آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحبًا بأبي سعيد، إليّ إليّ، ثم دعا بكرسيّ فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه، فجعل الحجاج يذاكرهم ويسألهم، ثم ذكر علي بن أبي طالب ﷺ ونال منه، فوافقه الجالسون مقاربة له، وفرقًا من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه، فقال الحجاج: يا أبا سعيد، ما لي أراك ساكتًا؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب. قال: سمعت اللَّه جل ذكره

(١) «الحسن البصري» لابن الجوزي.

يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] فعليٌّ ممن هدى اللَّه من أهل الإيمان فأقول: ابن عم النبي عليه السلام، وختنه على ابنته وأحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركة، سبقت له من اللَّه، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقولُ: إن كانت لعليٍّ هنَات فاللَّه حسيبه، واللَّه ما أجد فيه أعدل من هذا، فبسر وجه الحجاج وتغيّر، وقام عن السرير مغضبًا، فدخل بيتًا خلفه، وخرج القوم.

قال عامر الشعبي ـ وكان جالسًا معهم ـ: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم الكوفة، أتيت شيطانًا من شياطين الإنس تُكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلاّ اتقيت اللَّه إن سُئلت فصدقت، أو سكت فسلمت.

قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشدّ في التبعة[1] .

* الحسن وابن هبيرة:

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن البصري والشعبي، وأمر لهما ببيت، فكانا فيه شهرًا ونحوه، ثم جاء عمرو إليهما، فسلم ثم جلس معظمًا لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إلي كتبًا، أعرف أن في إنفاذها الهلاك؛ فإن أطعته عصيت اللَّه، وإن عصيته أطعت

---

(١) «منهاج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السامرائي ص(١٨٥ ـ ١٨٦) طبع دار الوفاء.

اللَّه، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجًا؟

□ فقال الحسن للشعبي: أجب الأمير. فتكلم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده ـ أي يريد إرضاءه ـ فقال ابن هبيرة للحسن: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أقول: يا ابن هبيرة، أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة اللَّه فظ غليظ، لا يعصي اللَّه ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك. يا عمرو بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر اللَّه إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك. يا عمرو بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة، أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة. يا عمرو بن هبيرة إني أخوفك مقامًا خوفك اللَّه عز وجل فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]. يا عمرو بن هبيرة، إن تك مع اللَّه في طاعته، كفاك يزيد بن عبدالملك. وإن تك مع يزيد على معاصي اللَّه، وكلك اللَّه إليه. فبكى عمرو ابن هبيرة وقام بعبرته. فلما كان من الغد أرسل إليهما، فأدناهما وأجازهما، فأكثر في جائزة الحسن وأنقص جائزة الشعبي. فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر اللَّه على خلقه، فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته، ولكن أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني اللَّه منه. وفي رواية أخرى: رققْنا فرقَّقُوا.

* الحسن والنضر بن عمرو:

أحضر النضر بن عمرو ـ وكان واليًا على البصرة ـ الحسن البصري يومًا، فقال: يا أبا سعيد إن اللَّه عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها، وزينتها لعباده، وقال عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فقال الحسن: يا أيها الرجل اتق اللَّه في نفسك، وإياك والأماني التي ترجحت فيها فتهلك، إن أحدًا لم يُعط خيرًا من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأمنيته؛ وإنما هي داران، من عمل في هذه أدرك تلك، ونال في هذه ما قدر له منها، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعًا. إن اللَّه سبحانه اختار محمدًا ﷺ لنفسه، وبعثه برسالته ورحمته، وجعله رسولاً إلى كافة خلقه وأنزل عليه كتابًا مهيمنًا، وحد له في الدنيا حدودًا، وجعل له فيها أجلاً ثم قال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وأمرنا أن نأخذ بأمره، ونهتدي بهديه وأن نسلك طريقته ونعمل بسنته، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر. فذلك باب مخرجنا؛ فأما الأماني فلا خير فيها، ولا في أحد من أهلها. فقال النضر: واللَّه يا أبا سعيد، إنا على ما فينا لنحب ربنا. فقال الحسن: لقد قال ذلك قوم على عهد رسول اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه تعالى عليه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل سبحانه اتباعه ﷺ علمًا للمحبة وأكذب من خالف ذلك، فاتق اللَّه أيها الرجل في نفسك، وايم اللَّه لقد رأيت قومًا كانوا قبلك في مكانك، يعلون المنابر وتهتز لهم المراكب، ويجرون الذيول بطرًا ورياء الناس، يبنون المدر ويؤثرون الأثر، ويتنافسون في الثياب، أخرجوا من سلطانهم، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم، قدموا على ربهم، ونزلوا على أعمالهم. فالويل لهم يوم التغابن ويا ويحهم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ

---

(١) «الحسن البصري» لابن الجوزي.

امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[١] [عبس: ٣٤-٣٧].

ودخل عليه مرة أخرى فقال له: أيها الأمير - أيدك اللَّه - إن أخاك من نصحك في دينك، وبصرك عيوبك وهداك إلى مراشدك، وإن عدوك من غرك ومناك. أيها الأمير اتق اللَّه؛ فإنك أصبحت مخالفًا للقوم في الهدي والسيرة والعلانية والسريرة، وأنت مع ذلك تتمنى الأماني، وترجح في طلب العذر. والناس - أصلحك اللَّه - طالبان: فطالب دنيا، وطالب آخرة. وايم اللَّه لقد أدرك طالب الآخرة واستراح وتعب الآخر واخترم. فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني وترك الباقي، فتكون من النادمين، واعلم أن حكيمًا قال:

أين الملوك التي عن حظها غفلت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

نعوذ باللَّه من الحور بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهدى. لقد حدثت أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: «كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينًا، وعلى أعمالهم مُعينًا»[١].

* محمد بن سيرين وابن هُبيرة:

عن جعفر بن مرزوق قال: بعث ابن هبيرة إلى ابن سيرين والحسن والشعبي، قال: فدخلوا عليه فقال لابن سيرين: يا أبا بكر، ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟

قال: رأيت ظلمًا فاشيًا، قال: فغمره ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه ابن سيرين فقال: إنك لست تُسأل، إنما أنا أُسأل. فأرسل إلى الحسن بأربعة آلاف، وإلى ابن سيرين بثلاثة آلاف، وإلى الشعبي بألفيْن، فأما ابن سيرين فلم يأخذها[٢].

---

(١) «عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٦٨).

قال هشام: ما رأيت أحدًا عند السلطان أصلب من ابن سيرين[1].

*** مكحول عالم الشام ويزيد بن عبدالملك:**

جلس التابعي الجليل مكحول عالم أهل الشام في مجلسه يلقي درسه كعادته، وحوله طلاّب العلم يأخذون عنه، إذ أقبل الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك في زينته وتبختره، وجاء إلى حلقة مكحول، فأراد الطلاب أن يوسعوا له، فقال مكحول: دعوه يتعلّم التواضع[2].

*** بين الإمام الشعبي وأمير واسط عمرو بن هُبيرة:**

دعا عمرو بن هبيرة أمير واسط من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك ـ بعض أهل العلم ليستشيرهم، وكان في جملتهم الإمام الشعبي ـ رحمه اللَّه، فتخلّل حديثهم معه مسألة خلافة يزيد وشدّته.

فقال ابن هبيرة: إنه ليأتيني منه كتب أعرف في تنفيذها الهلكة.. فإن أطعته عصيت اللَّه.. فماذا تأمرون؟! فأحال العلماء الإجابة على الإمام الشعبي تأدبًا فقال: «أمّا إذ سألتني فإنه يحقّ عليّ أن أجيبك: إن اللَّه عز وجل مانعك من يزيد، ولن يمنعك يزيد من اللَّه، وإنه يوشك أن ينزل ملك من السماء فيستنزلك من سريرك وسعة قصورك إلى باحة دارك، ثم يخرجك من باحة دارك إلى ضيق قبرك، ثم لا يوسع عليك إلا عملك. يا ابن هبيرة.. إني أنهاك عن عباد اللَّه عز وجل فإنما جعل اللَّه السلطان ناصرًا لعباده ودينه، فلا تركبوا عباد اللَّه بسلطان اللَّه فتذلوّهم، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. يا ابن هبيرة لا تأمنن أن ينظر اللَّه عز وجل إليك عند أقبح ما تعمل نظرة مقت، فيغلق عنك باب الرحمة، يا ابن

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦١٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٥٠).

هبيرة.. إني أدركت أناسًا من صدور هذه الأمة كانوا فيما أحلّ اللَّه لهم أزهد منكم فيما حرّم اللَّه عليكم، وكانوا لحسناتهم ألا تُقبل أخوف منكم لسيئاتكم ألا تُغفر، وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيا بأعينكم، وكانوا عن الدنيا وهي عليهم مقبلة أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي عنكم مدبرة.

يا ابن هبيرة.. إني أخوّفك مقامًا خوّفكه اللَّه عز وجل من نفسه فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

يا ابن هبيرة.. إن تكن مع اللَّه على يزيد يكفك اللَّه بائقته، وإن تكن مع يزيد على اللَّه يكلك إليه».

وما زال الشعبي يؤدي أمانته في النصح لإعلاء لواء الحق، حتى سمع الناس من خارج القصر بكاء الأمير[1].

* **خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز: «إن أقوامًا غرهم ستر اللَّه»:**

قال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان: عظني وأوجز. فقال خالد ابن صفوان: يا أمير المؤمنين، إن أقوامًا غرهم ستر اللَّه، وفتنهم حسن الثناء فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا اللَّه وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مفتونين، وعما افترض اللَّه علينا متخلفين، وإلى اللهو مائلين. قال: فبكى ثم قال: أعاذنا اللَّه وإياك من اتباع الهوى.

ودخل عليه مرة أخرى فقال له: عظني يا خالد. فقال: إن اللَّه لم يرض أحدًا أن يكون فوقك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك. قال: فبكى عمر حتى غشي عليه ثم أفاق، فقال: هيه يا خالد لم يرض أن يكون أحد فوقي، فواللَّه لأخافنه خوفًا، ولأحذرنه حذرًا، ولأرجونه رجاءً، ولأحبنه محبة، ولأشكرنه شكرًا، ولأحمدنه حمدًا، يكون ذلك كل غاية

(١) «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء» للشيخ محمد فهمي عبدالوهاب ص(١١٥ ـ ١١٦) ـ دار الاعتصام.

طاقتي، ولأجتهدن في العدل والنصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها، حتى ألقى اللَّه عز وجل؛ فلعلي أن أنجو مع الناجين، وأفوز مع الفائزين. وبكى حتى غشي عليه.

*** أحد الرعية وعمر بن عبد العزيز: «ويحك اردد علي كلامك»:**

ذكر رجل مظلمة له على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين اذكر مقامي هذا؛ فإنه مقام لا يشغل اللَّه - عز وجل - عنه كثرة من تخاصم إليه من الخلائق، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءةٍ من الذنب. فقال عمر: ويحك، اردد علي كلامك. فردده عليه فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال: ما حاجتك؟ قال: عاملك على أذربيجان ظلمني، وأخذ من مالي عشرة آلاف درهم. فكتب بردٍّ ذلك عليه، وبعزل عامله، وقال: انظروا هل اخلولق له ثوب، أو تقطّع له من حذاء فحسب ذلك فبلغ عشرين ديناراً فأمر عمر بدفعها إليه[1].

*** يعلى بن مخلد والحجاج:**

دخل يعلى بن مخلد المجاشعي على الحجاج في مرض الموت، فقال له: كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته؟ فقال: يا يعلى، غمًا شديدًا، وجهدًا جهيدًا، وألمًا مضيضًا، ونزعًا حريضًا، وسفرًا طويلاً، وزادًا قليلاً فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار. فقال له: يا حجاج إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء الكرماء، أولي الرحمة والرأفة، والتحنن والتعطف على عباده وخلقه، أشهد أنك قرين فرعون وهامان؛ لسوء سيرتك وترك ملتك، وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة، وآثار الصالحين، قتلت صالحي الناس فأفنيتهم وأبرت عترة التابعين فتبرتهم، وأطعت المخلوق في معصية

---

(١) «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

الخالق وهرقت الدماء وضربت الأبشار وهتكت الأستار، وسست سياسة متكبر جبار، لا الدين أبقيت، ولا الدنيا أدركت أعززت بني مروان، وأذللت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك. فاليوم لا ينجونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر. لقد كنت لهذه الأمة اهتمامًا واغتمامًا، وعناءً وبلاءً فالحمد للَّه الذي أراحها بموتك وأعطاها مناها بخزيك، قال: فكأنما قطع لسانه عنه فلم يحر جوابًا وتنفس الصعداء، وخنقته العبرة ثم رفع رأسه فنظر إليه وأنشأ يقول:

ربِّ إن العبادَ قد أياسُوني ... ورجائي لك الغداةَ عظيمُ[1]

*** يحيى بن يعمر والحجاج:**

عن الشعبي: كنت عند الحجاج، فأتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلاً بالحديد، فقال له الحجاج: أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول اللَّه ﷺ، فقال: بلى. فقال الحجاج: لتأتيني بها واضحة بينة من كتاب اللَّه، أو لأقطعنك عضوًا عضوًا. فقال: آتيك بها واضحة بينة من كتاب اللَّه يا حجاج، قال: فتعجب من جرأته بقوله: يا حجاج. فقال له الحجاج: ولا تأتيني بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾. فقال: آتيك بها واضحة من كتاب اللَّه، وهو قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فمن كان أبو عيسى وقد ألحق بذرية نوح؟ قال: فأطرق مليًا. ثم رفع رأسه، فقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب اللَّه حلوا وثاقه وأعطوه من المال كذا[2].

---

(١) «ذيل الأمالي والنوادر» لأبي علي القالي.
(٢) «التفسير الكبير» للفخر الرازي.

* **رجل من اليمن والحجاج:**

بينما الحجاج جالس في الحجر إذا دخل رجل من أهل اليمن، فجعل يطوف فوكل به بعض من معه، فقال: إذا خرج من طوفه فأتني به فلما فرغ من طوفه أتاه به، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل اليمن، قال: ألك علم بمحمد بن يوسف؟ قال: نعم. قال: فأخبرني عنه. قال: لقد تركته أبيض بضًّا سمينًا طويلاً عريضًا. قال: ويلك، ليس عن هذا أسألك. قال: فعمه؟ قال: عن سيرته وطعمته. قال: فأجور السير، وأخبث الطعم وأعدى العداة على اللَّه وأحكامه. قال: فغضب الحجاج وقال: ويلك، أما علمت أنه أخي؟ قال: بلى. قال: أفأنت ما علمت أن اللَّه ربي؟ واللَّه لهو أمنع لي منك أكثر منك لأخيك، قال: أجل، أرسله يا غلام[1].

* **عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه:**

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة، فأخلني - وعنده مسلمة بن عبد الملك بن مروان - فقال له عمر: أسر دون عمك؟ فقال: نعم. فقام مسلمة وخرج. وجلس بين يديه، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، أو سُنّة لم تحيها؟ فقال له: يا بني أشيء حمَّلَتْكَهُ الرعية إلي، أم رأي رأيته من قبل نفسك؟ قال: لا واللَّه، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل؟ فقال له أبوه: رحمك اللَّه، وجزاك من ولدٍ خيرًا، فواللَّه إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بني إن قومكَ قد شدّوا هذا الأمر عُقدةً عقدة وعروةً عروةً، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقًا

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

تكثر فيه الدماء، واللَّه لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا، إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم اللَّه بيننا وبين قومنا بالحق، وهو خير الحاكمين.

*** الخازن وعمر:**

كان لعمر بن عبد العزيز غلامًا، وكان خازنًا لبيت المال وكان لعمر ثلاث بنات، فجئنه يوم عرفة وقلن له: غدًا العيد، ونساء الرعية وبناتهم يلمننا ويقلن: أنتن بنات أمير المؤمنين، ونراكن عُريانات لا أقل من ثياب بيضاء تلبسنها، وبكين عنده، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن، وقال له: أعطني مشاهرتي ـ الراتب الشهري ـ لشهر واحد. فقال الخازن: يا أمير المؤمنين تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفًا، انظر إن كان لك عمر شهرٍ فخذ مشاهرة شهرٍ. فتحير عمر وقال: نعم ما قلت أيها الغلام، وبارك اللَّه فيك. ثم قال لبناته: اكظمن شهواتكن؛ فإن الجنة لا يدخلها أحد بغير مشقة[1].

*** غلامٌ هاشميّ وعمر بن عبد العزيز: «لو أن الأمر بالسن، لكان في الأمة من هو أحق منك»:**

حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد، لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون، فتقدم غلام هاشمي للكلام وكان حديث السن، فقال عمر: ليتكلم من هو أسن منك. فقال الغلام: أصلح اللَّه أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ فإذا منح اللَّه عبدًا لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن، لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك

(١) «التبر المسبوك».

هذا منك. فقال عمر: صدقت، قل ما بدا لك. فقال الغلام: أصلح اللَّه أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة وقد أتيناك لمنّ اللَّه الذي منّ علينا بك، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة: فقد أتيناك من بلادنا. وأما الرهبة: فقد أمنا جورك بعدلك. فقال عمر: عظني يا غلام. فقال: أصلح اللَّه أمير المؤمنين إن ناسًا من الناس غرهم حلم اللَّه عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم، فزلت بهم الأقدام فهووا في النار. فلا يغرنك حلم اللَّه عنك، وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك فتلحق بالقوم. فلا جعلك اللَّه منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة. ثم سكت. فقال عمر: كم عمر الغلام؟ فقيل: إحدى عشرة سنة. ثم سأل عنه؛ فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي ﷺ، فأثنى عليه خيراً، ودعا له وتمثل قائلاً:

تعلَّم فليس المرء يُولدُ عالمًا ... وليس أخو علم كمن هُو جاهلُ

فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافلُ

*** محمد بن واسع وبلال بن أبي بردة: «لا تظلم ولا تحتاج إلى دعائي»:**

دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة في يوم حار، وبلال في حشمه وعنده الثلج، فقال بلال: يا أبا عبد اللَّه كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب والجنة أطيب منه. وذكر النار يُلهي عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك من أهل القبور ففكّر فيهم؛ فإن فيهم شغلاً عن القدر. قال: ادع لي. قال: وما تصنع بدعائي، وعلى بابك كذا وكذا، كل يقول إنك ظلمتهم. يرتفع دعاؤهم قبل دعائي؟! لا تظلم ولا تحتاجُ إلى دعائي.

*** مالك بن دينار وبلال بن أبي بُردة: «ما أدري أيهما أكرم على اللَّه»:**

خرج بلال بن أبي بردة في جنازة، وهو أمير على البصرة، فنظر إلى جماعة وقوفًا فقال: ما هذا؟ قالوا: مالك بن دينار يذكّر الناس. فقال لوصيف معه: اذهب إلى مالك بن دينار، فقل له يرتفع إلينا إلى القبر.

فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلى مالك، فصاح به مالك: ما لي إليه حاجة فأجيئه فيها؛ فإن تكن له حاجة، فليجئ إلى حاجة نفسه. فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك، فلما دنا منه ونزل، نزل معه ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلما رآه مالك بن دينار سكت، فأطال السكوت فقال بلال: يا أبا يحيى ذكّرنا. فقال: ما نسيت شيئًا فأذكرك به. قال: فحدثنا. قال: أما هذا فنعم قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه. فواللَّه ما أدري أيهما كان أكرم على اللَّه سبحانه. فقال بلال: يا أبا يحيى، أتدري ما الذي جرأك علينا، وما الذي أسكتنا عنك؟ لأنك لم تأكل من دراهمنا شيئًا، أما واللَّه لو أخذت من دراهمنا شيئًا ما اجترأت علينا هذه الجرأة.

◻ يقول الطرطوشي: فأفاد هذا الحديث علمًا ألا فاتقوا دراهمهم وما أشبه هذا بقول القائل:

من كان لا يطأُ التراب برجله ... وَطِئ الترابَ بناعمِ الخدِّ
مَنْ كان بينكَ في التراب وبينَهُ ... شبرانِ كان بغايةِ البُعدِ
لو بُعثرت للناس أطباقُ الثَّرى ... لم يُعرَفَ المولى من العبدِ[1]

*** مالك بن دينار والمهلب: «أعرفك حق المعرفة»:**

عن الأصمعي عن أبيه، قال: مر المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار، وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصفين؟ فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال مالك: أعرفك أحسن المعرفة. قال: وما تعرف مني؟ قال: أما أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة. قال: فقال المهلب: الآن عرفتني حق

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

المعرفة.

◘ نعم يا أخي يحيى:

أنف يسيل وأذن كلها سَهَكُ والعين مُرْمصَة والثَّغرُ مَلعوبُ
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً قصِّرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

* **حطيط الزيات والحجاج: «أنت خطيئة من خطاياه»:**

جيء بحطيط الزيات إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم، سل عمّا بدا لك؛ فإني عاهدتُ اللَّه عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقنَّ، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن. قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أقول: إنك من أعداء اللَّه في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول: إنه أعظم جرمًا منك وأنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب. قال: فانتهى به العذاب، حتى انتحلوا لحمه. فما سمعوه يقول شيئًا ثم مات ـ رحمه اللَّه ـ وكان ابن ثمان عشرة سنة.

* **أحد الزهاد وخليفة:**

حُكي أن بعض الزهاد دخل على بعض الخلفاء، فقال له: عظني فقال له: يا أمير المؤمنين، كنت أسافر الصين، فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاء شديدًا، وقال: أما إني لست أبكي على البلية النازلة، ولكن أبكي لمظلوم على الباب يصرخ فلا يؤذن له، ولا أسمع صوته، ولكن إن ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس: لا يلبس أحد ثوبًا أحمر إلا متظلم. ثم كان يركب الفيل في نهاره حتى يرى حمرة ثياب المظلومين. فهذا يا أمير المؤمنين مشرك باللَّه تعالى، غلبت عليه رأفته على المشركين، وأنت مؤمن باللَّه تعالى، ومن أهل بيت نبيه ﷺ كيف لا تغلب

رأفتك بالمؤمنين»[١] .

*** الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام وعالم الشام ـ رحمه الله ـ:**

□ قال الأوزاعي: رأيت كأن ملكين عرجا بي، وأوقفاني بين يدي رب العزة، فقال لي: أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف؟ فقلت: بعزتك أنت أعلم. قال: فهبطا بي حتى رداني إلى مكاني. رواها عبد الله ابن أحمد، عن الحسن بن عبد العزيز، وعنه[٢] .

□ قال أحمد بن الغمر: لما جلَّت المحنة التي نزلت بالأوزاعي، لما نزل عبد اللَّه بن علي حماة، بعث إليه فأُشخص. قال: فنزل على ثور بن يزيد الحمصي. قال الأوزاعي: فلم يزل ثور يتكلم في القدر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى أن طلع الفجر وأنا ساكت ما أجابه بحرف، فلما انفجر الفجر صليت، ثم أتيت حماة، فأدخلت على عبد اللَّه بن علي فقال: يا أوزاعي، أيعدُّ مقامنا هنا ومسيرنا رباطًا؟ فقلت: جاءت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله، فهجرته إلى اللَّه ورسوله**». قال: فنكت بالخيزارانة نكتًا هو أشد من نكت الأول، وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم، ثم رفع رأسه فقال: يا أوزاعي، ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت: جاءت الآثار عن رسول اللَّه ﷺ أنه: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث**» الحديث. فنكت بالخيزارانة نكتًا هو أشد من ذلك، وأطرق مليًّا، ثم رفع رأسه، فقال: يا أوزاعي ما تقول في أموال بني أمية؟ فقلت: إن كانت لهم حرامًا فهي عليك حرام، وإن كانت لهم حلالاً فما أحلَّها اللَّه

(١) «فضائح الباطنية» للغزالي.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١٨/٧).

لك إلا بحقّها. قال: فنكت بالخيزرانة نكتًا هو أشد من ذلك، وأطرق مليًّا، ثم رفع رأسه فقال: يا أوزاعي، هممت أن أوليك القضاء. فقلت: أصلح اللَّه الأمير، وقد كان انقطاعي إلى سلفك ومن مضى من أهل بيتك، وكانوا بحقي عارفين؛ فإن رأى الأمير أن يستتم ما ابتدأه آباؤه فليفعل. قال: كأنك تريد الإذن؟ فقلت: إن ورائي لحرمًا بهم حاجة إلى قيامي بهم وستري لهم. قال: فذلك لك. قال: فخرجت، فركبت دابتي وانصرفت، فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلا وعثمان على البريد. قال: قلت: بدا للرجل فيّ، فقال: إن الأمير غفل عن جائزتك، وقد بعث لك بمائتي دينار. قال أحمد: قال ابن أبي العشرين: فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرقها في الأيتام والأرامل والفقراء، ثم وضع الرسائل في رد ما سمع من ثور بن يزيد في القدر[1].

ولقد وصف الأوزاعي مجلس عبد اللَّه بن علي لحظة دخوله، فقال ـ رحمه اللَّه ـ : «دخلت أتخطى القتلى».

● وفي رواية: «سألني والمسودة قيام على رءوسنا بالكافر كوبات»[2].

● وفي رواية أخرى: «دخلت عليه فرأيت الرجال وقوفًا بين يديه بالسيوف، فلما رأيت ذلك لم أشك إلا وأني مقتول»[3].

● وفي رواية: «لما فرغ عبد اللَّه بن علي ـ يعني عم السفاح ـ من قتل بني أمية، بعث إليّ، وكان قتل يومئذ نيفًا وسبعين منهم بالكافر كوبات، فدخلت عليه»[4].

● وفي رواية: «فنكس رأسه ونكست فأطلت ثم قلت: البول فأشار

---

(١) «تاريخ ابن عساكر» (١٠/٤٨ب/٤٩أ)، و«سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) المقارع مفردها: الكافر كوب. أي: المقرعة.
(٣) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي.
(٤) «السير» (٧/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

بيده: اذهب فقمت فجعلت لا أخطو خطوة إلا قلت: إن رأسي يقع عندها».

● وفي رواية: «قلت: لأصدقنّه، واستبسلت[١] للموت».

◻ قال الذهبي في «السير» (٧/ ١٢٥): «قد كان عبد اللَّه بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمر الحق كما ترى، لا كخلقٍ من علماء السوء، الذين يحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف، ويقلبون لهم الباطل حقًّا ـ قاتلهم اللَّه ـ أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق».

◻ قال محمد بن عمر التنوخي: «كتب المنصور إلى الأوزاعي: أما بعد فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك، ما جعل اللَّه لرعيته قبلك في عنقه، فاكتب إلي بما رأيت فيه المصلحة مما أحببت.

فكتب إليه: أما بعد.. فعليك بتقوى اللَّه، وتواضع يرفعك اللَّه يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق، واعلم أن قرابتك من رسول اللَّه ﷺ لن تزيد حق اللَّه عليك إلا عظمًا، ولا طاعته إلا وجوبًا»[٢].

*** الأوزاعي والمنصور: «خذ لنفسك الأمان من ربك»:**

◻ يقول الأوزاعي: بعث إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بساحل الشام، فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة، ردّ عليَّ واستجلسني ثم قال: ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم. قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به. فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة. فطابت نفسي وانبسطت

(١) أبسل نفسه للموت، واستبسل: إذا وطن نفسه عليه، واستيقن.
(٢) «السير» (٧/ ١٢٥).

في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيما عبد جاءته موعظة من اللَّه في دينه؛ فإنها نعمة من اللَّه سيقت إليه؛ فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من اللَّه عليه**» يا أمير المؤمنين، قال رسول اللَّه ﷺ: «**إيما وال بات غاشًا لرعيته، حرم اللَّه عليه الجنة**». يا أمير المؤمنين، إن رسول اللَّه ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيًا لم يتعمَّده فأتاه جبريل، فقال: يا محمد، إن اللَّه لم يبعثك جبارًا متكبرًا. فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: «**اقتص مني**». فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيت على نفسي. فدعا له بخير. يا أمير المؤمنين، رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك. يا أمير المؤمين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك. يا أمير المؤمنين جاء في تأويل هذه الآية عن النبي ﷺ: ﴿**مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف: ٤٩]، قال: «الصغيرة التَّبسُّم والكبيرة الضحك» فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن. يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات. ضيعة، لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك. يا أمير المؤمنين جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ**﴾ [ص: ٢٦].

قال: يا داود أقعد الخصمين بين يديك وإن كان لك في أحدهما هوى فلا تمنين في نفسك أن يكون الحق له، فيفلج على صاحبه فأمحوك من نبوتي ثم لا تكون خليفتي. يا داود جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل، لعلمهم بالرعية ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير ويكلئوا الهزيل على الكلأ والماء. يا أمير المؤمنين استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك،

أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل اللَّه؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن الرسول ﷺ قال: «ما من وال يلي شيئًا من أمور المسلمين، إلا أتي به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه على جسر في النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة، يزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب؛ فإن كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا انخرق به ذلك الجسر، فهوى به في النار سبعين خريفًا». فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبي ذر وسلمان. فأرسل إليهما عمر فسألهما، فقالا: نعم سمعناه من رسول اللَّه ﷺ. فقال عمر: وا عمراه، من يتولاها بما فيها. فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه، ثم بكى وانتحب حتى أبكاني.

□ يقول الأوزاعي: ثم قلت للمنصور: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة والطائف أو اليمن، فقال له النبي ﷺ: «يا عم نفس تنجيها، خير من إمارة لا تحصيها». نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وأنه لا يغني عنه من اللَّه شيئًا، إذ أوحى اللَّه إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: «يا عباس ويا صفية ويا فاطمة، إني لست أغني عنكم من اللَّه شيئًا، لي عملي ولكم عملكم». وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم. وقال: السلطان أربعة أمراء؛ فأمير ظلف نفسه وعُمّاله، فذلك كالمجاهد في سبيل اللَّه يد اللَّه عليه باسطة بالرحمة. وأمير ضعيف ظلف نفسه وأرتع عماله بضعفه، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه اللَّه. وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه، فذلك الذي قال رسول اللَّه ﷺ: «شر الرعاة الحُطَمَة»، فهو الهالك وحده. وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا. وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: أتيتُك حين أمر اللَّه بمنافيخ النار، فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة. فقال له: «جبريل،

صف لي النار». فقال: إن اللَّه عز وجل أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا يطفأ جمرها. والذي بعثك بالحق لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعًا. ولو أن ذنوبًا من شرابها صب في ماء الأرض جميعًا لقتل من ذاقه. ولو أن ذراعًا من السلسلة التي ذكر اللَّه وضع على جبال الأرض جميعًا لذابت وما استقرت، ولو أن رجلاً أدخل النار ثم أُخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه. فبكى النبي ﷺ، وبكى جبريل لبكائه، وقال: أتبكي يا محمد وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا! ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين؟**» فقال: أخاف أن أبتلي بما ابتلي به هاروت وماروت.

يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام للَّه بحقه، وإن أكرم الكرم عند اللَّه التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة اللَّه رفعه اللَّه وأعزه، ومن طلبه بمعصية اللَّه أذله اللَّه ووضعه، فهي نصيحتي. والسلام عليك. ثم نهضت فقال: إلى أين؟ قلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين، إن شاء اللَّه. قال: فقد أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، واللَّه الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها؛ فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة. قلت: أفعل إن شاء اللَّه. قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه، فلم يقبله، وقال: لنا في ذلك غِنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها. وعرف المنصور مذهبه، فلم يجد عليه في رده[1].

❑ قال عبد الحميد بن حبيب: لما سوينا على الأوزاعي تراب قبره، قام والي الساحل عند رأسه فقال: رحمك اللَّه أبا عمرو، فواللَّه لقد كنت لك

(١) «مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين» تأليف أحمد رضوان أبو الخير، نقلاً عن «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

أشد تقية من الذي ولأني فمن ظلم بعدك فليصبر»[١] .

* محمد بن عمران قاضي المدينة والخليفة المنصور:

لما وصل أبو جعفر المنصور إلى المدينة حاجًّا، تظلّم منه الجمّالون، وصاحوا على القاضي، قال الشيباني: «فكنت كاتبه؛ فأمرني أن أكتب إلى المنصور رقعة في الحضور مع من تظلّم منه. فقلت: «تعفيني من هذا! فإنه يعرف خطيّ» فقال: «إذًا لا يحملها غيرك» فكتب، ثم ختم الكتاب، ومضيتُ، ودفعته إلى الربيع، واعتذرتُ. وقال: «لا عليك» ودخل بالكتاب، ثم خرج، فقال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: قد دُعيتُ إلى مجلس الحكم الشرعي؛ فلا يتبعني أحد منكم، ولا يكلّمني، ولا يقم إليّ إذا خرجتُ» قال: «ثم برز، وبعض وزرائه بين يديه، وأنا خلفه، وهو في مئزر ورداء؛ فلم يقم إليه أحد. فلما دخل المسجد، بدأ بالقبر، فسلّم على رسول اللَّه ﷺ ثم قال للربيع: «أخشَى أن تدخل ابن عمران مني هيبة، فيتحوّل عن مجلسه، ولئن فعل، لا وَلِيَ لي ولاية أبدًا»، ثم سار إلى القاضي، فلما رآه وكان متكئًا، أقلق رداءه عن عاتقه ثم احتبى[٢] ودعا بالخصوم، ثم قضى لهم بحقهم، وانفصل الخليفة إلى محله. فلما وصل، أمر الربيع بإحضار القاضي، فلما دخل عليه قال له: «جزاك اللَّه عن دينك وعن نفسك وعن خليفتك أحسن جزائه» وأمر له بعشرة آلاف درهم، فبقي هذا الفعل من المنصور عبداللَّه العباسي معدودًا على مرّ الأيام، في مناقبه، معروفًا من فضائله، مرسومًا في كتاب حسناته[٣] .

---

(١) «الجرح والتعديل» (١/٢٠٧).

(٢) جمع بين ظهره وساقيه وجلس ليصير كالمستند.

(٣) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٧٣).

* الثوري إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

◻ قال يحيى بن يمان: سمعت سفيان يقول: إني لأرى المنكر فلا أتكلم فأبول أكدم دمًا[١].

◻ وقال يحيى بن يمان: لقيت سفيان عند بني فزارة فقال: تدري من أين جئت؟ قلت: لا. قال: مررت بدار الصيدنانيين[٢] فنهيتهم عن بيع الدّاذي وإني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى، فأبول دمًا[٣].

◻ رحمك اللَّه يا سفيان أين من غبار نعلك علماء السوء وقراء السوء، الذين قال فيهم نبينا ﷺ: «**أكثر منافقي أمتي قُراؤها**»[٤]. وفيهم يقول القائل:

شيخَ الشيخَ بياضُ الشَّعْر   وهو للأطفالِ مِثْل السُّخْر
وجهه للحان ولَّى شيخُنا   يا رفاقي بعدُ ما تدبيرُنا

◻ أو كما يقول القائل:

يُرمرِمُ من فُتات الكُفرِ قُوتًا   ويَلْعَق من كؤوسهم الثُّمالَةْ
يُقبِّلُ راحة الطّاغُوتِ حِينًا   ويَلْثِم دونما خَجَلٍ نِعَالَهْ

◻ قال عبد الرزاق: قدمنا مكة، وقدمها الذي يقال له: المهدي،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٩).

(٢) الصيدنانيون والصيدلانيون: لغتان بمعنى واحد. والداذي، ويقال: الذآذي: حب يوضع الرطل منه في فرق من الماء فيكون مسكرًا.

(٣) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ١٢٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر، والطبراني وابن عدي عن عصمة بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٠٣).

فحضرت الثوري وقد خرج من عنده وهو مغضب، فقال: أدخلت آنفًا على ابن أبي جعفر فقال لي: يا أبا عبد اللَّه طلبناك فأعجزتنا، فأمكننا اللَّه منك في أحب المواضع إليه، فارفع إلينا حوائجك. قال: فقلت: وأي حاجة تكون لي إليك؟! وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعًا. فقال لي أبو عبيد اللَّه: يا أبا عبد اللَّه، لا تكثر الفضول واطلب حوائجك من أمير المؤمنين. فقلت: ما لي إليه من حاجة، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي خالد أن عمر بن الخطاب حجٍّ فقال صاحب نفقته: كم أنفقنا في حجِّنا هذا؟ قال: اثنا عشر دينارًا. قال: أكْثَرْنا أكثرنا. أو قال: أسرفْنا أسرفنا. وعلى أبْوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الرّاسيات. قال: فقال لي ابن أبي جعفر: يا أبا عبداللَّه، أفرأيت إن لم أقدر أن أوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه، فما أصنع؟ قال: تفرّ بدينك وتَلْزَم بيتك، وتترك الأمر إلى من يقدر أن يُوصل إلى كل ذي حق حقه. قال: فسكت، وقال لي أبو عبيد اللَّه: أراك تكثر الفضول، إن كانت لك حاجة فاطلبها، وإلاّ فانصرف. قال: فانصرفت[1] .

□ وعن سفيان أنه أُخذ في المسجد الحرام، فأُدخل على أبي هارون وهو في إزار ورداء والنعلان في يده. قال: فلمّا دخلتُ سلَّمت وقعدت، فقال أبو عبيد اللَّه: إني أظن أن له رأي سوء ـ يعني رأي الخوارج ـ فقلت لأبي هارون: من هذا؟ قال: هذا معاوية بن عُبيد اللَّه. فقلت له: احذر هذا وأصحابه.

□ قال إبراهيم بن أعين البجلي: كنت مع سفيان الثوري والأوزاعي وإسحاق بن القاسم الأشعثي بمكة، فدخل علينا عبد الصمد بن علي ـ وهو أمير مكة ـ عند المغرب وسفيان يتوضأ وأنا أصبّ عليه، وهو يتوضأ كأنه بطة

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٠ ـ ١١١).

وهو يقول: لا تنظروا إليّ فإني مُبتَلى. فيدخل البيت الذي فيه الأوزاعي فسلّم، ثم أتى عبد الصمد بن علي فسمعت الأوزاعي يقول: مرحبًا مرحبًا. ثم جاء فسلّم على سفيان، فقال له سفيان: من أنت؟ فقال: أنا عبد الصمد. فقال له: كيف أنت، اتق اللَّه، اتق اللَّه، إذا كَبَّرت فأسمعْ[1].

◻ قال سفيان الثوري ـ رحمه اللَّه ـ: حجّ المهدي. . . ، فرأيته يرمي جمرة العقبة والناس محيطون به يمينًا وشمالاً يضربون الناس بالسياط، فوقفت فقلت: يا حسن الوجه حدثنا أيمن بن نابل عن قدامة بن عبد اللَّه الكلابي قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يرمي جمرة يوم النحر على جمل، لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك، وها أنت يخبط الناس بين يديك يمينًا وشمالاً. فقال لرجل: من هذا؟ قال: سفيان الثوري. فقال: يا سفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا. فقال: لو أخبرك المنصور بما لقي لقصرت عما أنت عليه»[2].

◻ وقال أبو رجاء: طُلِب سفيان حتى أُدخل على أبي جعفر، والمهدي قائم على رأسه، فدخل سفيان وسلّم، ثم دنا من البساط فنحّاه برِجله وجلس. قال: فقال المهدي: يا أبا عبد اللَّه، حدِّث أمير المؤمنين بشيءٍ ينفعه اللَّه عز وجلّ به. قال: إن سألتمونا عن شيءٍ عِلْمُ ذلك عندنا، أخبرناكم. فأعاد عليه، فقال: إني لست بقاصٍّ. ثم قال: حدّثنا أيمن بن نابل، عن قدامة بن عبد اللَّه قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يرمي الجمار على ناقة صَهْباء من بطن الوادي، بلا ضربٍ ولا طرد، ولا إليك إليك. ثم قال المهدي: حدِّث أمير المؤمنين بشيء ينفعه اللَّه عز وجل به. فقال: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ١١١ ـ ١١٢).
(٢) «معالم القربة» (٢١ ـ ٢٢).

رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قرأ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤]، ثم قال بيده على خصره: بي بول بي بول. ثم قطع.

❑ وقال عبد الصمد بن حسان: قال سفيان الثوري: إني أُدخلت على المهدي، فقلتُ له: انظر إلى عمر بن الخطاب. فقال: عمر كان له أصحاب. فقلت: فعمر بن عبد العزيز، فقد كان في فتنة وفي ما كان فيه، فما تكلّم بشيءٍ إلا صار سُنَّة. فقال: إن لم أُطِق؟ فقلت: اجلس في بيتك.

❑ وقال عبد الرزاق: كان رجل صَحِبَ الثوري ـ يقال له: يوسف ـ إلى صنعاء، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر، فقال له الثوري: ويحك يا يوسف، شحطوك بغير سكينٍ، كيف إذا قيل يوم القيامة: أين أبو جعفر وأتباعه؟ قُمتَ فيهم[1].

وعن يحيى بن أبي غُنَيَّة قال: ما رأيت رجلاً قطُّ أصْفَقَ وجهًا في اللَّه عز وجل من سفيان الثوري[2].

❑ قال الذهبي في «السير» (٧/ ٢٥٩): قال شجاع بن الوليد: كنت أحج مع سفيان، فما يكاد لسانه يفتر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا».

● عن مفضل بن مهلهل قال: حججت مع سفيان، فوافينا بمكة الأوزاعي، فاجتمعنا في دار، وكان على الموسم عبد الصمد بن علي، فدق داق الباب، قلنا: من ذا؟ قال: الأمير، فقام الثوري فدخل المخرج وقام الأوزاعي فتلقاه، فقال له: من أنت أيها الشيخ؟ قال: أنا الأوزاعي قال: حياك اللَّه بالسلام، أما إن كتبك كانت تأتينا فنقضي حوائجك، ما فعل

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٢ ـ ١١٤).
(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ١٠٨).

سفيان؟ قال: قلت: دخل المخرج. قال: فدخل الأوزاعي في إثره، فقال: إن هذا الرجل ما قصد إلا قصدك. فخرج سفيان مقطبًا، فقال: سلام عليكم، كيف أنتم؟ فقال له عبد الصمد: أتيت أكتب عنك هذه المناسك. قال: أوَ لا أدلك على ما هو أنفع لك منها؟ قال: وما هو. قال: تدع ما أنت فيه. قال: وكيف أصنع بأمير المؤمنين؟ قال: إن أردت كفاك اللَّه أبا جعفر. فقال له الأوزاعي: يا أبا عبد اللَّه، إن هؤلاء ليس يرضون منك إلا الإعظام لهم. فقال: يا أبا عمرو إنا لسنا نقدر أن نضربهم وإنما نؤدبهم بمثل هذا الذي ترى. قال مفضل: فالتفت إلي الأوزاعي فقال لي: قم بنا من هاهنا؛ فإني لا آمن أن يبعث هذا من يضع في رقابنا حبالاً، وإن هذا لا يبالي[1].

● وعن عطاء بن مسلم قال: لما استُخلف المهدي بعث إلي سفيان، فلما دخل عليه خلع خاتمه فرمى به إليه، وقال: يا أبا عبد اللَّه، هذا خاتمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة. فأخذ الخاتم بيده، وقال: تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين؟ قلت لعطاء: قال له: يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم. قال: أتكلم على أني آمن؟ قال: نعم. قال: لا تبعث إلي حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك. قال: فغضب، وهم به، فقال له كاتبه: أليس قد أمنته؟ قال: بلى، فلما خرج حف به أصحابه، فقالوا: ما منعك؟ وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة؟! فاستصغر عقولهم، وخرج هاربًا إلى البصرة[2].

ويوضح هذا الموقف ما يأتي:

□ قال الثوري: قال لي المهدي: أبا عبد اللَّه، اصحبني حتى أسير فيكم

(١) «الحلية» (٧/ ٣٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٢).

سيرة العمرين. قال: قلت: أما وهؤلاء جلساؤك، فلا. قال: فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها. قال سفيان: والله ما كتبت إليك كتابًا قط.

☐ قال يحيى بن يمان: وقال لي سفيان: إن اقتصرت على خبزك وبقلك، لم يستعبدك هؤلاء[1].

☐ قال وزير المهدي أبو عبيد الله: ما أعلقنا مخالينا هذه في عنق أحد إلا قضم منها إلا الثوري.

☐ وقال محمد بن عصام بن يزيد: سمعت أبي يقول: أرسلني سفيان إلى المهدي بكتابه، بأن نأخذ له الأمان منه، فدخلت على المهدي، فقال لي فيما يقول: لو جاءنا أبو عبد الله، لكنا نتزر بإزار، ونرتدي بآخر، ونضع أيدينا في يده ونخرج إلى السوق، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر. فلما رجعت قلت: لأي شيء تهرب منه، وهو يقول: لو جاء لخرجت معه إلى السوق فأمرنا ونهينا؟! فقال: يا ناعس! حتى يعمل بما يعلم؛ فإذا فعل لم يسعنا إلا أن نذهب فنعلمه ما لا يعلم. قال عصام: فكتب معي سفيان إلى المهدي، وإلى وزيره أبي عبيد الله قال: وأدخلت عليه، فجرى كلامي، فقال: لو جاءنا أبو عبد الله، لوضعنا أيدينا في يده وارتدينا بردًا، واتزرنا بآخر، وخرجنا إلى السوق، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر؛ فإذا توارى عنا مثل أبي عبد الله، لقد جاءني قُراؤكم الذين هم قراؤكم، فأمروني ونهوني ووعظوني، وبكوا - والله - لي وتباكيت لهم، ثم لم يفجأني من أحدهم إلا أن أخرج من كُمِّه رقعةً: أن افعل بي كذا، وافعل بي كذا. ففعلت، ومقتُّهم. قال: إنما كتب إليه؛ لأنه طال مهربه أن يعطيه الأمان فأتيتُه فقدمت عليه البصرة بالأمان، ثم مرض ومات[2].

(١) «الحلية» (٦/ ٣٧٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٣ - ٢٦٤)، و«الحلية» (٧/ ٤٣، ٤٤)، و«الجرح والتعديل».

فانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى علّو فهم الثوري للأمر بالمعروف، وهربه بعيداً عن مجالس السلاطين والخلفاء، حتى يعملوا بما عندهم من علم، وإلا فلا.

أخذه عبد الصمد فذهب به إلى المهدي وهو بمنى، فلما رآه صاح بأعلى صوته: ما هذه الفساطيط؟ ما هذه السرادقات؟![١].

● وعن سفيان قال: أدخلت على المهدي بمنى، فسلمت عليه بالإمرة، فقال: أيها الرجل، طلبناك فأعجزتنا، فالحمد للَّه الذي جاء بك، فارفع إلينا حاجتك. فقلت: قد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا، فاتق اللَّه، وليكن منك في ذلك عبرة. فطأطأ رأسه، ثم قال: أرأيت إن لم أستطع دفعه؟ قال: تخليه وغيرك. فطأطأ رأسه، ثم قال: إلينا حاجتك. قلت: أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب، فاتق اللَّه، وأوصل إليهم حقوقهم. فطأطأ رأسه، فقال أبو عبيد اللَّه: أيها الرجل ارفع إلينا حاجتك. قلت: وما أرفع؟ حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال: حج عمر فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهمًا. وإني أرى هاهنا أمورًا لا تطيقها الجبال[٢].

❑ رحم اللَّه أمير المؤمنين وشيخ الإسلام وزين العباد سفيان الثوري... إن كان الربانيون يهابونه، فكيف بملوك الدنيا.

❑ قال ابن مهدي: ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياء وهيبة منه[٣].

❑ قال عبد اللَّه بن المبارك: إن سفيان دخل على أبي جعفر، فقال: حاجتك؟ فقال: حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك[٤]... وأبو جعفر

(١) «السير» (٧/ ٢٦٥).
(٢) «السير» (٧/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٣) «السير» (٧/ ٢٦٧).
(٤) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٢).

أبو جعفر في بطشه!! لله درُّك يا سفيان من إمام.

◻ قال يحيى بن سعيد: أملى عليّ سفيان إلى المهدي: من سفيان بن سعيد إلى المهدي. فقلت له: لو بدأت به. قال: فأبى وقال: اكتب كما أقول. قال أبو الوليد(١): فاحتججت عليه بكتابه إلى عثمان بن زائدة، وأنه بدأ بعثمان، فقال: كان عثمان رجلاً صالحًا(٢).

◻ قال يوسف بن أسباط: قال رجل لسفيان الثوري: إني جعلت في جدة في بناء يبنونه ـ يعني للسلطان ـ قال: ألست تمنى بقاءهم إلى أن يعطوك أجرك؟ قال أبو محمد: يعني كم ظلمًا يُجري اللَّه على أيديهم إلى أن تقبض أجرك.

واللَّه لكأن الأمر بالمعروف في زماننا يبكى على سفيان... لكثرة علماء السوء الذي فرطحوا نعالهم أمام أبواب الحكام، ودبَّجوا لهم فتاوى ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

لقد مات سفيانٌ حميداً مبرَّزًا ... على كلِّ قارٍ هجَّنتهُ المطامعُ
يلوذ بأبواب الملوك بنية ... مُبهرجةٍ والزِّيُّ فيه التواضعُ
يُشمِّرُ عن ساقيهِ والرأسُ فوقهُ ... مُبرّكةٌ(٣) فيها اللَّصيصُ المُخادعُ
جعلتم فداء للذي صان دينهُ ... وقرّبهُ حتى حوتهُ المضاجعُ
على غير ذنبٍ كان إلا تنزهًا ... عن الناسِ حتى أدركتهُ المَصارعُ
بعيدٌ عن أبوابِ الملوكِ مُجانبًا ... وإن طلبُوه لم تنلهُ الأصابعُ

* * *

(١) الراوي عن يحيى بن سعيد.
(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٠).
(٣) قلنسوة.

□ قال سفيان: إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمعون، فهو رجل سوءٍ؛ لأنه ربما رآهم يعصون فلا ينكر، ويلقاهم ببشر[1].

جاء في كتاب «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»: قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي، وأُتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره، فلما دخل عليه سلم، ولم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه، متكئًا على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق، وقال له: يا سفيان تفر هنا وهاهنا، تظن أن لو أردناك بسوءٍ لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟ قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر، يفرق بين الحق والباطل. فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه. فقال له المهدي: اسكت، ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة، على أن لا يُعترض عليه فيَّ حكم. فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس، فطُلب في كل بلدٍ فلم يوجد فعين مكانه شريك النَّخعي.

وجاء في كتاب «الإمامة والسياسة»: دخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور فأمره ونهاه، فقال له أبو جعفر: ها هنا يا أبا عبد اللَّه، إليَّ إليَّ، ادن مني. فقال: إني لا أطأ ما لا أملك ولا تملك. فقال أبو جعفر: يا غلام ادرج البساطَ، وارفع الوطاء. فتقدم سفيان فصار بين يديه وقعد، ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. فدمعت عينا أبي جعفر. ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن فوعظ وأمر ونهى وذكَّر، وأغلظ في قوله، فقال له الحاجب:

---

(١) «السير» (٧/ ٢٧٨).

أيها الرجل أنت مقتول. فقال سفيان: وإن كنت مقتولاً فالساعة. فسأله أبو جعفر عن مسألة فأجابه، ثم قال سفيان: فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله، ومال أمة محمد ﷺ بغير إذنهم، قد قال عمر في حجة حجها، وقد أنفق ستة عشر دينارًا هو ومن معه: ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال.

● وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً**». فقال أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟! فقال له سفيان: اسكت؛ فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون. ثم خرج سفيان، فقال أبو عبيدة الكاتب: ألا تأمر بقتل هذا الرجل، فوالله ما أعلم أحدًا أحقّ بالقتل منه؟ فقال أبو جعفر: اسكت، فوالله ما بقي على الأرض أحدٌ - اليوم - يُستحيا منه غير هذا ومالك ابن أنس.

وذكر الإمام ابن بلبان والغزالي وغيرهما: أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري؛ فإنه لم يأته، وكان بينه وبينه صحبة، فشق عليه ذلك، فكتب إليه الرشيد كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون أمير المؤمنين، إلى أخيه في الله سفيان بن سعيد الثوري: أما بعد يا أخي:

فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في الله مؤاخاةً لم أصرم فيها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك على أفضل المحبة وأتم الإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى، لأتيتك ولو حبوًا، لما أجد لك في قلبي من المحبة؛ وإنه لم يبق أحدٌ من إخواني وإخوانك إلا زارني وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال، وأعطيتهم المواهب السنية، ما فرحت به نفسي وقرت به عيني، وقد استبطأتك، وقد كتبت كتابًا

مني إليك أُعلمك بالشوق الشديد إليك، وقد علمت يا أبا عبداللَّه ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته؛ فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل».

ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني، وأمره بإيصاله إليه، وأن يُحصى عليه بسمعه وقلبه دقيق أمره وجليله ليخبره قال عباد: فانطلقتُ إلى الكوفة فوجدت سفيان في مسجده، فلما رآني على بُعد قام، وقال: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللَّهم من طارق يطرق إلاَّ بخير. قال: فنزلت عن فرسي بباب المسجد، فقام يصلي ولم يكن وقت صلاة، فدخلت وسلمت، فما رفع أحدٌ من جلسائه رأسه. إلى أن قال: فبقيت واقفًا، وما منهم أحد يعرض علي الجلوس، وقد علتني من هيبتهم الرعدة، فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب، ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه، فركع وسجد، وسلم، وأدخل يده في كمه وأخذه وقلبه بيده، ورماه إلى من كان خلفه، وقال: ليقرأه بعضكم؛ فإني أستغفر اللَّه أن أمس شيئًا مسه ظالم بيده، قال عباد: فمد بعضهم يده وهو يرتعد كأنه حية تنهشه، ثم قرأه، فجعل سفيان يتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته، قال: اقلبوه، واكتبوا للظالم على ظهره. فقيل له: يا أبا عبد اللَّه؛ إنه خليفة، فلو كتبت إليه في بياض نقي لكان أحسن. قال: اكتبوا للظالم في ظهر كتابه؛ فإن اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم بيده عندنا فيفسد علينا ديننا. فقيل له: ما نكتب إليه: قال: اكتبوا له:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من العبد الميت سفيان، إلى العبد المغرور بالآمال هارون، الذي سلب حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن. أما بعد: فإني كتبت إليك أعلمك أني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك؛ وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال

المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عني، حتى كتبت إلي تشهدني على نفسك؛ فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وستؤدى الشهادة غدًا بين يدي اللَّه الحكم العدل. يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض اللَّه، والمجاهدون في سبيل اللَّه، وابن السبيل؟! أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم، يعني العاملين؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟! فشدّ يا هارون مئزرك وأعد للمسألة جوابًا، وللبلاء جلبابًا، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل، فاتق اللَّه في نفسك، إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالمًا وللظالمين إمامًا. يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسْبَلْت ستورًا دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك، وتركتهم يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدّون الشارب، ويزنون ويحدّون الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق، ويقتلون ويقتلون القاتل، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس؟! فكيف يا هارون غدًا، إذا نادى المنادي من قبل اللَّه: احشروا الظلمة وأعوانهم. فتقدمت بين يدي اللَّه ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار؟! وكأني بك ـ يا هارون ـ وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاتق اللَّه يا هارون في رعيتك، واحفظ محمدًا ﷺ في أمته، واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائرٌ إلى غيرك، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها

واحدًا بعد واحد، فمنهم من تزود زادًا نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإياك إياك أن تكتب إلي بعد هذا؛ فإني لا أجيبك. والسلام».

وألقى الكتاب منشورًا من غير طي ولا ختم، فأخذته وأقبلت به إلى سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة بقلبي فناديت: يا أهل الكوفة من يشتري رجلاً هرب إلى اللَّه؟ فأقبلوا إلي بالدراهم والدنانير، فقلت: لا حاجة لي بالمال، ولكن جُبة صوف وعباءة قطوانية، فأتيت بذلك، فنزعت ما كان علي من الثياب التي كنت أجالس بها أمير المؤمنين، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي، إلى أن أتيت باب الرشيد حافيًا راجلاً، فهزأ بي من كان على الباب ثم استؤذن لي، فلما رآني على تلك الحالة، قام وقعد، وجعل يلطم رأسه ووجهه، ويدعو بالويل والخراب، ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل، ما لي وللدنيا، والملك يزول عني سريعًا. فألقيت الكتاب إليه مثل ما دفع إلي، فأقبل يقرؤه ودموعه تنحدر على وجهه، وهو يشهق فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، قد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد، وضيقت عليه السجن، فجعلته عبرةً لغيره. فقال هارون: اتركوا سفيان وشأنه يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه والشقي واللَّه ـ حقًّا ـ من جالستموه، وإن سفيان أمَّةٌ وحده. ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه ويبكي، حتى توفي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

* مالك بن أنس وصدعه عند السلطان بالحق:

◻ قال مالك: قال لي أبو جعفر: قد أردت أن أجعل هذا العلم علمًا واحدًا، فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة، فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه. فقلت له: يا أمير المؤمنين أو غير ذلك. قلت: إن النبي ﷺ كان في هذه الأمة، وكان يبعث السرايا، وكان يخرج فلم يفتح من البلاد كثيرًا حتى قبضه اللَّه عز وجل، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده، فلم يفتح من

البلاد كثيرًا ثم قام عمر رضي الله عنه بعدها ففتحت البلاد على يديه، فلم يجد بدًا من أن يبعث أصحاب محمد ﷺ معلمين، فلم يزل يؤخذ عنهم كابرًا عن كابر إلى يومهم هذا؛ فإذا ذهبت تحولهم إلى ما لا يعرفون، رأوا ذلك كفرًا، ولكن أقرّ أهل كل بلدة على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك. فقال لي: ما أبعدت القول، اكتب هذا العلم لمحمد»[1] ـ يعني ابنه المهدي ـ وكان أبو جعفر يريد حمل الناس على الموطأ، وقال لمالك: لعمري لو طاوعتني لأمرت بذلك.

● وعن عبد المتعال بن صالح ـ من أصحاب مالك ـ قال: قيل لمالك ابن أنس: إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون؟ قال: يرحمك اللَّه فأين التكلم بالحق.

◻ قال مالك بن أنس: وجه إلي هارون الرشيد، فسألني أن أحدثه فقلت: يا أمير المؤمنين، إن العلم يُؤتى ولا يأتي، فصار إلى منزلي فاستند معي في الجدار، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن من إجلال اللَّه إجلال ذي الشيبة المسلم. قال: فقام فجلس بين يدي، فقال لي بعد مدة: يا أبا عبد اللَّه تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة فلم ننتفع به، وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتهم فيأخذ دراهم[2] .

● عن مروان الطاطري أن أبا جعفر نهى مالكًا عن الحديث: ليس على مستكره طلاق[3] ، ثم دس إليه من يسأله، فحدثه به على رءوس الناس،

---

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٩).

(٢) «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

(٣) لم يرد في المرفوع، وإنما هو موقوف على ابن عباس، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٤٨): «ليس لمكره ولا لمضطهد طلاق». ورجاله ثقات، وعلقه البخاري (٩/ ٣٤٣)، ولفظه قال ابن عباس: طلاق السكران والمستكره ليس بجائز. وقال الحافظ: وصله ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور.

فضربه بالسياط.

☐ قال الواقدي: لما دُعي مالك، وشوور وسمع منه وقبل قوله حُسد، وبغوه بكل شيء فلما ولى جعفر بن سليمان المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره: أنه لا يجوز عنده. قال: فغضب جعفر، فدعا بمالك، فاحتج عليه بما رُفع إليه عنه، فأمر بتجريده وضربه بالسياط، وجُبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وارتكب منه أمر عظيم، فواللَّه ما زال مالك بعد في رفعة وعلو[1].

* **مالك والرشيد: «احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى»:**

☐ كتب الإمام مالك بن أنس ـ رحمه اللَّه تعالى ـ رسالته الشهيرة إلى هارون الرشيد يعظه فيها وينصحه. وقد جاء في مقدمتها: أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلُك فيه رُشدًا، ولم أدّخِر فيه نُصحًا، تحميدًا للَّه، وأدبًا عن رسول اللَّه ﷺ، فتدبَّره بعقلك، وردِّد فيه بصرك، وأرْعِهِ سمْعك، ثم اعقله بقلبك، وأحضر فهمك ولا تغيبن عنه ذهْنك، فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب اللَّه في الآخرة. اذكر نفسَك في غَمَرات الموت وكُربة ما هو نازل بك منه، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على اللَّه سبحانه ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب. وأعِدَّ للَّه عز وجل ما يسهِّل عليك أهوال تلك المشاهد وكربها، فإنك لو رأيتَ سخط اللَّه تعالى، وما صار إليه الناس من ألوان العذاب، وشدّة نقمته عليهم، وسمعتَ زفيرهم في النار وشهيقهم، مع كُلُوح وجوههم، وطول غمّهم، وتقلّبهم في دَرَكاتها على وجوههم، ولا يسمعون ولا يبصرون، ويدعون بالويل والثُّبور.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٨٠ ـ ٨١).

وأعْظِم بحسرة إعراض اللَّه عنهم وانقطاع رجائهم، وإجابته إياهم بعد طول الغمّ بقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. ثم قال له: لا تأمن على شيءٍ من أمرك مَنْ لا يخاف اللَّه، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه قال: «شاور في أمرك الذين يخافون اللَّه». احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى على نفسك، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من نبيٍّ ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمُره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألُوه خبَالاً**». ثم قال: لا تَجُرّ ثيابك، فإن اللَّه لا يحب ذلك، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**من جرَّ ثيابه خُيَلاء، لم ينظُر اللَّه إليه يوم القيامة**». أطع اللَّه في معصية الناس، ولا تُطع الناس في معصية اللَّه، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[(١)] .

* الإمام ابن أبي ذئب محمد بن عبد الرحمن:

شيخ الإسلام أبو الحارث القرشي.

□ قال الذهبي: «كان من أوعية العلم ثقة فاضلاً قوّالاً بالحق مهيبًا».

□ قال أحمد بن حنبل: كان يُشبَّه بسعيد بن المسيب، فقيل لأحمد: خلف مثله؟ قال: لا، ثم قال: كان من أفضل من مالك، إلا أن مالكًا كان أشد تنقية للرجال منه. وقال أحمد: هو أورع وأقول بالحق من مالك»[(٢)] .

□ قال الذهبي في «ترجمته في السير» (٧/ ١٣٩ ـ ١٤٨): دخل ابن أبي ذئب مرة على والي المدينة، فكلمه ـ وهو عبد الصمد بن علي عم المنصور ـ فكلمه في شيء، فقال عبد الصمد بن علي: إني لأراك مرائيًا. فأخذ عودًا، وقال: من أُرائي؟! فواللَّه للناس عندي أهون من هذا.

---

(١) «الإسلام بين العلماء والحكام».
(٢) «السير» (٧/ ١٤٠، ١٤٢).

▫ وقال أبو العيناء: لما حج المهدي، دخل مسجد رسول اللَّه ﷺ فلم يبق أحدٌ إلا قام، إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم، هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه، فلقد قامت كل شعرة في رأسي.

▫ قال أبو العيناء: وقال ابن أبي ذئب للمنصور: قد هلك الناس، فلو أعنتهم من الفيء. فقال: ويلك، لولا ما سددت من الثغور، لكنت تؤتى في منزلك فتذبح. فقال ابن أبي ذئب: قد سد الثغور، وأعطى الناس من هو خير منك: عمر رضي الله عنه فنكس المنصور رأسه - والسيف بيد المسيب - ثم قال: هذا خير أهل الحجاز.

▫ قال أحمد بن حنبل: ابن أبي ذئب ثقة. قد دخل على أبي جعفر المنصور، فلم يهله أن قال له الحق، وقال: الظلم ببابك فاش. وأبو جعفر أبو جعفر.

▫ قال أبو نعيم: حججت عام حجَّ أبو جعفر ومعه ابن أبي ذئب ومالك بن أنس، فدعا ابن أبي ذئب، فأقعده معه على دار الندوة، فقال له: ما تقول في الحسن بن زيد بن حسن؟ - يعني أمير المدينة - فقال: إنه ليتحرى العدل. فقال له: ما تقول فيَّ؟ مرتين فقال: ورب هذه البنية إنك لجائر. قال: فأخذ الربيع الحاجب بلحيته، فقال له أبو جعفر: كف يا ابن اللخناء[1] ثم أمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار. وقال أحمد بن حنبل: كان ابن أبي ذئب رجلاً صالحًا قوالاً بالحق يُشبَّه بسعيد بن المسيب.

▫ وقال حماد بن خالد: كان يشبه بابن المسيب، وما كان هو ومالك في موضع عند سلطان إلا تكلم ابن أبي ذئب بالحق والأمر والنهي، ومالك ساكت.

---

(١) اللخن: نتن الريح عامة، وقبح ريح الفرج. ويقال: اللخناء: التي لم تختن.

«إنك لا تعدل في الرعية»:

☐ قال أبو جعفر المنصور لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال: أشرار من أهل بيت أشرار، قالوا: سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد. وكان عامله على المدينة. قال: ما تقول في الحسن؟ قال: يأخذ بالإحنة ويقضي بالهوى. فقال الحسن: واللَّه يا أمير المؤمنين، لو سألته عن نفسك لرماك بداهية ونعتك بشر. قال: ما تقول في؟ قال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: لا بد أن تقول. قال: إنك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية. فتغير وجه المنصور، فقام إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل، وقال: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين. قال له ابن أبي ذئب: اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا اللَّه طهور[1] .

* عبداللَّه بن وهب إمام مصر يمتنع عن تولي القضاء:

☐ قال الذهبي في «السير» (٩/ ٢٢٧):

«قال أحمد بن عبدالرحمن بحشل: طلب عبّاد بن محمد الأمير عمي ليُوليه القضاء، فتغيّب عمي، فهدم عبّاد بعض دارنا، فقال الصباحي لعباد: متى طمع هذا الكذا وكذا أن يليَ القضاء؟ فبلغ ذلك عمي فدعا عليه بالعمى قال: فعمي الصباحي بعد جمعة».

قال أبو الفداء: للَّه درّ السلف ما كان أزهدهم في القضاء مخافة على دينهم طالبين السلامة في ذلك، فكانوا مهابين عند الملوك ومكرّمين، ومعظّمين، يعلوهم الوقار، أما الآن فقد أصبح الكثير ممن ينتسب إلى العلم ألعوبة في أيدي الملوك وذلك بحرصهم على الدنيا، قد أكل الطمع قلوبهم فهم مع ملوكهم يدورون وفي إرضائهم يدأبون فاستذلوهم، فأهانوا العلم،

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

وأهانوا أنفسهم، فكان حالهم كما قال القائل:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعُظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا محيّاه بالأطماع حتى تجهّما

* **محمد بن أوس والرشيد:**

كان هارون الرشيد يطوف بالبيت وهو متكئ على الفضل بن الربيع ورجل آخر، فقام إليه محمد بن أوس الهلالي، واعترضه عند الحجر وقال: يا أمير المؤمنين استمع كلامي؛ فإنك إن سمعته حقًّا قبلته، وإن سمعته باطلاً فلا تعبأ به، فوقف فقال: يا من غذي في نعيم، وتردد في ملك سليم، إن خفت العذاب الأليم، وأحببت البقاء في سرور مقيم، فلا تسمعنّ ممن أنت بينهما، ولا تغترنّ بشيءٍ من قولهما، فإن اللَّه عز وجل يخلو بك دونهما، فالموت يصل إليك على الطوع والكُره منهما، فلا تقتصدنّ بالذليل، ولا تتكثّرنّ بالقليل، ولا تعتصم بغير دافع، ولا تطمئنّ إلى غير مانعٍ، لا يمنع ولا يدفع عنك، فإنك بعين اللَّه، وبحضرة بيته الذي جعلَهُ مَثابةً للزائر، ومنحجراً للفاجر. فانتفض الرشيد وجلس وخلا يديه عنهما، وأومأ أن خُذوا الرجل، فأُخِذ، حتى قضى طوافَهُ وصلى، ورجع إلى المنزل الذي به نزل، ودعا بالرجلِ فأُدخل عليه شيخ جليل، فقال: من أين أنت؟ قال: من مكة. قال: ما اسمك؟ قال: محمد. قال: ابن من؟ قال: ابن أوس. قال: من قبيلتك؟ قال: بنو هلال. قال: قبيلة مشهورة، فما حملك أن كلَّمتني بالذي كلّمتني؟ قال: إشفاقًا عليك، إذ أنضيت الرّكاب، وأتعبت الرجال، وأنفقت الأموال في أمورٍ اللَّه عز وجل أعْلَمُ بها، حتى صرتَ إلى غاية الطالب، وموضعٍ ترجو فيه الرحمة، اعتمدت على ظالمين طاغيْين، قد جُبلا على

(١) «حلية الأولياء»، «سير أعلام النبلاء».

الغَشْم، ونُشْنَا على الظُّلم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. فنكس الرشيد رأسَهُ، وأقبل ينكُت في الأرض وعيناه تذرِفان، ثم رفع رأسه فقال: من أين مطعمُك ومشربك؟ قال: مِن عند مَن يرزقك. قال: مَنْ ذاك؟ قال: من عند مَنْ فَلَقَ الحَبَّ والنَّوَى، وأخرجَ الحبَّ من الثَّرَى، من طعامٍ سهرتْ فيه العيون، وتعبت في حصاده الأجساد، وحرسته الملائكة، حتى أتاني به القَدَرُ بلا رنق ولا كدرٍ. قال: ألك عيال؟ قال: نعم. قال: ومن هن؟ قال: زوجة. قال: أفلا أُجري عليك رزقًا تستعين به على بعض أمورك، وتستغني به عن الطَّلَب من غيرك؟ قال: إني باللَّه عز وجل أغْنَى مني بما بذلتَ لي من ذلك. قال: ألك حاجة؟ قال: نعم، أطِعِ اللَّه عز وجل فيما تعلم من سِرِّك، فإنك تصل إلى كل محبوبٍ، وتنال به كل مطلوب. قال: ألك حاجة غيرها؟ قال: أتُؤمنني من الموت؟ قال: لا أقدر على ذلك. قال: فتُجيرني من النار؟ قال: ليست في يدي. قال: فتدخلني الجنة؟ قال: لست أملك. قال: أفتُحيي لي ميتًا، حتى أسأله عما عاين ورأى؟ قال: ذاك في قدرة غيري. قال: ما أنت إلا كسائر مَنْ ترى من رَعِيَّتك، غير أن اللَّه عز وجل فضَّلك عليهم بما أعطاك من هذا الحطام الزائل، واستَخْلَفَكَ في الأرض لينظر كيف تعمل. وذكر كلامًا ثم خرج. فقال الرشيد: الحمد للَّه الذي جعَل في رعيَّةٍ أنا عليها مِثْلَه، ولا تزال هذه الأمة بخير ما لم يعدموا هذا ونظراءه وأشباهه.

*** الليث بن سعد وهارون الرشيد: «ومن رأس العين يأتي الكدر»:**

◻ يقول عبد اللَّه بن صالح: سمعت الليث بن سعد يقول: لما قدمت على هارون الرشيد قال لي: يا ليث، ما صلاح بلدِكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين، صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها، ومن رأس العين

يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي فقال: صدقت يا أبا الحارث[١] .

*** شعيب بن حرب والرشيد:**

▣ قال شعيب بن حرب ـ رحمه اللَّه ـ: «رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي: قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فَخَوَّفَتْنِي فقالت: إنه الآن يضرب عنقك. فقلت: لا بد من ذلك، فناديته فقلت: يا هارون! قد أتعبتَ الأمة والبهائم. فقال: خذوه. فأُدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي، فقال: ممن الرجل؟ فقلت: رجل من المسلمين. فقال: ثكلتك أمك ممن أنت؟ فقلت: من الأنبار. فقال: ما حملك على أن دعوتني باسمي؟ قال: فخطر ببالي شيء لم يخطر قبل ذلك، فقلت: أنا أدعو اللَّه باسمه يا اللَّه، أفلا أدعوك باسمك؟ وهذا اللَّه سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم: يا آدم، يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، يا محمد، وكنى أبغض خلقه إليه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ فقال الرشيد: أخرجوه أخرجوه[٢] .

*** أبو يوسف القاضي وهارون الرشيد:**

طلب هارون الرشيد أمير المؤمنين من أبي يوسف القاضي وضع كتاب الخراج،فقدّم أبو يوسف نصيحته للخليفة بين يدي الكتاب فقال:

يا أمير المؤمنين، إن اللَّه ـ وله الحمد ـ قد قلّدك أمرًا عظيمًا ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت

---

(١) «حلية الأولياء»، «سير أعلام النبلاء».

(٢) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

وأنت تبني لخلق كثير، وقد استرعاكهم اللَّه وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاَّك أمرهم، وليس يلبث البنيان إذا أُسس على غير التقوى أن يأتيه اللَّه من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعنّ ما قلدك اللَّه أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن اللَّه، لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل، وإن الدعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه، فأتم الحق فيما ولاَّك اللَّه وقلّدك ولو ساعة من نهاره، فإن أسعد الدعاة عند اللَّه يوم القيامة راع سعدت به رعيّته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين، أحدهما للآخرة، والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى، ولكن من خشية على حذر، واجعل الناس عندك في أمر اللَّه سواء القريب والبعيد، ولا تخف في اللَّه لومة لائم، واحذر، فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق اللَّه فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق اللَّه يتقه.

إني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك، ورعية ما استرعاك اللَّه، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك أن لا تفعل تتوعّر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينيك وتخفّى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تُنكر، فخاصِم نفسك خصومة من الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيّع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء ردّه عن مواطن الهلكة بإذن اللَّه. وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإن ترك ذلك أضاعه، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه آخذ، وإذا أصلح كان أسعد من هنا لك بذلك ووفّاه اللَّه أضعاف ما وفيّ له.

فاحذر أن تضيع رعيّتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيّعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن

ولاّك اللَّه أمره فلست تنسى، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفَل عنك، ولا يضيع حقك من هذه الدنيا في هذه الليالي والأيام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر اللَّه تسبيحًا وتهليلاً وتمجيدًا والصلاة على رسول اللَّه ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى» اهـ.

*** عمر بن حبيب القاضي والرشيد:**

قال عمر بن حبيب القاضي: حضرت مجلس الرشيد يومًا فجرت مسألة فتنازعها الخصوم، وعلت الأصوات فيها، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ فدفع بعضهم الحديث، وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: أبو هريرة متهم فيما يرويه[1] ، وصرّحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم، ونصر قولهم. فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول اللَّه ﷺ فنظر إلي الرشيد نظر مغضب، وانصرفت إلى منزلي، فلم ألبث أن جاءني غلام فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط وتكفن. فقلت: اللَّهم إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلِّمني منه، وأُدخِلتُ على الرشيد وهو جالس على كرسي، حاسرًا ذراعيه، بيده السيف، وبين يديه النطع. فلما بصر بي قال: يا عمر بن حبيب ما تلقّاني أحد من الدفع والرّد بمثل ما تلقيتني به، وتجرأت عليّ. فقلت: يا أمير المؤمنين إن الذي قلته ودافعت عنه، وملتَ إليه، وجادلت عنه ازدراء على رسول اللَّه ﷺ ، وعلى ما جاء به، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذّابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة.

---

(١) من قال هذا فهو كذّاب أشر. بل هو من معادن الصدق بأبي هو وأمي رضي الله عنه أمير المؤمنين في الحديث، وسيد الرواة عن رسول اللَّه ﷺ .

فاللَّه اللَّه يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغى إليه، وأنت أولى أن تغار لرسول اللَّه ﷺ من الناس كلهم، فلما سمع كلامي رجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرو بن حبيب أحياك اللَّه، أحييْتني أحياك اللَّه(١) .

* ابن السمّاك والرشيد:

□ قال له ابن السماك يومًا: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي اللَّه عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم، وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته. فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة: يا صبيح الوجه إنك مسئول عن هؤلاء كلهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال: حدثنا ليث عن مجاهد: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق»(٢) .

* العُمَرِيّ.. وما العمري!!:

الإمام القدوة الزاهد، العابد، أبو عبد الرحمن، عبداللَّه بن عبدالعزيز ابن عبداللَّه بن صاحب رسول اللَّه ﷺ عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب.

□ قال الذهبي: أمّار بالعُرْف، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم. كان ينكر على مالك الإمام الاجتماع بالدولة.

□ قال الذهبي: كتب مالك إلى العُمريّ: إنك بَدَوت، فلو كنتَ عند

---

(١) «تاريخ بغداد» (١١/١٩٧).

(٢) «البداية والنهاية» (١٠/١٢١٧).

مسجد رسول اللَّه ﷺ. فكتب: إني أكره مجاورة مثلك، إن اللَّه لم يَرَكَ متغير الوجه فيه ساعةً قَطُّ.

◻ قال الذهبي: «هذا على سبيل المبالغة في الوعظ، وإلا فمالك من أقْوَل العلماء بالحق، ومن أشدهم تغيُّرًا في رؤية المنكر»[1].

وعن علي بن حرب، عن أبيه قال: مضى الرشيد على حمار، ومعه غلام إلى العُمريّ، فوعظه، فبكى وغُشي عليه.

وقيل: إن العمري وعظ الرشيد مرة، فكان يتلقى قوله بـ: نعمْ يا عمّ، فلما ذهب، أتْبَعَهُ الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألفا دينار، فردّها وقال: هو أعلم بمن يفرقها عليه. وأخذ دينارًا واحدًا، وشخص عليه بغداد، فكره مجيئه، وجمع العُمَريين، وقال: ما لي ولابن عمكم!! احتملتُه بالحجاز، فأتى إلى دار ملكي، يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي، ردُّوه عني. قالوا: لا يقبل منا. فكتب إلى الأمير موسى بن عيسى: أنْ ترفق به حتى تردّه.

◻ قال مصعب الزُّبيري: ما أدركت بالمدينة رجلاً أهْيَب منه، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد باللَّه، فرجف لمجيئه الدولة، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف، ما زاد من هيبته، فرُدّ من الكوفة، ولم يصل إليه.

◻ قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر: سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول: إن من غفلتك إعراضك عن اللَّه، بأن ترى ما يُسخطه فتتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى، خوفًا من المخلوق، منْ تَرَكَ الأمر بالمعروف خوف المخلوقين، نُزِعت منه الهيبة، فلو أمر ولدَهُ، لاستخفّ به[3].

◻ قال محمد بن حرب المكي: قدم العمريُّ، فاجتمعنا عليه، فلمَّا نظر

---

(١) «السير» (٨/ ٣٧٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).

(٣) «الإمامة والسياسة».

إلى القصور المُحدِقة بالكعبة صاح: يا أصحاب القصور المشيَّدة، اذكروا ظُلْمة القبور الموحشة، يا أهل التَّنعم والتَّلذُّذ، اذكروا الدود والصديد، وبلاء الأجسام في التراب. ثم غلبتْه عينُه، فنام.

لما قدم أبو جعفر المنصور بغداد، ورد عليه كتابٌ من عبيد الله العُمريّ فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين، من عبيد الله ابن عمر. سلام الله عليك ورحمة الله التي اتَّسعتْ فوسعتْ مَنْ شاء. أما بعد، فإني عهدتُك وأمْر نفسك لك مهمّ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة، أحمرها وأسودها وأبيضها، وشريفها ووضيعها، يجلس بين يديك العدو والصديق، والشريف والوضيع، ولكلٍّ حِصتُّه من العدل ونصيبه من الحق، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر، وإني أحذِّرك يومًا تعنو فيه الوجوه والقلوب، وتنقطع فيه الحُجّة لملك قد قهرهم وأذلهم بسلطانه، والخلق داخرون يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه، وإنّا كنّا نتحدَّث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السَّرِيرة، وإني أعوذ بالله أن تُنزل كتابي سوء المنزل، فإني إنما كتبت به نصيحة، والسلام»[1].

* العُمَرِيّ والرشيد: «فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين»:

▫ يقول سعيد بن سليمان: كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبدالعزيز العُمَرِيّ وهو من نسل عمر بن الخطاب، وقد حجّ هارون الرشيد، فقال له إنسان: يا أبا عبد الله، ها هو ذا أمير المؤمنين يسعى، قد أُخلي له المسعى. فقال العمريُّ للرجل: لا جزاك الله خيرًا، كلَّفتني أمرًا كنت عنه غنيًّا. ثم تعلَّق نَعْلَيه وقام، فتَبِعتُه، فأقبلَ هارون الرشيد من المروة يريد

(١) «الإمامة والسياسة».

الصّفا، فصاح به: يا هارون. فلمّا نظر إليه قال: لبيك يا عمّ. قال: ارْقَ الصفا. فلما رَقِيهُ قال: ارم نظرك إلى البيت. قال: قد فعلتُ. قال: كم هو؟ ـ أي عَدَدهم ـ قال: ومن يُحصيهم. قال: فكم في الناس مِثْلهم؟ قال: خلْق لا يُحصيهم إلا اللَّه. قال: اعْلَمْ أيها الرجل أن كل واحدٍ منهم يُسأل عن خاصَّة نفْسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلّهم، فانظر كيف تكون. قال: فبكى هارون. قال العمريُّ: وأخرى أقولها. قال: قل يا عمّ. قال: إن الرجل ليُسرف في ماله، فيستحقّ الحَجْر عليه، فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين! ثم مضى وهارون يبكي[1].

«ولا يَغُرَّنَّك المدَّاحُون الزُّور»:

كتب عبداللَّه العُمَريُّ إلى هارون الرشيد مرة يقول له: «الحمد للَّه رب العالمين. والعاقبة للمتقين. الذي لا يخذُل مَن أطاعه ولا يكرم عليه أحدٌ عصاه. يا أمير المؤمنين، هذا داعي القرآن يُسمعك يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فلا استقامة إلا على طريق نجاة، فاحفظ وصية اللَّه وارْجُ ثوابه وخفْ عقابَه، وتواضع له بحُسن الاستماع من رَعيَّتك، واعلم أنك عبد قد بُليت برعاية أمم لا تُحصى، قد خفرت أمانتها وتفرَّقت أهواؤها واختلفت في دينها. فأمرهم مَرِيج وبأسهم بينهم شديد. ولِيتَهُمْ لإحدى اثنتين: إمّا أدَّيت أمانَتَهُم وعَطَفْتَهم على ربِّهم، فعلَّم اللَّه بك جاهِلَهم وذكَّر بك ناسِيَهُم، وجدَّد بك العدل وأحيا بك الحقَّ، فكنت بذلك من المصلحين، ونلتَ به من اللَّه عز وجل ثواب القائمين بالقسط. وإمّا خفرتَ أمانة اللَّه عز وجل ونقضتَ عهدَهُ، وزدت المفسدين فساداً، وظلمتَ اليتيم حقَّه، ومنعت المسكين نصيبَهُ، وحكمتَ في عباد اللَّه بغير ما أنزل اللَّه، استكباراً وعُلُوّاً على

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ١٨٢).

المستضعفين، واللَّه لا يحب المستكبرين. والإمام العادل كالوالد في برِّه، يسعى لهم صغارًا ويعلِّمهم كبارًا، ويجمع لهم حياتَهُ ويدَّخِر لهم مماتَهُ، ويُؤثرهم على نفسه. والإمام العادل خليفة المرسلين، والقائم بين اللَّه وبين عباده. لا تكُن كعبد ائتمنَهُ سيِّدُه واستَحْفَظَه مالَهُ، فعطَّل الضيعةَ وبذر المال، وشرَّد العيال وأفقَرَ أهله، وأهلكَ مالَهُ. ولا يغُرنَّك المدّاحون الزُّور، ولا تُولِّينَّ قريبًا لقرابته، ولا صديقًا لصداقته، ولا تُحابينَّ في دين اللَّه عز وجل فيُحاجّك الدِّين غدًا عند اللَّه عز وجل. وإني لم آلُك نصيحةً وعليك شفقةً، فأنزِلْ كلامي بمنزلة المداوي جرحَه ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١][(١)].

* كُرز بن وَبَرَة:

عن ابن فُضيل عن أبيه أو عن نفسه، قال: كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف، فيضربونه حتى يُغشى عليه[(٢)].

للَّه درُّه من عابدٍ له الصيِّت البليغ في النُّسك والتَّعبُّد وله القدح المعلى في الأمر بالمعروف، فما أجمَلَه من تكامُل... وهكذا فليكن العُبّاد.

* صالح المري والمهدي:

◘ قال صالح المري: دخلت على المهدي، فلما مثُلْت بين يديه قلت: يا أمير المؤمنين احمل للَّه ما أكلمك به اليوم، فإن أولى الناس باللَّه أحملهم لغلْظة النصيحة فيه، وجدير بمن له قرابة برسول اللَّه ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهدْيه، وقد ورثك اللَّه من العلم والحجة ميراثًا قطع به عذرَك. واعلم

---

(١) «حلية الأولياء».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٥).

أن رسول اللَّه ﷺ خصمُ مَن خالَفه في أمته، ومن كان محمد خصمَه: اللَّهُ خصمُه، فأعدَّ لمخاصمة اللَّه ومخاصمة رسوله حُججًا تضْمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة. واعلم أن أبطأ الصَّرعى نهضةً صريعُ هوًى يدّعيه إلى اللَّه قربةً، وأن أثبتَ الناس قدمًا يوم القيامة آخَذُهم بكتاب اللَّه وسنة نبيه. فمثلك لا يكابر المعصية، ولكن تُمثَّل له الإساءة إحسانًا، وتشهد له عليها خونة العلماء، وبهذه الحبالة تصيدتِ الدنيا نظراءَك، فأحسِن الحَمْل؛ فقد أحسنتُ إليك الأداء. قال: فبكى المهدي. يقول مَن روى هذا القول: وقد أخبر بعض الكتَّاب في الدواوين، أنه رأى هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي.

* صالح بن عبدالجليل والمهدي: «أنت أعلمُ بموضع النجاة»:

دخل صالح بن عبدالجليل ـ وكان ناسكًا مفوهًا ـ على المهدي، فسأله أن يأذن له في الكلام، فقال: يا أمير المؤمنين إنه لما سهل علينا ما توعرّ على غيرنا من الوصول إليك، قمنا مقام المؤدي عنهم وعن رسول اللَّه ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي، لانقطاع عذر الكتمان في التقية، لا سيما حين اتسمت بميسم التواضع، ووعدت اللَّه وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه، وقد كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقولون: من حجب اللَّه عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابًا من أقبل إليه العلم فأدبر عنه، ومن أُهدي إليه العلم فلم يعمل به، فقد رغب عن هدية اللَّه، وقصر بها، فاقبل ما أهدى اللَّه إليك من ألسنتنا قبول تحقيق. فبكى المهدي حتى ظنوا أنه لا يسكت، وقال: يا صالح لو وجدت رجالاً يعملون بما آمرهم به وما أنوي في رعيتي، لظننت أني ألقى اللَّه عز وجل وأمر أمة محمد ﷺ أقل ذنوبي وأهون حسابي. ولكن دُلّني على وجه النجاة؛ فإن لم أعمل كنت أنا الجاني على نفسي، والمؤثر هواي على رضا ربي. قال له صالح: أنت يا

أمير المؤمنين أعلم بموضع النجاة. قال: لو كنت أعلم بموضع النجاة ما كنت أولى بعظتي مني بعظتك، وما هو إلا أن أركب سيرة عمر بن الخطاب ﷺ، ولا يصلح واللَّه عليها أحد من أهل هذا العصر، وذلك أن الناس في الزمن الماضي كان يُرضي أحدهم التمر البالي، وتنفعه الكسرة اليابسة، والماء القراح. وهم اليوم في مطارف الخز والوشي، ومائدة أحدهم في اليوم تمثل غنى ذي العيال في زمن عمر، ولو أنني حملت الناس على سيرة العمرين في هذا العصر، كنت أول مقتول؛ وذلك أن الفطام عن هذا الحطام شديد، لا يصبر عليه إلا المرزأ السابق، فأطرق صالح مفكراً ثم رفع رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليقع في خلدي أنك قبلت قولي قبول تحقيق. فقال المهدي: شهيدي على ذلك هو اللَّه. فقام صالح، وقال: أعانك اللَّه يا أمير المؤمنين على صالح نيتك، وأعطاك أفضل ما تأمله في رعيتك ووهب لك أعوانًا صالحين بررة، يعملون بما يجب عليهم فيك. ثم خرج.

*** حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان: «أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً»:**

❑ قال مقاتل بن صالح الخراساني: دخلت على حماد بن سلمة مفتي البصرة؛ فإذا ليس في البيت إلا حصيرٌ، وهو جالس عليه، ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها، فبينما أنا عنده جالس، إذا بطارق يطرق الباب، فقال: يا صبية، اخرجي فانظري من هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان. قال: قولي له يدخل وحده. فدخل، فناوله كتابًا فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة، أما بعد. . . فصبَّحك اللَّه بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها. والسلام». قال: يا صبية، هلمِّي الدواة. ثم قال لي: اقلب الكتاب واكتب: «أما بعد. . وأنت فصبحك اللَّه بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا. فإن كانت وقعت مسألة فأتنا

واسألنا عما بدا لك. وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخيلك ورجلك، فلا أنصح، ولا أنصح إلا نفسي. والسلام» فبينما أنا عنده، إذ دقّ داق الباب. فقال: يا صبية اخرجي، فانظري من هذا؟ فقالت: محمد بن سليمان. قال: قولي له: ليدخل وحده. فدخل فسلم، فجلس بين يديه، قال: مالي إذا نظرت إليك امتلأت رعبًا. فقال حماد: سمعت ثابتًا البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن العالم إذا أراد بعلمه وجه اللَّه عز وجل، هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز هاب من كل شيء**». فقال: ما تقول ـ رحمك اللَّه ـ في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟ قال: لا يفعل ـ رحمك اللَّه ـ؛ فإني سمعت البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا أراد اللَّه أن يعذب عبده بماله، وقفه عند موته لوصية جائرة**». قال: فحاجة إليك. قال: هات؛ ما لم تكن رزية في دين. قال: أربعون ألف درهم تأخذها؛ تستعين بها على ما أنت عليه. قال: اردها على من ظلمته بها. قال: واللَّه ما أعطيتك إلا ما ورثته. قال: لا حاجة لي فيها، ازوها عني، زوى اللَّه عنك أوزارك. قال: فتقسمها. قال: فلعلي إن عدلت في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها: لم يعدل. ازوها عني، زوى اللَّه عنك أوزارك[1].

*** بهلول[2] المجنون والرشيد: «لا يعطيك وينساني»:**

● عن الفضل بن الربيع، قال: حججت مع هارون الرشيد، فمررنا بالكوفة؛ فإذا بهلول المجنون يهذي، فقلت له: اسكت؛ فقد أقبل أمير

---

(١) «صفة الصفوة».

(٢) هو أبو وهيب بهلول بن عمرو المجنون، من أهل الكوفة.

المؤمنين. فسكت. فلما حاذاه الهودج، قال: يا أمير المؤمنين، حدثني أيمن بن نابل، قال: أنبأنا قدامة بن عبد اللَّه العامري، قال: رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل، وتحته رجل أسود، فلم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك[1] . قلت: يا أمير المؤمنين، إنه بهلول المجنون. قال: قد عرفته.

قال: يا بهلول. فقال: يا أمير المؤمنين:

هب أنك قد ملكت الأرض طرًا ... ودان لك العبادُ فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوفُ قبرٍ ... ويحثو التُّرب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين من رزقه اللَّه جمالاً ومالاً فعف في جماله وواسى في ماله، كُتب في ديوان الأبرار. قال: فظن أنه يريد شيئًا. قال: فإنا قد أمرنا بقضاء دينك. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين. لا تقض دينًا بدين، اردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنا قد أمرنا أن يُجرى عليك. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يعطيك وينساني. أجرى عليَّ الذي أجرى عليك، لا حاجة لي في جرايتك.

«هذه قصورهم، وهذه قبورهم»:

حينما التقى هارون الرشيد بالبهلول، قال له: عظني يا بهلول. فقال له بهلول: بم أعظك يا أمير المؤمنين؟! هذه قصورهم، وهذه قبورهم. ثم قال: كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق بين يديه، وسألك عن النقير والفتيل والقطمير، وأنت عطشان جوعان عُريان، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون؛ فإذا بهارون تخنقه العبرة، وتسيل دموعه، ويأمر بصلة لبهلول،

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه النسائي والدارمي وابن ماجه. (إليك إليك): اسم فاعل، بمعنى تنح عن الطريق.

فقال له بهلول: ردها على من أخذتها منهم، قبل أن لا تجد لهم شيئًا ترتضيهم به. ثم أنشد:

دعِ الحِرْصَ على الدنيا وفي العيْشِ فَلا تَطمعْ
فإنَّ الرزقَ مقسُوم وسوءُ الظنِّ لا يَنفعْ
فقيرٌ كلُّ ذي حرْصٍ غَنيٌّ كلُّ مَنْ يقنعْ

*** القاضي شريك.. والأمير موسى بن عيسى:**

روى عمر بن هيّاج بن سعيد، قال: أتت امرأة يومًا «شريك بن عبداللَّه» قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا باللَّه ثم بالقاضي.

قال: من ظلمك؟!

قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين.. كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل، ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطًا، وجعلتُ فيه رجلاً فارسيًّا يحفظ النخل ويقوم به.. فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساومني، ورغبّني فلم أبعه.. فلما كانت هذه الليلة بعث خمسمائة غلام وفاعل، فاقتلعوا الحائط، وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئًا، واختلط بنخل إخوتي!!

فقال شريك لحاجبه: يا غلام.. أحضر ورقة.. ثم ختمها بخاتمه، وقال لها: امضي إلى بابه بالختم حتى يحضر معك..

فجاءت المرأة بالورقة المختومة فطرقت باب الأمير، فأخذها الحاجب منها ودخل بها على موسى وقال له: قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه.

فقال موسى: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به فقال له: امض إلى شريك، وقل: يا سبحان اللَّه.. ما رأيت أعجب من أمرك.. امرأة ادّعت

دعوى لم تصح، أعديتها عليّ؟!!

فقال صاحب الشرطة: إنْ رأى الأمير أن يعفيني من ذلك؟!

فقال الأمير: امض.. ويلك!!

فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه: اذهبوا وأدخلوا إلى حبس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه في السجن!!

ثم مضى إلى شريك.. فلما وقف بين يديه أدّى الرسالة.. فقال القاضي لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس!!

فقال صاحب الشرطة: واللّه قد علمت أنك تحبسني، فقدّمت ما أحتاج إليه في السجن وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجّه الحاجب إلى شريك، وقال له: رسول أدّى رسالة.. أي شيء عليه؟؟ فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس.. فحُبس!!

فلما صلى الأمير موسى العصر، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك، وقال لهم: امضوا إلى القاضي، وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخفّ بي، وأني لست كالعامّة.

فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة.. فلما انقضى كلامهم قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في غثرة[1] من الناس فكلّمتموني!!؟

ثم التفت حوله ونادى: من ها هنا من فتيان الحي؟!

فأجابه جماعة من الفتيان، فقال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب به إلى الحبس!! ثم وجّه الكلام إلى وجوه الكوفة وهم

(١) أي: في ظلمة وغشمة.

يسحبون فقال: ما أنتم إلا فتنة.. وجزاؤكم الحبس، فقالوا له: أجادٌّ أنت؟! قال: حقًّا.. حتى لا تعودوا برسالة ظالم! فحبسهم جميعًا.

وعلم موسى بن عيسى، فركب في الليل إلى باب السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم.

فلما كان الغد، وجلس شريك، جاءه السجّان فأخبره.. فدعا شريك بالقمطر فختمه، ووجّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد.. واللَّه ما طلبنا هذا الأمر منهم.. ولكن أكرهونا عليه.. ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلّدناه لهم!! ومضى نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلى بغداد.

وبلغ الخبر موسى بن عيسى، فركب في موكبه ولحقه، وجعل يناشده اللَّه ويقول: يا أبا عبداللَّه تثبّتْ.. انظر.. إخوانك تحبسهم؟! دع أعواني..

قال شريك: نعم.. لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردّوا جميعًا إلى الحبس.. وإلاّ مضيْت إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدّني!!

فأمر موسى بردهم جميعًا إلى الحبس، وهو واقف واللَّه مكانه حتى جاءه السجّان فقال: قد رجعوا جميعًا إلى الحبس!!

فقال شريك لأعوانه: خذوا بلجام دابة الأمير بين يديّ إلى مجلس الحكم!!

فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد.. وجلس في مجلس القضاء..

وجاءت المرأة المتظلمة فقال لها: هذا خصمك قد حضر!!

فقال موسى وهو إلى جانب المرأة المتظلمة بين يديه: قبل كل أمر أنا قد حضرت.. أولئك يخرجون من الحبس.

فقال شريك: أما الآن فنعم.. أخرجوهم من الحبس..

وقال شريك للأمير: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟!

وأجاب موسى: صدقَتْ.

قال: تردّ ما أخذت منها، وتبني حائطًا سريعًا كما كان..

وقال موسى: أفعل ذلك كله..!!

واتجه شريك نحو المرأة وقال: أبقيَ لك عليه دعوى؟!

قالت: بيت الرجل الفارسي ومتاعه..

قال موسى: ويردّ ذلك كله؟!

وقال شريك للمرأة: أبقى لك عليه دعوى؟؟

قالت: لا، وبارك اللَّه عليك وجزاك خيراً..

وأمر شريك المرأة بالانصراف، فانصرفت.. فلما فرغ قام.. وأخذ بيد موسى بن عيسى، وأجلسه في مجلسه، وقال: السلام عليك أيها الأمير.. أتأمرني بشيء؟!

وقال الأمير: أي شيء آخر..!! وضحك..

فقال له شريك: أيها الأمير.. ذلك الفعل حق الشرع.. وهذا القول الآن حق الأدب.

فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول: من عظّم أمر اللَّه أذلّ اللَّه له عظماء خلقه!!

كما اعتزّ الحق بأهله واعتزوا به، وانتصر بهم وانتصروا به.. وباء أعداؤه بذلة العبيد وهم يضعون على رءوسهم تيجان الملوك[1].

---

(١) انظر «كتمان الحق» ص(٨٢ ـ ٨٦).

* **ابن السماك والرشيد: «لو مُنعتْ عنك هذه الشربة؟»:**

حينما دخل ابن السماك على الرشيد أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين، اتق اللَّه وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غدًا بين يدي اللَّه ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار. فبكى هارون حتى ابتلت لحيته بالدموع، ثم طلب هارون ماء ليشرب، فلما وضع الماء على فيه ليشرب، قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول اللَّه ﷺ، لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي. فقال له ابن السماك: اشرب هنَّأك اللَّه. فلما شرب، قال له: أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول اللَّه ﷺ، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي. قال ابن السماك: إن ملكًا قيمته شربة ماء لجدير أن لا يُنافس فيه. فبكى هارون الرشيد، حتى أشفق الحاضرون عليه.

«لا يكن أحدٌ أطوعَ للَّه منك»:

□ قال ابن السماك: أرسل إليَّ هارون الرشيد، فدعاني، فقال لي: يا ابن السماك، عظني. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة من ذاق نعيم الدنيا. قال: فبكى، ثم قال: زدنا. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه تبارك وتعالى لم يرض لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدًا، فلا ترض أن يكون في الأرض أحد أطوع للَّه منك. قال: فبكى هارون حتى رحمتُه. فقال لي الفضل: ارفق بأمير المؤمنين. ثم قال: تكلم يا ابن السماك وادعُ. فدعوت بدعاء أعجبه، وقلت في دعائي: اللَّهم إنك قلت: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ**﴾ أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان واحد. وهارون يبكي[1].

(١) «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

وجاء في «سراج العلوم» للطرطوشي: لما دخل ابن السماك على هارون، قال له: عظني. قال: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترض من نفسك إلا بما رضي اللَّه به عنك، فإنك ابن عم رسول اللَّه ﷺ، وأنت أولى الناس بذلك. يا أمير المؤمنين، من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله، كان خليقًا أن يعتق نفسه. يا أمير المؤمنين، من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها. يا أمير المؤمنين، ناشدتك اللَّه أن تقدم إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض، وقد دُعيت إليها، وليس لك فيها نصيب. يا أَمير المؤمنين، تموت وحدك وتحاسب وحدك؛ وإنك لا تقدم إلا على نادمٍ مشغول، ولا تخلف إلا مفتونًا مغرورًا، وإنك وإيانا في دار سفرٍ وجيران ظعن. وجاء فيه أيضًا.

«هذا ذلّ الصفة، فكيف بذلِّ المُعاينة؟!»:

بعث هارون إلى ابن السماك، فلما أخذه الحرس بغير رفق ورآه الرشيد، قال: ارفقوا بالشيخ. فلما وقف بين يديه، قال له: يا أمير المؤمنين، ما مرَّ بي يوم منذ ولدتني أمي - أتعب فيه من يومي هذا، فاتق اللَّه في خلقه، واحفظ محمدًا في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك؛ فإن لك مقامًا بين يدي اللَّه تعالى أنت فيه أذّل من مقامي هذا بين يديك. فاتق اللَّه، واعلم أن من أخذ اللَّه وسطوته على أهل المعصية كيْت وكيْت. قال: فاضطرب الرشيد على فراشه، حتى نزل إلى مصلًّى بين يديْ فراشه، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا ذلُّ الصفة، فكيف لو رأيت ذلَّ المعاينة؟! فكادت نفس الرشيد تخرج.

*** شقيق البلخي والرشيد:**

☐ قال هارون الرشيد لشقيق البلخي: أوصني فقال له شقيق: يا أمير

المؤمنين، إن اللَّه تعالى قد أجلسك مكان الصِّدِّيق، وإنه تعالى يطلب منك مثل صدقه، وإنه تعالى أعطاك مكان الفاروق وهو يطلب منك مثل عدله، وإنه تعالى أجلسك مكان عثمان وهو يطلب منك مثل حيائه وخوفه، وإنه أعطاك مكان علي وهو يطلب منك مثل علمه وحُكمه. فقال له الرشيد: زدني يا شقيق. فقال شقيق: يا أمير المؤمنين، إن للَّه داراً تُعرف بجهنم، وإنه جعلك بوابًا عليها، وأعطاك ثلاثة أشياء لتردَّ عباده عنها: أعطاك بيت المال والسوط والسيف، وأمرك أن تمنع الناس عن دخول النار، فمن جاءك محتاجًا إلى طعام حلال، فلا تمنعه حقه في بيت المال، حتى لا يسرق ولا يقتل. ومن خالف أمر اللَّه، وخرج عن حدود اللَّه فأدبه بالسوط. ومن قتل نفسًا بغير حق، فاقتله بالسيف؛ إلا أن يعفو ولي المقتول. فإن لم تفعل في ملكك بدين اللَّه، فأنت زعيم أهل النار. فقال له الرشيد: زدنا. فقال له شقيق: يا أمير المؤمنين، إن مثلك كمثل منبع الماء، والعلماء والأمراء هم السواقي على منبع الماء؛ فإذا كان المنبع صافيًا، نقلت السواقي الماء صافيًا، وإن كان النبع كدراً، كان ماء السواقي كدراً. فبكى هارون الرشيد من قوله، وأمر له بمال. فأبى أن يأخذه وتركه، وانصرف.

*** عمرو بن عبيد [1] والمنصور: «أظهر الحق يتبعك أهله»:**

□ قال المنصور: يا أبا عثمان، عظني. فقال: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ

(١) شيخ أهل البدع والمعتزلة ولا كرامة.. وقد سقناها لقبول كلمة الحق ولو من أبعد الناس عنها؛ فقد قال رسول اللَّه ﷺ لأبي هريرة عن شيطان الجن الذي عرض له: **«صدقك وهو كذوب»**.

لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال: فبكى بكاءً شديدًا، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة، وقال: إن اللَّه قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها. واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك، ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك. وإني أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة. قال: فبكى واللَّه أشد من بكائه الأول، حتى رجف جنباه. فقال له سليمان بن مجالد: رفقًا بأمير المؤمنين، قد أتعبته منذ اليوم. فقال له عمرو: وبمثلك ضاع الأمر وانتشر ـ لا أبا لك ـ وماذا خفت على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية اللَّه؟ فقال له أمير المؤمنين: يا أبا عثمان، أعني بأصحابك أستعن بهم. قال: أظهر الحق يتبعك أهله. قال: لقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم، تستعين بها على سفرك وزمانك. قال: لا حاجة لي فيها. قال: واللَّه لتأخذنها. قال: واللَّه لا آخذها. فقال له المهدي: يحلف أمير المؤمنين وتحلف؟ فقال: من هذا الفتى؟ فقال: هو ابني محمد، وهو المهدي، وولي العهد. فقال: واللَّه لقد سميته اسمًا ما استحقه عمله، ولقد مهدتَّ له أمرًا أمتع ما يكون به، أشغل ما يكون عنه. ثم التفت إلى المهدي، فقال: يا ابن أخي، إذا حلف أبوك، وحلف عمك؛ فإن أباك أقدر على الكفارة من عمِّك. ثم قال: يا أبا عثمان، هل من حاجة؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إلي حتى آتيك. قال: إذًا لا نلتقي. قال: عن حاجتي سألتني. قال: فاستحفظه وودعه، ونهض قائمًا. فلما ولّى مدَّه بصره، وهو يقول:

كلكم يمشي رُويدْ كلُّكمْ يطلبُ صَيدْ

غير عمرو بن عُبَيدْ

*** «ليتقربن إليك بالعدل من لا نية له فيه»:**

دخل عمرو بن عبيد على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه عز

وجل يوقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر. وإن الأمة خُصماؤك يوم القيامة، وإن اللَّه عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك. وإن اللَّه عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية. يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيرانًا تتأجج من الجور، واللَّه ما يحكم وراء بابك بكتاب اللَّه ولا بسنة نبيه ﷺ. قال: فبكى المنصور. فقال سليمان بن مجالد، وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو، قد شققت على أمير المؤمنين. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مجالد. قال عمرو: ويلك يا سليمان، إن أمير المؤمنين يموت، وإن كل ما تراه ينفد، وإنك جيفة غدًا بالفناء، لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قُربك، إذا كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه... يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّمًا إلى شهواتهم. قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك، أولهم. قال: ادع أنت بعمل صالح تُحدثه، ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس، واستعمل في اليوم الواحد عمَّالاً، كلما رابك منهم ريب، أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره. فواللَّه لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه.

*** الفضيل بن عياض:**

انظر إلي سيد من سادات المتهجدين، الذي كان إذا وعظ قبل ابن المبارك جبهته، وقال: يا مُعلِّمَ الخير، من يحسن هذا غيرك.

انظر إليه حين يقول: لأن يدنو الرجل من جيفة منتنةٍ، خير له من أن يدنو إلى هؤلاء ـ يعني السلطان ـ.

◻ وقال أيضًا: رجل لا يخالط هؤلاء، ولا يزيد على المكتوبة، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل، ويصوم النهار، ويحج ويعتمر، ويجاهد في

سبيل اللَّه. واسمع يا أخي إلى الجبال حين تتكلم، استمع إلى زواجر الكلم تُلقى على مسامع الخليفة من قبل متهجد، وهو الفضيل: «قال الفضل بن الربيع: حج أمير المؤمنين، فأتاني فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: ويحك، قد حاك في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعنا الباب، فقال: من ذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: خذ لما جئناك له - رحمك اللَّه - فحدثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ فقال: نعم. قال: أبا عباس، اقض دينه. فلما خرجنا، قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله. قلت: هاهنا عبدالرزاق بن همام. قال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعنا الباب، فخرج مسرعًا، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلي لأتيتك. قال: خذ لما جئناك له، فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم. قال: أبا عباس، اقض دينه. فلما خرجنا، قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله. قلت: هاهنا الفضيل بن عياض. قال: امض بنا إليه. فأتيناه فإذا هو قائم يصلي، يتلو آية من القرآن يردّدها، فقال: اقرع الباب. فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟

❑ فقلت: سبحان اللَّه، أما عليك طاعة؟ أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه»** فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا، فسبقت كفٌّ هارون قبلي إليه، فقال: يالها من كف! ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب اللَّه عز وجل!

❑ فقلت في نفسي: ليكلمنّه الليلة بكلام من تقي قلب نقي. فقال له:

خذ لما جئناك له، رحمك اللَّه. فقال: إن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبداللَّه، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابُتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ. فعد الخلافة بلاء، وعددتَّها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبداللَّه: إن أردت النجاة من عذاب اللَّه فصم الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب اللَّه، فليكن كبير المؤمنين عندك أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب اللَّه، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت. وإني أقول لك؛ فإني أخاف عليك أشدّ الخوف يومًا تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك اللَّه مثل هذا؟ أو من يشير عليك بمثل هذا، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، حتى غُشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين. فقال: يا ابن الربيع، تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا! ثم أفاق، فقال له: زدني، رحمك اللَّه. فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبدالعزيز شكا، فكتب إليه عمر: يا أخي، أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند اللَّه، فيكون آخر العهد، وانقطاع الرجاء. قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد، حتى قدم على عمر بن عبدالعزيز، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى اللَّه عز وجل. قال: فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال له: زدني رحمك اللَّه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللَّه أمرني على إمارة. فقال له النبي ﷺ: «**إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة؛ فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل**». فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، فقال له: زدني، ـ رحمك اللَّه ـ.

قال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك اللَّه عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإياك أن تُصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك؛ فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشًا، لم يرح رائحة الجنة». فبكى هارون الرشيد، وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي أن سألني، والويل لي أن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حجتي. قال: إنما أعني من دين العباد؟ قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني إن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. فقال له: هذه ألف دينار، فأنفقها على عيالك، وتقوّ بها على عبادتك. فقال: سبحان اللَّه أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا! سلّمك اللَّه ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال هارون: إن دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا. هذا سيد المسلمين(١).

*** «هذا كتاب اللَّه بين الدفتين»:**

حدث يحيى بن يوسف الزمي عن الفضيل بن عياض، قال: لما دخل على هارون الرشيد أمير المؤمنين، قال: أيكم هو؟ قال: فأشاروا إلى أمير المؤمنين، فقال: أنت هو يا حسن الوجه؟! لقد كُلِّفت أمرًا عظيمًا، إني ما رأيت أحدًا هو أحسن وجهًا منك؛ فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار، فافعل، فقال لي: عظني. فقلت: بماذا أعظك؟! هذا كتاب اللَّه تعالى بين الدفتين، انظر ماذا عمل بمن أطاعه؟ وماذا عمل بمن عصاه؟ إني رأيت الناس يعرضون على النار عرضًا شديدًا، ويطلبونها طلبًا شديدًا حثيثًا،

(١) «الحلية» (٨/ ١٠٥ ـ ١٠٧).

أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال: عد إليّ.

◘ فقال: لو لم تبعث إلي لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.

* **عبدالله الخراساني وهارون الرشيد:**

حُكي عن إبراهيم بن عبدالله الخراساني أنه قال: حججت مع أبي - سنة حج الرشيد - فإذا نحن بالرشيد، وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء، وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي. ويقول: يا رب، أنت أنت، وأنا أنا، أنا العوّاد إلى الذنب، وأنت العوّاد إلى المغفرة، اغفر لي. فقال لي: يا بني، انظر إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء.

* **هارون الرشيد ورجل:**

أمير المؤمنين هارون الرشيد أمر يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية، فحبسه، ثم سأل عنه الرشيد، فقيل: هو كثير الصلاة والدعاء. فقال للموكل به: عَرِّضْ له بأن يكلّمني، ويسألني إطلاقه. فقال له الموكل ذلك. فقال: قل لأمير المؤمنين: إن كل يوم يمضي من نعمتك يُنقص من محنتي، فالأمر قريب، والموعد الصراط، والحاكم الله. فخرّ الرشيد مغشيًا عليه، ثم أفاق وأمر بإطلاقه.

* **أسلم مولى عمر وجعفر بن أبي سليمان: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»:**

روى زيد بن أسلم عن أبيه، قال: قلت لجعفر بن سليمان بن عبدالله ابن أبي طالب الهاشمي، والي المدينة: احذر أن يأتي رجل غداً، ليس له في الإسلام نسبة، ولا أب، ولا جد، فيكون أولى برسول الله منك، كما كانت

امرأة فرعون أولى بنوح ولوط - عليهما السلام - من زوجيهما، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته. من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

*** الأمين بن هارون الرشيد:**

◻ قال الإمام أحمد: بلغني أن إسماعيل بن عُلية الحافظ أدخل على الأمين، فلما رآه، زحف، وجعل يقول: يا ابن الفاعلة، تتكلم في القرآن[1] ؟! وجعل إسماعيل يقول: جعلني اللَّه فداك، زلة من عالم، ثم قال أحمد: إن يغفر اللَّه له - يعني الأمين - فبها[2] .

*** شيخ الإسلام أبو نعيم الفضل بن دكين:**

◻ قال الإمام أحمد: شيخان كان الناس يتكلمون فيهما، ويذكرونهما وكنا نلقى من الناس في أمرهما ما اللَّه به عليم، قاما للَّه بأمرٍ لم يقم به كبير أحد[3] .

◻ قال أبو العباس السرّاج عن الكديمي قال: لما دخل أبو نعيم على الوالي ليمتحنه، وثَمَّ يونس وأبو غسان وغيرهما، فأول من امتحن فلان فأجاب، ثم عطف على أبي نعيم، فقال: قد أجاب هذا، فما تقول؟ فقال: واللَّه ما زلت أتهم جده بالزندقة، ولقد أخبرني يونس بن بكير أنه سمع جده يقول: لا بأس أن يرمي الجمرة بالقوارير. أدركت الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ، الأعمش فمن دونه، يقولون: القرآن كلام اللَّه، وعنقي أهون

---

(١) وكان إسماعيل يقول بخلق القرآن.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١١٢)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٢٣٨).

(٣) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩)، و«السير» (١٠/ ١٤٩).

من زري هذا. فقام إليه أحمد بن يونس، فقبل رأسه ـ وكان بينهما شحناء ـ وقال: جزاك اللَّه من شيخٍ خيراً(١).

رحم اللَّه أبا نعيم من إمام حافظ، قال فيه الإمام أحمد: نُزاحم به سفيان بن عيينة. وقال فيه: كان ثقة، يقظان في الحديث، ثم قام في أمر الامتحان ما لم يقم غيره، عافاه اللَّه.

◻ وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء: «كنا نهاب أبا نعيم أشد من هيبة الأمير». والجزاء من جنس العمل.

◻ قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في كتابه «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»: قال عبد الصمد بن المهتدي: لما دخل المأمون بغداد، نادى بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك لأن الشيوخ بقوا يضربون ويُحبسون، فنهاهم المأمون، وقال: قد اجتمع الناس على إمام. فمر أبو نعيم، فرأى جنديًا وقد أدخل يديه بين فخذي امرأة، فنهاه بعنف، فحمله إلى الوالي، فحمله الوالي إلى المأمون، قال: فأدخلت عليه بكرة وهو يسبح، فقال: توضأ. فتوضأت ثلاثًا ثلاثًا على ما رواه عبد خير عن علي، فصليت ركعتين، فقال: ما تقول في رجل مات عن أبوين؟ فقلت: للأم الثلث، وما بقي للأب. قال: فإن خلّف أبويه وأخاه؟ قلت: المسألة بحالها، وسقط الأخ. قال: فإن خلف أبوين وأخوين؟ قلت: للأم السدس وما بقي للأب. قال: في قول الناس كلهم؟ قلت: لا إن جدك ابن عباس يا أمير المؤمنين، ما حجب الأم عن الثلث إلا بثلاثة أخوة. فقال: يا هذا، من نهى مثلك عن الأمر بالمعروف؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكراً.

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٤٨١)، و«تاريخ بغداد» (١٢/٣٤٩)، و«تهذيب الكمال لوحة» (١٠٩٨).

ثم خرجت[١] .

* الإمام الحافظ أبو عثمان عفان بن مسلم البصري الصفار:

□ قال حنبل: حضرت أبا عبدالله وابن معين عند عفان، بعد ما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحنة، وكان أول من امتحن من الناس عفان، فسأله يحيى من الغد، بعد ما امتحن، وأبو عبدالله حاضر ونحن معه، فقال: أخبرنا بما قال لك إسحاق. قال: يا أبا زكريا، لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك، إني لم أجب. فقال له: فكيف كان؟ قال: دعاني، وقرأ علي الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة؛ فإذا فيه: امتحن عفان، وادعه إلى أن يقول: القرآن كذا وكذا؛ فإن قال ذلك، فأقره على أمره، وإن لم يجبك إلى ما كتبت به إليك، فاقطع عنه الذي يجري عليه. وكان المأمون يجري على عفان كل شهر خمسمائة درهم، فلما قرأ علي الكتاب، قال لي إسحاق: ما تقول؟ فقرأت عليه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمتها، فقلت: أمخلوق هذا فقال: يا شيخ، إن أمير المؤمنين يقول: إنك إن لم تجبه إلى الذي يدعوك إليه، يقطع عنك ما يُجري عليك. فقلت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. فسكت عني، وانصرفت، فسر بذلك أبو عبدالله ويحيى[٢] .

□ قال إبراهيم بن ديزيل: لما دُعي عفان للمحنة، كنت آخذًا بلجام حماره، فلما حضر عُرِض عليه القول، فامتنع أن يُجيبَ، فقيل له: يُحبس عطاؤك. قال: وكان يُعطى في كل شهر ألف درهم. فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومَن في داره، قال:

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/١٤٩ ـ ١٥٠)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٥٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٤٤)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٧١).

وكان في داره نحو أربعين إنسانًا، فدقّ عليه داقٌّ الباب، فدخل عليه رجل شبّهتُه بسمّان أو زيّات، ومعه كيس فيه ألف درهم، فقال: يا أبا عثمان، ثبّتك اللَّه كما ثبّتَّ الدِّين، وهذا في كل شهر[1] .

* أخي، «اعلم أنه إذا هذّب الآمر نفسَه، أثّر قولُه إما في زوال المنكر، أو في انكسار المذنب، أو إلقاء الهيبة له في القلوب.

خرج إبراهيم الخوّاص لإنكار منكر فنبح عليه كلبٌ، فما قَدَر على الوصول إلى مكان المنكر، فرجع إلى مسجده وتفكَّر ساعةً، ثم قام، فجعل الكلب يتبصبَص حوله ولا يُؤذيه، حتى أزال المنكر، فسئل عما جرى له، فقال: إنما نبح عليّ لفسادٍ دخل عليّ في عقدٍ بيني وبين اللَّه عز وجل، فلما رجعتُ ذكرته، فاستغفرت»[2] .

* عبداللَّه بن مرزوق:

«لما قدِم المهدي مكة، لبث بها ما شاء اللَّه، فلما أخذ في الطّواف نحّى الناس عن البيت، فوثب عبداللَّه بن مرزوق، فلبّبه بردائه، ثم هزّه وقال له: انظر ما تصنع! مَن جعلك بهذا البيت أحقَّ ممن أتاه من البُعْد، حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه؟! وقد قال اللَّه تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ مَن جعل لك هذا؟ فنظر في وجهه ـ وكان يعرفه لأنه ابن مواليهم ـ فقال: أعبدُاللَّه بن مرزوق؟ قال: نعم. فأُخذ فجيء به إلى بغداد، فكره أن يعاقبه عقوبة يُشنّع بها عليه في العامّة، فجعله في إصطبل الدواب ليَسُوسَ الدوابَّ، وضمّوا إليه فرسًا عضوضًا سيّئ الخُلُق، ليعقره الفرس، فليّن اللَّه تعالى له الفرس. قال: ثم صيّروه إلى بيت وأُغلق عليه، وأخَذَ المهدي المفتاح عنده،

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، و«السير» (١٠/ ٢٤٥).

(٢) «التبصرة» (٢/ ٣٣٢).

فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقْل، فأوذن به المهدي، فقال له: مَن أخرجك؟ فقال: الذي حبسني. فضجّ المهدي وصاح، وقال: ما تخاف أنْ أقتلك؟ فرفع عبداللّه إليه رأسه يضحك وهو يقول: لو كنتَ تملك حياة أو موتًا. فما زال محبوسًا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه، فرجع إلى مكة. قال: وكان قد جعل على نفسه نذْرًا، إن خلصه اللّه مِن أيديهم أن ينحر مائة بدَنة، فكان يعمل في ذلك، حتى نحرها»[١] .

*** بِشر بن الحارث الحافي:**

«قال فتح بن شخرف: تعلَّق رجل بامرأةٍ ومعه سكين، لا يدنو منه أحد إلا عقَره، وكان شديد البدن، فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح، مرّ بشر بن الحارث فدنا منه، وحكّ كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجل إلى الأرض، ومرّت المرأة ومَرّ بشر، فدَنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا، فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري ولكن حاكّني شيخ وقال: إن اللّه عز وجل ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل. فضَعُفَتْ لقوله وهِبْتُه هيبةً شديدة، لا أدري مَنْ ذلك الرجل. فقالوا له: ذاك بشر بن الحارث. فقال: واسَوْأتاه، كيف ينظر إليّ بعد اليوم! وحُمَّ من يومه ذاك. ومات يوم السابع»[٢] .

*** الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة:**

ومَنْ في الناس كأحمد، وكل موقفٍ يتضاءل دون موقفه وثباته في فتنة خلْق القرآن. . . ويكفي أن يصدع بالحق عند الخليفة ويقول: «ائتوني بشيءٍ من كلام اللّه أو سنّة رسوله ﷺ».

وكان رحمه اللّه أمْرًا بالمعروف ونهْيًا عن المنكر يمشي على الأرض.

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) «التبصرة» (٢/٣٣١).

«قال صالح بن أحمد: كان رجل يختلف إلى عفان، يقال له: أحمد ابن الحكم العطار، فختن بعض ولده، فدعا يحيى وأبا خيثمة وجماعة من أصحاب الحديث، وطلب إلى أبي أن يحضر، فمضوا ومضى أبي بعدهم وأنا معه، فلمّا دخل أُجلس في بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث، فقال له رجل: يا أبا عبداللَّه، هاهنا آنية من فضة. فالتفت فإذا كرسي، فقام فخرج، وتبعه من كان في البيت، وأُخبر الرجل فخرج فلحق أبي، وحلف أنه ما علم بذلك، ولا أمر به، وجعل يطلب إليه فأبى، وجاء عفان فقال له الرجل: يا أبا عثمان، اطلب إلى أبي عبداللَّه يرجع. فكلّمه عفان فأبى أن يرجع، ونزل بالرجل أمر عظيم.

وعن علي بن أبي صالح السّوّاق قال: كنّا في وليمة بباب القبر قال: فجاء أحمد بن حنبل، فلمّا دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج، فلحقه صاحب المنزل، فنفض يده في وجهه وقال: زيّ المجوس، زي المجوس، وخرج»[1].

* **الناصر داود:**

ذكر ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ في ترجمة الملك الناصر «أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية في سنة ثنتين وثلاثين وستمائة، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر[2] مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لو كنتَ في يوم السقيفةِ شاهداً كنتَ المقــدمَ والإمامَ الأعظما

□ فقال الناصر داود للشاعر: اسكت فقد أخطأت، قد كان جد أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٢) وهو الخليفة آنذاك.

أبو بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ فقال الخليفة: صدقت»[١].

*** القاضي يوسف بن يعقوب ـ رحمه اللَّه ـ:**

جاء في ترجمة يوسف بن يعقوب قاضي البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد المتوفى سنة (٢٩٧هـ) أنه: «جاء يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة، فزبره القاضي، وقال: ائتوني بدلال النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة، وجاء حاجب القاضي فأخذه بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه، فقال له: ما لك؟ فأخبره بالخبر، وما أراد القاضي من بيعه، فقال: واللَّه لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدًا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع؛ فإنه عمود السلطان وقوام الأديان»[٢].

*** الخيّاط الزاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر:**

ذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبدالواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطلني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يفد ذلك شيئًا، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئًا، وما زاده ذلك إلا منعًا وجحودًا، فأيست من المال الذي عليه ودخلني هَمٌّ من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلانًا الخياط ـ إمام مسجد هناك ـ فقلت: وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم، وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لي: هو أقطع وأخوف

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٩٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ١١٢).

عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا. قال: فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذَّنت. فتغير لون الأمير ودفع إليَّ حقي.

◘ قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل مني شيئًا، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يحصى. فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمون أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منزله، قد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منزله، ومتى بت ها هنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام ولا تغسله المدامع.

◘ قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس[1] في يده فشج رأسي، وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله قهرًا، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء، ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم فقوموا معي إليه

---

(١) الدبوس: عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس. «المعجم الوسيط» (١/ ٢٧٠).

لننكر عليه ونخلص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه في داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني، هو من بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صَمَّمْت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح.

فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل، فنزلت فقالوا: أجب أمير المؤمنين.

فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئًا، حتى أدخلوني عليه، فلما رأيته جالسًا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا، فقال: ادن، فدنوت فقال لي: ليسكن روعك وليهدأ قلبك. وما زال يلاطفني حتى اطمأننت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أذَّنت هذ الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: ما حملك على أن أذَّنت هذه الساعة وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فَتَغُرَّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فقلت: يُؤَمِّنني أمير المؤمنين حتى أقصَّ عليه خبري؟ فقال: أنت آمن. فذكرت له القصة. قال: فغضب غضبًا شديدًا، وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأُحضرا سريعًا فبعث بالمرأة إلى زوجها

مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضًا، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة.

ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجواري والزوجات؟ فذكر له شيئًا كثيرًا. فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم اللَّه به عليك حتى انتهكت حرمة اللَّه وتعديت حدوده وتجرأت على السلطان، وما كفاك ذلك أيضًا حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب. فأمر به فجعل في رجله قيد وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق، ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حتى خَفَتَ، ثم أمر به فأُلقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد به.

ثم أمر بدرًا صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكرًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولو على هذا ـ وأشار إلى صاحب الشرطة ـ فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك الأذان، فأذن في أي وقت كان أو في مثل وقتك هذا. قال: فلهذا لا آمر أحدًا من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن[1].

* * *

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٨٩ ـ ٩١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٧١).

مواقف الربانيين تُحيي الأمة

«قد مات في حديدهم أقوام»

حين يَدْلَهِمُّ الخطب، ويجلُّ الأمر، ويظهر الفساد، ويشيع الظلم في كثير من البلدَان التي نَحّت الحكم بما أنزل اللَّه، حينئذ يخشى الناس على أنفسهم وأولادهم وذويهم، فيُضطرون إلى الانزواء بعيدًا عن معترك الأحداث، بل ويخضعون لهذا الواقع المظلم، ويستسلمون له بعد أن ألجمتْ ألسنتَهم تلك الأوضاع، فنجدهم قد رضُوا أن يتجرعوا مرارة الصبر، وربما شربوا كئوس الذلِّ والمهانة، لكن الظالم ينسى - حين بغيه وجبروته - تدبير الخالق العزيز الجبار، وأنه له بالمرصاد، فيتمادى في بغيه ويزيد في طغيانه، ولكن يأبى اللَّه إلا أن ينصر دينه ويتمَّ نوره، ويدحض الباطل، ويعلي الحق، فيقيِّض لتلك الشعوب الذليلة المنكسرة من يخرجها من خُنوعها وذلتها، ويبعث فيها روح العزة والكرامة، وذلك حين يضحي العلماء والدعاة بأنفسهم، حينما يقعون تحت سِياط الجلادين وسيوف الجبارين وأعواد المشانق؛ لأنهم لا يخافون في اللَّه لومة لائم ليقولوا للناس: إن الموت في سبيل اللَّه خير من الموت جبنًا وذلاً. ويقيض اللَّه كذلك لأولئك الظلمة الطغاة من يرهب قلوبهم، ويزلزل كراسيهم بالصدع بكلمة الحق ابتغاء مرضاة اللَّه، بعد أن يتخذوا كل الوسائل المتاحة والمشروعة لذلك، وبعد أن يصرَّ الظالم على ظلمه، ويقف من شرع اللَّه موقف المعارض، ويقف من الدعاة إلى اللَّه موقف المعادي والمحارب.

إن إحياء الأمة من مواتها، وبعثها من غفوتها ونومها، وإخراجها من عبادة غير اللَّه، وقيادتها إلى ربها وسوْقها إليه سوقًا جميلاً، وحمْل هذا الدين والسعي به والجهاد في سبيله - إن هذا وغيره هو من سمات العلماء

الفحول عبر تاريخنا المجيد. ونستعرض هنا صوراً من مواقف أولئك العلماء، لعلها تكون إحياءً للغافلين، ورهبة للظالمين، إذ ضحوا بأرواحهم في سبيل إعلاء دين اللَّه سبحانه، وهي العزاء لكل مسلم يسوؤه تلك التصرفات الجائرة ضد الدين ودعاته.

ولو استرجعنا التاريخ لوجدنا الأمر لا يكاد يختلف، بل يسجل التاريخ تلك الحقيقة الجليَّة ألا وهي الصراع بين حزب الرحمن وحزب الشيطان، ولن تموت أمثال هذه الكلمات الصادقة: «ولأموتنَّ في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم...»!!

فإلى أولئك الذين يسقطون ظلمًا وعدوانًا في الدفاع عن الإسلام ودعوته؛ ليعلموا أنه قد سبقهم أقوام على الطريق نفسه، وإليك أخي صوراً من تلك المواقف: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ولن تجد لسنة الله تبديلاً [الأحزاب: ٣٨] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣].

*** الإمام البويطي[1]:**

هو العلّامة، سيّد الفقهاء، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي. صاحَب الشافعيَّ ولازمه مدة، وفاق الأقران، وكان إمامًا في العلم قدوة في العمل، زاهدًا ربانيًا متهجدًا، دائمَ الذكر. سعى به أصحابُ ابن أبي دُؤاد، حتى كتب فيه ابن أبي دُؤاد إلى والي مصر، فامتحنه - أي في محنة خلق القرآن - فلم يُجب، وكان الوالي حسن الرأي فيه، فقال له: قل فيما بيني وبينك. قال: إنه يقتدي بي مائة ألف، ولا يدرون المعنى!! فأمر به أن يُحمل إلى بغداد.

☐ قال الربيع بن سليمان: رأيته على بغلٍ في عنقه غُلٌّ، وفي رجليه

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٥٨).

قيدٌ، وبينه وبين الغلّ سلسلة فيها لَبِنَةٌ ـ طوبة ـ وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: «إنما خَلَقَ اللَّه الخلْق بـ «كن»، فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خُلق بمخلوق، ولئن دخلت عليه لأصْدُقَنَّه ـ يعني الواثق ـ ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم».

وتوفي ـ رحمه اللَّه ـ في قيده مسجونًا بالعراق، في سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة.

* الإمام نُعيمُ بن حماد(١):

هو العلامة صاحب التصانيف، وكان شديداً في الرد على الجهمية، حُمل إلى العراق في إبّان تلك الغُمَّة مع البويطي مقيدَين.

❑ وكان يقول: «من شبّه اللَّه بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس في ما وصف اللَّهُ به نفسه ورسولُه تشبيه».

❑ قال ابن يونس: حُمل على القول بتلك الفرية، فامتنع أن يجيب، فسجن، ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومائتين، وجُرّ بأقياده، فأُلْقي في حفرة، ولم يكفّن، ولم يُصلَّ عليه... وأوصى نُعيمُ بن حماد أن يدفن في قيوده. وقال: «إني مخاصم».

* الإمام الخزاعي(٢):

هو أبو عبداللَّه أحمد بن نصر الخزاعي، كان أمّارًا بالمعروف، قوّالاً بالحق، من أكابر العلماء العاملين، ومن أهل العلم والديانة.

حُمل من بغداد إلى سامّراء مقيداً، وجلس له الواثق، فقال له: ما

---

(١) «سير اعلام النبلاء» (١٠/ ٦١٠).

(٢) «سير اعلام النبلاء» (١١/ ٦٧)، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٣١٨).

تقول في القرآن؟ قال: كلام اللَّه. قال: أفمخلوق هو؟ قال: كلام اللَّه. قال: فترى ربك يوم القيامة؟ قال: كذا جاءتِ الرواية. قال: ويحك! يُرى كما يُرى المحدود المتجسم، ويحويه مكان، ويحصره ناظر؟! أنا كفرتُ بمن هذه صفته. ما تقولون فيه؟ فقال قاضي الجانب الغربي: هو حلال الدَّم. ووافقه فقهاءٌ. قال الواثق: ما أراه إلا مؤديًا لكفره، قائمًا بما يعتقده. ودعا بالسيف، وقام، وقال: إني لأحتسب خُطاي إلى هذا الكافر. فضرب عنقه، بعد أن مدُّوا له رأسَه بحبل، وهو مقيد.

□ قال الحسن بن محمد الحربي: سمعت جعفر الصائغ يقول: رأيت أحمد بن نصر ـ حين قُتل ـ قال رأسه: لا إلـه إلا اللَّه. واللَّه أعلم.

وعُلّق في أذن أحمد بن نصر ورقة فيها: هذا رأس أحمد بن نصر، دعاه الإمام إلى القول بخلْق القرآن، ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة؛ فجعله اللَّه إلى ناره. وبقي رأسه منصوبًا ببغداد، والبدن مصلوبًا بسامراء، وفي رجليه زوج قيود.

هذه صور لابتلاء العلماء على مرِّ التاريخ من الظَّلَمة والطواغيت، والنتيجة أن أولئك العلماء يُتَرحم عليهم حتى الآن، أمَّا أولئك الظلمة المحادُّون للَّه ولرسوله ولشريعته. فإنهم محلُّ المقت والكراهية.. ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

*** شيخٌ شاميٌّ يُلقِم كبيرَ المعتزلة حجراً:**

مَنْ أوتي بصيرة في كتاب اللَّه لم يحتج في مناقشة أهل الضلال إلى علم الكلام، ومنطق اليونان، وعلم الفلسفة؛ ففي كتاب اللَّه غنًى، كيف لا، وهو كتاب اللَّه الذي وضّح الدلائل، وبيّن المسائل، ونفى الضلال والباطل؟! وإذا قَصُر الناس في الاستدلال من القرآن، وطلبوا الحجة من

غيره؛ فلقصور في عقولهم، وضعف في بصائرهم. وقد ذكر علماء التاريخ مناقشة أحد علماء السنة لقادة فتنة القوْل بخلْق القرآن، فألقمهم حجرًا، وأخزى حقُّه باطلَهم، وقد اعتمد في حِجَاجه على كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، وهو حِجاجٌ قريب المأخذ، يدركه الناس بسهولة ويسر، وتستمع إليه فيأسرك روعةُ الاستدلال، وقوة الحجة.

حكى المسعودي عن علي بن صالح قال: «حضرت يومًا من الأيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي، فيما يتظلم به إليه ـ ما استحسنته، فأقبلتُ أرمُقه ببصري إذا نظر في القصص، فإذا رفع طْرفه إليَّ أطرقت، فكأنه علِم ما في نفسي. فقال لي: يا صالح، أحسب أنَّ في نفسك شيئًا تحب أن تذكره. قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فأمسك، فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح، ونهض، فجلست جلوسًا طويلاً، فقمت إليه، وهو على حصير الصلاة، فقال لي: أتحدثني بما في نفسك، أمْ أحدثك؟ فقلت: بل هو من أمير المؤمنين أحسن. فقال: كأنني بك وقد استحسنت مِن مجلسنا. فقلت: أيُّ خليفة خليفتنا، إن لم يكن يقول بقوْل أبيه، من القول بخلْق القرآن! فقال ـ أي الخليفة ـ: قد كنت على ذلك برهة من الدهر، حتى أُقدِم عَلَى الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من «أذنة» من الثغر الشامي، مقيدًا طوالاً، حسن الشيبة، فسّلم غيرَ هائب، ودعا فأوجز، فرأيت الحياء منه في حماليق عينَى الواثق، والرحمةَ عليه. فقال: يا شيخ، أجبْ أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه. فقال: يا أمير المؤمنين، أحمد يصغُر، ويضعف، ويقلُّ عند المناظرة. فرأيت الواثق، وقد صار مكان الرحمة، غضبًا عليه. فقال: أبو عبداللَّه يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك؟! فقال: هوّن عليك يا أمير المومنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال الواثق: قد أذنتُ لك. فأقبل الشيخ على أحمد، فقال: يا أحمد إلامَ دعوت الناس؟ فقال أحمد: إلى القوْل بخلق القرآن. فقال له

الشيخ: مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها، من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين، فلا يكون الدين تامًّا إلا بالقول بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: فرسول اللَّه ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم؟ قال: لا. قال له: يعلمُها أم لم يعلمها؟ قال: عَلِمَهَا. قال: فلِمَ دعوتَ إلى ما لم يدعهم رسول اللَّه ﷺ إليه، وتركهم منه؟ فَأَمْسَك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة.

ثم قال له: أخبرني يا أحمد، قال اللَّه في كتابه العزيز: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣]، فقلتَ أنت: الدين لا يكون تامًّا إلا بمقالتك بخلق القرآن، فاللَّه تعالى عز وجل صدق في تمامه وكماله، أم أنت في نقصانك؟! فَأَمْسَك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثانية.

ثمَّ قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد، قال اللَّه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الآية: [المائدة: ٦٧]، فمقالتك هذه التي دعوتَ الناس إليها، فيما بلَّغه رسول اللَّه ﷺ إلى الأمّة أم لا؟ فأمسك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثالثة.

ثمَّ قال بعد ساعة: خبرْني يا أحمد، لمّا علم رسول اللَّه ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها، أتَّسع له عن أن أمسك عنها أم لا؟ قال أحمد: بل اتَّسع له ذلك. فقال الشيخ: وكذلك لأبي بكر، وكذلك لعمر، وكذلك لعثمان، وكذلك لعلي رحمة اللَّه عليهم؟ قال: نعم. فصرف وجهه إلى الواثق، وقال: يا أمير المؤمنين، إذا لم يتَّسع لنا ما اتسع لرسول اللَّه ﷺ ولأصحابه فلا وسَّع اللَّه علينا. فقال الواثق: نعم، لا وسَّع اللَّه علينا، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول اللَّه ﷺ ولأصحابه، فلا وسع اللَّه علينا. ثمَّ قال الواثق: اقطعوا قيوده، فلما فُكَّت، جاذب عليها. فقال الواثق: دعُوه، ثم قال: يا شيخ؟ لِمَ جاذبْتَ عليها؟ قال: لأني عقَدتُ في نيتي أن أجاذب

عليها، فإذا أخذتُها أوصيتُ أن تُجعل بين يدَي كفني، ثمَّ أقول: يا ربي، سَلْ عبدك: لِمَ قيدني ظلمًا، وارتاع بي أهلي؟ فبكى الواثق، والشيخ، وكلُّ مَنْ حضر. ثمَّ قال له: يا شيخ، اجعلني في حِلٍّ. فقال: يا أمير المؤمنين، ما خرجت من منزلي حتى جعلتُك في حلٍّ، إعظامًا لرسول الله ﷺ، ولقرابتك منه. فتهلل وجه الواثق وسُرَّ. ثمَّ قال له: أَقِمْ عندي آنسُ بك. فقال له: مكاني في الثغر أنفع، وأنا شيخ كبير، ولي حاجة. قال: سَلْ ما بدا لك. قال: يأذن لي أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم. قال: قد أذنت لك. وأمر له بجائزة، فلم يقبلها.

◘ قال المهتدي: فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المقالة، وأحسب أيضًا أن الواثق رجع عنها»[١].

* ابن الجوزي والمستضيء بالله:

عبدالرحمن بن الجوزي وعظ المستضيء بالله، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنْ تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خفت عليك. فأنا أُقدِّم خوفي عليك من خوفي منك؛ لمحبتي دوامَ أيامِك. وأن أقدم قول القائل: اتق الله. خيرٌ من قول القائل: إنكم أهل بيت مغفورٌ له. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية، ولم أغيِّره فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط؛ لئلا يَنسى الجياع. وكان عمر يضرب بطنه عامَ الرمادة ويقول: قرْقِري إن شئت أوْ لا، والله، لا شبعْتِ والمسلمون جياع. فترتب على هذه الموعظة أن أطلق أمير المؤمنين المستضيء بالله المحابيس، وتصدق صدقات كثيرة، وأشبع الجياع[٢].

(١) «الاعتصام» (١/ ٣٢٤).

(٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي.

* الإمام عبدالقادر الجيلاني وصدعه بالحق:

هذا الإمام العظيم.. شيخ الوعّاظ وبقية السلف.. شيخ ابن قدامة وعبدالغني المقدسي» يقف على منبره محاسبًا أمير المؤمنين المقتفي لأمر اللَّه ومنكرًا عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم القضاء، فقال له مخاطبًا: وليّت على المسلمين أظلم الظالمين، وما جوابك غدًا عند رب العالمين أرحم الراحمين؟!

فارتعد الخليفة، وعزل المذكور لوقته[1].

ما أجمل ما اختلطت كرامة النفس بكرامة الحق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نفوس أهل العلم وكانت الأجسام الضامرة والأردية البالية تحوي أنفسًا لا ترقى إلى غناها أنفس الملوك في طيلسانها، وبين أجنادها وأحراسها.

* نصح الشيخ أحمد الرفاعي لأمير المؤمنين المستنجد:

رحم اللَّه الشيخ الرفاعي فقد كان شيخًا كبيرًا في العلم والعمل والاتباع خلافًا لمن أتواْ بعده.

كتب ـ رحمه اللَّه ـ إلى أمير المؤمنين المستنجد: «الحمد للَّه والصلاة والسلام على سيد خلقه محمد عبده وحبيبه ومصطفاه أما بعد.

من الفقير إلى اللَّه أحمد بن علي بن أبي الحسن كان اللَّه له إلى الإمام الخليفة المطاع أمير المؤمنين أبي أحمد المستنجد[2] باللَّه العباسي الهاشمي أيده اللَّه بما أيده به عباده الصالحين آمين، وصلنا كتابك الآمر بالنصيحة والحديث

---

(١) «قلادة الجواهر» ص(٨).

(٢) هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي ولد سنة ٥١٨هـ. كان موصوفًا بالعدل والرفق والفهم الثاقب والرأي الصائب والذكاء الغالب والفضل الباهر، له نظم بديع ونثر بليغ ومعرفة بعمل آلات الفلك والإسطرلاب، مات سنة ٥٦٤هـ.

«الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»[1] .

لولا هذا الحديث لما تصديت لنصحك؛ لأن نصيحة مثلك بارك اللَّه بك لها شرطان: الإخلاص من الناصح والقبول بشرط العمل بالنصيحة، من أخيه أيدك اللَّه بتوفيقه.

يا أمير المؤمنين: إن أنت أنفذت أحكام اللَّه تعالى وتقدس في نفسك نفذت أحكام كتبك في ملكه وإن عظمت أمر اللَّه تعالى باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، واحتفلت بشأنه الكريم عظم الناس عمالك وولاة الأمور من قبلك، ولا تنظر يا أمير المؤمنين ما عليه القياصرة وملوك المجوس من القوة في ملكهم مع انسلاخهم وبعدهم عن كل ما ذكرته فإنهم جهلوا الحق فأبعدهم عنه وقربهم من الدنيا وقربها منهم وولاهم أمر من شاء من خلقه فإن ساسوهم بما تكن إليه أفئدتهم وتطمئن طباعهم دام أمرهم في حجاب دنياهم إلى أن تنقطع حبال آجالهم، وإن لم يسوسوهم بالرفق والمداراة وأوقعوا فيهم ما يثقل عليهم سلطهم عليهم فسلب دنيا قوم بقوم والنار مأوى الكافرين.

أما أنت يا أمير المؤمنين فحافظ ثغور وحارس دماء وأموال هزت بكل مفازاتها سيوف الإسلام لا علمًا بقدومك بعد حين ولا تمهيدًا لك لتفعل برأيك، إنما كان ذلك للَّه ولرسوله، فافزع في كل أمورك إلى اللَّه وعظم في كل شئونك أمر رسول اللَّه وأنت حينئذ في أمان اللَّه وظل نبيه، ثم انظر يا أمير المؤمنين كل ما يصل إلى خويصة نفسك في هذه الدار من طعام تأكله وشراب تشربه ورداء ترتديه وظل تستظله واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك وإياك وظلم العباد، وإذا استوزرك الشيطان ورام نزغك إلى الظلم فسل

---

(١) ورد في «صحيح البخاري»، و«مسلم» وابن حبان وسنن ابن ماجه والترمذي.

نفسك أن لو كنت مسجونًا أو مظلومًا أو مقهورًا أو مكذوبًا عليك ما الذي تريده لنفسك من سلطانك، وعامل الناس بما تريده لنفسك فإنك إن فعلت ذلك وفيت العدل والآدمية حقهما، واعلم أن ما أنت فيه من ملك الدولة شيء يسير من ملك اللَّه تعالى وأنت جزء صغير منه فإن رأيت لك شيئًا ونسيته وقمت تفعل فعل من يزعم مشاركته في ملكه فأهملت حقه وغدرت خلقه يصرف عنك عونه ونصره ولك فيمن باد عبرة ولا تنظر يا أمير المؤمنين إلى من صرفهم عن مشغلة الدنيا من أحبابه المقربين إليه كبعض الصحابة الذين نازعهم الناس وانتزعوا أزمة الدنيا من أيديهم؛ لأن أولئك قوم اجتذبهم إليه وولى على الناس من يشاكلهم في أعمالهم وكل عن عمله مسئول ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩].

◻ يا أمير المؤمنين، ظلك ما أظلك ورداؤك ما سترك، وطعامك ما أشبعك ومالك ما لك منه شيء، ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]، إن ربي على ما يشاء قدير تنعم أنت خاتم من خواتم القدر يطبع على أرواح الصور فيرفع اللَّه به ويضع، ويصل به ويقطع، فإن أنت لزمت الأدب مع الفعال المطلق برعاية حق شرعه الذي شرع لعباده ثابك، وأدار محور الوهب بك ربء علم بعدك، وإن أهملت أمره وهتكت ستر خلقه دخلت في عداد الظالمين ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [البقرة: ٢٧٠].

◻ يا أمير المؤمنين، أهل الفهم السليم والذوق الصالح تجتمع هيئتهم على الحق ويتزعرعون في بحبوحة العدل والإحسان فكبيرهم وصغيرهم أميرهم ومأمورهم حرهم وعبدهم في الدنيا سواء، ولكل منهم مقام معلوم. لا تشب فيهم نار الشقاق ولا يتحكم فيهم سلطان سوء الأخلاق يحكمون بما أنزل اللَّه ولا يزالون في أمان اللَّه ولو احتالوا في الحكم فجعلوا له وجهًا في الظاهر وأبطنوا الباطل يقول لهم الحكم العدل: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**

فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، فإذا أظهروا الباطل وهيئوا سبيلاً شرعيًا أدخلته عليتهم وشوكتهم في الحكم قال الحق تعالى لهم: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [المائدة: ٤٥]، فإذا أظهروا الباطل وانتحلوا له سبيلاً من الرأي استصغاراً لحكمة الشرع وتعززاً بالأمر فحكموا به، قال لهم المنتقم الجبار **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** [المائدة: ٤٤].

◻ يا أمير المؤمنين أروقة الأعمال لا تعمر بأيدي الخيال، ولا يصان حي إلا بمادة جامعة، تلصق القلوب ببعضها وتدفع النزاع والتفرقة، وما هي واللَّه إلا الشرع العادل والسنة المحمدية الصالحة، وكل ذلك أمر اللَّه الذي طبع الطباع وعلم ما تطيب له وبه يرتاح الضعيف لطلب حقه من خصمه القوي، وأنت تدري يا أمير المؤمنين أن ابن عمك إمام المسلمين عليًّا أمير المؤمنين كرم اللَّه وجهه ورضي اللَّه عنه حدث عن ابن عمه سيد المخلوقين أنه قال: «**لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير ممتنع**»، والأمر واللَّه كذلك. وعلمت يا أمير المؤمنين من سيرة عمر بن الخطاب الفاروق الجليل ﷺ أنه لم يرهب فارس والروم والمغرب والصين والهند والبربر بفرش الديباج وبسط الحرير وكئوس الجوهر والخيول المسومة والبيوت الشاهقة والأقواس المذهبة. إنما أرهبهم بالعدل المحض وأفحم شوس رجالهم بالحكمة البالغة، ألا وهي شريعة نبيك سيد الحكماء وبرهان العقلاء وإمام الأنبياء محمد ﷺ.

ولتعلم أمطر اللَّه على قلبك سحاب الإلهام المبارك والتوفيق وأحكم أمرك بالأعوان الصالحين أهل الحكمة والنجدة، أن الحق كمين تحت ضلوع الخاصة والعامة، المحق منهم والمبطل، فربما أعانك عبدك على باطلك بيده ولسانه انقياداً لوقتك، وأنكر عليك بسره وأضمر قلبه لك بعدها السوء، فلا يزكي ذكرك لديه، ولو جعلته حرًّا ثم أكبرته ثم استوزرته بل ولو كان أشد

منك وهذا سر اللَّه المضمر في الحق.

واعلم أي سيدي أن جيش الملوك العدل، وحراسهم أعمالهم، ودفاتر أحوالهم عمالهم وأصحابهم، وهذه الدفاتر في أيدي العامة، فأصلح دفتر أحوالك واحكم حراستك وأيد جيشك وعليك بأهل العقل والدين، وإياك وأرباب القسوة والغدر والضلالة، فهم أعداؤك وصن أمرك من أن تلعب به النساء والأحداث والذين لا نخوة لهم، فإنهم دواعي الخراب والاضمحلال، وإذا أحببت فحكم الإنصاف في عملك حتى لا تقدم غير محق، أو ترفع بغير الحق وإذا كرهت فاذكر اللَّه، ونزه طبعك من خور الغدر، فإن مكانك الأمن، يدور صاحبه مع الحق لا مع الغرض، وإذا غضبت فاجنح للعفو، فإن أخطأت فيه خير من أن تخطئ في العقوبة. واجعل بذلك ونوالك لأهل الدين والحكمة والغيرة للإسلام، واختر منهم أشرفهم طبعًا وأكثرهم عقلاً وأوجزهم رأيًا ونطقًا، وأثبتهم حجة وأعلمهم باللَّه ورسوله. وساوِ الناس برًّا وفاجرًا مؤمنًا وكافرًا، في باب عدلك واحفظ حرمة الدين وأهله واعمل عملاً تحسن به عاقبتك إذا لقيت ربك واللَّه ولي التوفيق «إنا للَّه وإنا للَّه راجعون».

«والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته»[1] اهـ.

* * *

(١) «الوصايا» للإمام أحمد الرفاعي (٩/ ١٤) ـ مكتبة مدبولي القاهرة.

*** الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي: «في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان»:**

كان مما كتبه الإمام الغزالي للسلطان محمد بن مالك شاه السلجوقي: «ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حُسْن سيرة الملك، فينبغي للملك أن ينظر في أمور رعيته، ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة، ويجب عليه احترام الصالحين، وأن يثبت على الفعل الجميل، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل، ويعاقب من ارتكاب القبيح، ولا يحابي مَنْ أصر على القبيح؛ ليرغّب الناس في الخيرات ويحذَرُوا من السيئات، ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المُفْسِد عن فساده ويتركه على مراده، أفسد سائر أموره في بلاده. وقال الحكماء: إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك؛ لأن العوامّ إنما يبخلون، ويركبون الفساد، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بمُلوكهم، فإنهم يتعلمون منهم، ويلزمون طباعهم، ألا ترى أنه قد ذُكر في التاريخ أن الوليد بن عبدالملك ـ من بني أمية ـ كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة. وكان سليمان بن عبدالملك همّته في كثرة الأكل، وتطييب الطعام، وقضائه الأوطار، وبلوغ الشهوات. وكانت همّة عمر بن عبدالعزيز في العبادة والزهادة. قال محمد بن علي بن الفضيل: ما كنتُ أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبدالملك قد اشتغلوا بعمارة الكُرُم والبساتين، واهتموا ببناء الدور، وعمارة القصور. ورأيتهم في زمان سليمان بن عبدالملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام، حتى كان الرجل يسأل صاحبه: أيَّ لون اصطنعتَ، وما الذي أكلتَ؟ ورأيتُهم في أيام عمر بن عبدالعزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن، وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات. لتعلم أن في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان، ويعملون بأعماله، ويقتدون بأفعاله: من

القبيح والجميل، واتباع الشهوات، وإدراك الكمالات، كما يُقال»[1].

*** البخاري وأمير بُخارى: «إني لا أذلُّ العلمَ»:**

بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي - والي بخارى - إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليَّ كتابَ الجامع والتاريخ؛ لأسمع منك. فقال محمد بن إسماعيل لرسوله: قل له: إني لا أُذِلُّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فلْيحضرِني في مسجدي، أو في داري، فإن لم يعجبْك هذا فأنت سلطان، فامنعني من المجلس؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة: أني لا أكتم العلم؛ فكان سبب الوحشة بينهما[2].

*** النّوريّ:**

صَحبَ السري، وكان الجنيد يعظمه، لكنه في الآخر رقّ له وعذره، لما فسد دماغُه.

ولما مات قال الجنيد: «ذهب نصف العلم بموته»[3].

❑ قال أبو بكر بن الجلاد: كان النوريّ إذا رأى منكرًا غيّره، ولو كان فيه تَلَفُه. نزل يومًا، فرأى زورقًا فيه ثلاثون دنًّا، فقال للملاح: ما هذا؟ قال: ما يلزمك؟ فألحّ عليه. قال: أنت - والله - صوفي كثير الفضول، هذا خمر للمعتضد. قال: أعطني ذلك المِدْرى. فاغتاظ، وقال لأجيره: ناوله حتى أُبصر ما يصنع، فأخذه، ونزل، فكسَّرها - كلها - غير دَنٍّ، فأُخذ وأُدخل إلى المعتضد، فقال: من أنت، ويلك؟ قال: مُحتَسِب، قال: من ولاك الحِسْبة؟ قا: الذي ولاك الإمامة يا أمير المؤمنين، فأطرق، وقال: ما

(١) «التبر المسبوك».

(٢) مقدمة «فتح الباري».

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٧٠، ٧٣).

حملك على فعْلك؟ قال: شفقة منّي عليك. قال: كيف سَلِم هذا الدَّنُّ؟ فذكر أنه كان يكسِّر الدّنان ونفسه مخلصَة خاشعة، فلما وصل إلى هذا الدَّنِّ، أعجبته نفسه، فارتاب فيها، فتركه[١].

* **شيخ الإسلام، المحدّث الإمام، أبو الحسن بنانُ الحمّال:**

«من يُضرب بعبادته المثل. وقد امتحِن في ذات اللَّه فصبر، وارتفع شأنه. فنقل أبو عبدالرحمن السلمي في «محَن الصوفية» أن بنانًا الحمّال قام إلى وزير خُمارويه صاحب مصر ـ وكان نصرانيًّا ـ فأنزله عن مركوبه، وقال: لا تركب الخيل وعيِّر، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة. فأمر خُمارويه بأن يُؤخذ ويُوضع بين يدي سَبُع، فطُرح، فبقي ليلةً، ثم جاءوا والسبع يلحسه وهو مستقبلٌ القبلة، فأطلقه خُمارويه واعتذر إليه.

◻ قال أبو علي الروذباري: كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال؛ وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف، فأمر به أن يُلقى بين يدي سبع، فجعل السبُع يشمه ولا يضرُّه، فلما أُخرج من بين يدي السبع، قيل له: ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك؟ قال: كنت أتفكر في سؤْر السباع ولُعابها»[٢].

للَّه درُّه مِن سيد مِن سادات المسلمين... حتى الأُسد الضواري تعرف منزلته، وتتأدب معه... خافوا اللَّه وقاموا بحقه، فخافتهم الأُسد وقاموا بحقهم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٧٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

*** الإمام القدوة الشهيد أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل المعروف بابن النابلسي وجوهر قائد العبيديين الفاطميين:**

الإمام ابن النابلسي هو شيخ الديار المصرية في وقته:

☐ قال أبو الفرج ابن الجوزي: أقام جوهر ـ القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغني أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينا تسعة. قال: ما قلتُ هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيّرتم الملّة، وقتلتم الصالحين، وادّعيتم الألوهية، فشهره ثم ضربه، ثم أمر يهوديًا فسلخه.

☐ قال أبو ذر الحافظ: سجنه بنو عبيد ـ الفاطميون ـ وصلبوه على السُّنَّة، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يُسلخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾.

☐ قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي: أخبرني الثقة أن أبا بكر سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، وكان يذكر اللَّه ويصبر حتى بلغ الصدر، فرحمه السلاّخ، فوكزه بالسكين موضع قلبه، فقضى عليه»[1].

*** شيخ الإسلام ابنُ الحطيئة، أبو العباس أحمد بن عبداللَّه اللخمي:**

☐ قال شجاع المدلجي ـ وكان من خيار عباد اللَّه ـ: كان شيخنا ابن الحطيئة شديداً في دين اللَّه، فظًّا غليظًا على أعداء اللَّه، لقد كان يحضر مجلسه داعي الدعاة[2] مع عِظم سلطانه، ونفوذ أمره، فما يحتشمه، ولا

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦/١٤٨ ـ ١٤٩)، «السير» (١٦/١٤٨ ـ ١٤٩).
(٢) قاضي الخليفة العاضد.

يكرمه، ويقول: أحمق الناس في مسألة كذا وكذا: الروافض؛ خالفوا الكتاب والسنة، وكفروا باللَّه. وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرق مصر، وقد حضره بعض وزراء المصريين - أظنه ابن عباس - فاستسقى في مجلسه، فأتاه بعض غلمانه بإناءِ فضّةٍ، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يده على فؤاده، وصرخ صرخة ملأت المسجد، وقال: واحرّها على كبدي، أتشربُ في مجلس يُقرأ فيه حديث لرسول اللَّه ﷺ في آنية الفضة؟! لا، واللَّه لا تفعل، وطرد الغلام، فخرج، وطلب الشيخ كوزًا، فجيء بكوز قد تثلّم، فشرب واستحيي من الشيخ، فرأيتُه - واللَّه - كما قال اللَّه: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[1] [إبراهيم: ١٧].

*** شيخ الإسلام الهَرَوي الأنصاري، أبو إسماعيل: عبداللَّه بن محمد بن علي:**

◘ قال تلميذه المؤتمن: كان يدخل على الأمراء والجبابرة، فما يبالي.

◘ قال عنه الذهبي في السِّير (١٨/٥٠٩): «كان سيفًا مسلولاً على المتكلمين، له صولةٌ وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، يعظمونه، ويتغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طودًا راسيًا في السُّنة، لا يتزلزل ولا يلين، وقد امتُحن مرات، وأُوذيَ، ونُفي من بلده.

◘ قال ابن طاهر: سمعتُه يقول: عُرضتُ على السيف خمسَ مرات، لا يُقال لي: ارجع عن مذهبك. لكن يُقال لي: اسكت عمّن خالفك. فأقول: لا أسكت»[2].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/٣٤٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/٥٠٩)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/١١٨٤).

هذا ـ والله ـ الثبات على الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

«قال الحافظ أبو النضر الفامي: كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان، وواسطة عقد المعاني، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن، منها نُصرةُ الدين والسنة، من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير. وقد قاسى بذلك قصد الحُسّاد في كلّ وقت، وسعَوا في رُوحه مرارًا، وعَمدوا إلى إهلاكه أطوارًا، فوقاه الله شرَّهم، وجعل قصدهم أقوى سببٍ لارتفاع شأنه».

□ قال ابن طاهر: «حكى لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسلان قَدِمَ هراة ومعه وزيره نظام الملك، فاجتمع إليه أئمة الحنفية، وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري، ومطالبته بالمناظرة، فاستدعاه الوزير، فلما حضر قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإنْ يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك، وإن يكن الحق معهم رجعت، أو تسكت عنهم. فوثب الأنصاري وقال: أناظر على ما في كُمّي. قال: وما في كمِّك؟ قال: كتاب الله ـ وأشار إلى كمِّه الأيمن ـ وسنة رسول الله، وأشار إلى كمِّه اليسار، وكان فيه «الصحيحان»، فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم، فلم يكن فيهم مَنْ ناظره من هذا الطريق. وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول: حضرتُ مع الشيخ؛ للسلام على الوزير نظام الملك، وكان أصحابنا كلّفوه الخروج إليه، وذلك بعد المحنة، ورجوعه إلى وطنه بلخ ـ يعني أنه كان قد غُرِّب ـ قال: فلما دخل عليه أكرمه وبجّله، وكان هناك أئمة من الفريقين، فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير، فقال العلوي الدبوسي: يأذن الشيخ الإمام أن أسأل؟ قال: سَلْ. قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعري؟ فسكتَ الشيخ، وأطرق الوزير، فلما كان بعد ساعة قال الوزير: أجبْه. فقال: لا أعرف أبا الحسن، وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء، وأن القرآن في المصحف، ويقول: إن النبي

ﷺ اليوم ليس بنبيٍّ. ثم قام وانصرف. فلم يُمكن أحدًا أن يتكلم من هَيْبته، فقال الوزير للسائل: هذا أردتم! أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا، وما عسى أن أفعل به؟ ثم بعث إليه بصلة وخِلَع فلم يقبلها، وسافر من فوْره إلى هراة»(١) .

◻ قال خادمه: وسمعت أصحابنا بهراة يقولون: لما قدم السلطان ألب أرسلان في بعض قدماته، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه، ودخلوا على أبي إسماعيل، وسلَّموا عليه، وقالوا: ورد السلطان ونحن على عزمٍ أنْ نخرج ونُسلِّم عليه، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك، وكانوا قد تواطؤوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ، وخرجوا، وقام الشيخ إلى خلْوته، ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري، وأنه مجسِّمٌ، وأنه يترك في محرابه صنمًا، يزعم أن اللَّه تعالى على صورته، وإنْ بعث السلطان الآن يجده، فعظُم ذلك على السلطان، وبعث غلامًا وجماعة، فدخلوا، وقصدوا المحراب، فأخذوا الصنم، فألقى الغلام الصنم، فبعث السلطان مَن أحضر الأنصاري، فأتى فرأى الصنم والعلماء، وقد اشتدَّ غضب السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يُعمل من الصُّفر شبه اللعبة. قال: لستُ عن ذا أسألك. قال: فعمّ يسألني السلطان؟ قال: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا، وأنك تقول: إن اللَّه على صورته. فقال شيخ الإسلام ـ بصولة وصوت جَهْوري ـ: سبحانك! هذا بهتان عظيم. فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر به، فأُخرج إلى داره مكرمًا، وقال لهم: اصدقوني. وهددهم، فقالوا: نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامة، فأردنا أن نقطع شرّه عنا، فأمر بهم، ووكّل بهم، وصادرهم، وأخذ منهم، وأهانهم(٢) .

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥١١ ـ ٥١٢)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٧ ـ ١١٨٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥١٢)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٨ ـ ١١٨٩).

ما يضيرُ البحرَ أمسى زاخِرًا   أنْ رمى فيهِ غلامٌ بِحَجَرْ

□ ولله در القائل:

يَا نَاطِحَ الجبلِ العالي لتُكْلِمَهُ   أشفقْ على الرأس لا تُشفق عَلى الجبلِ

* **الحافظ الأثري عبدالغني المقدسي:**

□ «قال الضِّياء: أخبرني خالي موفق الدين، قال: كان الحافظ عبدالغني جامعًا للعلم والعمل، وكان رفيقي في الصِّبا، وفي طلب العلم، وما كنا نستبق إلى خير إلا سبقني إليه، إلا القليل، وكمّل اللَّه فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم.

□ قال الضياء: كان لا يرى منكرًا إلا غيّره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في اللَّه لومة لائم. قد رأيته مرة يهريق خمرًا، فجبذ صاحبه السيف فلم يَخَفْ منه، وأخذه من يده، وكان قويًّا في بدنه، وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشَّبابات. قال خالي الموفق: كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه، وكنّا مرة أنكرنا على قومٍ وأرقنا خمرهم وتضاربنا، فسمع خالي أبو عمر، فضاق صدره، وخاصمنا، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا، وصوّب فعلنا، وتلا ﴿**وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ...**﴾ [لقمان: ١٧].

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحان، قال: كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلَتْ لهم طنابير، وكانوا في بستان يشربون، فلقي الحافظ الطنابيرَ فكسَّرَها. قال: فحدثني الحافظ، قال: فلما كنتُ أنا وعبدالهادي عند حمَّام كافور، إذا قوم كثير معهم عِصِيٌّ فخفّفتُ المشي، وجعلت أقول: «حسبي اللَّه ونعم الوكيل»، فلما صرت على الجِسر لحقوا صاحبي، فقال: أنا ما كسرت لكم شيئًا، هذا هو الذي كسر، قال: فإذا فارس يركض فترجَّل،

وقبّل يديّ، وقال: الصبيان ما عرفوك. وكان قد وضع اللَّه لهُ هيبة في النفوس»[١].

هذه واللَّه أحلى مذاقًا منَ العسل...

□ «قال فضائل بن محمد المقدسي: سمعتُهم يتحدثون بمصر أن الحافظ كان قد دخل على العادل فقام له، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ، مثل سركس وأزكش، فقالوا: آمنا بكرامتك يا حافظ. وذكروا أن العادل قال: ما خِفتُ من أحد ما خفتُ من هذا. فقلنا: أيُّهَا الملك هذا رجل فقيه. قال: لما دخل ما خُيِّل إليّ إلا أنه سَبُع. وبلغني ـ بعدُ ـ عنه أنه قال: ما رأيتُ بالشام ولا مصر مثل فلان، دخل عليّ فَخُيِّل إليّ أنه أسد.

□ قال الضياء: كانوا قد أوغروا عليه صدر العادل، وتكلموا فيه، وكان بعضهم أرسل إلى العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار»[٢].

□ قال الذهبي في السير: جرّ هذه الفتنة نشر الحافظ أحاديث النزول والصفات، فقاموا عليه ورمَوْه بالتجسيم، فما دارى كما كان يداريهم الموفق.

وحكى الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل، فلما قضى الملك كلامه مع الحافظ، جعل يتكلم في أمر (ماردين) وحصارها، فسمع الحافظ فقال: أيش هذا، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين، ما تشكر اللَّه فيما أعطاك، أمَا... أمَا؟! قال: فما أعاد ولا أبدى. ثم قام الحافظ وقمتُ معه، فقلت: أيش هذا؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا، ثم تعمل هذا العمل؟! قال: أنا إذا رأيت شيئًا لا أقدر أصبر.

وسمعتُ أبا بكر بن الطحان، قال: كان في دولة الأفضل جعلوا

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٥).

(٢) «السير» (٢١/ ٤٥٥).

الملاهي عند الدَّرج ـ يعني درج جيرون ـ فجاء الحافظ فكسّر شيئًا كثيراً، ثم صعد المنبر يقرأ الحديث، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدُّفِّ والشبابة، فقال: ذاك عندي حرام، ولا أمشي إليه. ثم قرأ الحديث، فعاد الرسول، فقال: لا بُدّ من المشي إليه، أنت قد بطّلتَ هذه الأشياء على السلطان. فقال الحافظ: ضرب اللَّه رقبته ورقبة السلطان. فمضى الرسول وخفنا. فما جاء أحد[1].

◻ قال الحافظ عبدالغني: سألت اللَّه يرزقني مثل حال الإمام أحمد، فقد رزقني صلاته. قال: ثم ابتُلي بعد ذلك وأوذي.

ولقد ناظر الفقهاءَ، وثبت على عقيدة أهل السنة أمام الأشاعرة، وصدع بها فوشوا به إلى الحكام والسلاطين، وبدّعوه وكفّروه، وهمُّوا أن يقتلوه. رحمه اللَّه.

ولقد أُمِرَ الحافظ أن يكتب اعتقاده، فكتب : أقول كذا، لقول اللَّه كذا. وأقول كذا؛ لقول اللَّه كذا، ولقول النبي ﷺ كذا. حتى فرغ من المسائل التي يخالفون فيها، فلما رآها الكامل قال: أيش أقول في هذا، يقول بقولْ اللَّه، وقول رسوله ﷺ ؟!

ناظره القاضي محيي الدين، والخطيب ضياء الدين، وجماعة، فصعدوا إلى القلعة، وقالوا لواليها: هذا قد أضلّ الناس ويقول بالتشبيه. وارتفعت الأصوات، فقال والي القلعة الصَّارم برغش: كلّ هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم. فأمر بكسر منبره.

رحم اللَّه الحافظ عبدالغني، فقد كان سيداً من سادات أهل الدين والعلم، والتألُّه، والصدْع بالحق.

---

(١) «السير» (٢١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

*** العماد المقدسي «جوهرة عصره»:**

قال عنه الضياء المقدسي: ما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا والٍ، وكان قويًّا في أمر اللَّه، ضعيفًا في بدنه، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، أمّارًا بالمعروف، لا يرى أحدًا يُسيء صلاته إلا قال له، وعلَّمه.

قال: وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا، فكسّر ما معهم، فضربوه حتى غُشي عليه، فأراد الوالي ضربَهم، فقال: إنْ تابوا ولازموا الصلاة فلا تُؤْذِهم، وهُم في حِلٍّ. فتابوا[1].

*** أسد الشَّام اليونيني، عبداللَّه بنُ عثمان بن جعفر:**

◻ قال الشيخ علي القصار: كنت أهَابه كأنه أسد.

◻ وقال الذهبي: كان أمّارًا بالمعروف لا يهاب الملوك.

قيل: إن العادل أتى والشيخ يتوضأ، فجعل تحت سجادته دنانير، فردّها وقال: يا أبا بكر، كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق، وتبيع المرأة وقية، يؤخذ منها قراطيس؟! فأبطل ذلك.

وقيل: جلس بين يديه المعظم وطلب الدعاء منه، فقال: يا عيسى، لا تكن نجسًا مثل أبيك، أظهر الزغل[2]، وأفسد على الناس المعاملة[3].

*** البربهاري شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي:**

كان قوّالاً بالحق، داعيةً إلى الأثر، لا يخاف في اللَّه لومة لائم. وكان له ـ رحمه اللَّه ـ مجاهداتٌ ومقامات في الدين، وكانت له المنزلة الرفيعة في

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/٤٩ ـ ٥٠).

(٢) العملة المغشوشة.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/١٠١ ـ ١٠٢).

قلوب الناس.

وكان له أصحاب كثيرون، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي عليه، حتى نُودي في الناس: لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري. فاختفى، وتوفي مستترًا، فدفن بدار أخت توزون.

*** سلطان العلماء، وبائع الملوك والأمراء: أبو محمد عزُّ الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام بن أبي القاسم:**

«شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه.. لم يُر مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثلَه، علمًا وورعًا وقيامًا في الحق، وشجاعة وقوةَ جنانٍ، وسلاطة لسان»[1].

❑ وقال عنه ابن حجر: «كان عالي الهمة، بعيد الغوْر في فهم العلوم.. وكان قائمًا بالأمر بالمعروف، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا»[2].

وذكر اليافعي أن الإمام العزَّ كان جبل إيمان، لا يخشى سلطانًا، ولا يهاب سَطوة الملك، بل يعمل بما أمر اللَّه ورسوله به، وما يقتضيه الشرع المطهر[3].

*** أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر للملك الأشرف موسى بن الملك العادل ابن أيوب:**

دخل سلطان العلماء على الملك الأشرف في مرضِ موْته، فقبَّل

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٠٩).

(٢) «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (٢/ ٣٥١).

(٣) «مرآة الجنان» لليافعي (٤/ ١٥٥).

الأشرف يده، وقال له: ادعُ اللَّه لي، وأوصني وانصحني. فقال له عزّ الدين: أمّا دعائي للسلطان، فإني أدعو له في كثير من الأحيان؛ لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام، واللَّه تعالى يُبَصِّر السلطان فيما يبيِّض به وجهه يوم يلقاه، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان، فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه، وكان قُبَيْل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان ـ الملك ـ الكامل واقع ووحشة، وأمر وهو في ذلك المرض بنصْب دِهليزه إلى صوب مصر، وضرب دهليزه بمنزلة تُسمّى: الكُسوة[1] ، وكان في ذلك الزمان قد ظهر التَّتَرُ بالمشرق، فقال الشيخ للسلطان الكامل: أخوك الكبير ورَحِمُكَ، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء، والتَّتَرُ قد خاضوا بلاد المسلمين، تترك ضرب دهليزك إلى أعداء اللَّه وأعداء المسلمين، وتضربه إلى جهة أخيك! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار، ولا تقطع رَحِمَك في هذه الحالة، وتنوي مع اللَّه نصر دينه وإعزاز كلمته؛ فإن مَنَّ اللَّه بعافية السلطان رجونا من اللَّه إدالته على الكفار، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة، فإن قضى اللَّه تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نِيَّته. فقال له: جزاك اللَّه خيراً على إرشادك ونصيحتك. وأَمَرَ ـ والشيخ حاضر ـ في الوقت بنقل دهليزه إلى الشرق، إلى منزلة يُقال له: القُصير[2] ، فنُقِل في ذلك اليوم. ثم قال له: زدني من نصائحك ووصاياك. فقال له: السلطان في مثل هذا المرض، وهو على خطر، ونُوّابُه يُبيحون فروج النساء، ويُدمنون الخمور، ويرتكبون الفجور، ويتنوَّعون في تمكيس المسلمين، ومن أفضل ما تلقى اللَّه به أن تتقدم بإبطال هذه القاذورات، وبإبطال كلِّ مكْسٍ، ودفع كلِّ

---

(١) أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر.

(٢) هذه المنزلة هي القرية التي تُسمّى اليوم باسم: الجعافرة. إحدى قرى مركز فاقوس، محافظة الشرقية.

مظلمة. فتقدم رحمه اللَّه ـ للوقت ـ بإبطال ذلك كله، وقال له: جزاك اللَّه عن دينك وعن نصائحك، وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه وكرمه. وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه، وقال: هذه اجتماعةٌ للَّه لا أكدِّرها بشيء من الدنيا، وودَّع الشيخ السلطان، ومضى إلى البلد، وقد شاع عند الناس صورة المجلس، وتبطيل المنكرات، وباشَرَ الشيخ بنفسه تبطيلَ بعضها»[1].

* إنكارُه على مَلِك دمشق التَّنازُل عن ديار المسلمين، وعقْد الصُّلح مع الفرنجة الصليبيين المعتدين:

«لما تحالف الصالح إسماعيل ـ المعروف بأبي الخيش، حاكم دمشق مع الصليبيين، وأسلمهم قلعة صَفْد، وقلعة الشقيف، وصيدا، وبعض ديار المسلمين اختياراً؛ لينجدوه على الصالح نَجم الدين أيوب، حاكم مصر؛ لأنَّ الصالح إسماعيل خاف منه فكاتب الفرنجة؛ ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر، فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح، ليقاتلوا المسلمين، فشقَّ ذلك على سلطان العلماء مشقةً عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح، وعلى المتدينين من المتعيِّشين مِنَ السلاح، فاستفتَوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح، فقال: يحرُم عليكم مبايعتُهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين.

وترك عز الدين الدعاء للحاكم في الخطبة، وجدّد دعاءه ـ في الجامع ـ الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين: «اللَّهم أبرِم لهذه الأمة أمراً رشداً تُعِزُّ فيك وليّك، وتُذِلُّ فيه عَدُوّك، ويُعمل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك» والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء اللَّه

---

(١) «طبقات الشافعية» (١٠/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

الملحدين.

فكاتب أعوانُ الشيطان السلطانَ بذلك، وحرّفوا القول وزخرفوه، فجاء كتابه باعتقال الشيخ، فبقي مدة معتقلاً، ثم وصل الصالح إسماعيل، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات، فأقام مدةً بدمشق، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود في الفور، فقطع عليه الطريق وأخذه، وأقام عنده بنابلس مدة، وجرت له معه خطوبٌ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور - صاحب حمص - وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس، يقصدون الديار المصرية، فسيّر الصالح إسماعيل بعض خواصّه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطُّف وتستنزله، وتعِدُه بالعود إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك تدخل به عليّ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي. فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرَع في مُسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتقبِّل يده لا غيره»[1] . وهنا قال سلطان العلماء كلماته النيِّرة، وهي كلمات الحياة، فيها استعلاءُ أهل العلم وعزَّة العقيدة، خرَّ من هول هذه الكلمات رسول الحاكم. قال عز الدين: «واللَّه يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي، فضلاً أن أُقبِّل يدَه. يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، الحمد للَّه الذي عافاني مما ابتلاكم به»[2] .

عزةُ سلطان العلماء بربه.. يصون يده المتوضِّئة عن ملامسة عميل للصليبيين، وإن كان سلطانَ دمشق.. يصون يده التي تكتب العلم وتسجد لمولاها.

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٣ - ٢٤٤).

لَوْ كَانَ فيهمْ مَنْ عَرَاهُ غرامُ ... ما عنّفوني في هواهُ ولامُوا[١]
لكنّهم جهِلُوا لَذاذةَ حُسْنه ... وعلمْتُها ولذَا سَهِرْت ونامُوا
لَوْ يعلمُونَ كَمَا علمتُ حقيقةً ... جَنحُوا إلى ذاكَ الجَنابِ وهامُوا
أوْ لوْ بدتْ أنوارُهُ لعُيونهمْ ... خَرُّوا ولم تثبُتْ لهم أقدامُ
مولايَ عِزَّ الدين عَزّ بكَ العُلا ... فَخرًا فدونَ حذاكَ منْهُ الْهامُ
جاوزتَ حدَّ المدْح حتى لم يُطِقْ ... نظْمًا لفضلِكَ في الورى النُّظَّامُ
فعليكَ يا عبدَالعزيز تحيّةٌ ... وعليكَ يا عبدَالعزيز سَلامُ[٢]

◻ يقول الشيخ شرف الدين عبداللطيف ولد الشيخ سلطان العلماء، فيما حكاه السُّبكي في «طبقات الشافعية» بعد مقولة الشيخ لرسول السلطان:

«فقال له: قد رسم لي إن لم توافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك. فقال: افعلوا ما بدا لكم. فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خَيْمة السلطان. وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر قُسُوس المسلمين، وقد حبستُه لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلتُه عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجتُه فجاء إلى القدس، وقد جدّدتُ حبسه واعتقاله لأجلِكم. فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قِسِّيسَنا لغسَلْنَا رجليه، وشربنا مرقتها»[٣].

◻ للّه ما أحلى هذه الكلمة وأطيبها... «صَدَقَكَ وهو كذوب».. ونور الحق لا يخفى، وجمال الشيخ وهيبته، وحسن موقفه يشهد به الأعداء...

---

(١) هذا البيت لسلطان العلماء، وما بعده لتلميذه عمر بن عبدالعزيز الأسواني قاضي أسوان.
(٢) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).
(٣) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٤).

وهذه شهادة الكفار في حقّه. . فمال بالُ أذنابهم؟!

قَدْ تُنكرُ العيْنُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ... ويُنكرُ الفمُ طَعْمَ المـاءِ مِن سـقَمِ

«ثم جاءت العساكر المصرية، ونصر اللَّه تعالى الأمة المحمدية، وقتلوا عساكر الفرنج، ونجّى اللَّه سبحانه وتعالى الشيخ، فجاء إلى الديار المصرية، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب رحمه اللَّه، وولاه خطابة مصر وقضاءَها، وفوّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، واتفق له في تلك الولايات عجائبُ وغرائبُ».

* عالم تَهابُهُ المبتدعة والملوك:

«كان رحمه اللَّه سيفًا ذا حدّين: حدٌّ سلّه على ترف الملوك ولهْوهم ولعبِهِم ومنكرهم، وآخر على بِدَع العوامّ، بجرأة لا نظير لها، ولو كان وراء ذلك السجنُ أو الموتُ، فيُمْضي اللَّهُ كلمته في الملك والمملوك. وترجم ذلك قولاً وعملاً»[1]، فكان يقول:

طُوبى لمن تولَّى شيئًا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن[2].

وأبطل بدعًا كثيرة منها: صلاة الرغائب المبتدَعة، وصلاة ليلة النّصف من شعبان، ودقّ المنبر بالسيف.

وللَّه درُّه حين يقول في نُصرة الحق: «ينبغي لكلِّ عالم إذا أُذل الحقُّ، وأُخمل الصوابُ أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذلِّ والخمول أولى منهما، وإن عزّ الحق فظهرَ الصوابُ، أن يستظل بظلّهما، وأن

---

(١) صفحات مطويَّة من حياة سلطان العلماء بقلم سليم بن عيد الهلالي (ص٦٥) ـ طبع دار ابن الجوزي.

(٢) مساجلة علمية (ص١٠).

يكتفيَ باليسير مِن رشاش غيرهما»[١] .

◻ وقال رحمه اللَّه في «الفتاوى» (٧١ ـ ٧٢) مُنَبِّهًا على خطورة البدع الزاعمة أن في الإسلام قشرًا ولُبابًا: «لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشرٌ، مع كثرة ما فيها من المنافع والخير، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشرًا، وأنّ العلم الملَقّب بعلم الحقيقة جزءٌ من أجزاء الشريعة؟! ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غبيٌّ شقيّ، قليل الأدب. ولو قيل لأحدهم: إن كلام شيخك قُشورٌ، لأنكَرَ ذلك غاية الإنكار، ويطلق لفظ القشور على الشريعة! وليست الشريعة إلا كتاب اللَّه وسنة رسوله. فيعزَّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب.

وكان سلطان العلماء رحمه اللَّه يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ، أستاذ دار الملك ـ وهو الذي كان إليه أمر المملكة ـ عمد إلى مسجد بمصر، فعمل على ظهره بناءً لطبلخانات[٢] ، وبقيت تَضْرِبُ هنالك، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدم البناء، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء. ولما علم الوزير غضب لذلك، فقام الشيخ بالإشهاد عليه، وأسقط عدالته، وحكم بفسقه، وعزل نفسه عن القضاء، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان، ولكنه لم يُعِدْه إلى الولاية، وظنّ فخر الدين أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج.

*** العزُّ ونجم الدين أيوب:**

وقد كانت له قصة ـ أيّ قصة ـ مع نجم الدين أيوب سلطان مصر.

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٥).

(٢) أي: دار لهوٍ وغناء.

ونجم الدين هو نجم الدين ظلمًا وجبروتًا.

قال عنه صاحب النجوم الزاهرة: «كان كثير التخيُّل والغضب، والمؤاخذة مع الذنب الصغير، والمعاقبة على الوهم، لا يقيل عثرةً، ولا يقبل معذرة، ولا يرعى سالف خدمة، السيئة عنده لا تُغتفر، وكان جبارًا متكبرًا، شديد السطوة، كثير التجبُّر على أصحابه ونُدمائه وخواصِّه، ثقيل الوطأة، حتى إن خواصَّه لم يكونوا يأمنون سطوته، ولا يقدرون على الاحتراز منه، ولم يكن في خلقه الميل لأحدٍ من أصحابه ولا أهله ولا أولاده، ولا المحبة لهم، ولا الحنُّو عليهم على ما جرت به العادة»[1].

□ قال أبو الحسن الباجي تلميذ العز: «طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفِّين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قَوْمِهِ في زينته، على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذتِ الأمراءُ تقبّل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه: يا أيوب.. ما حجتك عند اللَّه، إذا قال لك: يا أيوب ألم أُبَوِّئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟! فقال: هل جرى هذا؟ قال: نعم، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلى صوته، والعساكر واقفون - فقال: يا سيدي، هذا ما أنا عملته، هذا من زمان أبي. فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ...**﴾ [الزخرف: ٢٢] فَرَسَمَ السلطان بإبطال تلك الحانة.

□ يقول الباجي: فسألتُ الشيخ لَمَّا جاء من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي، كيف الحال؟ فقال: يا بنّي، رأيته في تلك العظمة،

---

(١) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (٦/ ٣٣٥).

فأردت أن أهينه؛ لئلا تَكبُر عليه نفسه فتؤذيه. فقلت: يا سيدي، أما خفتَه؟ فقال: واللَّهِ يا بني استحضرت هَيْبة اللَّه تعالى، فصار السلطان قُدّامي كالقط»[1].

للَّه ما أعطرَ هذا الكلام... وإن شئتَ فهناك ما هو أحلى وأعطر:

* «أُمراءُ للبَيْع»:

حكى السُّبكي والسيوطي أنه «لما تولَّى الشيخ عزُّ الدين القضاء تصدّى لبيع أمراء الدولة مِنَ الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرِّق مستصحبٌ عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظُم الخَطْب عندهم، واضَّرم الأمر، والشيخ مصمِّم لا يصحِّح لهم بَيْعًا ولا شراءً ولا نكاحًا، وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبًا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلسًا ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عِتقكُم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجعْ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غِلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمار آخر، ومشى خلفهم خارجًا مِنَ القاهرة قاصدًا نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالبُ المسلمين، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبَه إليه يتخلف، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم، فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكُك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه، فرجع، واتفقوا معه على أنه يُنادَى على الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِدْ، فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢١١)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٣١١).

ويبيعنا، ونحن ملوك الأرض؟! واللَّه لأضربنَّه، بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده، فطرَق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال فما اكترث لذلك، وقال: يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل اللَّه. ثم خرج، فحين وقع بصره على النائب يُبُسَتْ يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدتْ مفاصلُه، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي، أيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم، وأبيعكم. قال: ففيمَ تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: وَمَن يقبضه؟ قال: أنا، فتمّ ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، ولم يبِعْهم إلا بالثمن الوافي، وقبضه وصرفه في وجوه الخير، وهذا ما لم يُسمع بمثله عن أحد. رحمه اللَّه تعالى»[1].

ولقوة الشيخ في الحق وجرأته في بيانه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، لا يهاب أحداً إلا اللَّه، ولا يخشى مِن دونه شيئًا. رُوي عن الملك الظاهر بيبرس أنه لما توفي الإمام العز، ومرَّت جنازته تحت القلعة، وشاهد الملك كثرة الخلق الذين معها، قال لبعض خواصّه: «اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه. لانتزع الملك مِني»[2].

وبرغم هذا، فقد كان الملك الظاهر بيبرس يجلّ سلطان العلماء، «ولم يبايع بيبرس واحداً من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عزّ الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان، ثم القضاة. ولما مات حزن عليه كثيراً

---

(١) «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١٦٢)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٢١٦).

(٢) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شبة (٢/ ١٣٩)، و«طبقات الشفاعية» للسبكي (٨/ ٢١٥)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٣١٦).

حتى قال: لا إله إلا اللَّه، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي، وشيّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته، وحَملَ نعشَه، وحضر دفنه»[1].

فاتفق أن جهّز السلطان الملك الصالح رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة، وأدّى الرسالة خرج إليه وسأله: هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره. فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبدالسلام، فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها[2].

بأبي وأمي من يحكمون، ويخضع لحكمهم الخلفاء والسلاطين.

*** أمره بالمعروف أيام قطز:**

«لما دَهَم التتار البلاد عُقَيْبَ واقعة بغداد، جَبُنَ أهل مصر عنهم، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض، استشاروا الشيخ عزّ الدين رحمه اللَّه، فقال: اخرجوا، وأنا أضمن لكم على اللَّه النصر. فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار. فقال له الشيخ عز الدين: إذا أحضرتَ ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام، وضربتَه سكّة ونقدًا وفرّقته في الجيش ولم يقمْ بكفايتهم ذلك الوقت، اطلبِ القرْض، وأمّا قبل ذلك فلا. فأحضر السلطان والعسكر ـ كلهم ـ ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة؛ بحيث لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا أمره، وانتصروا»[3].

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٥).

(٢) «طبقات الشافعية» بتصرف (٨/ ٢١٠ ـ ٢١١).

(٣) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢١٥).

* **ابن دقيق العيد:**

□ قال السبكي في «طبقات الشافعية» (٩/ ٢١٢) عن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد: «كان يخاطب عامّة الناس، السلطان فمَن دونه، بقوله: يا إنسانُ. وإن كان المُخاطَب فقيهًا كبيرًا قال: يا فقيه. وتلك كلمة لا يسمحُ بها إلا لابن الرفعة، ونحوه. وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي: يا إمام. ويخصُّه بها».

هذا الإمام العظيم الأمّار بالمعروف الذي كانت تَهابه الملوك، وكان سلطانُ مصر إذا رآه من على البعد قام له، فإذا وصل عنده قبّل السلطان يده، فيقول له شيخ الإسلام: هذا خير لك، هذا ينفعك.

هذا هو العالم الرباني... أما علماء السوء، فأصدق وصفٍ للفرد منهم قول الشاعر:

يرمرِمُ مِنْ فُتات الكُفر قُوتًا ... ويشربُ مِنْ كُئوسِهِمُ الثّمالهْ
يُقَبِّلُ راحَةَ الطاغوتِ حِينًا ... وَيَلْثَمُ دُونما خجلٍ نِعَالَهْ

* **الإمام النَّووي:**

□ قال ابن العطار: كان مواجِهًا للملوك والجبابرة بالإنكار، ولا تأخذه في اللَّه لومةُ لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة، كتب الرَّسائل، وتوصل إلى إبلاغها، فممَّا كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمَّن العدل في الرعيَّة. وإزالة المكوس عنهم، وكَتَبَ معه في ذلك شيخُنا شيخ الإسلام أبو محمد بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وشيخنا العلامة قدوة الوقت أبو محمد عبدالسلام بن علي بن عمر الزواوي شيخ المالكية، وشيخنا علامة العلوم أبو بكر محمد ابن أحمد الشريشي المالكي، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ العارف ولي اللَّه عبداللَّه، عُرِفَ بابن الأرمني،

وشيخنا المفتي أبو حامد محمد بن العلامة أبي الفضائل عبدالكريم بن الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون، ووضعها في ورَقة كتبها إلى الأمير بَدْر الدِّين بِيْلبك الخَزَنْدَار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التُّركي، وهذه صورتها:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبدالله يحيى النَّواوي.

سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المُحْسِن ملكِ الأمراء بدر الدين، أدام الله الكريم له الخيرات، وتولاَّه بالحسنات، وبلَّغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آماله، وبَارَكَ له في جميع أحواله، آمين.

ويُنْهَى إلى العلوم الشريفة[1] أنَّ أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيشٍ، وضعف حالٍ، بسبب قلَّة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلَّة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وغير ذلك. وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقةُ على الرعيَّة والسُّلطان، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم؛ فإنَّ الدِّين النَّصيحة.

وقد كتبَ خدَمَةُ الشَّرعِ، الناصحون للسلطان، المحبُّون له، كتابًا بتذكيره النَّظَر في أحوال رعيَّته، والرفق بهم، وليس فيه ضررٌ، بل هو نصيحةٌ محضةٌ، وشفقةٌ تامةٌ، وذكرى لأولي الألباب.

والمسئول من الأمير ـ أيَّده الله تعالى ـ تقديمه إلى السلطان، أدام الله له الخيرات، ويتكلَّم عليه من الإشارة بالرِّفق بالرعيَّة بما يجدهُ مُدَّخرًا له عند الله ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانةٌ ونصيحةٌ للسلطان ـ

---

(١) أي نرفع إلى علمِكم الشريف.

أعزَّ اللَّه أنصاره ـ والمسلمين كلهم في الدنيا والآخرة، فيجب عليكم إيصاله للسلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصاره ـ وأنتم مسئولون عن هذه الأمانة، ولا عُذرَ لكم في التأخُّر عنها، ولا حُجَّة لكم في التَّقصير فيها عند اللَّه تعالى، وتُسألون عنها ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

* أنتم بحمد اللَّه تحبُّون الخير، وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطَّاعات، وقد أُهِّلتُم له، وساقه اللَّه إليكم، وهو من فضل اللَّه، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدَّةً إن لم يَحصلِ النظر في الرفق بهم. قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

* والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، مما إذا فعلتموهُ، وجدتُّموه عند اللَّه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

فلما وصلتِ الورقتان إليه؛ أوقفَ عليهما السلطان، فلما وقف عليها؛ رد جوابها جوابًا عنيفًا مؤلمًا، فتنكَّدت خواطر الجماعة الكاتبون، وغيره، فكتب ـ رحمه اللَّه ـ جوابًا لذلك الجواب:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم.

الحمدُ للَّه رب العالمين.

اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلم.

من عبداللَّه يحيى النواوي: يُنهى أن خَدَمَةَ الشَّرعِ كانوا كتبوا ما بلغ

السلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصاره ـ فجاء الجواب بالإنكار والتَّوبيخ والتَّهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذُكِرَ في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب اللَّه إيضاحَ الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧]، فوجب علينا حينئذ بيانُهُ، وحرُمَ علينا السكوت؛ قال اللَّه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

وذُكِرَ في الجواب أن الجهاد ليس مختصًّا بالأجناد، وهذا أمرٌ لم ندَّعه، ولكن الجهاد فرضُ كفايةٍ، فإذا قرَّر السلطان له أجنادًا مخصوصين، ولهم أخباز[1] معلومةٌ من بيت المال، كما هو الواقع ـ تفرَّغَ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم، من الزِّراعة، والصَّنائع، وغيرهم، الذي يحتاجُ الناس كلهم إليها، فجهادُ الأجنادِ مُقابِل الأخبازِ المقرَّرَة لهم، ولا يحلُّ أن يُؤخذ من الرعيَّة شيءٌ ما دام في بيت المال شيءٌ من نقدٍ، أو متاعٍ، أو أرضٍ، أو ضياعٍ تباع، أو غير ذلك. وهؤلاء علماءُ المسلمين في بلاد السلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصاره ـ متَّفقونَ على هذا، وبيتُ المال ـ بحمد اللَّه ـ معمورٌ، زادهُ اللَّه عمارةً وسعةً، وخيراً وبركةً في حياة السلطان المقرونة بالكمال والسعادة له، والتَّوفيق والتَّسديد والظُّهورِ على أعداء الدين، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وإنما يُستعانُ في الجهاد وغيره بالافتقار إلى اللَّه تعالى، واتِّباع آثار النبي ﷺ، ومُلازمةِ أحكام الشرع.

وجميع ما كتباه أولاً وثانيًا هو النصيحة التي نعتقدها، وندينُ اللَّه بها،

---

(١) الأخباز واحدها: الخبزة أي النصيب، وهي الرواتب والجرايات التي تعطى شهريًّا، أو تبعًا للمواسم الزراعية، أو عند الحملات الحربية.

ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه. والسلطان يعلم أنها نصيحةٌ له وللرَّعيَّة، وليس فيها ما نلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان؛ إلا لعلمنا أنه يحب الشرع، ومتابعته أخلاق النبي ﷺ، في الرِّفق برعيته، والشفقة عليهم، وإكرامه لآثار النبي ﷺ، وكل ناصحٍ للسلطان موافقٌ على هذا الذي كتبناه. وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد، فكيف يُقاسُ ملوك الإسلام، وأهلِ الإيمان والقرآن بطُغاة الكفار؟! وبأي شيءٍ كنا نُذكرُ طُغَاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا؟!

وأما تهديدُ الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة، فليس هو المرجو من عدل السلطان، وَحِلمِهِ؛ وأيُّ حيلةٍ لضعفاء المسلمين المفرَّقين في أقطار ولاية السلطان في كتابٍ كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحةً للسلطان ولهم، ولا علم لهم به؟! وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يُلامُ عليه؟!

وأما أنا في نفسي، فلا يضرُّني التهديد، ولا أكبرُ منه، ولا يمنَعُني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقدُ أن هذا واجبٌ علي وعلى غيري، وما ترتَّبَ على الواجب، فهو خيرٌ وزيادةٌ عند اللَّه تعالى، ﴿**إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر: ٣٩]، ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [غافر: ٤٤]، وقد أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نقول بالحق حيثما كنا، وأن لا نخاف في اللَّه لومةَ لائمٍ.

ونحن نحب للسلطان معالي الأمور، وأكمل الأحوال، وما ينفعه في آخرته ودنياه، ويكون سببًا لدوام الخيرات له، ويبقى ذكره له على مرِّ الأيام، ويخلدُ في سننه الحسنة، ويجد نفعه ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً**﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأما ما ذُكر من تمهيد السلطان البلاد، وإدامته الجهاد، وفتح الحصون، وقهر الأعداء، فهذا بحمد اللَّه من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها

الخاصة والعامة، وسارت في أقطار الأرض، ولله الحمد، وثواب ذلك مدَّخرٌ للسلطان إلى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ولا حُجَّة لنا عند اللَّه تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا.

والسلام عليكم، ورحمة اللَّه وبركاته.

الحمد للَّه رب العالمين»[1].

ومما كتبه لمَّا احتيطَ على أملاك دمشق ـ حرسها اللَّه تعالى ـ بعد إنكاره مواجهة السلطان الظاهر، وعدم إفادته وقبوله:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد للَّه رب العالمين.

* قال اللَّه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧].

* وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] وقد أوجب اللَّه على المكلَّفين نصيحة السلطان ـ أعز اللَّه أنصاره ـ ونصيحة عامَّة المسلمين؛ ففي الحديث الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «الدِّينُ النَّصيحةُ؛ للَّه، ولكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامَّتهم»[2]. ومن نصيحة السلطان ـ وفَّقه اللَّه لطاعته، وتولاه

---

(١) «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» لابن العطار (ص١٠١ ـ ١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١/ ٧٥)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٧٨)، وأبو داود في «السنن» (٥/ ٢٢٣)، والحميدي في «المسند» (٢/ ٣٦٩)، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٠٢)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (٢/ ٣٥)، وابن نصر في «تعظيم قدر =

بكرامته ـ أن تُنهى[1] إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعدِ الإسلام.

وأوجب اللَّه تعالى الشَّفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة، وإزالة الضرر عنهم.

* قال اللَّه تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

● وفي الحديث الصحيح: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنما تُنصرُونَ وتُرزَقُونَ بضعفائكم»[2].

● وقال ﷺ: «من كَشَفَ عن مسلمٍ كربةً من كُرَبِ الدنيا، كَشَفَ اللَّه عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، واللَّه في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه»[3].

● وقال ﷺ: «اللَّهم من وَلِيَ من أمرِ المسلمين شيئًا، فَرَفَقَ بهم؛ فارفُق

= الصلاة» (رقم ٧٤٧ و٧٤٩ و٧٥٠ و٧٥١)، وبيَّن أن محمد بن عجلان أدخل إسنادًا في إسناد، فجعل الحديث من مسند أبي هريرة. والصحيح أنه من حديث تميم الداري.
وانظر حول هذا الأمر: «فوائد الليث بن سعد» (ص٥١ ـ ٥٥)، وكلام محققه عليه.

(١) أي: تُرفع إليه وتبلغ مسامعه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦/ ٨٨)، والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٤٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٤٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠، ٢٦)، و(٨/ ٢٩٠)، والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (رقم ٥١)، والهيثم الشاشي في «مسنده» (ورقة ١٠/أ). وأبو طاهر المخلِّص، وأبو القاسم التيمي في «الترغيب»، كما في «النكت الظراف» (٣/ ٣١٩).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩)، وأبو داود في «السنن» رقم (٤٩٤٦)، والترمذي في «الجامع» رقم (١٤١٥، ١٩٣٠)، وابن ماجه في «السنن» (رقم ٢٢٥)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

به، ومن شقَّ عليهم، فاشقُقْ عليه»[1] .

● وقال ﷺ : «كُلُّكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيَّته»[2] .

● وقال ﷺ : «إن المُقسطينَ على منَابرَ من نُورٍ على يمينِ الرحمنِ، الذينَ يَعدِلُونَ في حُكمِهِم، وأهليهِم، وما وُلُّوا»[3] .

وقد أنعم اللَّه تعالى علينا، وعلى سائر المسلمين بالسلطان ـ أعز اللَّه أنصارهُ ـ فقد أقامه لنُصرة الدين والذَّبِّ عن المسلمين، وأذلَّ به الأعداءَ من جميع الطوائفِ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقعَ الرُّعبَ منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين، ومهَّدَ له البلاد والعباد، وقمعَ بسببه أهل الزَّيغِ والفساد، وأمدَّهُ بالإعانة واللطف والسعادة.

فللَّه الحمد على هذه النعم المتظاهرةِ، والخيراتِ المتكاثرةِ، ونسألُ اللَّه الكريم دوامها له وللمسلمين، وزيادتها في خير وعافية، آمين.

* وقد أوجبَ اللَّه شكر نعمه، ووعده الزيادةَ للشَّاكرين، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطةِ على أملاكهم أنواعٌ من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطُلِبَ منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (رقم ١٨٢٨)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٦٢، ٩٣، ٢٥٧، ٢٦٠)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» و«الأدب المفرد»، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وعبدالرزاق، وأبو داود، وأبو عوانه، وابن الجارود في «المنتقى»، وأحمد، والطبراني في «الكبير».

(٣) أخرجه مسلم، وأحمد، والبخاري في «التاريخ»، والنسائي، والحميدي في «المسند»، والبغوي في «شرح السنة»، وعبدالرزاق في «المصنف»، والبيهقي في «السنن الكبرى».

تحلُّ عند أحدٍ من علماء المسلمين، بل من في يده شيءٌ، فهو ملكه، لا يحلُّ الاعتراضُ عليه، ولا يُكلَّفُ بإثباته.

وقد اشتهر من سيرةِ السلطان أنه يُحبُّ العمل بالشرع، ويُوصي نوَّابَهُ به، فهو أولى من عَمِلَ به، والمسئول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عن جميعهم، فأطلقهم، أطلقك اللَّه من كلِّ مكروه، فهم ضعفةٌ، وفيهم الأيتامُ، والأراملُ، والمساكينُ، والضعفةُ، والصالحونَ، وبهم نُنصرُ، ونُغَاثُ، ونرزق، وهم سكان الشام المبارك، جيرانُ الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم، وسكان ديارهم، فلهم حُرماتٌ من جهاتٍ. ولو رأى السلطانُ ما يلحق الناس من الشدائد، لاشتَدَّ حُزنُه عليهم، وأطلقهم في الحالِ ولم يُؤخِّرهم، ولكن لا تُنهَى الأمورُ إليه على وجهها.

فباللَّه، أغثِ المسلمين، يُغثكَ اللَّه، وارفق بهم؛ يرفق اللَّه بك، وعجِّل لهم الإفراجَ قبل وقوعِ الأمطار، وتلفِ غلاتهم، فإن أكثرهم ورِثُوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيلُ كتب شراءٍ، وقد نُهبت كتبهم.

وإذا رفق السلطانُ بهم؛ حصل له دعاء رسول اللَّه ﷺ لمن رفق بأمته، ونصره على أعدائه؛ فقد قال اللَّه تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، وتتوفر له من رعيته الدَّعوات، وتظهر في مملكته البركاتُ، ويُبَاركُ له في جميع ما يقصده من الخيرات.

● وفي الحديث عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً؛ فله أجرُهَا وَأجرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سُنَّةً سيِّئةً؛ فعليه وزرُهَا ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَومِ القِيَامَةِ**»(١) . فنسألُ اللَّه الكريم أن يوفِّقَ السلطانَ للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيِّئة.

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما.

فهذه نصيحتُنَا الواجبةُ علينا للسُّلطان، ونرجو من فضلِ اللَّه تعالى أن يلهمهُ اللَّه فيها القبولَ. والسلام عليكم ورحمه اللَّه.

الحمد للَّه رب العالمين، وصلواتُه وسلامُه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه[1].

☐ قال السخاوي: «وكان السبب في هذه الحوطة - كما صرّح به صاحب البدر السافر -: أن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار، ونزوحهم عن البلاد ولّى وكالة بيت المال شخصًا من الحنفية، فقال: إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولوا عليها، فتملَّكوها، على مقتضى مذهب الإمام أبي حنيفة[2] رحمه اللَّه. فوضع السلطان يده عليها، فقام جماعة من أهل العلم في ذلك، وكان الشيخ فيهم. (قلت) - أي السخاوي -: بل هو أعظمهم. قال: فكلّم السلطان في ذلك كلامًا فيه غلظَة، فظنَّ السلطان أن له مناصبَ يعزله عنها. فقيل له: ماله. انتهى كلام البدر.

☐ وقال الخطيب النونيني: إنه واقَفَ الظاهر غير مرة، بدار العدل بسبب الحوطة على بساتين دمشق وغير ذلك. وحُكي عن الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه. أو ما هذا معناه. ولقد شاهدتُه مرةً طلع إلى زاوية الشيخ خضر - بالجبل المشرف على المزة - وحدَّثه في أمرٍ، وبالغ معه وأغلظ له، فسمع الشيخ خضر كلامًا مؤلمًا، فأمر بعض من عنده بإخراجه ودفعه، فما تأثر لذلك في ذات اللَّه - عز وجل - ولا رجع عن قَصْده؛ لنفع يجلبُه لبعض المسلمين.

---

(١) «تحفة الطالبين» (ص ١٨٠ - ١١٤).

(٢) والجمهور على خلافه.

□ وقال العماد ابن كثير: إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة، لما أرادوا وضع الأملاك على بساتينها، فردّ عليهم ذلك، ووقى اللَّه شرَّها، بعد أن غضب السلطان وأراد البطش به، ثم بعد ذلك أحبّه وعظّمه، حتى كان يقول: أنا أفزع منه. انتهى كلام ابن كثير»[1] .

ومما كتبه بسبب الفقهاء، لما رُسِمَ[2] بأن الفقيه لا يكون منزلاً في أكثر من مدرسة واحدة، وهذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

خَدَمَةُ الشَّرع يُنهونَ أن اللَّه تعالى أمَرنا بالتَّعاونِ على البر والتَّقوى، ونصيحة ولاةِ الأمورِ، وعامَّة المسلمين، وأخذَ على العلماء العهد بتبليغِ أحكامِ الدين، ومناصحةِ المسلمين، وحثَّ على تعظيم حرماتِهِ، وإعظامِ شعائرِ الدين، وإكرامِ العلماء وتُبَّاعِهِم.

وقد بلغَ الفقهاءَ بأنَّه رسم في حقِّهم بأن يُغيروا عن وظائفهم، ويُقطَعوا عن بعض مدارسهم، فتنكَّدت بذلك أحوالهم، وتضرَّروا بهذا التضييقِ عليهم، وهم محتاجونَ، ولهم عيالٌ، وفيهم الصالحون، والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم أفرادٌ لا يلتحقون بمراتب غيرهم، فهم منتسبونَ إلى العلمِ، ومشاركون فيه. ولا تخفى مراتبُ أهل العلم، وفضلهم، وثناءُ اللَّه تعالى عليهم، وبيانُه مزيَّتهم على غيرهم، وأنهم ورثَةُ الأنبياء ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهم ـ وأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ تضعُ أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيءٍ، حتى الحيتانُ. واللائقُ بالجنابِ العالي إكرامُ هذه الطائفةِ،

(١) ترجمة شيخ الإسلام النووي، للحافظ السخاوي (ص٤٥) طبع جمعية النشر والتأليف بالأزهر.

(٢) أي: كتب، و«المرسوم» ما يُصدره رئيس الدولة كتابة في شأنٍ من الشئون، فتكون له قوة القانون.

والإحسانُ إليهم، ومُعاضدتهم، ودفعُ المكروهاتِ عنهم، والنظر في أحوالهم، بما فيه الرفق بهم؛ فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**مَن ولي من أمرِ أُمتي شيئًا، فرفَقَ بهم؛ فارفق به**».

● وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه كان يقول لطلبة العلم: مرحبًا بوصية رسول اللَّه ﷺ، إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنَّ رجالاً يأتونَكُم يَتَفقَّهون في الدين، فإذا أتوكم؛ فاستوصوا بهم خيراً**»[1].

والمسئول أن لا يُغيَّر على هذه الطائفة شيءٌ، وتُستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في «صحيح البخاري» أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**هل تُنصرُونَ وتُرزَقُونَ إلا بِضُعَفَائكُم**».

وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك، حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم، فقال: أَقمتُ لك بها جُندًا لا تردُّ سهامُهُم بالأسحار». فاستصوب فعلهُ، وساعدهُ عليه.

واللَّه الكريم يوفِّق الجنابَ دائمًا لمرضاتِهِ، والمسارعة إلي طاعاته.

والحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم.

وله ـ رحمه اللَّه تعالى ـ رسائلُ كثيرةٌ في كُلِّياتٍ تتعلق بالمسلمين وجزئيات، وفي إحياء سننٍ نيِّرات، وفي إماتة بدع مظلماتٍ، وله كلامٌ طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مواجهًا به أهل المراتب العاليات»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وعبدالرزاق في «المصنف»، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص١٧٦)، كلهم من طريق أبي هارون العبدي عمارة بن جُوين كذبه بعضهم. انظر «الميزان» (٣/ ١٧٣).

(٢) «تحفة الطالبين» (١١٥ ـ ١١٨)، و«ترجمة النووي» للسخاوي (ص٤٦ ـ ٤٧).

□ قال السخاوي مُعقِّبًا: «قلت: منها رسالة إلى نائب السلطنة بدمشق يطلب جمع الناس للاستسقاء، كتبها في يوم الأحد، حادي عشر جمادى الأولى، سنة ثمانٍ وستين وستمائة».

وقد ردّ فيها على من خذَّل في صلاة الاستسقاء، وجاء فيها: «فهذا المخذِّل مخطئ جاهل، بل إن اعتقد هذا، كان كافرًا؛ لأنّ ما فعله رسول اللَّه ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كل مكلَّف الانقياد له، والمسارعة إلى قبوله، وانشراح الصدر له.

* قال اللَّه تعالى: ﴿لا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وكل ما خالف سنة رسول اللَّه ﷺ فهو البدعة والضلالة والغباوة والجهالة والسَّفاهة والرذالة، بل هذه طريقة الكفار في مدافعة دين الإسلام، ويأبى اللَّه إلا أن يتمّ نورَه، ولو كره الكافرون، ويجب على ولي الأمر ـ وفقه اللَّه لطاعته ـ إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضّال الغاشم المتجاهل، وغيره ممّن يقول نحو هذا القول في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول اللَّه ﷺ ـ أن يؤدب تأديبًا بليغًا ينزجر به هو وأمثاله، ويُشهر أمره، لينكفَ أهل الجهالة والضلالة عن مثل فعله، وليعلم أن المراد بالاستسقاء امتثال أمر اللَّه تعالى والاقتداء برسول اللَّه ﷺ وهو مصلحة فاخرة، وسعادة معجلة، ومنة من اللَّه تعالى، يُشكر على التوفيق لها. وأما نزول المطر فهو إلى اللَّه تعالى، وليس المراد بالاستسقاء تيقُّن نزول المطر».

وحثّ النووي في رسالته نائبَ السلطنة أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء، بالتوبة من المعاصي ومصالحة الأعداء، والصدقة وصيام ثلاثة

أيام، والخروج في اليوم الرابع صيامًا. ولمّا وصلتِ الرسالة لولي الأمر، أمرَ مُحتَسب البلد، فنادى ـ ساعته ـ في الناس بصيام ثلاثة أيام، أولُّها يوم الإثنين الثاني عشر من جمادى الأولى، ثم خرج وليّ الأمر والناس يوم الخميس، الخامس عشر من الشهر المذكور واستسقوا، ثم سُقوا بعد ذلك بسبعة أيام سقيا عامة وترادفت أمطار كثيرة بعد أن حصل لكثير من الناس قنوطٌ، فللّه الحمد على نعَمِهِ، والتوفيق لإظهار شعائر دينه، ومتابعة رسوله ﷺ، والاعتناء بسنته.

وكتب ولي الأمر إلى نوابه في البلدان يأمرهم بالاستسقاء في اليوم الذي يستسقي فيه أهل دمشق، فامتثلوا لأمره في ذلك، فسُقوا كلُّهم في بلدانهم في الوقت المذكور، ثم وقعت في البلدان ثلوج كثيرة لم يُرَ في تلك السنين مثلها، وأبطل تضمين الخانات والخمور، وأُريقت على كل من وجدت عنده في دمشق وسائر بلاد الشام، ورفعتِ المنكرات ـ وللّه الحمد ـ رفعًا تامًّا بعد أن كانت شائعةً أفحش الشياع، وذلك في ربيع الآخر من السنة. ثم جعل اللّه الكريم في الغلات أنواع البركات، وأخصبتِ الغلات في جميع بلاد الشام إلى حدٍّ لم يُعهد مثله، من نحو ثلاثين سنة، ثم أعقب ذلك رُخصًا لكثرة الغلات، لم يُعهد مثله من نحو خمس عشرة سنة[1].

* بَيْنَ الإمام النَّووي وابنِ النّجار:

كان في دمشق شخصٌ ـ يُقال له: ابن النجار ـ «سعى في إحداث أمورٍ على المسلمين باطلةٍ، فقام الشيخ ـ قدّس اللّه رُوحه ـ مع جماعة من علماء المسلمين فأزالوها بإذن اللّه تعالى، ونصر اللّه الحق وأهله، فغضب لذلك؛ لكراهيته مصلحة المسلمين ونصيحة الدين، وبعث إلى الشيخ يهدِّده، ويقول:

(١) «ترجمة النووي» للسّخاوي (ص٤٧ ـ ٤٩).

«أنت الذي تحزِّبُ العلماء على هذا». فكتب إليه الشيخ ـ قدَّس اللَّه روحه ـ كتابًا هذا صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمدُ للَّه رب العالمين.

من يحيى النووي.

اعلم أيُّها المقصرُ في التأهُّب لمعادِه، التاركُ مصلحَةَ نفسه في تهيئة جهازه له وزاده، أنِّي كنتُ لا أعلمُ كراهتك لنُصرةِ الدين، ونصيحة السلطان والمسلمين؛ حملاً منِّي لك على ما هو شأنُ المؤمنين، من إحسان الظنِّ بجميع الموحِّدين، وربما كنتُ أسمعُ في بعض الأحيانِ من يذكرك بغشِّ المسلمين، فأنكر عليه بلساني وبقلبي، لأنها غيبةٌ لا أعلم صحَّتها، ولم أزل على هذا الحال إلي هذه الأيام. فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان ـ وفقه اللَّه لكريم الخيرات ـ: إن هذه البساتين يحلُّ انتزاعُها من أهلها عند بعض العلماء. وهذا من الافتراء الصريح، والكذب القبيح، فوجب عليَّ وعلى جميع من علمَ هذا من العلماء أن يُبيِّنَ بُطلانَ هذه المقالة، ودحضَ هذه الشناعة، وأنها خلافُ إجماع المسلمين، وأنه لا يقول بها أحدٌ من أئمة الدين، وأن يُنهوا[1] ذلك إلى سلطان المسلمين، فإنه يجبُ على الناس نصيحته، لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«الدِّينُ النصيحة، للَّه، ولكتابه، ولرسوله، وأئمَّة المسلمين، وعامَّتهم»**.

وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان ـ وفَّقه اللَّه تعالى لطاعته، وتولاه بكرامته ـ، وقد شاع بين الخواصِّ والعوام، أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع، ومحافظٌ على العمل به، وأنه بنى المدرسة لطوائف العلماء،

(١) أي: يرفعوا.

ورتَّب القضاة من المذاهب الأربعة، وأمر بالجلوس في دار العدل؛ لإقامة الشرع، وغير ذلك، مما هو معروف من اعتناء السلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصارهُ ـ بالشـرع، وأنه إذا طلب طالبٌ منه العملَ بالشـرعِ؛ أمـر بـذلك، ولـم يخالفه.

فلما افترى هذا القائلُ في أمر البساتين ما افتراه، ودلَّس على السلطان، وأظهر أن انتزاعها جائزٌ عند بعض العلماء، وغشَّ السلطان في ذلك، وبلغ ذلك علماء البلد؛ وجب عليهم نصيحةُ السلطان، وتبيين الأمر له على وجهه، وأن هذا خلافُ إجماع المسلمين، فإنه يجب عليهم نصيحةُ الدين، والسلطان، وعامَّة المسلمين. فوفَّقهم اللَّه تعالى للاتفاقِ على كتب كتاب يتضمَّن ما ذكرتُه؛ على جهة النصيحة؛ للدين، والسلطان، والمسلمين، ولم يذكروا فيه أحدًا بعينه، بل قالوا: من زعم جوازَ انتزاعِهَا، فقد كذب، وكتب علماء المذاهب الأربعة خطوطهم بذلك؛ لِمَا يجب عليهم من النصيحةِ المذكورة، واتَّفقوا على تبليغها ولي الأمر ـ أدامَ اللَّه نِعَمَهُ عليه ـ لينصحوه، ويُبيِّنوا حكم الشرع.

ثم بلَّغني جماعاتٌ متكاثراتٌ في أوقاتٍ مختلفاتٍ ـ حصل لي العلم بقولهم ـ أنك كرهت سعيهم في ذلك، وسارعت في ذمِّ فاعل ذلك، وأسندت معظم ذلك كله إليَّ. ويا حبذا ذلك من صنيع. وبلَّغني عنك هؤلاء الجماعات أنك قلت: قولوا ليحيى: هو الذي سعى في هذا، فينكفَّ عنه، وإلا أخذت منه دار الحديث.

وبلَّغني عنك هؤلاء الجماعاتُ أنك حلفتَ مراتٍ بالطلاق الثلاث أنك ما تكلَّمتَ في انتزاع هذه البساتين، وأنك تشتهي إطلاقَها.

فيا ظالم نفسه، أما تستحي من هذا الكلام المتناقض، وكيف يصحُّ الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنك لم تتكلم فيها، وبين كراهتك السَّعي في

إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين؟!

ويا ظالم نفسه ، هل تعرَّض لك أحدٌ بمكروه، أو تكلم فيك بعينك؟ وإنما قال العلماءُ: من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلَّس عليه، وغشَّه، ولم ينصحه؛ فإن السلطانَ ما يفعل هذا إلا لاعتقاده أنه حلالٌ عند بعضِ العلماء، فبيِّنوا أنَّه حرامٌ عند جميعهم. وأنت قد قلت أنك لم تتكلم فيها. وحلفتَ على هذا بالطلاقِ الثلاث، فأيُّ ضررٍ عليك في إبطال قول كاذبٍ على الشرع، غاشٍّ مدلس على السلطان، وقد قلت أنه غيرك؟! وكيف تكره السعي على شيءٍ قد أجمع الناسُ على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه؟! وأنا ـ بحمد اللَّه ـ من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت، وأما نجاحُه، فهو إلى اللَّه تعالى، مقلِّب القلوب والأبصار.

ثم إني أتعجَّب العجب من اتِّخاذكَ إيَّاي خصمًا، ويا حبَّذا ذلك من اتخاذ؛ فإني ـ بحمد اللَّه تعالى ـ أحبُّ في اللَّه تعالى، وأُبغضُ فيه، فأُحبُّ من أطاعهُ، وأُبغض من خالفه، وإذا أخبرتَ عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين، ونصيحة السلطان؛ فقد دخلت في جملة المخالفين، وصرت مِمَّن نبغضه في اللَّه ربِّ العالمين؛ فإن ذلك من الإيمان؛ كما جاءت به الآثار الصحيحة، المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار[1] .

ارضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ ... فَذَاكَ ذَنْبٌ عِقَابُهُ فِيهِ

ويا ظالمَ نفسه، أنا خاصمتُك، أو كالمتُكَ، أو ذكرتُك، أو بيني وبينك مخاصمة، أو مُنازَعَة، أو معاملةٌ في شيءٍ؛ فما بالك تكره فعل خيرٍ يسرّني

---

(١) يشير الإمام النووي إلى حديث: «من أحبَّ للَّه، وأبغض للَّه، وأعطى للَّه، ومنع للَّه، فقد استكمل الإيمان» أخرجه أبو داود في «السنن» (رقم ٤٦٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (رقم ٧٦١٣ و٧٧٣٧ و٧٧٣٨). والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٥٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» ص(١٧٨ ـ ١٧٩) بإسنادٍ حسنٍ.

اللَّه الكريمُ له؟! ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

بل أنت لسوءِ نظركَ لنفسك تتأذَّى على نفسك، وتُشهدُ الشهودَ بكراهة هذه النصيحة، التي هي مصرِّحة بأنك أنت الذي تكلَّمت في هذه البساتين، وأن الطلاقَ واقعٌ عليك، وما أبعدَ أن تكون شبيهًا بمن قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

ويا عدوَّ نفسه، أتُراني أكرَهُ مُعاداةَ من سلك طريقتك هذه؟! بل ـ واللَّه ـ أُحِبُّها، وأوثرها، وأفعلها بحمد اللَّه تعالى، فإنَّ الحُبَّ في اللَّه، والبُغضَ فيه، واجبٌ عليّ وعليك، وعلى جميعِ المكلَّفين، ولستُ أدري أي غرضٍ لك في حِرصك في الإنكار على السَّاعين في إعظام حُرُماتِ الدِّين، ونصيحة السلطان والمسلمين. فيا ظالم نفسه، انته عن هذا، وارجع عن طريقةِ المباهتين المعاندين.

وأعجَبُ من هذا تكريرُك الإرسال إليَّ ـ بزعمك الفاسد ـ كالمتوعِّد: إن لم ينكَفَّ أخذتُ منه دار الحديث.

فيا ظالمَ نفسه، وجاهلَ الخير وتاركه، أطّلعت على قلبي أنِّي متهافت عليها، أو علمت أنِّيَ منحصرٌ فيها، أو تحقَّقت أنيَّ معتمدٌ عليها، مستندٌ إليها، أو عرفت أنيَّ أعتقدُ انحصار رزقي فيها، أو ما علمت ـ لو أنصفتَ ـ كيف كان ابتداءُ أمرها؟! أو ما كنت حاضرًا، مُشاهِدًا أخذي لها؟! ولو فُرِضَ تهافُتي عليها، أكنتُ أوثرها على مصلحةٍ عامةٍ للمسلمين، مشتملةٍ على نصيحة اللَّه، وكتابه، ورسوله ﷺ، والسلطان، وعامة المسلمين؟! هذا ما لم أفعله ولا أفعله، إن شاء اللَّه تعالى

وكيف تتوهم أنيَّ أترك نصيحة اللَّه ورسوله وسلطان المسلمين

وعامَّتِهِم؛ مخافةً من خيالاتك؟! إن هذه لغباوةٌ منك عظيمة.

ويا عجبًا منك! كيف تقول هذا؟! أنت ربُّ العالمين؟! بيدك خزائن السماوات والأرض، وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين؟! أم أنت سلطان الوقت؛ تحكم في الرَّعيَّة بما تريد؟!

فلو كنت عاقلاً؛ ما تهجَّمت على التَّفوُّهِ بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلا ربّ العالمين، أو سلطان الوقت؛ مع أن سلطان الوقت منزَّهٌ عن قولك الباطل، مرتفعُ المحلِّ عن فعلِ ما ذكرتَ.

يا ظالمُ، فإن كنت تقول هذا استقلالاً منك؛ فقد افتأتَّ عليه، واجترأت على أمرٍ عظيم، ونسبته إلى الظلم عدوانًا، وإن كنتَ تقوله عنه، فقد كذبتَ عليه؛ فإنه ـ بحمد اللَّه ـ حسنُ الاعتقاد في الشرع، وذلك من نعم اللَّه تعالى عليه، والسلطان ـ بحمد اللَّه وفضله ـ أكثر اعتقادًا في الشرع من غيره، ومعظم حرُماته، وليس هو ممن يقابلُ ناصِحَهُ بهذيانات الجاهلين، وتُرَّهات المخالفين، بل يقبلُ نصائِحَهُم، كما أمره اللَّه تعالى.

واعلم أيُّها الظالمُ نفسه، أني ـ واللَّه الذي لا إله إلا هو ـ لا أترُكُ شيئًا أقدرُ عليه من السعي في مناصحةِ الدين والسُّلطان والمسلمين في هذه القضيَّة، وإن رغمت أنوفُ الكارهين، وإن كرهَ ذلك أعداءُ المسلمين، وفَرِقَ حزبُ المخذِّلين، وسترى ما أتكلم به، إن شاء اللَّه تعالى، عند هذا السلطان ـ وفَّقه اللَّه تعالى لطاعته، وتولاه بكرامته ـ في هذه القضية، غيرةً على الشرعِ، وإعظامًا لحُرمات اللَّه تعالى، وإقامةً للدين، ونصيحةً للسلطان وعامة المسلمين.

ويا ظالم نفسه، أجلب بخيلكَ ورجلكَ إن قدرتَ، واستعن بأهلِ المشرقين وما بين الخافقين؛ فإني ـ بحمد اللَّه ـ في كفايةٍ تامَّةٍ، وأرجو من

فضلِ اللَّه تعالى أنك لا تقوى لمنابذة أقل الناس مرتبةً، وأنا ـ بحمد اللَّه تعالى ـ ممَّن يودُّ القتلَ في طاعةِ اللَّه تعالى.

◻ أتقوى يا ضعيف الحِيَلِ لمنابذتي؟! أبلغك يا هذا أني لا أؤمنُ بالقدر، أو بلغكَ أني أعتقدُ أن الآجالَ تنقصُ، وأن الأرزاق تتغيرُ[1] ؟! أما تفكِّرُ في نفسك في قبيحِ ما أتيتهُ من الفعالِ، وسوء ما نطقتَ به من المقال؟!

◻ أيا ظالمَ نفسه، من طلب رضا اللَّه تعالى تردُّه خيالاتُك، وتمويهاتُك، وأباطيلك، وتُرَّهاتُك؟!

◻ وبعد هذا كله، أنا أرجو من فضل اللَّه تعالى أن اللَّه يوفق السلطان ـ أدام اللَّه نعمهُ عليه ـ لإطلاق هذه البساتين، وأن يفعل فيها ما تقرُّ به أعينُ المؤمنين، ويرغِمُ أنف المخالفين، فإن اللَّه تعالى قال: ﴿والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

◻ والسُّلطان ـ بحمد اللَّه تعالى ـ يفعل الخيرات، فما يتركُ هذه القضيَّةَ تفوتُه.

◻ واعلم أنك عندي ـ بحمد اللَّه تعالى ـ أقل مِنْ أَنْ أهتم بشأنك، أو ألتفتُ إلى خيالاتك وبطلانك، ولكني أردتُ أن أعرِّفك بعض أمري؛ لتدخل نفسك في منابذةِ المسلمين بأسرهم، ومنابذةِ سلطانهم ـ وفَّقه اللَّه تعالى ـ على بصيرةٍ منك، وترتفع عنك جهالةُ بعض الأمر؛ ليكون دخولُك بعد ذلك معاندةً لا عذرَ لك فيها.

◻ ويا ظالمَ نفسه، أتتوهَّمُ أنه يخفى عليَّ وعلى من سلك طريق

---

(١) انظر رسالة «إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» للشيخ مرعي الحنبلي. نشر دار عمار، و«تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل» للشوكاني ـ نشر دار ابن حزم تحقيق: مشهور حسن سليمان.

نصائحِ المسلمين وولاةِ الأمرِ وحُماةِ الدين أنا لا نعتقدُ صدقَ قول اللَّه تعالى: ﴿ والعاقِبَةُ للمتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

* وقوله تعالى: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه ﴾ [فاطر: ٤٣].

* وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* وقوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

* وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

● وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم خذلان من خذلهم**»[1].

والمراد بهذه الطائفة أهل العلم؛ كذا قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أولي النُّهى والفهم.

● وقوله ﷺ: «**واللَّه في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**».

هذا فيمن كان في عون واحدٍ من الناس، فكيف الظنُّ بمن هو في عون المسلمين أجمعين؛ مع إعظام حُرُمات الشرع، ونصيحة السلطان، وموالاته، وبذل النفس في ذلك؟!

❑ واعلم أني واللَّه لا أتعرَّضُ لك بمكروهٍ سوى أني أُبغضُكَ للَّه تعالى، وما امتناعي عن التعرُّض لك بمكروهٍ عن عجزٍ، بل أخافُ اللَّه ربَّ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وغيرهما بنحوه، من حديث المغيرة بن شعبة، والحديث وارد عن جمع من الصحابة، بلغ عددهم ستة عشر نفسًا من الصحابة، وعدّه ابن تيمية من الأحاديث المتواترة.

العالمين من إيذاءِ من هو من جملة الموحِّدين.

وقد أخبرني من أثِقُ بخبره وصلاحه، وكراماته وفلاحه، أنك إن لم تُبادر بالتوبةِ، حلَّ بك عقوبةٌ عاجلةٌ، تكون بها آيةً لمن بعدكَ، لا يأثمُ بها أحدٌ من الناس، بل هو عدلٌ من اللَّه تعالى، يوقعه بك؛ عبرةً لمن بعدك، فإن كنت ناظرًا لنفسك، فبادر بالرُّجوع، عن سوء فعالك، وتدارك ما أسلفتهُ من قبيحِ مقالك، قبل أن يحلَّ بك ما لا تُقالُ فيه عثرتُكَ، ولا تغترَّ بسلامتك وثروتك ووصلتكَ، وفكِّر في قول القائل:

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا عَلَى نَفْسِهَا ... لَوْ كَانَ فِي العَالَمِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ وَاثِقٍ بِالعُمْرِ وَارَيْتُهُ ... وَجَامِعٍ بَدَّدتُّ مَا يَجْمَعُ

والسلام على من اتَّبَعَ الهدى، والحمد للَّه رب العالمين[1].

* **شيخ الإسلام ابن تيمية:**

شيخ المسلمين، ودرَّة الموحدين وبقيَّة السلف العاملين، سيرته تحتاج لمجلدات ضخام، ولكن:

قليلٌ منكَ يَكفيني ولكنْ ... قليلُكَ لا يُقَال له قليلُ

* **حديث ابن تيمية مع قازان:**

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة، جاءه ملك الكُرج، وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يُمكِّنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى ابن تيمية، فخرج ورجالٌ من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضرة قازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساء

(١) «تحفة الطالبين» (ص١١٩ ـ ١٢٠)، و«ترجمة النووي» للسخاوي (ص٣٦، ٥٠ ـ ٥٥).

دمشق. فأذنَ لهم، فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ ﷺ أولاً، فلما أن رآه أوقع اللَّه له في قلبه هيبة عظيمة، حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكُرج على المسلمين، وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكّره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقنت بسببه دماء المسلمين، وحُميت ذراريهم، وصين حريمُهم.

□ يقول الحافظ عمر بن علي البزار في «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»: حدثني من أثق به، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس اللَّه روحه، قال: كنتُ حاضراً مع الشيخ حينئذٍ، فجعل - يعني الشيخ - يحدّث السلطان بقول اللَّه ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه، حتى جثا على ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تُلاصِق ركبتُه ركبةَ السلطان، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكليته، مصغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه، لا يُعرض عنه، وإن السلطان من شدة ما أوقعَ اللَّه في قلبه من المحبة والهيبة، سأل من يخصّه من أهل حضرته: من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه. فأُخبرَ بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل. فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذّنون - على ما بلغنا - فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدَا فوفَّيا، وأنت عاهدت فغدرتَ، وقلت فما وفَّيت، وجُرتَ.

وسأله: إن أحببت أن أعمِّر لك بلد آبائك حرّان، وتنتقل إليه، ويكون برسمك؟ فقال: لا واللَّه، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم عليه السلام، وأستبدل به غيره. فخرج من بين يديه مُكرمًا معزَّزاً، قد صنع له اللَّه بما طوى عليه نيَّته الصالحة من بذله نفسه في حقن دماء المسلمين؛ فبلّغه ما أراده.

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهلهم، وحفظ حريمهم[1].

بل خلّص أهل الذمَّة من النصارى واليهود؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر، فقال ابن تيمية للقائد (بولاي)، وكان قد التحق مع قازان: بل جميع من معك من اليهود والنصارى، الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الملَّة، ولا من أهل الذمة.

◘ يقول ابن تيمية: وقد أطلقنا من النصارى من شاء اللَّه. فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على اللَّه.

◘ قال ابن تيمية: لن يخاف الرجل غير اللَّه إلا لمرضٍ في قلبه؛ فإن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة. فقال له: لو صححت لم تخف أحدًا.

فابن تيمية الخائف الوجل الذي يهاب ربَّه تهابُه الملوكُ.

وقد قصَّ ـ أيضًا ـ هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن قوام البالسي، وكان يوم قازانَ في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لمَّا تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان، وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذِّنون وقاضٍ وإمام وشيخ ـ على ما بلغنا ـ فغزوتَنا، وبلغتَ بلادنا على ماذا؟! وأبوك وجدُّك (هولاكو) كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدتَ فغدرت، وقلت فما وفَّيت. قال: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَب، قام ابن تيمية فيها كلَّها

---

(١) «الأعلام العَلِيَّة» (ص٦٩ ـ ٧٢).

للَّه، وقال الحق، ولم يخش إلا اللَّه عز وجل. قال: وقرّب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكلّه مما نهبتُم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس! قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللَّهم إن كان هذا ـ عبدك محمود ـ إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كلُّه لك، فانصره وأيّده، وملّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذلَّ الإسلام وأهله، فاخذله وزلزله، ودمِّره واقطع دابره. قال: وقازان يؤمِّن على دعائه، ويرفع يديه. قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله. قال: فلما خرجنا من عنده، قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صرصري وغيره: كدتَ أن تُهلكنا وتُهلك نفسك، واللَّه لا نصحبُك من هنا. فقال: وأنا واللَّه لا أصحبكم. قال: فانطلقنا عُصبةً، وتأخَّر هو في خاصَّةِ نفسه، ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان، فأتوه يتبرَّكون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال: واللَّه ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارسٍ في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأمَّا أولئك الذين أبوا أن يصحبُوه، فخرج عليهم جماعة من التَّتَر، فشلَّحوهم عن آخرهم[1].

□ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في تاريخ سنة «أربع وسبعمائة»:

«وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقًا كبيرًا متَّسعًا جدًّا، يُسمَّى: المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانبٍ وقطّعوه، حتى لم يدعُوا فيه شيئًا،

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٩١ ـ ٩٢).

وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلّم أظفاره، وكانوا طوالاً جدًّا، وحَفَّ شاربه المُسبَل على فمه، المخالف للسنة، واستتابه من كلامه الفَاحِش وأكل ما يغير العقل، من الحشيشة وما لا يجوز من المحرّمات وغيرها، وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي فاستتابه ـ أيضًا ـ عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوبًا أن لا يتكلم في تعبير المنامات، ولا في غيرها بما لا علم له به. وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التاريخ، وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرةٍ كانت ـ بنهر قلوط ـ تُزار ويُنذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشِّرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرُّها عظيمًا، وبهذا وأمثاله حسدوه، وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه، فحُسد على ذلك وعُودي، ومع هذا لم تأخذه في اللَّه لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلُوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا به الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشينه، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه، وإلى اللَّه إيابُ الخلق وعليه حسابُهم.

وفي مستهلِّ ذي الحجة ركب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين، ومعه نقيبُ الأشراف زين الدين ابن عدنان، فاستتابوا خلقًا منهم وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيَّدًا منصورًا»[1].

وعن أحداث سنة تسعٍ وسبعمائة يقول ابن كثير: «استهلَّتْ وخليفةُ الوقت المستكفي أمير المومنين... وسلطان البلاد، الملك المظفر، ركن الدين بيبرس الجاشنكير. وفي ليلة سلْخَ صفرُ توجّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية بصحبة أمير مقدَّم، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٦ ـ ٣٧).

الأحد، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق، فحصل عليه تألم، وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه المنبجي، فتضاعف له الدعاء؛ وذلك أنهم لم يُمكّنوا أحدًا من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية، فضاقت له الصدور، وذلك أنه تمكن منه عدوه نصر المنبجي، وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي، ويقول: زالت أيامه، وانتهت رياسته، وقرُب انقضاءُ أجله. ويتكلم فيهما، وفي ابن عربي وأتباعه، فأرادوا أن يُسيّروه إلى الإسكندرية ـ كهيئة المنفى ـ لعل أحدًا من أهلها يتجاسرُ عليه فيقتله غيلةً، فما زاد ذلك الناس إلا محبة فيه، وقربًا منه، وانتفاعًا به، واشتغالاً عليه، وحُنُوًّا وكرامة له.

وجاء كتابٌ من أخيه يقول فيه: إن الأخ الكريم نزل بالثّغر المحروس على نية الرباط؛ فإن أعداء اللّه قصدوا بذلك أمورًا يكيدونه بها، ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت تلك كرامةً في حقنا، وظنوا أن ذلك يُؤدي إلى هلاك الشيخ، فانقلبت عليهم مقاصدُهم الخبيثة، وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا، وما زالوا عند اللّه وعند الناس العارفين سُودَ الوجوه، يتقطعون حَسَراتٍ وندمًا على ما فعلوا. وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مُقبلين عليه مُكرمين له، وفي كل وقت ينشر من كتاب اللّه، وسنة رسوله ما تقرُّ به أعين المؤمنين، وذلك شجًى في حُلُوق الأعداء.

واتُّفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس[1] قد باض فيها وفرّخ، وأضلّ بها فرق السبعينية والعربية، فمزّق اللّه بقدومه عليهم شملهم، وشتّتَ جموعَهم شَذَرَ مَذَرَ، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعةً كبيرةً منهم، وتوّب رئيسًا من رؤسائهم، واستقر عند عامّة المؤمنين وخواصّهم من أميرٍ، وقاضٍ

(١) كُنية إبليس: الشيخ أبو مرَّة.

وفقيه، ومُفت وشيخ، وجماعة المجتهدين ـ إلا من شَذّ من الأغمار الجهّال، مع الذلة والصَّغار ـ محبةُ الشيخ وتعظيمهُ وقبول كلامه، والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمةُ اللَّه بها على أعداء اللَّه ورسوله، ولُعنوا سرًّا وجهرًا، وباطنًا وظاهرًا في مجامع الناس بأسمائهم الخاصَّة بهم، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذل ما لا يُعَبَّر عنه»(١).

* **ابن تيمية والأحمدية الرفاعية:**

◻ عن سنة خمسٍ وسبعمائة يقول ابن كثير: «وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكُفّ الشيخ تقي الدين إمارَته عنهم، وأن يُسلِم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن. لا بد لكلٍّ أحدٍ أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه. فأرادوا أن يفعلوا شيئًا من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ: تلك أحوالٌ شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحِيَل والبهتان، ومن أراد منهم أن يدخل النار، فليدخل أولاً إلى الحمّام وليغسل جسده غسلاً جيدًا، ويدلّكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقًا، ولو فُرض أنّ أحدًا من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل، فإن ذلك لا يدلّ على صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إلا إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك. فابتدر شيخ المنيبع، الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر، ليست تنفق عند الشرع. فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة وكثر الإنكار عليهم من كل أحد،

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥١ ـ ٥٢).

ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأنّ من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عنقُه.

وصنّف الشيخ جزءًا في طريقة الأحمدية، وبيّن فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيُّلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب، وأظهر اللَّه السنة على يديه، وأخمد بدعتهم، ولله الحمد والمنّة»[1] .

ويحلو لنا أن نبسُط هذه القصة بقلم ابن تيمية نفسه:

* ابن تيمية يُخزي دَجَاجِلَة البطائحية:

ظهرت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية جماعة تسمى بالبطائحية، وهم الأحمدية الرفاعية[2] ، وينتسبون إلى الزهد والتصوف، ويدَّعون التأله والتعبد، ولكنهم يقومون بأعمالٍ شركية، ويُظهرون بدعًا ما أنزل اللَّه بها من سلطان، ويحتالون لنيل أغراضهم بالكذب والتلبيس على الناس، ويُظهرون أعمالاً وخوارقَ يدلّلون بها على أن طريقهم حقٌّ وصدقٌ، كالدخول في النار، وملامسة الحيَّات، وإظهار الدم واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك، وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجه باطِلِهم، وأنكر عليهم ما خالفوا فيه أحكام الإسلام، وسنَّة الرسول ﷺ ، وجَرَت بينه وبين رجالهم وزعمائهم مراجعاتٌ ومحاوراتٌ، فأقام عليهم الحجة، وكشف باطلهم، ثمَّ ناقشهم في محفلٍ عامٍّ، حضر فيه الأمراء والقوَّاد والعلماء، وكثير من أهل دمشق وغيرهم، وسنذكر طرفًا مما جرى بينه وبينهم مما ذكره شيخ الإسلام نفسه[3] .

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٨).

(٢) الشيخ أحمد الرفاعي بريء منهم؛ لأنه من شيوخ أهل السنة والجماعة، أثنى عليه ابن تيمية، والحافظ الذهبي في «السير»، وكفى بهذا تعديلاً له.

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٧).

فمن ذلك أن شيخًا منهم استدل على باطله بأنَّه كان عند بعض أمراء التَّتر بالمشرق، وكان له صنم يعبده، فقال له الأمير التتري: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كلَّ يوم، ويبقى أثر الأكل في الطعام بيِّنًا يُرى فيه. فأنكر الشيخ ذلك، فقال له الأمير التتري: إن كان يأكل، فأنت تموت. فقال الشيخ: نعم. قال: فأقمت عنده إلى نصف النهار، ولم يظهر في الطعام أثر، فاستعظم ذلك التتري، وأقسم بأيمانٍ مغلَّظة أنه كلَّ يوم يَرى فيه أثر الأكل، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك. فقال شيخ الإسلام: أنا أبيِّن لك سبب ذلك؛ ذلك التتري كافر مشرك، ولصنمه شيطان يغويه بما يُظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد اللَّه تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك، فالتتري وأمثاله سُودٌ، وأهل الإسلام المحْض بيضٌ، وأنتم بلَق؛ فيكم سواد وبياض، فأعجب هذا المثل من كان حاضراً.

* نهي الشيخ لهم عن التعبُّد بما لم يشرعه اللَّه:

❑ قال شيخ الإسلام: جاءني جماعة منهم مع شيخ لهم من شيوخ البر، مطوَّقين بأغلال الحديد في أعناقهم، وهو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مرّاتٍ فأخاطبه بالتي هي أحسن؛ فلما ذكر الناس ما يُظهرونه من الشعار المبتدَع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس أن هذا سرٌّ من أسرارهم، وأنه سِيماء أهل الموهبة الإلـهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبتُه في ذلك في المسجد الجامع، وقلت: هذا بدعة لم يشرعها اللَّه تعالى ولا رسوله، ولا فعل ذلك أحدٌ من سلف هذه الأمة، ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم، ولا يجوز التعبُّد بذلك، ولا التقرُّب به إلى اللَّه تعالى؛ لأنَّ عبادة اللَّه بما لم يشرعه ضلالة، ولباسُ الحديدِ على غير وجه التعبد قد كَرِهَه

من كرهه من العلماء؛ للحديث المرويّ في ذلك وهو أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال: «**ما لي أرى عليك حِليةَ أهل النار؟**»[١].

وقد وصف اللَّه تعالى أهل النار بأنَّ في أعناقهم الأغلال، فالتشبه بأهل النار من المنكرات.

● وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا، قال في آخره: «**أحبُّ القيد وأكره الغُلَّ. القيد ثبات في الدين**» فإذا كان مكروهًا في المنام فكيف في اليقظة؟!..

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحوًا منه مع زيادة. وخوَّفته من عاقبة الإصرار على البدعة. وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيتُ أكثره لبعد عَهدي به. وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبُّد بها - باتفاق المسلمين - ولا التقرب بها إلى اللَّه، ولا اتخاذها طريقًا إلى اللَّه وسببًا لأن يكون الرجل من أولياء اللَّه وأحبائه، ولا اعتقاد أن اللَّه يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرًا عند اللَّه وقربةً إليه، ولا أن يُجعل شعارًا للتائبين المريدين وجه اللَّه، الذين هم أفضل ممن ليس مثلَهم.

* التقرُّب إلى اللَّه بفعل المباح والمكروه والحرام:

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أنَّ المباحات إنَّما تكون مباحة إذا جُعلت مباحاتٍ، فأمَّا إذا اتُّخذت واجباتٍ أو مستحباتٍ كان ذلك دينًا لم يشرعه اللَّه، وجَعلُ ما ليس من الواجباتِ والمستحباتِ منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرّمه اللَّه؛ ولا دين إلا ما شرعه اللَّه؛ ولهذا عظُمَ ذمُّ اللَّه في القرآن لمن شرع دينًا لم يأذنِ اللَّه به، ولمن

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان عن بريدة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٦٤).

حرّم ما لم يأذنِ اللَّه بتحريمه. فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم، لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة اللَّه أن يطيعه، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل، عند أحمد وغيره. وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعةً وعبادةً.

*** العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنَّة:**

ونحو ذلك العهود التي تُتَّخذ على الناس لالتزام طريقةِ شيخٍ معيَّن، كعهود أهل «الفُتُوَّة»، و«رُمَاة البندق»، ونحو ذلك، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدِّين والطاعة للَّه إلا ما كان دينًا وطاعةً للَّه ورسوله في شرع اللَّه. لكن قد يكون عليه كفارة عند الحِنْثِ في ذلك؛ ولهذا أمرتُ غير واحد أن يعدِلَ عما أُخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة، أو مشتملة على أنواعٍ من البدع، إلى ما هو خيرٌ منها من طاعة اللَّه ورسوله ﷺ، واتباع الكتاب والسنَّة؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قربة وطاعة وبرٌّ، وطريق إلى اللَّه، واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر اللَّه به ورسوله ﷺ؛ وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما عُلم باتفاق الأمّة أنَّه ليس بواجب ولا مستحبٍّ، ولا قربة؛ لم يَجُزْ أن يُعتقد، أو يُقال: إنه قربة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى اللَّه، ولا التعبُّد به، ولا اتخاذه دينًا، ولا عَمَلُه من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل. وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء، يرون الشيء إذا لم يكن محرَّمًا لا يُنهى عنه، بل يقال: إنه جائز. ولا يفرقون بين اتخاذه دينًا وطاعة وبرًّا، وبين استعماله كما تُستعمل

المباحات المحضة، ومعلوم أن اتخاذه دينًا بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما، أو بالقول أو بالعمل بهما ـ من أعظم المحرّمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يُعلم أنها مَعَاصٍ وسيئات.

* **نفاق ومداهنة:**

فلما نهيْتُهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة، ومَضَت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شِرْعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرِّفق والأنَاة، وأنتظر الرجوع والفيئة، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) المسجد الجامع. وكان قد كتب إلي كتابًا بعد كتابٍ، فيه احتجاج واعتذار، وعتبٌ وآثار، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إمَّا أحاديث موضوعة، أو إسرائيليات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصَّدُّ عن سبيل اللَّه، وأكل أموال الناس بالباطل.

* **شيخ الإسلام يطلب شيخَهم للمناظرة:**

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب؛ فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك. وحضر عندنا منهم شخصٌ فنزعنا الغُلَّ من عنقه. وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر اللَّه تعالى ورسوله ﷺ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]؛ ولهذا غَالِبُ وجدِهم هوًى مطلقٌ، لا يدرون من يعبدون، وفيهم شَبه قوي من النصارى الذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]؛ ولهذا كان السلف يُسَمُّونَ أهل البدع: أهل الأهواء.

*** رَفْضُهم للحِجَاج وإظهارهم الدَّجَل والتَّهريج:**

فَحَمَلَهم هواهُم على أن تجمعوا تجمُّع الأحزاب، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب، بالأحوال التي يعدونها للغلاب. فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر اللَّه ورسوله ﷺ، ونتفق على اتباع سبيله، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو - على ما ذكر لي - وهم من الصِّياح والاضطراب، على أمر من أعجب العُجاب. فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة، وطلبًا للبيان والتبصرة، ورجاءَ المنفعة والتذكرة. فعمدوا إلى القصر مرة ثانية، وذكر لي أنهم قدِموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد، واضطراب الرءوس والأعضاء، والتقلُّب في نهر بَرَدَى، وإظهار التَّولُّه الذي يُخيِّلون به على الورى، وإبراز ما يدَّعونه من الحال والمُحَال، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال.

*** بين البطائحية والأمير:**

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر. وسأل عنهم، فقيل له: هم مشتكُون، فقال: ليدخل بعضهم. فدخل شيخهم، وأظهر من الشكوى عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلامًا كثيرًا لم يبلغني جميعه، لكن حدثني من كان حاضرًا أن الأمير قال لهم: فهذا الذي يقوله من عنده، أو يقوله عن اللَّه ورسوله ﷺ؟ فقالوا: بل يقوله عن اللَّه ورسوله ﷺ. قال: فأيّ شيء يُقال له؟ قالوا: نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا. قال: فنسمع كلامه، فمَن كان الحق معه نصرناه. قالوا: نريد أن تشدَّ منا. قال: لا، ولكن أشدُّ من الحقِّ، سواء كان معكم أو معه. قالوا: ولا بدَّ من حضوره؟ قال: نعم. فكرَّروا ذلك، فأمر بإخراجهم. فأرسل إليَّ بعض خواصّه من أهل الصدق

والدين ممن يَعرفُ ضلالَهم، وعَرَّفني بصورة الحال، وأنه يريد كشف أمر هؤلاء.

*** نُصْح شيخ الإسلام لهم:**

فلمّا علمتُ ذلك أُلقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده اللَّه من إظهار الدين، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببتُ البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عَرَّفهم بصورة الحال، وأني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثُر فيكم القيل والقال، وأن من قعد أو قام قُدَّامَ رماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان. فاجتمعوا، وأشار عليهم شيوخُهم بإظهار موافقة الشريعة، والخروج عما يُنكر عليهم من البدع. وقال لهم شيخهم: أحوالنا تَظهر عند التتار، لا عند شرع محمد بن عبداللَّه، ونزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

*** الأمير يُصرُّ على كشف باطلهم:**

ولكن الأمير أصرّ على عقد المناظرة، لكشف باطلهم، وألزمَهم بالحضور.

*** شيخ الإسلام يستنْصِرُ ربَّه:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: فاستخرتُ اللَّه تعالى تلك الليلة، واستعنته واستنصرته واستهديته، وسلكتُ سبيل عباد اللَّه في مثل هذه المسالك، حتى أُلقِيَ في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك[1] ، وأنها تكون بَرْدًا

---

(١) يقول الشيخ عمر الأشقر معلّقًا في كتابه «جَولةٌ في رياض العلماء» (ص١٨٩): رحمه اللَّه، ما كان أسخاه بنفسه في سبيل إظهار دين اللَّه.

وسلامًا على من اتَّبع ملةَ الخليل، وأنها تحرق أشباهَ الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل. وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم ـ إمام الحنفاء ـ بنواحي البطائح منضمين إلى مَن يُضاهيهم من نصارى الدَّهماء.

وبَينَ الصابئةَ ومن ضَلَّ من العباد المتسبين إلى هذا الدين نَسَبٌ يعرفه من عرف الحق المبين. فالغالية من القرامطة والباطنية، كالنصيرية والإسماعيلية، يخرجون إلى مُشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى. ومن شركهم الغلوُّ في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك، بحسب ما هو به لائق، كالملحدين من أهل الاتحاد، والغالية من أصناف العباد.

* استثارتُهم للناس وجَمْعُهم الأعوانَ والأنصار:

فلما أصبحنا ذهبتُ للميعاد، وما أحببت أن أستصحب أحدًا للإسعاد، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب، واللَّهُ هو المسبِّبُ لجميع الأسباب. وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعًا مما جرت به عادتُهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء، مثل زَعمهم أنّ لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وأنّ لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء. وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المَنيفة، وأن المُنكِر عليهم هو آخذٌ بالشرع الظاهر، غيرُ واصل إلى الحقائق والسرائر، وأن لهم طريقًا وله طريق، وهم الواصلون إلى كُنْهِ التحقيق. وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق.

* سببُ انتشارِهم في ديار الإسلام:

وكانوا لِفَرط انتشارهم في البلاد، واستحواذهم على الملوك والأمراء

والأجناد؛ لخفاء نور الإسلام، واستبدال أكثر الناس بالنورِ الظلامَ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار - لهم في القلوب موقع هائل، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل.

* أنصار الباطل:

قال المخبِرُ: فغدا أولئك الأمراءُ الأكابر، وخاطبوا فيهم نائبَ السلطان بتعظيم أمرهم الباهر. وذَكَر لي أنواعًا من الخطاب، واللَّه تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعر ظهورَ الحق عند التحقيق، فأعاد الرسول إليّ مرة ثانية فبلغتُه أنَّا في الطريق. وكان كثير من أهل البدع الأضَّداد - كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد - مُجدِّين في نصرهم بحسب مقدورهم، مجهزين لمن يُعينهم في حضورهم. فلما حضرتُ وجدتُ النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون، طالبين للاطلاع.

* كذِبُهم على الشيخ، وفضْح الشيخ لهم، وكشْفُه لباطلهم:

فلما وصل الشيخ ذكر له نائب السلطان وغيره أنهم قالوا: إن الشيخ طلبهم للامتحان، وأن يُحموا الأطواقَ نارًا ويَلبسونها. فأكذبَ ذلك، وقال للأمير: نحن لا نستحلُّ أن نأمر أحدًا بأن يدخل نارًا، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النَّار، وفي ذلك الحديث الصحيح. وهؤلاء يكذبون في ذلك، وهم كذَّابون مبتدعون، قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما اللَّه به عليم. وذكرت تلبيسَهم على طوائف من الأمراء، وأنهم لبَّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري، وعلى قفجق نائب السلطنة، وعلى غيرهما، وقد لبَّسوا أيضًا على الملك العادل - كتغا - في مُلكه، وفي حالة ولاية حماة، وعلى أمير السلاح، أجلِّ أمير بديار مصر. وضاق المجلس عن حكاية جميع

تلبيسهم، فذكرتُ تلبيسهم على الأيدمري، وأنهم كانوا يُرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة، ثم يخبرونه بها على طريق المُكاشفة، ووعدوه بالمُلْك، وأنهم وعدوه أن يُرُوه رجالَ الغيب، فصنعوا خُشُبًا طِوالاً، وجعلوا عليها مَن يمشي كهيئةِ الذي يلعب بأكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة، وذلك يَرى من بعيدٍ قومًا يطوفون على الجبل، وهم يرتفعون عن الأرض، وأخذوا منه مالاً كثيراً، ثم انكشف له أمرهم.

◘ قلت للأمير: وولدُه الذي هو في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهو ممن حدثني بهذه القصة، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم، وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجلٍ زعموا أنَّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان، ولم يُقربوه منه، بل من بعيد؛ لتعود عليه بركته، وقالوا: إنه طلب منه جملةً من المال. فقال قفجق: الشيخ يكاشف، وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله. وتَقرَّب قفجق منه وجذَب الشَّعَر، فانقلع الجِلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز. فذكرت للأمير هذا؛ ولهذا قيل لي: إنه لما انقضى المجلس، وانكشف حالهم للناس، كتب أصحاب قفجق إليه كتابًا، وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى.

وذكرتُ للأمير أنهم مُبتدِعون بأنواعٍ من البدع، مثل الأغلال ونحوها، وأنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة. فذكر الأمير حديث البدعة، وسألني عنه، فذكرت حديث العرباضِ بن سارية، وحديث جابر بن عبداللَّه، وقد ذكرتُهما بعد ذلك بالمجلس العام، كما سأذكره.

*** الشيخ مستعد لدخول النار لكشْف باطِلهم:**

◘ قلت للأمير: أنا ما امتحنتُ هؤلاء، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك، ويقولون

لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشّرع، ليس لهم أن يعترضوا علينا، بل يُسلَّم إلينا ما نحن عليه، سواء وافق الشرع أو خالفه. وأنا قد استخرتُ اللَّه سبحانه أنهم إن دخلوا النار أَدخل أنا وهم، ومن احترقَ منّا ومنهم فعليه لعنة اللَّه وكان مغلوبًا، وذلك بعد أن نغسل جسومَنا بالخلّ والماء الحارّ.

*** حِيلة دخول النار:**

❑ فقال الأمير: ولِمَ ذاك؟ قلت: لأنهم يَطلُون جسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهن الضفادع، وباطنِ قشر النارنج، وحجرِ الطلق، وغير ذلك من الحِيل المعروفة لهم. وأنا لا أطلي جلدي بشيء، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخّل والماء الحار، بطُلت الحيلة وظهر الحق. فاستعظم الأميرُ هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلك؟ فقلت له: نعم، قد استخرت اللَّه في ذلك، وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد ﷺ، المتبعين له باطنًا وظاهرًا ـ لحُجَّةٍ أو حاجةٍ، فالحجة لإقامة دين اللَّه، والحاجة لما لا بد منه، من النصر والرزق الذي به يقوم دين اللَّه. هؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتِهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين اللَّه وشرعه، وجب علينا أن ننصر اللَّه ورسوله ﷺ، ونقوم في نصر دين اللَّه وشريعته، بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذٍ أن نعارض ما يُظهرونه مِن هذه المخاريق، بما يؤيدنا اللَّه به من الآيات.

وليُعلمْ أن هذا مثلُ معارضة موسى للسحرة، لمّا أظهروا سحرهم أيَّد اللَّه موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم. فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السّماط بذلك، وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحدٌ على ردِّه. وسمعتُه يخاطب الأمير

الكبير الذي قَدِم من مصر (الحاج بهادر) ـ وأنا جالسٌ بينهما على رأس السّماط ـ بالتركي، ما فهمتُه منه إلا أنه قال: اليوم ترى حربًا عظيمًا. ولعل ذاك كان جوابًا لمن كان خاطبه فيهم، على ما قيل.

*** الأمير يُصرُّ على البيان:**

وحضر شيوخهم الأكابر، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح، وإطفاءَ هذه القضية، ويترفقون، فقال الأمير: إنما يكون الصُّلح بعد ظهور الحق. وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر، أنا وهو وبَهَادر، فسمعتُه يذكر له أيُّوب الحمّال بمصر، والمُولَهين ونحو ذلك، فدلَّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظَّمة، وأن له فيهم ظنًّا حسنًا، واللَّه أعلم بحقيقة الحال؛ فإنه ذكر لي.

وكان الأمير أحبَّ أن يُشهد (بهادر) هذه الواقعة ليتبيَّن له الحقّ، فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدِم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه، فأمر ببساط يُبسط في الميدان. وقد قدم البطائحية، وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية، من الإزباد والإرغاء، وحركة الرءوس والأعضاء، والطفر والحبو والتقلُّب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجة عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ الآية. [لقمان: ١٩]. فلما جلسنا وقد حضر خَلق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم، وحضر شيخهم الأوّلُ المشتكي، وشيخ آخر يُسمي نفسه: خليفةَ سيِّده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمُّونه: عبداللَّه الكذَّاب. ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدةٍ قد قدِم عليّ منهم شيخٌ بصورةٍ لطيفة، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيتُه طلبَتَه، ولم أتفطّن لكذبه، حتى فارقني، فبقي في نفسي أن هذا خفيَ عليَّ تلبيسُه

إلى أن غاب، وما يكاد يخفى عليَّ تلبيسُ أحد، بل أُدركه في أول الأمر، فبقي ذلك في نفسي، ولم أره قطُّ إلى حين ناظرتُه، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديمًا، فتعجبتُ من حسن صنع اللّه، أنه هتكه في أعظم مشهد يكون، حيث كتم تلبيسَه بيني وبينه.

فلما حضروا تكلّم منهم شيخٌ - يقال له: حاتم - بكلامٍ مضمونه طلبُ الصلح، والعفو عن الماضي والتوبة، وأنا مُجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومتَّبعون للشريعة. فقلت: أما التوبة فمقبولة. قال اللّه تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] هذه إلى جنب هذه. وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

* ردُّ الشيخ عليهم في بدعة لُبْسِ أطواق الحديد:

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للُبسهم الأطواق، وذكر أن وَهْبَ بنَ مُنبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابدٌ، وأنه جعل في عنقه طوقًا، في حكاية من حكايات بني إسرائيل، لا تثبت. فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا؛ قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبداللّه ﷺ، أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ﷺ ورقة من التوراة، فقال: «**أمُتَهوِّكونَ يا ابن الخطاب؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا، ثم اتبعتموه وتركتموني لَضللتم**». وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئًا من كتب أهل الكتاب، فقال: «**كفى بقومٍ ضلالة أن يتبعوا كتابًا غيرَ كتابهم، أُنزل إلى نبي غير نبيهم**»، وأنزل اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. [العنكبوت: ٥١].

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى، فيما علمنا أنَّه أُنزل عليهما من عند اللَّه، إذا خالف شرعنا، وإنَّما علينا أن نتَّبع ما أُنزل علينا من ربنا، ونتّبع الشرعة والمنهاج الذي بعث اللَّه به إلينا رسولَنا. كما قال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الآية [المائدة: ٤٨]. فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تُعلَم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]. هاتِ ما في القرآن، وما في الأحاديث الصِّحاح، كالبخاري ومسلم. وذكرتُ هذا وشبهه بكيفية قوية.

*** لا يجوز الخروج على الشريعة بحال:**

فقال هذا الشيخ منهم، يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قومٌ شافعية. فقلت له: هذا غير مستحبٍّ ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين؛ بل كلُّهم يَنهى عن التعبُّد به ويَعُدُّه بدعة. وهذا الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مفتي الشافعية دعوتُه، وقلت: يا كمال الدين، ما تقول في هذا؟ فقال: هذا بدعة غير مستحبة، بل مكروهة. أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفةٍ من العلماء بذلك. وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ، ولا الخروج عن كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ. وأشكُّ هل تكلمتُ هنا في قصة موسى والخضر، فإنِّي تكلمتُ بكلام بَعُدَ عهدي به.

*** الباطن والظاهر محكومٌ بالكتاب والسنَّة:**

فانتدبَ ذلك الشيخُ عبداللَّه ورفع صوته، وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يُوقف عليها. وذكر كلامًا لم أضبط لفظه، مثل المجالس والمدارس،

والباطن والظاهر، ومضمونُه: أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وأن لنا أمرًا لا يقف عليه أهل الظاهر، فلا يُنكرونه علينا.

فقلتُ له - ورفعت صوتي وغضبت -: الباطن والظاهر والمجالس والمدارس، والشريعة والحقائق، كلّ هذا مردود إلى كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقُضاة وغيرهم؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة اللَّه ورسوله ﷺ. وذكرت هذا ونحوه.

* ادِّعَاءُ الخوارق:

فقال - ورفع صوته -: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا. وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليمَ الحال إليهم لأجلها.

□ فقلت - ورفعتُ صوتي وغضبت -: أنا أخاطب كلّ أحمديّ. من مشرق الأرض إلى مغربها، أيّ شيء فعلوه في النار، فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترقَ فهو مغلوبٌ - وربما قلت: فعليه لعنة اللَّه - ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخلّ والماء الحار. فسألني الأمراء والناس عن ذلك، فقلت: لأن لهم حِيَلاً في الاتصال بالنار، يَصنَعُونها من أشياء من دُهن الضفادع، وقشر النارنج، وحجر الطلق. فضجَّ الناس بذلك، فأخذ يُظهر القدرة على ذلك ويقول: أنا وأنت نلف في بارية، بعد أن تُطلى جسومُنا بالكِبْريت. فقلت: فقم. وأخذتُ أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمدَّ يده يُظهر خَلْع القميص، فقلت: لا، حتى تغتسل في الماء الحارّ والخلّ. فأظهر الوهم على عادتهم، فقال: من كان يحب الأمير فليُحضر خشبًا. أو قال: حزمة حطب. فقلت: هذا تطويلٌ وتفريق للجمع، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يُوقدَ، وأُدخل أُصبعي وأُصبعَك فيه بعد الغسل، ومن احترقت أصبعُه

فعليه لعنة اللَّه، أو قلت: فهو مغلوب. فلما قلت ذلك تغيَّر وذَلّ. وذكر لي أنَّ وجهه اصفر.

* الخوارق ليست دليل الصَّلاح والتُّقى:

◘ ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طِرتُم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدّل على صحة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع؛ فإن الدَّجال الأكبر يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي. فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزَك. فتُخرج كنوزها تتبَعُه؛ ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقَّيه، ثم يقول له: قُمْ. فيقوم، ومع هذا فهو دجّالٌ كذّاب ملعون، لعنه اللَّه. ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقعٌ عظيم في القلوب.

وذكرتُ قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، ويمشي على الماء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي. وذكرت عن يونس بن عبدالأعلى أنَّه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا؟ ـ يعني الليث بن سعد ـ قال: لو رأيتَ صاحب هوًى يمشي على الماء، فلا تغتر به. فقال الشافعي: لقد قصر اللَّيث، لو رأيتَ صاحب هوًى يطير في الهواء فلا تغتر به. وتكلمتُ في هذا ونحوه بكلامٍ بعُد عهدي به. ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح. وجعلتُ أُلحُّ عليه في إظهار ما ادَّعوه من النار مرةً بعد مرةٍ، وهم لا يُجيبون، وقد اجتمع عامّة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم، وهم عدد كثير، والناس يضجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

* وقع الحقُّ وبطَل ما كانوا يعملون:

فذكر بعض الحاضرين أنَّ الناس قالوا ما مضمونه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ وذكروا أيضًا أن هذا الشيخ يُسمَّى: عبداللَّه الكذاب. وأنَّهُ الذي قصَدك مرة فأعطيتَه ثلاثين درهمًا. فقلت: ظهر لي ـ حين أخذ الدراهم وذهب ـ أنه مُلَبِّس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه، مضمونها أنَّه أدخل النار في لحيته قُدّام صاحب حَماة، ولما فارقني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة، وظهر عجزهم وكذبهم وتلبيسهم.

* استخدام القوة إن لم تنفع الحُجّة:

فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال؟ فقلت: بهذه السِّياط الشرعية. فأعجب الأمير وضحك، وقال: إي واللَّه، بالسِّياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية. كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد، ومن لم يُجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية. وأمسكتُ سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول اللَّه ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول اللَّه ﷺ، فمن خرج عن كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ضربناه بسيف اللَّه. وأعاد الأمير هذا الكلام.

* لا يُقَرُّ أحدٌ على إظهار المنكر في ديار الإسلام:

وأخذ بعضهم يقول: فاليهود والنصارى يُقَرُّونَ ولا نُقَرُّ نحن؟!. فقلت: اليهود والنصارى يُقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دُورهم، والمبتدِع لا يُقَرُّ على بدعته. فأُفحموا بذلك.

وحقيقة الأمر أن من أظهر منكرًا في دار الإسلام لم يُقَرَّ على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقَر، ولا يُقَر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذّمة لا يُقَرون على إظهار منكرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلمًا أخذ بواجباتِ الإسلام وترك محرماتِه، وإن لم يكن مسلمًا ولا ذِميًّا، فهو إما

مرتدٌّ وإما مشرك وأما زنديق ظاهر الزندقة.

*** ذمُّ المبتدِعَة:**

وذكرت ذمَّ المبتدعة، فقلت: روى مسلم في صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق، عن أبيه أبي جعفر الباقر، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «**إنَّ أصدق الكلام كلام الله، وخيرَ الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**». وفي السنن عن العرباض بن سارية، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مُودِّعٍ، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي بالسمع والطاعة، فإنه من يَعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومُحدَثات الأمور؛ فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1]. وفي رواية: «**وكل ضلالة من النار**».

*** البدعة شرٌّ من الزنا والمعاصي:**

فقال لي: البدعة مثل الزنا، وروى حديثًا في ذمّ الزنا. فقلت: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، والزنا معصية، والبدعة شرٌّ من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ فإنَّ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها. وكان قد قال بعضهم: نحن نُتَوِّب الناس، فقلت: من ماذا تتوبونهم؟ قال: من قطع الطريق، والسرقة، ونحو

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٤٩).

ذلك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كانوا فُسّاقًا يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة اللَّه، ويتوبون إليه، أو يَنْوُون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالّين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يُبغضه اللَّه ويُبغضون ما يحبه اللَّه. وبيّنتُ أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شرٌّ من المعاصي.

□ قلت مخاطبًا للأمير والحاضرين: أمّا المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً كان يدعى حمارًا، وكان يشرب الخمر، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحدَّ، فلعنه رجل مرةً، وقال: لعنه اللَّه، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ!. فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحبُّ اللَّه ورسوله**». قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب اللَّه ورسوله، شهد له النبي ﷺ بذلك، ونهى عن لعنه.

وأما المبتَدِع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ وغيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أن النبي ﷺ كان يقسم، فجاءه رجل ناتِئُ الجبين، كَثُّ اللحية، محلوقُ الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال، فقال النبي ﷺ: «**يخرج من ضِئضِئِ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءَته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرُقُون من الإسلام كما يمرُق السهم من الرَّمِيَّة؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتلَ عاد**»، وفي رواية: «**لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل**»، وفي رواية: «**شرُّ قتلى تحت أديم السماء، خيرُ قتلى من قتلوه**».

□ قلت: فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم، وما هم عليه من العبادة والزهادة أمرَ النبي ﷺ بقتلهم، وقتَلهم عليّ بن أبي طالب

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن معه من أصحاب النبي ﷺ؛ وذلك لخروجهم عن سُنَّة النبي وشريعته، وأظن أني ذكرتُ قول الشافعي: لأن يُبتَلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك باللَّه خيرٌ من أن يُبتلى بشيء من هذه الأهواء. فلما ظهر قُبْح البدع في الإسلام، وأنها أظلمُ من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعًا منكرة، فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر، أخذ شيخهم عبداللَّه يقول: يا مولانا، لا تتعرض لهذا الجناب العزيز. يعني أتباع أحمد بن الرفاعي. فقلتُ منكِرًا بكلام غليظ: ويحك؛ أيّ شيء هو الجَناب العزيز، وجَناب من خالفه أولى بالعزِّ يا ذا الزرجنة، تريدون أن تبطلوا دين اللَّه ورسوله؟! فقال: يا مولانا، يحرقك الفقراء بقلوبهم. فقلت: مثل ما أحرقني الرافضَةُ لما قصدتُ الصُّعود إليهم، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرِّهم، ويقول أصحابهم: إن لهم سرًّا مع اللَّه، فنصر اللَّه وأعان عليهم. وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بَركة ما يسَّره اللَّه في أمر غزو الرافضة بالجبل، أكذب الطوائف، حتى قيل فيهم: لا تقولوا: أكذبُ من اليهود على اللَّه. ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على شيخهم. وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿**فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ**﴾ [هود: ٥٥].

ولما رددتُ عليهم الأحاديث المكذوبة، أخذوا يطلبون مِنِّي كتبًا صحيحة ليهتدوا بها فبذلتُ لهم ذلك، وأُعيد الكلام: أنه مَن خرج عن الكتاب والسنَّة ضربتُ عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام، واستقر الكلام على ذلك. والحمد للَّه الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزَمَ الأحزاب وحده.

وقلت لهم: يا شبه الرافضة، يا بيت الكَذِب. فإن فيهم من الغلوّ والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك، أو يساوونهم، أو يزيدون عليهم». اهـ.

*** ابن تيمية والملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون:**

لمّا عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلك، وزالت دولة المظفر الجاشنكير وخُذل، وخُذل شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي «دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر، ولم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معززًا مكرّمًا مبجّلاً. ولما قَدِمَ عليه الشيخ تقي الدين نهض قائمًا للشيخ أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان، واعتنقا هناك هُنَيهة، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستانٍ، فجلسا ساعةً يتحدثان، ثم جاء ويَدُ الشيخ في يد السلطان، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر، وعن يساره ابن الخليلي الوزير، وتحته ابن صصري، ثم صدر الدين علي الحنفي، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان على طرف طراحته، وتكلّم الوزير في إعادة أهل الذِّمَّة إلى لُبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألفٍ في كلّ سنة زيادةً على الحالية، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام، وكبار العلماء من أهل مصر والشام، من جملتهم ابن الزملكاني. قال ابن القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني، فلم يتكلم أحدٌ من العلماء ولا مِنَ القُضاة، فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك، فلم يتكلم أحد، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلامٍ غليظ، وردّ على الوزير ما قاله ردًّا عنيفًا، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفقٍ وتؤدَةٍ وتوقير. وبالغ الشيخ في الكلام، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريبٍ منه، وبالغ في التَّشنيع على من يُوافق في ذلك. وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أُبَّهة المُلك تنصر فيه أهل الذِّمة لأجل حُطامِ الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ ردّ مُلكك إليك، وكبتَ عدوَّك، ونصرك على

أعدائك. فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدّد عليهم ذلك، فقال: والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك؛ لأنه إنما كان نائبًا لك. فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك. وجرت فصول يطولُ ذكرها. وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين، ودينه وقيامه بالحق وشجاعته. وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لمَّا انفردا في ذلك الشبّاك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة؛ بسبب ما كانوا تكلّموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من المُلك ومُبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك، وآذوك أنت أيضًا، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قتل بعضهم. وإنما كان حَنَقُه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوا فيه من عَزلِه ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مُرادَ السلطان، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، ويُنكر أن يَنال أحدًا منهم بسوءٍ، وقال له: إذا قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم. فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مِرارًا. فقال الشيخ: من آذاني فهو في حِلٍّ، ومن آذى اللَّه ورسوله فاللَّه ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح»[1].

قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضنَا عليه فلم نقدِر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجَجَ عنا.

للَّه درُّك يا شيخ الإسلام من إمامٍ!

للَّه درُّك من إمامِ أمة... للَّه درُّ أمٍ درت عليك... وأمةٍ فيها مثلك...

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية آيةً من آيات اللَّه في الصَّدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن الفرق. ويكفي ردُّه على فلاسفة الصوفية،

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٣ ـ ٥٥ ـ ٥٦).

والدجاجلة منهم، والأشاعرة والمتكلمين، والشيعة، والمُقَلِّدة، والفلاسفة وأهل الاعتزال، وكان أمَّارًا بالمعروف للسلاطين والأمراء.

□ قال الحافظ عمر بن علي البزار: «أخبرني من لا أتَّهِمُه أن الشيخ ﷺ حين وُشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون، أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس، وأنّ في نفسك أخذ المُلك. فلم يكترث به، بل قال له بنفسٍ مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عالٍ، سمعَه كثيرٌ ممّن حضر: أنا أفعل ذلك؟! واللَّه إن مُلكك ومُلك المُغل لا يساوي عندي فلسين. فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته ـ بما أوقع اللَّه له في قلبه من الهيبة العظيمة ـ: إنك ـ واللَّه ـ لصادق، وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب»[١].

لقد «كان ﷺ من أعظم أهل عصره قوةً ومقامًا وثبوتًا على الحق، وتقريرًا لتحقيق توحيد الحق، لا يصدُّه عن ذلك لومُ لائم، ولا قول قائل، ولا يرجع عنه لحُجَّة مُحتجٍّ، بل كان إذا وضح له الحق يعضُّ عليه بالنواجذ، ولا يلتفتُ إلى مُباينٍ معاندٍ، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، ولم يُولِّهم دُبُرَه فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتكَ به مرارًا، وأوسعُوا حيَلهم عليه إعلانًا وإسرارًا، فجعل اللَّه حِفظَهُ منهم له شعارًا ودثارًا. ولقد ظنُّوا أن في حبسه مشينةً، فجعله اللَّه له فضيلةً وزينةً، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادُّه أقرّ به عينيه، فإن اللَّه تعالى لعلمه بقرب أجله، ألبسَه الفراغ عن الخلق، للقدوم على الحقِّ أجملَ حُلَله، كونه حُبِسَ على غير جَريرةٍ ولا جريمة، بل على قوة في الحق وعزيمة، هذا مع ما نشر اللَّه له من عُلومه في الآفاق، وبَهَرَ بفنونه البصائر والأحداق وملأ بمحاسن مؤلفاته الصُّحف والأوراق، كبتًا ورغمًا للأعداء، أهل البدع المُضلّة والأهواء، وصُنُعًا عظيمة من رب السماء،

(١) «الأعلام العَلِيَّة» (ص٧٢، ٧٣).

لعوائده لخاصَّة الأولياء، أهل المحبة والولاء»[1] .

● قال رسول اللَّه ﷺ : **«لا يزال اللَّه يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة»**[2] .

* الطرطوشي وأمير مصر:

«افتحِ البابَ وَسَهِّلِ الحجابَ»:

□ «قال أبو بكر الطرطوشي: دخلتُ على الأفضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته. فردّ السلام عليّ نحو ما سلّمتُ ردًّا جميلاً، وأكرمني إكرامًا جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيُّها الملك، إن اللَّه تعالى قد أحلَّك محلاً عليًّا شامخًا، وأنزلَك منزلاً شريفًا باذخًا، وملَّكك طائفةً من مُلكه، وأشركَك في حكمه، ولم يرضَ أن يكون أمر أحدٍ فوق أمرك، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أولى بالشُّكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان؛ قال اللَّه تعالى: ﴿**اعملُوا آلَ دَاودَ شُكْرًا**﴾. واعلم أن هذا الذي أصبحتَ فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتَّقِ اللَّه فيما حولك من هذه الأمة، فإن اللَّه تعالى سَائلُك عن الفتيل والنقير والقِطْمير، قال اللَّه تعالى: ﴿**فوَرَبِّكَ لَنَسألَنَّهم أجمعِينَ عمَّا كَانُوا يَعْمَلون**﴾، وقال تعالى: ﴿**وإنْ كَانَ مثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَردلٍ أتينا بها وكَفَى بنَا حَاسِبِينَ**﴾، واعلم أيُّها الملك أن اللَّه تعالى قد آتى مُلك الدنيا

---

(١) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» ص(٧٥ ـ ٧٧).

(٢) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، والبخاري في «التاريخ» عن أبي عنبة الخولاني وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٦٩٢).

بحذافيرها سليمانَ بن داود عليه السلام، فسخَّر له الإنس والجنَّ والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخَّر له الرِّيح تجري بأمره رُخَاءً حيثُ أصابَ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿هذا عَطَاؤنا فامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغير حِساب﴾. فواللَّه ماعدَّها نعمة كما عددتُّموها، ولا حَسبها كرامةً كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من اللَّه تعالى ومكرًا به، فقال: ﴿هذا مِنْ فَضْلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأشْكُرُ أمْ أكفُرُ﴾. فافتحِ الباب، وسهِّل الحجابَ، وانصر المظلومَ، وأغثِ الملهوف، أعانك اللَّه على نصر المظلوم، وجعَلك كَهفًا للملهوف وأمانًا للخائف»[1].

* الخَبُوْشاني الفقيه الزاهد:

نجم الدين أبو البركات محمد بن موفق الخبوشاني الشافعي.

□ قال ابن خلكان: كان السلطان صلاح الدين يُقربه، ويعتقد فيه، ورأيت جماعة من أصحابه، فكانوا يصفون فضله ودينه وسلامة باطنه.

□ قال الموفق عبداللطيف: سكن السُّمَيْساطية، وعرف الأمير نجم الدين أيوب، وأخاه، وكان قشفًا في العيش، يابسًا في الدين، وكان يقول: أصعد إلى مصر، وأُزيل ملك بني عُبيد اليهودي، إلى أن قال: فنزل بالقاهرة، وصرّح بثلب أهل القصر، وجعل سبّهم تسبيحه، فحاروا فيه، فنفذوا إليه بمال عظيم قيل: أربعة آلاف دينار، فقال للرسول: ويلك، وما هذه البدعة؟! فأعجله، فرمى الذهب بين يديه، فضربه وأنزله من السلم.

□ ومات العاضد، وتهيّبوا الخطبة لبني العباس، فوقف الخبوشاني بعصاه قدّام المنبر، وأمر الخطيب بذلك، ففعل، ولم يكن إلا الخير، وزُيِّنت

(١) المستطرف في كل فن مستظرف.

بغداد[١].

◻ وكان لتقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يُباع فيها المزر[٢] على ما قيل فكتب الخبوشاني ورقة إلى صلاح الدين يذكر له هذا، فسيرها صلاح الدين إلى ابن أخيه وطلب منه إرضاء الشيخ، فركب إليه، وطلب منه حاجبه أن يقف بباب مدرسة الخبوشاني ريثما يهيئ له الأمور. وجاء حاجب نائب مصر المظفر تقي الدين عمر وقال له: تقي الدين يُسلِّم عليك. فقال: بل شقي الدين لا سلمّ اللّه عليه، قال: إنه يعتذر، ويقول: ليس له موضع لبيع المِزْر. قال: يكذب. قال: إن كان ثمّ مكان فأرِناه. قال: ادْن، فدنا فأمسك بشعره، وجعل يلطم على رأسه، ويقول: لست مزّارًا فأعرف مواضع المزر، فخلصوه منه[٣].

*** الفناري يرد شهادة سلطان الروم لتركه لصلاة الجماعة:**

هو القاضي محمد بن محمد بن حمزة الفناديّ ويُقال الفناري بالراء مكان الدال ولد سنة ٧٥١هـ وارتحل إلى مصر رجع إلى الروم فولي قضاء بروسا وارتفع عند ابن عثمان جدًا وحلّ عنده المحل الأعلى.

◻ قال ابن حجر: كان عارفًا بعلم العربية والمعاني والبيان والقرآن كثير المشاركة في الفنون، وكان حسن السمت كثير الفضل والإفضال. ولَمَّا دخل القاهرة يريد الحج اجتمع به فضلاء العصر وذاكروه وشهدوا له بالفضيلة ثم رجع.

ومن تصلبه في الدين وتثبته في القضاء أنه رد شهادة من سلطان الروم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠٤/٢١).
(٢) المِزر: نبيذ يُتخذ من الذرة، وقيل من الشعير أو الحنطة، وهو يشبه البيرة في عصرنا.
(٣) انظر «السير» (٢٠٧/٢١).

في قضية فسأله السلطان عن سبب ذلك فقال: إنك تارك للجماعة فبنى السلطان قدّام قصره جامعًا وعين لنفسه فيه موضعًا ولم يترك الجماعة بعد ذلك.

فللَّه در هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه التي سمعت بعض وصفها، ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن له عليه أدنى نعمة مخافة من زوالها، بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل الرتب السنيّة عن التكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأماني الأشعبية. ورحم اللَّه هذا السلطان الذي سمع الحق فاتبع، ولم تصدّه سوْرة[1] الملك وما هو فيه من سلطان الذي كاد يطبق الأرض عن قبول ذلك وهذا السلطان هو السلطان بايزيد بن مراد[2].

*** الكوراني عالم بلاد الروم يقول للسلطان: مطعمك حرام وملبسك حرام:**

عالم بلاد الروم أحمد بن إسماعيل بن عثمان شهاب الدين الكوراني:

قال عنه الشوكاني في «البدر الطالع» (١/ ٤٠): «توجّه إلى مملكة الروم.. وحسنت حاله هناك جدًّا... وقد ترجمه صاحب «الشقائق النعمانية» ترجمة حافلة ذكر فيها أن سلطان الروم السلطان محمد عرض عليه الوزارة فلم يقبلها، وأنه أتاه مرّة مرسوم من السلطان فيه مخالفة للوجه الشرعي فمزّقه، وأنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له ولا يقبّل يده بل يصافحه مصافحة، وأنه كان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط وذكر له مناقب جمة تدل على أنه كان من العلماء العاملين» اهـ.

---

(١) سوْرة: سطوة.

(٢) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩).

*** الشيخ محمد بن علي الحاج الأغصاوي يعارض أمير فاس في بيع حصن العرائش للنصارى فيقتله:**

قتله أمير فاس في وقته، السلطان محمد الشيخ المأمون بن أبي العباس المنصور فقد كتب الأغصاوي رسالة أغلظ له فيها القول، وذلك أن محمد الشيخ المأمون أراد أن يبيع مدينة القصر وحصن العرائش وحصن أصيلا للنصارى دمرهم اللَّه في فكاك أولاد عمه الذين كانوا مأسورين عند النصارى، فكان الأغصاوي يقول: لو حمل أهل الغرب خراجًا يدفعونه للنصارى في فكاك المأسورين لكان أهون، فخالفه في ذلك محمد الشيخ بأنه لا بد من بيع المدائن المذكورة، ووافقه على ذلك بعض من لا خلاق له، فصرّح الأغصاوي بأن محمد الشيخ تنقض بيعته بهذا السبب، فغضب لذلك الأمير حيث وصله خبره، فكتب أخ الأغصاوي وهو عليّ إلى الأمير يعتذر عن أخيه، ويتطلب بأن أخاه مجذوب تغلب عليه الأحوال ومن كان هكذا لا يؤاخذ بما يصدر عنه، ثم إن الأغصاوي اطلع على ما كُتب للأمير فكتب بظهر كتاب أخيه المذكور مخاطبًا السلطان ما نصه: ما قاله علي ـ يعني أخاه ـ بعضه حق وبعضه كذب، بأي موجب قلعت محلتك من سلا، وأتيت مهرولاً لهتك حرمة الإسلام؟ ومن ألزمك صرخة عبدة الأصنام والأوثان؟ أكفر بعد إيمان؟ واللَّه ما تبدّل لي ديني أنت ولا عليّ، وباللَّه الذي لا إله إلا هو لا يُحلَف بأجل منه المهيمن الدّيان لو وصلتي إلى تطاون إلا لقيتك باللَّه ورسوله حماية للكلمة الإسلامية وغيرة على الأمة المحمدية حتى تسمع مني ما قال فيه سيدنا رسول اللَّه ﷺ: «**الدين النصيحة**» لكن لا إيمان لك مع الذين على عهده ولا عهدة، الحمد للَّه الذي أبعدني عن صحبتك، فقد أراد بي خيرًا واللَّه لا سعيت في وصلك أبدًا لأن وصلك بعد من اللَّه، وفصلك قرب من اللَّه، فالوجود كله كان يخاطبني باللعنة الصريحة بسبب مخالطتك،

فلا تطمع بوصالي أبدًا لأني وصلتك في اللَّه، ولم أخش في اللَّه لومة لائم، وليس محمد[1] بقائم، والموت محيط بكل أحد، وهو قنطرة بين دار البقاء ودار الفناء، فإذا لقيت اللَّه وهو راض عني لا أبالي بما ألقى قبل لقائه، ولا خوف إلا لمن يُقتل ولا يُغفر، فإن كنت تقتل واللَّه يغفر فلا فائدة في قتلك، والموت كما قيل مسلك ينتهج فيه المالك والمملوك، فأنا اليوم وأنت غدًا، وعند ربكم تختصمون، أليس اللَّه بكاف عبده، ويخوّفونك بالذين من دونه، ومن يضلل اللَّه فما له من هاد، ومن يهد اللَّه فما له من مضل.

فكيف يا مخذول تسلّم للنصارى ـ دمرهم اللَّه ـ حصون المسلمين ومعاقل الدين والمساجد التي عبدوا فيها اللَّه وتُلي فيها كلام اللَّه وانتصبت محاربهم لقبلة الإسلام وتعلّقت بهم من حرمة مسجد اللَّه الحرام ما أقامه مقامه في محلهم، كأنك لم تسمع قوله جلّ من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وكيف تصح النسبة للإسلام لمن لم ينصر شرائع الدين قلمًا وقدمًا؟

سبحان اللَّه وبحمده، لو بعثت أربعة رجال من سلا[2] لما ظهر لك لوقع الكلام مع الناس ويتفاوضون في الرأي الصالح والحاضر ويصير فيها ما يوافق شريعة الإسلام وفقًا طواعيًا عن رضى وتراض لكان أسلم لك عن هذا الخصوص، وإلا حيث سوّلت لك نفسك تسمع كلام من لا خلاق له، من باع آخرته بدنياه، ومن يرى القرب منك أعظم من القرب من اللَّه، ورأيت كأن الخلق ليس لهم خالق بل أنت خالقهم وليس غيرك، وأنك أحطت بجميع الخلق وأرواحهم بيدك، فإذا استطعت قبض أرواحهم فافعل ما تريد، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، فكيف يا مسكين انطمست بصيرتك عن منهاج

---

(١) يعني ـ نفسه ـ رحمه اللَّه ـ.

(٢) أي: اثنين وعشرين وألف.

الحق وتحملت سريرتك ما لا يطاوع من الخبث؟

لو كان الخير فيك لعكس بصرك إلى بصيرتك ولاتخذت من العلماء لصحبتك أهل الورع الذين تجذهم دنيا وأخرى، ولظهر حسن سيرتك على خديمك من زمان، من هو ملازم لخدمتك الآن لا يحرّم حرامًا كان، ولا يكون لك عليه ملك، لا حاجة لي بخلطتك البتة، قل فللّه الحجة البالغة، ومن أسرّ سريرة ألبسه اللّه رداءها، والسلام».

وهذا الأمر الذي رام الظالم لنفسه أمر عظيم، فإن في تسليم هذه الحصون للنصارى أعداء اللّه ورسوله إدخالاً للوهن عن بيضة الإسلام، وتوهينًا لأمة النبي ﷺ وتمكينًا لهم من أسرهم مدى الليالي والأيام، فإن كثيراً من أهل تلك الناحية ضعفة لا يستطيعون حرص أنفسهم مع الكفار مع كونهم معهم قرب منازلهم فيُفضى الأمر إلى أسر أكثر وأكثر من الذين أراد فداءهم، ولا يُضرّ مسلم لإنقاذ مسلم آخر، فإن الجميع له ذمة الإسلام، على أنه ربما لزم منه استئصال الإسلام من أصله من هذا الغرب المشتمل على أمم لا يحصيها إلا اللّه تعالى، وفيهم من الضعفاء والأرامل كذلك من لا يستطيعون دفعًا عن أنفسهم كما وقع في بلاد الأندلس ـ أعادها اللّه دار إسلام ـ فإن سبب أخذها واستيلاء النصارى على حصونها ورباطاتها بغفلة المسلمين وتراخيهم ومسامحتهم، وكلما استولوا على حصن وقع اليأس من استنقاذه حتى استولوا على الجميع ـ دمر اللّه العدو، ونصر الإسلام ـ بعد أن قاتلهم أهل الإسلام أشد القتال وفعلوا بهم الأفاعيل العظيمة، ومع ذلك لم يغنوا شيئًا في ردّ الحصون إذ كان العدو محتفلاً لها شديد الحرص على أخذها ينتهز الفرصة في ذلك حتى تمكن من الجميع وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً.

وتغليظ الأغصاوي له في محله، وإن أفضى ذلك إلى قتله، فقد فاز

بالشهادة[١] لأنه بذل نفسه للّه تعالى في الدفع عن الدين لأن تكون كلمة اللّه هي العليا، ولصون شريعة اللّه عن امتهان الكافرين ولحماية حرمة المسلمين[٢].

* العلاّمة علاء الدين الجمالي والسلطان سليم:

العلاّمة العالم الفاضل علاء الدين علي بن أحمد الجمالي الرومي الحنفي لما تولى السلطان أبو يزيد السلطنة رآه في المنام فأرسل إليه الوزراء ودعاه إليه فامتنع فأعطاه تدريسًا ثم رقّاه في التدريس حتى أعطاه إحدى الثماني[٣].

وكان يصرف جميع أوقاته في التلاوة والعبادة والتدريس والفتوى ويصلي الخمس في الجماعة، وكان لا يذكر أحدًا بسوء، ويغلق باب داره ويقعد في غرفة له فتُلقى إليه رقاع الفتاوى فيأخذها ويكتب ثم يدلّيها؛ فعل ذلك لئلا يرى الناس فيميز بينهم في الفتوى وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصدع بالحق ويُواجه بذلك السلطان فمن دونه حتى إن السلطان سليم خان أمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفّاظ الخزينة فتنبّه لذلك المولى علاء الدين فذهب إلى الديوان ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان إلاّ لحادثة عظيمة، فلما دخل على أهل الديوان تحيّروا في الأمر وقالوا: أيّ شيء دعا المولى إلى المجيء فقال: أريد أن ألاقي السلطان ولي معه كلام فعرضوا أمره على السلطان، فأمر بدخوله وحده فدخل وسلمّ وجلس وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعتُ بأنك

(١) نرجو اللّه له ذلك.

(٢) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للشيخ محمد بن الطيب القادري (١/ ١٤٠ - ١٤٤).

(٣) هي المدارس الثمانية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح في القسطنطينية لما فتحها.

أمرتَ بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعًا فغضب السلطان سليم، وكان صاحب حدّة وقال: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال: بل أتعرّض لأمر آخرتك وهو من وظيفتي فإن عفوت فلك النجاة وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سوْرة غضبه وعفا عن الكل، ثم تحدّث معه ساعة ثم سأله في إعادة مناصبهم فأعادها لهم.

وحكى أن السلطان سليم أرسل مرة إليه أمرًا بأن يكون قاضي العسكر وقال له: جمعتُ لك بين الطرفْين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق فكتب الجمالي في جوابه: وصل إليّ كتابك سلمّك اللّه تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء وإني أمتثل أمرك إلا أن لي مع اللّه تعالى عهدًا أن لا تصدر عني لفظة (حكمتُ) فأحبه السلطان محبة عظيمة لإعراضه عن المال والجاه والمنصب صيانة لدينه[١].

* **الشاطبي[٢] والأمير موسك: «قُلْ للأمير نصيحةً»:**

كان الأمير عزُّ الدين مُوسك من أمراء دولة بني أيُّوب ـ ويُنسب إليه شارع الموسكي بمصر ـ كان أميرًا يحبّ أهل العلم والصلاح، فلما قَدِمَ الإمام القاسم الشاطبي المقرئ الضرير، وكان إمامًا منقطِع القرين، رأسًا في القراءات، الذي سارت الرُّكبان بقصيدته (حرز الأماني) فلما قَدِمَ مصر ووُصِفَ للأمير، طلبهُ، ولم يتقدم إليه الأمير بنفسه. فأخذت الشيخ عزَّةٌ

(١) «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزي (١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٢) الشاطبي: هو القاسم بن فيروه الرعيني، وهو إمام قُرَّاء عصره. وُلد بشاطبة (الأندلس)، وتوفي بالقاهرة عام ٥٩٠هـ. وكان ضريرًا، رحَل إلى القاهرة وعلَّم فيها. من آثاره: حِرز الأماني؛ وهي قصيدة في القراءات تُعرف بالشاطبية، وكان عالمًا بالحديث والتفسير واللغة. قال ابن خلكان: كان إذا قُرئ عليه «صحيح البخاري»، و«مسلم»، و«الموطأ»؛ تُصحح النُّسخ مِن حفظه.

العلم، وهو الغريب الفقير، فكتب له رقعةً فيها:

قلْ للأميرِ نصيحةً ... لا تركنَنَّ إلى فقيهْ
إنَّ الفقيه إذا أتَى ... أبوابَكُم لا خيرَ فيهْ

*** أبو غياث الزاهد والأمير[1] :**

رُوي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن المقابر ببخارى، فدخل المدينة ليزورَ أخًا له، وكان غلمان الأمير نصر بن محمد، ومعهم المُغَنُّون والملاهي، يخرجون من داره، فلما رآهم أبو غياث الزاهد قال: يا نفس، وقع أمرٌ إن سكتِّ فأنت شريكةٌ. فرفع رأسه إلى السماء واستعان باللَّه وأخذ العصا، فَحَملَ عليهم حملةً واحدة، فولُّوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان، وقصُّوا على الأمير، فدعا به، وقال له: أما علمتَ أنه من يخرج على السلطان يتغدى في السجن؟ فقال له أبو غياث: أما علمت أنه من يخرج على الرحمن يتعشَّى في النيران؟ فقال له: مَن ولاك الحسبة؟ فقال: الذي ولاك الإمارة. فقال الأمير: ولاني الخليفةُ. فقال أبو غياث: ولاني الحسبة ربُّ الخليفة. فقال الأمير: ولَّيتُكَ الحسبةَ بسمرقند. فقال: عزلتُ نفسي عنها. فقال الأمير: العجَب في أمرِك، تحتسب حين لم تؤمر، وتمتنع حيث تؤمر؟! قال: لأنك إن وليتني عزلتني، وإذا ولاني ربي لم يعزلني أحد. فقال الأمير: سل حاجتك؟ فقال: حاجتي أن تردَّ علي شبابي! فقال: ليس ذلك إليّ فهل لك حاجة أخرى؟ قال: أن تكتب إلى مالكٍ خازنِ النار أن لا يعذبني. قال: ليس لي ذلك أيضًا. قال: هل لك حاجة أخرى؟ قال: أن تكتب إلى رضوان خازن الجنان يدخلني الجنة. قال: ليس ذلك إليّ أيضًا. قال أبو غياث: فإنها مع الربّ الذي هو مالك الحوائج كلها، لا أسأله حاجة إلا أجابني إليها. فخلّى الأميرُ سبيلَه[1] .

---

(١) انظر كتاب «من أخلاق العلماء».

* **أبو النضر وعاملٌ للخليفة: «كتاب اللَّه قبل كتاب الخليفة»:**

دخل أبو النضر سالم مولى عمر بن عبيداللَّه على عاملٍ للخليفة، فقال له: يا أبا النضر، إنه تأتينا كتبٌ من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بُدًّا من إنفاذها، فما تَرَى؟ قال أبو النضر: قد أتاك كتابُ اللَّه قبل كتاب الخليفة، فأيّهما اتبعتَ كنت من أهله.

* **أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان: «لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون؟»:**

كان والي البصرة: محمد بن سليمان، فكان كلما صعد المنبر أمر بالعدل والإحسان، فقام أبو سعيد الضبعي، فقال: يا محمد بن سليمان، إن اللَّه تعالى يقول في كتابه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾. يا محمد بن سليمان، إنه ليس بينك وبين أن تتمنَّى أن لم تُخلق إلا أن يَدخل ملكُ الموتِ من بابِ بيتك. قال: فخنقت محمد بن سليمان العبرة، فلم يقدر أن يتكلم، فأحبَّه النسَّاكُ حين خنقته العبرة، وقالوا: مؤمنٌ مذنبٌ.

* **القاضي ابن عين الدولة.. والملك الكامل:**

ولقد عرضت على القاضي ابن عين الدولة قضية كان أحد الشهود فيها الملك الكامل، فأراد القاضي أن يتجنب شهادته؛ لأنه ليس من العدول في نظره.. فقال له في رفق: السلطان يأمر ولا يشهد!! فلما لم يفهم الملك رغبة القاضي في إبعاده عن موقف الشهادة قال للقاضي: أنا أشهد.. تقبلني أم لا؟!

فقال له القاضي: لا.. لا أقبل منك شهادة، وقد علمت أن الفتاة التي تُدعى «عجيبة» المغنية تطلع إليك بجنكها ودفّها كل ليلة، ثم تنزل وهي تتمايل ثملة على أيدي الجواري؟! أيحسن ما نزلت عن هذه الشهادة؟!

فثارت ثائرة الملك، وخرج عن صوابه.. ولكنه لم يستطع أن يشتمه باللغة العربية، فشتمه باللغة الفارسية قائلاً: يا كيواج!!

فردّ القاضي ردًّا حاسمًا في ملأ الناس وقال: ما في الشرع يا كيواج!! أي أنه ردّ عليه شتمته بذكاء ولباقة وعزّة!!

وبعد ذلك أعلن ابن عين الدولة على الفور أنه قد عزل نفسه من القضاء!! وعندما نهض لمغادرة المكان أسرع إليه الملك وأخذ يسترضيه ويعتذر إليه خوفًا من أن يصل الخليفة أمره، وظل يرجوه العفو والصفح، ويعده بألا يعود إلى المعاصي[1].

* * *

(١) «كتمان الحق» ص(١٢٢ ـ ١٢٣).

القضاة الذين لا يخشون في اللَّه لومة لائم من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر

يدخل في زمرة الربانيين القضاة الذين صدعوا بالحق وما خشوا في اللَّه لومة لائم، وكانوا من سادات الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، ونذكر منهم:

*** قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف:**

كان شعبة إذا ذكر سعد بن إبراهيم يقول: حدّثني حبيبي سعد بن إبراهيم، يصوم الدهر، ويختم القرآن في كل يوم وليلة.

◻ اختصم عند ابن هشام المخزومي ـ أمير المدينة ـ وسعدٌ عنده يومًا ـ ولد لمحمد بن مسلمة وآخر من بني حارثة، فقال ابن محمد: أنا ابن قاتل كعب بن الأشرف. فقال الحارثي: أما واللَّه، ما قُتِل إلا غدرًا، فانتظر سعد أن يغيّرها الأمير، فلم يفعل حتى قاما. فلما استقضي سعد قال لخادمه: أُعطي اللَّه عهدًا لئن أفلت الحارثي منك لأوجعنّك. قال شعبة: فصليت معه الصبح ثم جئت به سعدًا، فلما نظر إليه سعد قال: أنت القائل: إنما قُتِل ابن الأشرف غدرًا، ثم ضربه خمسين ومائة سوط، وحلق رأسه ولحيته وقال: واللَّه لأقومنك بالضرب ما كان لي عليك سلطان.

وفي مرض الموت دخل عليه ابن هرمز وجماعة يعودونه، فاغرورقت عينا ابن هرمز، فقال له سعد: ما يُبكيك؟ فقال: واللَّه لكأني بقائلة غدًا تقول: واسعداه للحق ولا سعد. قال: واللَّه لئن قلت ذلك، ما أخذني في اللَّه لومة لائم منذ أربعين سنة[١].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٤١٨ ـ ٤٢١).

* **قاضي القضاة بكّار بن قتيبة ووالي مصر أحمد بن طولون:**

قال الذهبي: كان عظيم الحُرمة، وافر الجلالة، من العلماء العاملين، وكان تاليًا للقرآن، بكّاءً صالحًا دينًا.

قال الطحاوي: كان بكّار على نهاية من الحمد في ولايته.

جمع أحمد بن طولون العلماء والأعيان، وقال: قد نكث الموفق أبو أحمد - ولي العهد - بأمير المؤمنين، فاخلعوه من العهد، فخلعوه، إلا بكّار ابن قتيبة. وقال: أنت أوردت عليّ كتاب المعتمد بتوليته العهد، فهات كتابًا آخر منه بخلعه، قال: إنه محجور عليه ومقهور. قال: لا أدري. فقال له: غرّك الناس بقولهم: ما في الدنيا مثل بكار، أنت قد خرفت. وقيّده وحبسه وأخذ منه جميع عطائه من سنين، فكان عشرة آلاف دينار، فقيل: إنها وُجدت بختومها وحالها.

ونقل القاضي ابن خلّكان: أن ابن طولون كان يُنفذ إلى بكّار في العام ألف دينار، سوى المقرّر له، فيتركها بختمها، فلما دعاه إلى خلع الموفق، طالبه بجملة المال، فحمله إليه بختومه ثمانية عشر كيسًا، فاستحيا ابن طولون عند ذلك.

ولما اعتل أحمد بن طولون راسل بكّارًا، وقال: إنا رادوك إلى منزلك، فأجبني، فقال له: قل له: شيخ فان، وعليل مدنف والملتقى قريب، والقاضي اللَّه عز وجل، فأبلغها الرسول أحمد، فأطرق، ثم أقبل يكرر ذلك على نفسه ثم أمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له[1].

(١) «السير» (١٢/ ٤٩٩ - ٦٠٤)، و«ولاة مصر وقضاتها» (٣٦١ - ٣٦٢).

*** القاضي أبو عبيد بن حربويه ومؤنس الخادم أكبر أمراء الخليفة المقتدر:**

قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة، كان أمير مصر يركب إلى داره ولم يكن هو يركب إلى دار الأمير.

ومن شدّته في إنفاذ الشريعة أن مؤنسًا الخادم ـ وكان أكبر أمراء الخليفة المقتدر وكان يُخطب له على المنابر مع الخليفة ورد إلى مصر في عسكر كبير، فعرض له ضعف، فأرسل إلى القاضي يطلب منه شهودًا يشهدهم عليه أنه أوصى بوقف قرى كثيرة على سبيل البر، وبعتق ستمائة مملوك، وبأنواع من الخير. فقال القاضي: حتى يثبت عندي أن مؤنسًا حر، وقال: إنه لم يرد عليّ كتاب من الخليفة بأنه أعتقه، فلا أفعل. وكتب المقتدر إليه كتابًا، فوصل الكتاب إلى مؤنس، فاستدعى بعض الأمراء ليوصله إلى القاضي، فامتنع هذا؛ هيبة منه، فدعا تكين أمير مصر، وحمله على أن يذهب إلى القاضي ويوصل إليه الكتاب، فأتى تكين إلى القاضي ومعه الكتاب وناوله إياه، فقال القاضي: ما هذا؟ فقال: كتاب أمير المؤمنين. فقال: أمِنْ يدك؟ فقال: بل من أيدي شاهدَيْن عدلَيْن يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين[1].

*** الإمام الشهيد قاضي برقة: محمد بن الحُبُلي والمنصور سلطان العُبيديين:**

أتاه أمير برقة ـ وكان من الفاطميين العبيديين ـ فقال: غدًا العيد. قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطِّر الناس وأتقلد إثمهم. فقال: بهذا جاء كتاب المنصور. وكان هذا من رأى العُبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون برؤية، فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد. فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي. فأمر الأمير رجلاً خطب، وكتب بما جرى إلى المنصور،

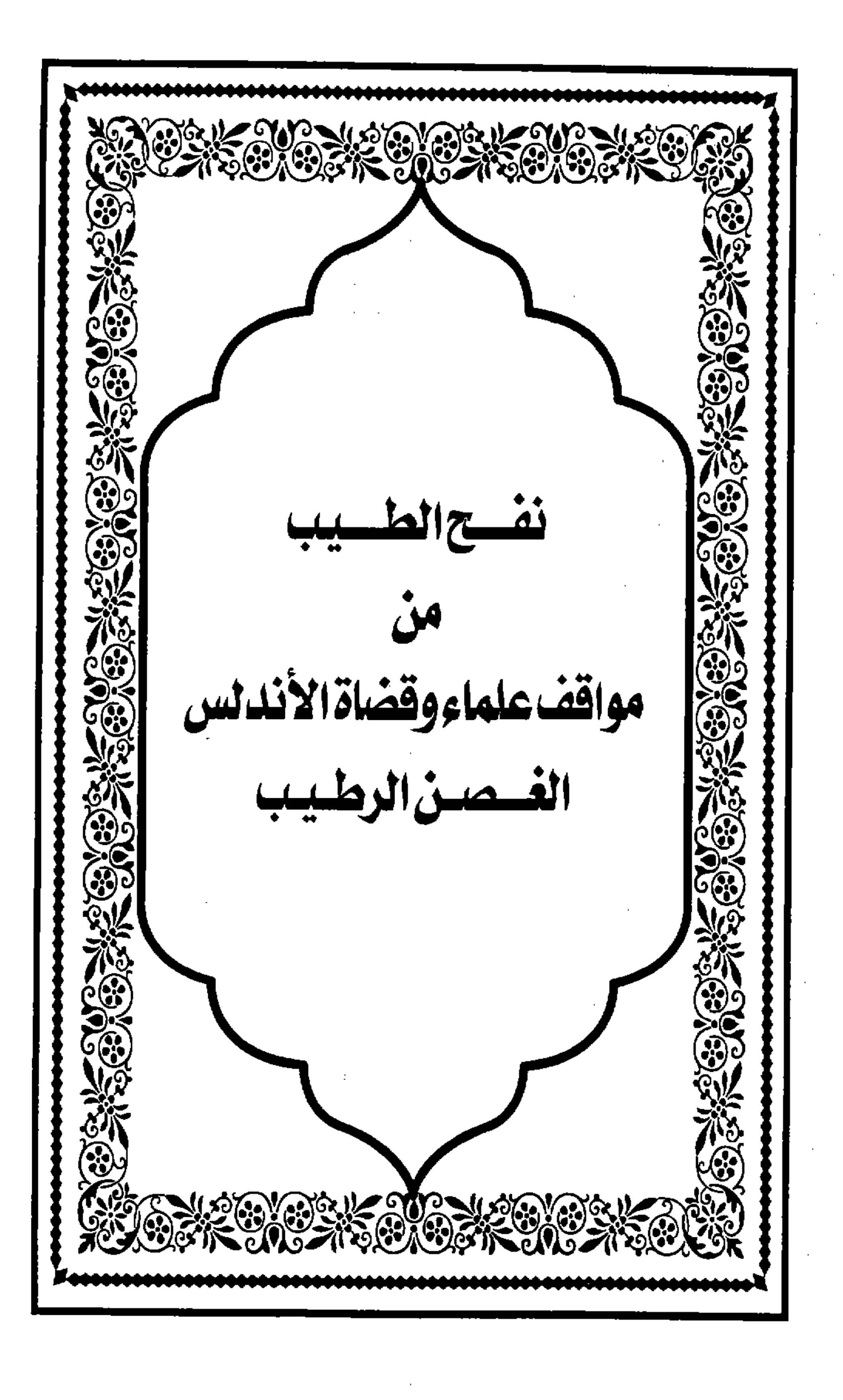
---

(١) مقدمة «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» للأمير شكيب أرسلان ص(٢٩ ـ ٣٠) ـ مكتبة دار الحياة ـ بيروت.

فطلب القاضي إليه، فأُحضر، فقال له: تنصّل، وأعفو عنك. فامتنع، فأمر، فعُلِّقَ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش فلم يُسق، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة اللَّه على الظالمين»[1] .

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٧٤).



نفـــح الطـــيب
من
مواقف علماء وقضاة الأندلس
الغـــصن الرطـيـب

نَفْحُ الطِّيبِ مِن مواقفِ علماءِ وقضاةِ الغُصنِ الرطيب

* **القاضي نصر بن ظريف اليحصبي والأمير عبدالرحمن بن معاوية:**

حكى أبو عمر بن عبدالبر أن حبيبًا القرشي دخل على الأمير عبدالرحمن بن معاوية، فشكا إليه القاضي نصر بن ظريف اليحصبي، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه في ضيعة يقيم فيها، وادَّعى عليه الاغتصاب لها، ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلى الحكم عليه من غير تثبت. فأرسل الأمير إليه وكلمّه في حبيب ونهاه عن العجلة عليه، فخرج ابن ظريف من يومه، وعمل بغير ما أراد الأمير، وأنفذ الحُكم، وبلغ الخبر حبيبًا؛ فدخل إلى الأمير متَّغرًا غيظًا، فذكر له ما عمله القاضي، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له، وأغراه، فغضب الأمير على القاضي واستحضره، فقال له: من أمرك أن تنفذ حكمًا، وقد أمرتك بتأخيره والأناة به؟ فقال له: قدّمني عليه رسول الله ﷺ؛ فإنما بعثه الله بالحق؛ ليقضي به على القريب والبعيد والشريف والدنيء. وأنت أيها الأمير، ما الذي حملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض، وأنت تجد مندوحة بأن تُرضي من مالك مَن تُغني به، وتمدّ الحق لأجله؟ فقال له: جزاك الله يا ابن ظريف خيرًا. وخرج القاضي، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم بالاستحقاق، وكلّمهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن، فعقد فيها البيع معهم، وصارت إلى حبيب، فكان بعد ذلك يقول: جزى الله ابن ظريف عنا خيراً، كانت بيدي ضيعة حرام، فجعلها حلالاً[1] .

---

(١) «قضاه الأندلس» (ص٤٤) ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ لبنان.

* **قاضي قرطبة المصعب بن عمران يردّ الضيعة على الأيتام ويخالف كلام الأمير الحكم بن هشام:**

عُرف هذا القاضي ـ رحمه اللَّه ـ بصلابته في الحق، وحكمه به على أي أحد كائنًا من كان.

«في كتاب الحسن بن محمد: أن العباس بن عبدالملك المرواني اغتصب رجلاً من أهل جيّان ضيعته، فبينما هو ينازعه فيها، هلك الرجل وترك أيتامًا صغارًا، فلما ترعرعوا وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه قدموا قرطبة، وأنهوا إليه مظلمتهم بالعبّاس، وأثبتوا ما وجب إثباته، فبعث القاضي إلى العباس، وأعلمه بما دفعه إلى الأيتام، وعرّفه بالشهود عليه، وأعذر إليه فيهم، وأباح له المدافع، وضرب له الآجال، فلما انصرمت، ولم يأت بشيء أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه، ففزع العباس إلى الأمير الحكم، وسأله أن يوصي إلى القاضي بالتخلي عن النظر في قضيته؛ ليكون هو الناظر فيها، فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه، فلما أدّى الوصية إليه، اشتدت عليه، وقال: «إن القوم قد أثبتوا حقهم، ولزمهم في ذلك عناء طويل، ونصب شديد لبُعد مكانهم، وضعف حالتهم. وفي هذا على الأمير ـ أعزّه اللَّه ـ ما فيه فلست أتخلى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه، فليفعل الأمير بعده ما يراه صوابًا من رأيه». فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه، فوجم منه، وجعل العباس يغريه بمصعب، ويقول: قد أعلمتُ الأمير بشدة استخفافه وغلطه في نفسه، وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه. وكرّر الأمير الطلب إليه أن يكفّ عن إصدار الحكم في القضية، فأمر القاضي الرسول بالقعود، وحكم للقوم بالضيعة، ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه، وقال: قد حكمتُ بالعدل، فلينقضه الأمير إن قدر، فاستشاط غيظًا، وأطرق مليًّا. وأقرّ حُكم القاضي»[1].

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٤٦ ـ ٤٧).

*** أبو عبدالله محمد بن يحيى بن البراء قاضي المرية بالأندلس، ويوسف ابن تاشفين أمير المرابطين:**

كتب إليه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين - فيمن كتب إليهم - بفرض معونة على الأهالي لأجل الجهاد، فامتنع القاضي عن فرضها، وكتب إلى أمير المسلمين بأنه لا يجوز له ذلك. فأجابه أمير المسلمين ابن تاشفين قائلاً له: إن القضاة عندي والفقهاء أباحوا فرضها، وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرضها في زمانه، فراجعه القاضي بكتاب يقول له فيه: الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا، وبعد: فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخّري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية، فإن كان عمر رضي الله عنه اقتضاها؛ فقد كان صاحب رسول الله ﷺ، ووزيره، وضجيعه في قبره، ولا يُشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ، ولا بوزيره، ولا بضجيعه في قبره، ولا ممن لا يُشك في عدله، فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل، فإن الله سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته... إلخ فلما بلغه هذا الكتاب وعظه الله بقوله ولم يُعِدْ عليه في ذلك قولاً[1].

***

(١) مقدمة «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» ص(٣٠ي - ٣١).

* **قاضي الجماعة بمراكش أبو عبدالله بن علي بن مروان وأبو يوسف المنصور ملك الموحدين:**

روى ابن خلكان عنه هذه الحكاية الرائعة وهي: «أن الأمير الشيخ أبا محمد عبدالواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسيّر الأمير عبدالواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبدالواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي عبدالله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور، ومضى على ذلك أيام، ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاءوني. فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله، وهذه الثانية فسكت الأمير يعقوب، ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد القاضي بالقصر المذكور، وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، وأنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير وقال له: يا مولانا، إن الشيخ عبدالواحد قد تكرّر طلبه لأهله، فإما أن تُسيِّر إليه أهله، وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ثم قال: يا أبا عبدالله، ما هذا إلا جدّ كبير. ثم استدعى خادمًا وقال له في السرِّ: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه، فحُملت إليه في ذلك النهار[1] .

---

(١) «وفيات الأعيان» (٧/ ١٠ ـ ١١).

* القاضي المنذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة والخليفة عبدالرحمن الناصر:

ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبدالرحمن الناصر، وناهيك من عدل أُظهر، ومن فضل أُشهر، ومن جور قُبض، ومن حق رُفع، ومن باطل خُفِض.

كان مهيبًا صليبًا، غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق اللَّه في استخراج حق ورفع ظلم، استعفى مرارًا من القضاء فما أُعفي»[1].

□ «كان المنذر قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير، وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء، انهمك في الإشراف عليها، حتى تأخر عن حضور صلاة الجماعة ـ في يوم الجمعة ـ ثلاث جمع متواليات، فأراد القاضي منذر أن يغضّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكّر بالإنابة والرجوع، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٦].

ثم وصله بقوله: فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار، ثم مضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:

(١) «نفح الطيب» (١/ ٣٧٥).

١٠٩]، ثم خوّف بالموت، ودعا إلى الزهد حتى خشع الناس ورقوا وبكوا، وضجّوا ودعوا وأعلنوا التضرع إلى اللَّه في التوبة والابتهال في المغفرة، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ باللَّه من سخطه، إلا أنه وجد[1] على منذر لغلظ ما قرّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، وقال: واللَّه لقد تعمّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي، ولم يُحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعُني. واستشاط غضبًا عليه، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء. وقال الحكم: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته؟! فزجره وانتهره، وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟! هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من اللَّه أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أحرجني فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يُصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء اللَّه، فما أظننا نعتاض منه أبدًا»[2].

□ قال ابن عفيف: من أخباره المحفوظة: أن أمير المؤمنين ـ الناصر ـ عمل في بعض سطوح الزهراء قبّة بالذهب والفضة، وجلس فيها، ودخل الأعيان فجاء منذر بن سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيت أو سمعت أن أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدّر، ثم قال: واللَّه ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان ـ لعنه اللَّه ـ يبلغ

---

(١) وجد: غضب.

(٢) عبدالرحمن الناصر لبسّام العسيلي ص(١٠٦ ـ ١٠٨).

منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك اللَّه من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين، حتى يُنزلك منازل الكافرين، فانفعل عبدالرحمن لقوله وقال: انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزلتهم؟ قال: نعم، أليس اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، فنكّس الناصر رأسه طويلاً ودموعه تتساقط، ثم قال: جزاك اللَّه عنا خيرًا وعن المسلمين، والذي قلت هو الحق، وأمر بنقض سقف القبّة.

ووقف مرة إلى جانب الخليفة الناصر، واستمع إلى ما قيل في مدح الزهراء، فاهتزّ الناصر وابتهج، أما القاضي منذر فأطرق، ثم قال منشدًا:

يا باني الزهراء مستغرقًا   أوقاته فيها أما تمهلْ

للَّه ما أحسنها رونقًا   لو لم تكن زهرتها تذبُلْ

فقال الناصر: إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتْها مدامع الخشوع، لا تذبُل إن شاء اللَّه تعالى. فقال منذر: اللَّهم اشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحًا[1] .

□ كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه، فهام بها، وكلف برغباتها، فبنى لها قصرًا جميلاً، ثم عنّ له أن يتوسع في شرفاته ومقاصيره، فأراد أن يشتري دارًا مجاورة لبعض الأيتام، وعرض بعض المال لذلك، فقال الوصيّ: إنه لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضي منذر بن سعيد، إذ أن الأيتام في حجره ورعايته، فهو قاضي الجماعة من المسلمين، وأولى بالتصرف والإنفاذ، فبعث

(١) «السير» (١٦/ ١٧٧)، وعبدالرحمن الناصر للعسيلي ص(١١٠ ـ ١١١).

الخليفة إلى القاضي يسأله إنفاذ البيع، فقال البلوطي لرسول الخليفة: إن البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه منها: الحاجة الملحة، أو الضعف الشديد، أو الرغبة في مال من غبطة مرتجاة، وليس بالأيتام حاجة لنقد، ولا بالدار ضعف فتزال، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين كثيراً أنفذت البيع وإلا فلا.

وطار الرسول بالخبر إلى الخليفة فأظهر زهدًا في شرائها، وخاف القاضي أن يصمّم الخليفة على الشراء، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها، فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة في الشراء، فعزّ ذلك على الناصر، واستدعى القاضي وناقشه في هدم المنزل، فقال له المنذر في جرأة حميدة: لقد أخذت في هدمها بقول اللَّه عز وجل: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] ومقوّمك لم يقدرها بمال معقول، وقد قبضت في الأنقاض وحدها أكثر منه، وبقيت الأرض للأيتام، فتدبر الخليفة الأمر قليلاً وأدرك صدق النيّة لدى القاضي وعلم إخلاصه في اتباع الحق فقال له: نحن أولى بالانقياد إلى العدالة، وجزاك اللَّه خيرًا يا قاضي الجماعة عن العدل والإسلام»[1].

*** ابن غانم القاضي والأمير إبراهيم بن الأغلب:**

هو عبداللَّه بن عمر بن غانم.

لما امتنع فرّوخ من القبول للقضاء أشار بابن غانم، وتقدّم من قِبل هارون الرشيد بإفريقية، وذلك في رجب سنة ١٧١، وكان يوجّه بمسائله أيام

---

(١) «علماء في وجه الطغيان» للدكتور محمد رجب البيومي (٢/ ١٥ ـ ١٦) هدية مجلة الأزهر ـ لشهر صفر ١٤٢٢هـ.

قضائه إلى الإمام مالك، فيما ينزل به من نوازل الخصوم، ويكتب إلى ابن كنانة[1] فيأخذ له الأجوبة من مالك.

□ قال ابن غانم: دخلتُ مجلس إبراهيم بن الأغلب، فبينما نحن قعود، إذ أشرف علينا إبراهيم، فقام إليه من كان في البيت غيري، فجلس مغضبًا، ثم قال لي: يا أبا عبدالرحمن ما منعك أن تقوم كما قام إخوانك؟ فقلت: أيها الأمير: حدثني مالك عن نافع، عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحب أن يتمثّل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**» فنكّس إبراهيم رأسه وأطرق.

وكان له ـ رحمه اللَّه ـ حظ من صلاة الليل، فإذا قضاها وجلس عرضها على ربه عَرض خصم يريد أن يحكم له فيقول في مناجاته: «يا رب» إن فلانًا نازع فلانًا وادّعى عليه بكذا؛ فأنكر دعواه؛ فسألته البيّنة؛ فأتى ببيّنة شهدت له بما ادّعى، وقد أشرفت أن آخذ له من صاحبه بحقه الذي تبيّن لي أنه حق له؛ فإن كنتُ على صواب فثبتني! وإن كنتُ على غير صواب فاصرفني! اللَّهم لا تُسلِمْني! اللَّهم سلِّمني! فلا يزال يعرض الخصوم على ربه حتى يفرغ منهم[2].

* شيخ المالكية وقاضي إفريقية الإمام سحنون:

هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقّب سحنون. تولى قضاء إفريقية وذلك سنة ٢٣٤هـ فلم يزل قاضيًا إلى أن مات.

ذكر عياض بن موسى عن أبي العرب أنه قال: لما عُزِل ابن أبي الجواد قال سحنون: «اللَّهم! ولِّ هذه الأمة خيرها وأعدلها» فكان هو الذي ولي

---

(١) هو القاضي الفرج بن كنانة.

(٢) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٤٣، ٤٤).

بعده. وقال: «لم أكَدْ أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير مَعْنيان؛ أحدهما: أعطاني كل ما طلبتُ، وأطلق يدي في كل ما رغبت، حتى إني قلتُ: «أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك؛ فإنّ قِبَلهم ظلامات للناس وأموالاً منذ زمان طويل»، فقال لي: «نعم! لا تبدأ إلا بهم، وأَجْرِ الحقّ على مفرق رأسي»، وجارني من عزٍّ منه مع هذا ما يخاف منه المرء على نفسه، وفكّرت؛ فلم أجد لنفسي سعة في ردِّه ولما تمّت ولايته، سار حتى دخل على ابنته خديجة، وكانت خيار النساء، فقال لها: اليوم ذُبح أبوك بغير سكين، فعلم الناس قبوله للقضاء.

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يؤدب الناس على الأيْمَان التي لا تجوز، من الطلاق والعتاق حتى لا يحلفوا بغير اللَّه، ويؤدبهم على سوء الحال في لباسهم وما نُهي عنه، ويأمرهم بحسن السيرة والقصد، وهو أول من نظر في الحِسْبَة من القُضاة، وأمر بتغيير المنكر، وأوّل من فرّق حِلَق البدع من الجامع، وشرّد أهل الأهواء منه، وكان الذين يحضرون مجلسه من العُبّاد أكثر من طلاب العلم.

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه العلم، بل يضرّه. وإنما العلم نور يضعه اللَّه في القلوب؛ فإذا عَمِل به، نوّر اللَّه قلبه، وإن لم يعمل به، وأحبّ الدنيا، أعمى حبُّ الدنيا قلبه، ولم ينوّره العلم.

ولم يأخذ لنفسه مدّة قضائه من السلطان شيئًا ـ رحمه اللَّه ـ[1] .

* القاضي عيسى بن مسكين والأمير إبراهيم بن الأغلب:

الرجل عيسى بن مسكين بن منصور تلميذ سحنون.

لما اضطر الأمير إبراهيم بن الأغلب يحيى بن عمر إلى ولاية القضاء،

---

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» (٤٧، ٤٨، ٤٩).

فقال له: «إن دلَلْتُك على مَنْ هو أفضل مني، في الوجه الذي تحبّ تعفيني؟» فقال له: نعم، فدَلّه على عيسى بن مسكين وكان بالحضرة حَمْديس، فقال: «إنه واللّه أيها الأمير، صاحبنا عند سحنون، جمع اللّه فيه خلال الخير بأسرها» فأرسل فيه إبراهيم إلى كورة بالساحل، وأوصله إلى نفسه، وقال: «أتدري لم بعثت لك؟»، قال: لا. قال: «لأشاورك في رجل قد جمع اللّه فيه خلال الخير، أردتُ أن أولّيه القضاء، وألمّ به شعث الأمة؛ فامتنع». قال: يلزمه أن يلي. قال: تمنّع. قال: يُجبَرُ على ذلك. قال: تمنّع. قال: يُجلَد. قال: قم! فأنت هو! قال: «ما أنا الذي وصفت» وتمنّع. فأخذ الأمير بجامع ثيابه، وقرّب السيف من نحره، فتقدّم إليه بخنجره. قال حمديس: «وكنت في المجلس؛ فقمت من مكاني، لئلا يصيبني من دمه». فلم يزل به حتى ولي على شروط، منها قال له: «أستعفيك في كل شهر»، قال: نعم، قال: «وأجعلك، وبني عمك، وجُندك، وفقراء الناس وأغنياءهم في درجة واحدة»، قال: نعم. قال: «ولم توجّه ورائي، وكذا وكذا، فمتى لم تفِ لي بشرط، عزلتُ نفسي». قال: نعم. وعرض عليه عند ذلك الكسوة والصلة، فامتنع وقال له: أنا رجل طويل الصمت، قليل الكلام غير نشط في أمور، ولا أعرف أهل البلد، فقال له الأمير: عندي مولى نشيط، قد تدرّب في الأحكام، أنا أضمه إليك. فضمّ إليه عبداللّه بن مفرِّج. قال المخبر: «فكثيراً ما كنت آتي مجلسه وهو صامت. وسُئل عن فرط انقباضه في قضائه فقال: «ابتُليت بجبّار عنيد، خِفتُ أن يبعث إليّ من طعامه، أو يدعوني إليه، ولا آتيه، فحملتُ نفسي على ذلك، ليقطع طمعه مني».

وكان إذا تحدّث عن أيام قضائه يقول: «كنت في بليّتي» و«كنت أيام المحنة».. ولما تاب الأمير تخلّى عن الملك وتوجّه للجهاد، أتاه عيسى بن مسكين؛ فقال له: «إن اللّه عافاكَ مما كنتَ فيه، فشارِكني في الخروج عمّا

أدخلتني فيه فقد كبر سني، وضعف بدني». وعلى الأثر وقع انفصاله عن القضاء[1] .

* **القاضي الفرج بن كنانة والأمير الحكم بن هشام:**

استخلصه الأمير الحكم بن هشام، وولاّه قضاء الجماعة بقرطبة. وكان هو القاضي بها أيام الهرج المعروف بوقيعة الرّبض.

ومما جرى له حينئذ، أن بعض أصحاب الأمير الحكم، الذين أرسلهم على الناس، تعلّقوا بجار الفرج بن كنانة، اتهموه بالحركة في الصبح، وتسوّروا عليه، وصاح نساؤه؛ فسمع القاضي الصراخ؛ فقال: «ما هذا؟» فقيل: «جارك فلان! تعلّق به الحرس؛ فأخرجوه ليُقتَل» فبادر بالخروج، وكفّ القوم عن جاره، وقال لهم: «إن جاري هذا بريء الساحة، سليم الناحية، وليس فيه شيء مما تظنون». فقال له رئيس الحرس، المُرسَل معهم: «ليس هذا من شأنك! فعليك بالنظر في أحباسك وحكومتك! ودَعْ ما لا يعنيك» فغضب الفرج عند ذلك، ومشى إلى الأمير الحكم؛ فاستأذن عليه، فلما دخل، قال له بعد السلام: «أيها الأمير! إن قريشًا حاربت رسول اللَّه ﷺ وناصبته العداوة في اللَّه تعالى، ثم إنه صفح عنهم، لما أظفر اللَّه تعالى بهم، وأحسن إليهم. وأنت أحق الناس بالاقتداء به، لقرابتك منه، ومكانك من خلافته في عباد اللَّه»، ثم حكى له قصة جاره، وما عرض له في الدفاع عنه، فأمر بتخلية سبيله، وبعقاب الناظر الذي عارض القاضي؛ وعفا عند ذلك عن بقية أهل قرطبة، وبسط الأمان بجماعتهم، وردّهم إلى أوطانهم»[2] .

---

(١) المصدر السابق ص(٤٩، ٥٠، ٥١).

(٢) المصدر السابق ص(٧٤، ٧٥).

*** القاضي سليمان بن الأسود الغافقي والأمير محمد بن عبدالرحمن الثاني أمير ماردة:**

□ قال أبو عمر بن عبدالبر: «كان القاضي سليمان بن الأسود رجلاً صالحًا متقشِّفًا، صليبًا في حكمه، مهيبًا. وكان السبب في تقليد الأمير محمد[1] إياه قضاء قرطبة، حُكْمٌ أمضاه بمدينة ماردة، وهو قاضٍ عليها للأمير عبدالرحمن والده، ومحمد أمير عليها؛ وقد احتبس لرجل يهودي من تجار جلِّيقية مملوكة أعجبته.

واشتط اليهودي في سومها، فدس غلمانه لاختلاسها في اليهودي، وخذع اليهودي إلى سليمان بمظلمة، واستشهد بمن حول دار الإمارة ممن عرف خبرها. فأوصل سليمان إلى محمد، يعرفه بما ذكره اليهودي، وما شهد به لديه ويقبح عنده سوءَ الأحدوثة عنه، ويسأله دفع مملوكته إليه. فأنكر محمد ما زعمه اليهودي ولواه بحقه، فأعاد القاضي إليه الرسالة يقول له: «إن هذا اليهودي الضعيف لا يقدر أن يدعي على الأمير بباطل وقد شهد عندي قوم من التجار فليأمر الأمير بإنصافه» فلج محمد، ولج سليمان فأرسل إليه سليمان ثانية، يقسم بالله العظيم لئن لم يصرف على اليهودي جاريته، ليركبن دابته من فوره، ويكون طريقه إلى الأمير والده يعلمه الخبر ويستعفيه من قضائه. فلم يلتفت محمد إلى وصيَّته فشد سليمان على نفسه وركب دابته سائرًا إلى قرطبة، وكانت طريقة على باب دار الامارة، فدخل الفتيان إلى محمد، فعرفوه بسيره. فأشفق من ذلك، وأرسل خلفه فتًى من ثقاته، يقول له: إن الجارية قد وجد خبرها عند بعض فتيانه، وقد كان أخفاها بغير

---

(١) هو أمير الأندلس محمد بن عبدالرحمن الثاني، وقد ولي الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣هـ.

أمره. وها هي حاضرة، ترد إلى اليهودي. فلحقه الرسول على ميل أو نحوه من ماردة، وأعلمه فقال: «واللّه لا أنصرف من موضعي راجعًا، أو أوتى بالجارية إلى هذا المكان ويقبضها اليهودي ها هنا والا مضيت لوجهي»، فأرسل محمد الجارية إليه. فلما صارت بين يديه، وأرسل في اليهودي مولاها، وفي ثقات من ثقات أهل البلد ودفعها إليه بمحضرهم. وأعجب الأمير محمداً ما كان منه. واسترجحه واعتقد تفضيله. فلما ولي الخلافة، واحتاج إلى قاضٍ، ولاَّه وأعزَّه.

قال أسلم بن عبدالعزيز: سمعت أخي هاشمًا يقول: إني لقاعد يومًا بين يدي الأمير، إذا دخل عليه فتاه بدرون الصقلبيُّ (وكان أثيرًا لديه) باكيًا فقال له: «ما دهاك؟» فقال له: «يا مولاي» عرض لي الساعة مع القاضي ما لم يعرض له مثله قط! ولوددت أن الأرض انضمت علي ولم أقف بين يديه» قال: «وما ذاك؟». قال: دست علي امرأة تطالبني في دار في يدي، فأغفل ما كنت إذ جاءتني بطابع القاضي، وكنت أنت أمرتني بما تعلمه، فاعتذرتُ إليها وقلت: أنا اليوم مشغول بشغل الأمير ـ أعزه اللّه ـ وسأكتب إلى القاضي، وأستعلم ما يريده. ثم إني أقبلت إلى القصر وقد أتيت باب القنطرة، فإذا برسول من أعوان القاضي بادر إلي، فضرب على عاتقي، وصرفني عن طريقي إليه، فدخلت عليه في المسجد الجامع، فوجدته غضبان، فنبهني وقال: «عصيتني ولم تأخذ طابعي» فقلت: «أوكل من يخاصمها عني» فأبى علي إلا أن أتكلم فلما رأيت صعوبة مقامي، أعطيتها بدعواها، ونجوت بنفسي. أفيحسن عندك يا مولاي، أن يركب من قاضيك مثل هذا، ومكاني من خدمتك مكاني؟». وقال: فتغير وجه الأمير محمد، وقال له: «يا بدرون، أخفض عليك! فمحلك مني تعلمه، فاسألنا به حوائجك، نجبك إليها! ما خلا معارضة القاضي في شيء من أحكامه، فإن

هذا باب قد أغلقنا فلا نجيب إليه أحدًا من أبنائنا ولا من إخواننا، ولا من أبناء عمنا، فضلاً عن غيرهم، والقاضي أدرى بما فعل!» فمسح بدرون عينيه، وانصرف. قال القاضي أسلم: وإنما كان يحتمل مثل هذا من أولئك القضاة، وأما أمثالنا نحن فلا. وصدق أسلم ـ رحمه اللَّه ـ فالقهر بالحكم لا يحتمل في الغالب إلا لمن تخلص نيته في القصد به وجه اللَّه. وما تسرع ملامة الناس إلا لمن يتقيها ويتخوف عاقبة أمر أهلها. وسخط اللَّه أكبر من ملامه الخلق. ونسأل اللَّه الهداية والوقاية[1] !.

* الشيخ محمد بن سعيد بن بشير المعافري والحكم بن هشام أمير الأندلس:

كان هذا الرجل ـ رحمه اللَّه ـ مِمَّن لقي مالك بن أنس عند توجُّهه إلى حج بيتِ اللَّه الحرام. فلمّا عاد إلى الأندلس، استقضاه الحكم بن هشام؛ وقبل قضاءه على شروط؛ منها نفاذُ حُكمه على كل أحدٍ، من الأمير إلى حارس السوق؛ وأنه، إذا ظهر له العجز من نفسه، أُعفي، وأن يكون رزقُه كفافًا من المال الفَيءِ. وكان من صدور القُضاة، وذوي المذاهب الجميلة، شديد الشكيمة، ماهر العزيمة.

قال أحمد بن خالد: وكان أول ما أنفذه في قضائه التسجيلَ على الأمير الحكم؛ في رحى القنطرة، إذ قيم عليه فيها، وثبت عنده من الدَّعي وسمع من بيّنته ما أعذر به إلى الأمير الحكم؛ فلم يكن عنده مدفع، فسجَّل فيها، وأشهد على نفسه. فلمّا مضت مُدَّتُهُ، ابتاعها ابتياعًا صحيحًا. فكان الحكم بعد ذلك يقول: «رحم اللَّه محمد بن بشير! لقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا: كان بأيدينا شيءٌ مشتبهٌ؛ فصحَّحه لنا، وصار حلالاً، طيّب الملك

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٧٨ ـ ٨٠).

في أعقابنا»، وممّا يُذكر عليه أن رجلاً كان يدلس في كتب الوثائق، وإنه عقد وثيقة باطل على رجل من التجار، وقام بذلك عند محمد بن بشير. فلمَّا صحّ لديه تدليسه، أمر بقطعه؛ فقُطعت يدُه. وكان إذا اختلفت عليه الفقهاءُ بقرطبة، وأشكل عليه الأمر في قضية، كتب إلى عبدالرحمن بن القاسم بمصر، وإلى عبداللَّه بن وهب، وأشباههما؛ وربما قبل الشاهدَ على التوسُّم.

ونُقِل عن عبيداللَّه بن يحيى عن أبيه أنه قال لمحمد بن بشير: «إن الحالات تتغيَّر، ولا تثبت. فإذا عدل عندك الرجل يحكم شهادته، ثمَّ تطاول أمره، وشهد عندك ثانيةً، فكلِّفه التعديل، وأخِّر فيه الكشف؛ فاعمل بحسب الذي يبدو لك». فقبل ذلك منه ابن بشير. فلمّا أشعر الناس به أخذوا حذرهم منه.

ومن كتاب محمد بن حارث، حديث أحمد بن خالد؛ قال: سمعنا محمد بن وضاح يقول: وكل سعيد الخير بن الأمير عبدالرحمن بن معاوية عند القاضي محمد بن بشير وكيلاً يخاصم عنه في شيءٍ اضطرَّ إليه. وكانت بيده فيه وثيقةٌ، فيها شهادات من أهل القبول، وقد أتى عليهم الموت؛ فلم يكن فيها من الأحياء إلاَّ الأمير الحكم بن هشام وشاهدٌ آخر مُبرَّزٌ. فشهد ذلك الشاهدُ عند القاضي، وضُربت الآجال على وكيله في شاهدٍ ثانٍ رجي به الخصام فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الأمير الحكم، وأراه شهادته في الوثيقة (وكان قد كتبها قبل الخلافة في حياة والده) وعرَّفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه، خوفًا من بطول حقّه. وكان الحكم يعظِّم سعيد الخير عمّه، ويلزم مبرَّته؛ فقال له: «يا عمٍّ، إنا لسنا من أهل الشهادات؛ فقد التبسنا من فتَن هذه الدنيا بما لا تجلهه؛ ونخشى أن توقفنا مع القاضي مَوقِفَ مخزاة، كُنَّا نفديه بملكنا. فصر في خصامك إلى ما صيَّرك الحقُّ إليه! وعلينا خَلَفٌ ما انتقصك!» فأبى عليه سعيد الخير، وقال: «سبحان اللَّه! وما عسى

أن يقول قاضيك في شهادتك، وأنت وليته، وهو حسنة من حسناتك؟ ولقد لزمك[١] في الديانة أن تشهد لي بما علمته ولا تكتمني ما أخذ اللَّه عليك!»، فقال له الأمير: «بلى! إن ذلك لمن حقِّك كما تقول. ولكنك تُدخل به علينا داخلة؛ فإن أعفيتنا منه، فهو أحبُّ إلينا؛ وإن اضطررنا، لم يمكننا[٢] عقوقك». فعزم عليه سعيد الخير عزم من لم يشكَّ أن قد ظفر بحاجته. وضايقته الآجال؛ فألحَّ عليه؛ فأرسل الأميرُ الحكم عند ذلك عن[٣] فقيهَيْن من فقهاءِ حضرته، وخطَّ شهادته تلك بيده في قرطاس، وختم عليه[٤] بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين، وقال لهما: «هذه شهادتي بخطِّي تحت طابعي[٥]! فأدِّياها إلى القاضي» فأتياه بها إلى مجلسه، في وقت قعوده للسماع من الشهود، فأدَّياها إليه؛ فقال لهما: «قد سمعتُ منكما؛ فقُوما راشدين» وانصرفا. وجارت[٦] دولة وكيل سعيد الخير؛ فتقدَّم إليه مُدلاً، واثقًا بالخلاص؛ فقال له: «أيها القاضي؛ قد شهد عندك الأمير ـ أصلحه اللَّه ـ فما تقول؟» فأخذ القاضي كتاب الشهادة، ونظر فيه؛ ثمَّ قال للوكيل: «هذه شهادة لا تعمل بها عندي! فجئ بشاهد عدل!» فدهش الوكيل، ومضى إلى موكِّله؛ وأعلمه؛ فركب من فوره إلى الأمير الحكم وقال له: «ذهب سلطانُنا وأُزيل بهاؤنا! ويجترئُ هذا القاضي على ردِّ شهادتك، واللَّه تعالى قد استخلفك على خلقه، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما لا ينبغي أن تحتمله عليه»[٧] وجعل يغريه بالقاضي، ويحرّضه على الإيقاع به.

---

(١) في «نفح الطيب» ص(١٤٧): «الزمتك».
(٢) في «نفح الطيب»: «لم يمكنا».
(٣) في «نفح الطيب»: «إلى».
(٤) كلمة «عليه» ساقطة من نفح الطيب.
(٥) في «نفح الطيب»: «تحت ختمي».
(٦) في «نفح الطيب»: «وجاء وكيل سعيد الخير».
(٧) في «نفح الطيب»: «هذا ما لا يجب أن تُحمل عليه».

فقال له الحكم: «وهل شككتُ أنا في هذا؟ يا عمِّ، واللَّه! رجلٌ صالحٌ، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم! فقال الذي يجبُ عليـه، ويلزمه، ويسـدُّ بابًا كان يصعُب علينا الدخول منه! فأحسن اللَّه عنا وعن نفسه جزاءه»، فغضب سعيد الخير من قوله، وقال له: «هذا حسبي منك»، فقال له: «نعم! قد قضيتُ الذي كان عليَّ؛ ولستُ، واللَّه! أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله». ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك، قال لمن عاتبه: «يا عاجز، ألا تعلم أنه لا بدَّ من الإعذار في الشهادات؟ فمن كان يجترئُ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟ وإن لم أعذر، بخستُ المشهود عليه بعض حقّه».

وكان القاضي محمد بن بشير لا يجيز الشهادة على الخط في غير الأحباس، ولا يرى القضاءَ باليمين مع الشاهد. ولذلك اعتلَّ عند شهادة الأمير الحكم في خصومة عمّه سعيد الخير بما اعتلَّ. ومسألة اليمين مع الشاهد مما اختلف فيه أهلُ العلم؛ فأمَّا مالك، فإنه كان يرى ذلك؛ وأمَّا الليث، فإنَّه كان يرى أن كل حق لم يشهد عليه عدلان باللَّه تعالى لم يرد إتمامه. قال عبيداللَّه بن يحيى: وكان أبي ـ رحمه اللَّه ـ يحتجُّ بقول الليث. ويُحكى عن محمد بن بشير أنه لم يحكم في ولايته باليمين مع الشاهد، ولا حكمًا واحدًا. وفي «أحكام» ابن أبي زياد: قال محمد بن عمر بن لبابة: قد علم القاضي ـ حفظه اللَّه ـ اختلاف أهل العلم، وما ذهب إليه مالك، وأصحابه من اليمين مع الشاهد، وما ذهب إليه قضاةُ بلدنا منذ دخلته العرب، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد، ولا يقضون به. فليتخيّر القاضي ما أراده اللَّه. وإني لمتوقّف على الاختيار في هذا، لما ظهر لي من فساد الناس، وقلّة الدعة في الشهادة»[1] .

---

(١) المصدر السابق ص(٦٨ ـ ٧١).

◻ قال عنه أبو بكر بن العربي: «ما كان يُقاس إلا بمن تقدّم من صدور هذه الأمّة».

* الشيخ عبدالملك بن حبيب والأمير الحكم:

◻ قال القاضي عياض في كتابه «الشفا»: «أفتى ابن حبيب وأصبغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بـ «ابن أخي عجب»، وكان خرج يومًا، فأخذه المطر، فقال: «بدأ الخرّاز يرشّ جلوده. وكان بعض الفقهاء بها - أي بقرطبة - أبو زيد، وعبد الأعلى بن وهب، وابن عيسى قد توقفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب، وأفتى بمثله القاضي حينئذ موسى بن زياد، فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، أيشْتُم ربًّا عبدناه ولا ننتصر له؟ إنا إذًا لعبيد سوء، وما نحن له بعابدين، وبكى، ورُفِع المجلس إلى الأمير بها عبدالرحمن بن الحكم الأموي «ت ٢٨٢هـ». وكانت «عجب» عمّة هذا المطلوب من حظاياه، أي من أحب الزوجات لعبدالرحمن بن الحكم، وأُعلِم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه، وأمر بقتله، فقُتِل وصُلِب بحضرة الفقيهين: ابن حبيب وأصبغ، وعُزِل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القصة، ووبّخ بقية الفقهاء وسبّهم»[1].

◻ قال ابن حارث: وكان السبب في عزله عن القضاء ما كان من أمر ابن أخي عجبٍ حظيَّة الأمير الحكم؛ وذلك أنه شهد عليه بلفظ نطقَ به عابثًا في يوم غيث. فأمر الأمير عبدالرحمن بحبسه، وطلب الشهادات عليه. وأبرمته عجبٌ عمَّتُه في إطلاقه؛ وكانت مدلَّةً عليه لمكانها من أبيه. فقال لها: «مهلاً! يا أمّاه، فلا بُدَّ، واللَّه! من أن نكشف أهل العلم عمَّا يجبُ

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/ ٢٩٩).

عليه في لفظه ذلك الذي شهد به عليه؛ ثم يكون الفصل بعد في أمره. فإنا، معشر بني مروان، لا تأخذنا في اللَّه لومة لائم! وما نرى أن اللَّه رفع ملكنا، وجمع بهذه الجزيرة فلَّنا، وأعلى فيها ذكرنا، حتى صرنا شجًى في حلق عدونا، إلا بإقامة حدوده، وإعزاز دينه، وجهاد عدوّه، مع مجانبة الأهواء المُضلة، والبدع المردية». ثم تقدَّم الأمير عبدالرحمن إلى محمد بن السليم الحاجب أن يحضر القاضي محمد بن زياد، والفقهاء بالبلد. فجمعهم، وفيهم عبدالملك بن حبيب، وأصبغ بن خليل، وعبدالأعلى بن وهب، وأبو زيد بن إبراهيم، وأبان بن عيسى بن دينار، فشاورهم في أمر ابن أخي عجب، وأخبرهم بما كان من لفظه. فتوقَّف القاضي محمد بن زياد على القول بسفك دمه. وتبعه في ذلك من الفقهاء أبو زيد وعبدالأعلى وأبان. وأفتى بقتله عبدالملك بن حبيب، وأصبغ بن خليل معًا. فأمرهم محمد بن السليم أن ينصُّوا فتواهم على وجوهها في صكّ، ليرفعها إلى الأمير، ليرى فيها رأيه. وفعلوا. فلمَّا تصفَّح الأمير أقوالهم، استحسن قول ابن حبيب وأصبغ، ورأى ما رأيا من قتله. وأمر الفتى حسَّانًا؛ فخرج إليهم، فقال لابن السليم: «قد فهم الأميرُ ما أفتى به القومُ من أمر هذا الفاسق. وهو يقول لك: أيُّها القاضي! اذهب؛ فقد عزلناك. وأما أنت، يا عبدالأعلى، فقد كان يحيى بن يحيى يشهد عليك بالزندقة، ومن كانت هذه حالهُ، فحرَيٌ ألا تسمع فتواهُ! وأما أنت، يا أبان بن عيسى! فإنا أردنا أن نولّيك قضاء جيَّان؛ فزعمت أنك لا تحسن القضاء. فإن كنت صادقًا، فعليك أن تتعلَّم؛ وإن كنت كاذبًا، فالكاذبُ لا يكون أمينًا مُفتيًا»، ثم قال حسَّان لصاحب المدينة: «يأمرُك الأمير أن تخرج الآن مع هذين الشخصين عبدالملك وأصبغ؛ فتأمر لهما بأربعين من الغلمان ينفذون لهما في هذا الفاسق ما رأياه»، ثم أُخرج المحبوسُ، ووقفا معًا حتى رُفع فوق خشبة، وهو يقول لعبدالملك: «يا أبا مروان، اتَّقوا اللَّه ـ عز وجل ـ في دمي! فإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأنَّ محمدًا رسول اللَّه» وعبدالملك يقول: «الآن! وقد عصيت!» حتى طُعن.

وانصرفا[١].

* شيخ المالكية الإمام القاضي أبو بكر بن العربي :

استقضي بمدينة إشبيلية؛ فقام بها أجمل قيام وكان من أهل الصلابة في الحقّ، والشدّة، والقوّة على الظالمين، والرفق بالمساكين. ثم صرف عن القضاء، ولي القضاء مدة أولها رجب من سنة ٥٣٨[٢]؛ فنفع اللَّه لصرامته، ونفوذ أحكامه. والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، حتى أُوذي في ذلك بذهاب كُتُبه وماله؛ فأحسن الصبر على ذلك كلِّه. ثم صُرِفَ من القضاءِ، وأقبل على نشر العلم وبثّه»[٣].

□ وقال الشيخ أحمد بن محمد المقري في كتابه «نفح الطيب»: «ما برح معظَّما إلى أن تولّى خطة القضاء، ووافق ذلك أن احتاج سور أشبيلية إلى بنيان جهة منه، ولم يكن فيها مال متوفر، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد أضحى، فأحضروها كارهين، ثم اجتمعت العامة العمياء، وثارت عليه ونهبوا داره، وخرج إلى قرطبة»[٤].

□ قال القاضي أبو بكر بن العربي ـ رحمه اللَّه ـ: «تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة المرفوع: «**إن من ورائكم أيّامًا للعامل فيها أجر خمسين منكم**» فقالوا: بل منهم. فقال: «**بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم لا يجدون عليه أعوانًا**»، وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسّسوا الإسلام، وعضدوا الدين، وأقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملّة، وقد قال ﷺ في «الصحيح»: «**لو أنفق**

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٧٧ ـ ٧٨).

(٢) في «نفح الطيب»: «رجب من سنة ثمان وعشرين».

(٣) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٣٨، ١٣٩).

(٤) «نفح الطيب» (٢/ ٢٧).

أحدكم كل يوم مثـل أُحد ذهبًا ما بلـغ مُـدّ أحدهم ولا نصيفـه» فتراجعنا القول، وتحصّل ما أوضحناه في شرح الصحيح، وخلاصته: أن الصحابة كانت لهم أعمـال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلّصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام وهو أيضًا انتهاؤه، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام، صعب المرام، لغلبة الكفار على الحق، وفي آخر الزمان أيضًا يعود كذلك، لوعد الصادق ﷺ، بفساد الزمان، وظهور الفتن، وغلبة الباطـل، واستيلاء التبديـل والتغييـر على الحق من الخلق، وركوب من يأتي سَنَن من مضى من أهل الكتاب. كما قال ﷺ: «لتركبن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب خرب لدخلتموه»[1].

● وقال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ» فلا بد، والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق، أن يرجع الإسلام إلى واحد، كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتوائه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنًا منه مُعانًا عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى، وذلك قوله: «لأنكم تجدون على الخير أعوانًا وهم لا يجدون عليه أعوانًا» حتى ينقطع لك انقطاعًا باتًّا لضعف اليقين وقلة الدين، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض الله الله»[2] يُروى برفع الهاء

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، وكذا رواه البزار والدولابي، ولفظ الحاكم «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم...»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٠٦٧).

(٢) رواه أحمد ومسلم، والترمذي عن أنس، وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك».

ونصبها، فالرفع على معنى: لا يبقى موحّد يذكر الله عز وجل، والنصب على معنى: لا يبقى آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر يقول: أخاف الله، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني كنت مكانه**»[١] انتهى[٢].

□ يقول الإمام ابن العربي: «لقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن يُرَ في الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكربَ فتألّبوا وألّبوا وثاروا إليّ فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولي ألا يدافعوا عن داري وخرجت على السطح بنفسي فعاثوا عليّ وأمسيْت سليب الدار، ولو لا ما سبق من حُسن المقدار لكنتَ قتيل الدار»[٣].

ولقد كان ـ رحمه الله ـ يحث الأمراء والرعية على الجهاد، فقد قال ـ رحمه الله ـ: «لقد نزل بنا العدو ـ قصمه الله تعالى ـ سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسّط بلادنا في عدد حدّد الناس عدده فكان كثيراً، فقلتُ للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة. فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط بهم، فإنه هالك لا محالة، وإن يسركم الله له فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبًا يأوي إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) «نفح الطيب» (٢/ ٣٧ ـ ٣٩).
(٣) «العواصم من القواصم» ص(١٣٨).

* **القاضي محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النُّباهي والأمير ابن هود:**

ولي القضاء بمالقة في سنة ٦٢٦ نحوًا من أربع سنين، ثم إن أهل مالقة بغوا عليه، وشنعوا عليه القيام على الأمير ابن هُود؛ فخرج عن مالقة قاصدًا لابن هود إلى إشبيلية، ليعرفه بذلك، ويطلب منه الإقالة؛ فلقي أبا عبداللَّه الرَّميميّ، وزير ابن هود، فردّه عن الطريق إلى مالقة، ثم ذهب معه إلى غرناطة، فأمسك بها في أحد أبراجها مدَّةً ثم سرِّح بعد ذلك، على شرط المقام هنالك. قال: وامتحن ـ رحمه اللَّه ـ في حياته كثيرًا. وانتقم اللَّه له ممّن ظلمه وبغى عليه؛ فكان في أمرهم عبرة للمعتبرين؛ فما منهم إلا من مات بالسيف والسوط، ورأوا هم في أنفسهم، من البلايا والمحَن، ما يقصر.

كان القاضي النباهي جزلاً في أحكامه، رمَّاءً في تصرُّفاته، غليظًا على ولاة الجور، شديدًا في ردع أهل الأهواء والآراء الفاسدة. ورامهُ ابن هود عندما ولاه قضاء بلدته، أن يصرف إليه أمانةَ كُورتَها، حسبما كانت قبل ذلك، لنظر أبي عليّ القاضي؛ فتمنّع، واستعفى؛ فأعفاه من الأمانة. وتفرَّد بالقضاء، والنظر في الأحباس؛ فصانها، واسترجع ما كان منها قد ضاع، أيام دُوَل المُوحِّدين، إلى الألقاب المخزنيّة؛ وقدم لضبطها، والشهادة فيها، ووضعها في أماكنها، الفقيه المقرئ الورع أبا محمد عبدالعظيم بن الشيخ، وأجراها على منهاج السداد. واستكتب أبا عبداللَّه بن عليّ، المُشتهر بابن عسكر، مؤلفَ الكتاب المسمّى «بالمشروع الرويّ، في الزيادة على كتاب الهرويّ» في غريب القرآن والحديث. ثمَّ استنابه في بعض أعماله، ورشّح من الفقهاء كابن الشيخ المذكور، وابن دحمان، وابن ربيع، وابن لبُ، وأمثالهم، وتثبَّت في الحكم، وتحفَّظ من شهود زمانه، وتعفَّف عن قبول

---

(١) «أحكام القرآن» (٢/ ٩٥٥) عند قوله تعالى: ﴿انفروا خفافًا وثقالاً﴾ التوبة.

تُحَف أقاربه، فضلاً عن أجانبه[١].

* القاضي الحسن بن الحسن الجُزامي النباهي والزنديق إبراهيم الفزاري وبنو أَشْقِيلُولة:

كان الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي النُّباهي - رحمه اللَّه - رجلاً صليبًا في الحق، متعززًا باللَّه قويًّا في ذاته، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، رفيقًا مع ذلك بالمساكين، شفيقًا على الضعفاء، ومبغضًا في أهل الأهواء. وأول يومٍ قعد فيه للحكم، تقدّم إليه رجلان في الطلب بدين ترتَّب لأحدهما قبل الآخر؛ وأقرَّ المطلوبُ ببقائه في ذمّته، وزعم أنه في الوقت غير قادرٍ على أدائه؛ ولم تُقم له بيِّنةٌ على صحَّة دعواه، ولا حضره حميلٌ به؛ فتوجَّهَ عليه السجن. فحين شاهد أسباب ذلك، قال يخاطب القاضي: «أصلحك اللَّه! أيجمل بك، ويحسن عندك استفتاحُ عملك بسجن مثلي من الضعفاء؟ ولي صبيةٌ أصاغرُ لا كاسبَ لهم، ولا كافِلَ غيري، فإن حبستني عنهم، لم يبعد تلفُهم جوعًا وعطشًا! فارفق بساحتي، وانظر لحالتي!» فأمر القاضي بإحضار مقدار العدد المطلوب من مال نفسه، وأذن في دفعه لمطالبه، وخلَّى سبيل الغريم يمضي لشأنه. وكان قد أصاب الماشية بكُورة ريَّة من الغصب والنهب، أيام فتنة الخلاف بها، ما صار داعيةً لتغلُّب الحرام عليها؛ فردَّ شهادة كلٍّ من ثبت فيه لديه أنه أكل من ذلك اللحم المغصوب؛ وهو عالمٌ بعينه، سواءٌ كان مشتريًا له من الغاصب أو أكله دون عوض. وردَّ شهادة الولد إذا كانت مع والده؛ فاشتدَّ في أحواله. وفي أثناء ذلك سبق له رجلٌ، شهدت البيِّنةُ بأنه وجد في خربةٍ بحذاء مقتولٍ. وسأل الرجل حين أعذر له؛ فذكر أنه كان مختارًا عليها لمنزله؛ فرام أولياء الدم الأخذ لهم بالقسامة في المسألة، على ما

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٤٦، ١٤٧).

رواه ابن حكم في مثل النازلة، ورواه ابنُ وهب عن مالك؛ فأجرى النظر في القضيّة، وتوقَّف عن الفصل، وعقد النيّة على ترك الولاية ما بقي من مدّة حياته، واستعفى على الفور من الحكم بين الناس. وقد كان القلق وقع به من أُولي الأمر، فأعفي على الأثر، فكانت مدّة ولايته القضاء نحو شهر. وهو - أعظم اللَّه أجره! ممّن أصيب في ذاته وماله، بسبب إنكاره على إبراهيم الفزاريّ، وليّ بني أشقِيلولَة أيام ثورتهم بريَّة، وامتعاضه لما أظهره لهم من البدعة وادِّعاءِ النبوة، وعند ذلك فرَّ من مالقة أبو جعفر بن الزُّبير، وأتبع ليُقتل؛ فأفلت، ولاذ بأمير المسلمين، السلطان، المؤيّد المنصور، أبي عبداللَّه المدعوّ بالفقيه - رحمه اللَّه وأرضاه - فحاول على الفزاري، حتَّى تحصَّل في حكمه، وأمر بقتله وصلبه؛ فقُتل بغرناطة على كفره، هو وبعض أصحابه.

وقد أشار إلى ما نبَّهنا عليه الشيخ القاضي الراوية المحدِّث، الوزيرُ المشاورُ، أبو عامر بن عبداللَّه بن قاضي الجماعة أبي عامر بن ربَيع، في كتابه المسمَّى بـ «تنظيم الدرّ في ذكر علماءِ الدّهر».

والذي وقع في الكتاب المسمَّى بعد اسم أبي عليّ بن الحسن، من أوّله إلى آخره، ما هو نصُّه: الحسن بن محمد الجُذامي من أهل مالقة، من أعيانها وجلَّة بيوتها، يُعرف بالنُّباهي، ويُكنى أبا علي. أخذ بمالقة عن شيوخها. وكان - رحمه اللَّه - صالحًا، فاضلاً، دينًا، صلبًا في الحق، فامتحن في اللَّه تعالى، وقيامه بالحق، بالضرب والنفي عن بلده - نفعه اللَّه - واستقرَّ بمدينة فاس، تحت تكرمة ومبرَّةٍ، يتولى عقد الوثائق، ويحترف بها. وكان من جلَّة العُدول. ثم عاد إلى بلده مالقة، عند خروج بني أشقيلُولة منها، وأقام بقيَّة عمره، يتعيَّش من فائد بقايا أملاكه بها. ودُعي إلى الخطابة بجامعها الأعظم؛ فأبى وقضى أيامًا يسيرةً، واستعفى. توفِّي - رحمه اللَّه - في حدود سنة ٧٠٠هـ[1].

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٦٣ - ١٦٥).

* **القاضي محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي قاضي غرناطة:**

تصدر في فنون العلم، ونفع وأدّب، وخرّج وهذّب حتى صار أصحابه على هيئة متميزة من لباس واقتصاد، وجدّ واجتهاد. وكثيرًا ما كان يقول لفتيان الطلبة ما قاله الجُنيد بن محمد، وهو: «يا معشر الشباب، جدُّوا قبل أن تبلغوا مبلغي! فتضعفوا وتقصروا كما قصرتُ!».

وكان الجنيد وقت الشاخة لا يلحقه الشباب في العبادة. ومن تلك النسبة أيضًا كان شيخُنا أبو عبدالله بن بكر؛ فإنه لم يكن في الغالب يأكل إلا عند حاجة، ولا ينام إلا عن غلبته، ولا يتكلَّم بغير العلم إلا عن ضرورة. وبقي كذلك زمانًا، يدرّس بالمسجد القريب من منزل سكناه احتسابًا. ثم تقدَّم ببلاده للوزارة، ناظرًا في أمور العقد والحلّ، ومصالح الكافَّة. ثمَّ ولي القضاءَ به؛ فأظهر من الجزالة والشدّة ما ملأ به وجدًا صدور الحسدة، ونسبوا إليه أمورًا حملت على إخراجه من مالقة، وإمكانه بغرناطة؛ فبقي بها يسيرًا، وتقدَّم منها بالمسجد الجامع خطيبًا. ثمَّ ولي قضاءَ الجماعة؛ فقام بالوظائف، وصدع بالحق، وبهرج العدول؛ فزيَّف منهم ما ينيف على الثلاثين عددًا، استهدف بذلك إلى محادة ومناسبة ومعادلة خاض ثبجها وصادم تيارها غير مبالٍ بقيل أو قال؛ فأصبح في عمله، مع كتبة الوثائق بغرناطة، أشبه القضاة بيحيى بن معمر في طلبة قرطبة، إذ بلغ من مناقشته أن سجَّل في يوم واحد بالسخطة على تسعة عشر رجلاً منهم. وجرت لابن بكر في هذا الباب حكايات يطول ذكرُها، إلى أن استمرَّت الحال على ما أراده. وعزم عليه أميرهُ في إلحاق بعض من أسخطه بالعدالة؛ فلم يجد في قناته مغمزًا؛ فسلَّم له في نظره.

ولم يزل مع ذلك ملازمًا أيام قضائه للإقراء مع التعليم؛ درَّس العربية، والأصول، والفقه، وإقراءَ القرآن، والحساب، والفرائض، وعقد مجالس

الحديث شرحًا وسماعًا. وربما نحا في بعض أحكامه أنحاء مصعب بن عمران أحد القضاة قديمًا بقرطبة؛ فكان لا يقلِّد مذهبًا، ويقضي بما يراه صوابًا.

وإنْ قلنا عن القاضي ابن بكر إنه كان في شدائد أحكامه أشبه علماء وقته بسحنون بن سعيد، لم يكن في ذلك ببعيد؛ فإنَّه أدَّب الناس على الحلف بالأيمان اللازمة، وأنكر سوءَ الحال في الملابس، وفرَّق مجتمعات أرباب البدع، وشدَّد أهل الأهواء بالسجن والأدب، على سبيل في ذلك كلِّه من اتِّباع السنة واطراح الهوى، وخفض الجناح لأهل الخير.

وكان في خطبه وصلاته كثير الخشوع، لا يتمالك من سمع صوته في الغالب من إرسال الدموع؛ يقرأ في الصبح بما فوق المُفصَّل؛ فيحسبه المُصلِّي خلفه كأنما قرأ بآية واحدة، لحسن قراءته، وطيب نغمته، وصدق نيَّته؛ وإذا ذُكر شيءٌ؛ من أُمور الآخرة، ظهر على وجهه الاصفرار؛ ثم يغلبه البكاءُ، ويتمكن منه الانفعال. فكان، في معاملته لأصحابه، على مذهب الفرج بن كنانة، لا يرى زلةً لصديقه، ولا يعدل في حاجته إليه عن طريقه؛ وقلَّما كان يتخلَّف في يوم من أيامه عن عيادة مريض، أو شهود جنازة، أو تفقُّد محتاج، أو زيارة منكوب.

*** كتب إلى أميره:**

«اعتمد مشورة ناصح لك بإلغاء نصحه حذر الوشاة فتخافت. وإذا حضرك الغاوون المستبغون، وألقوا من حبال كيدهم وعصى مكرهم ما هم ملقون؛ فتعوذ باللّه من شرّ ما يشركون، واستحضر من الحق كلمة تلقف ما يأفكون ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾. ثم اسمع من لسان الحال، وهو أفصح من لسان المقال، حجَّة من اعتاد سيلان الفضائل من يديك، ومثله جاثيًا للاحتكام لديك، أليس من قواعد الحكم نظر حال المدَّعي وحال المدَّعَى عليه، ومن يليق به ما عزى له

ومن لا يناط به ما نسب إليه؟ هل يستويان مثلاً، أو يتقاربان قولاً ويتقارنان عملاً، أو يتباعدان بعد المشرقين، ويتباينان فوق ما بين عُطاردين؟ فمن الذي يتلو الآيات ويردِّد واعظها، ويسرد الأحاديث ويسمع مواعظها، ويطرد في الأسحار الهجوع، ويرسل في مجالس الخير الدموع ويتعبَّد مع العابدين، ويتقلَّب مع الساجدين؟ أم هو كذا وكذا وكيت وكيت مما يكثر عند التعداد، ولا يحمل في مثله استعمال القلم والمداد؟ فعلى من تحمَّل اليمين والكذب، أعلى من ألفه الجدُّ أم على من غلب عليه اللعب؟ فإنَّ غير هذا أو غير هذا لأمر ما وقيل هما في الثناء سيَّان، وعند النداء سَمِيَّان...».

كان ـ رحمه اللَّه ـ على الغاية من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فُقد في مصاف المسلمين يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريق، شهيدًا مُحرّضًا، يشحذ البصائر، ويدمي الأبطال، ويشير على الأمير أن يكثر من قول: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل»، وقد كتف دابته التي كان عليها راكبًا، وهو رابط الجأش، مجتمع القوى، وأنشأ عليه بالركوب وقال له: «انصرف! هذا يوم الفرح!» يشير، واللَّه أعلم. إلى قوله تعالى في الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأولى عام ٧٤١هـ[1].

* القاضي أبو عبداللَّه محمد بن عبدالسلام المُنَسْتيري وابن تافْرَجين المتغلِّب على تونس:

كان ـ رحمه اللَّه ـ من القضاة بحضرة تونس، وصدور علمائها في زمانه. وكان قويًّا على أمر الناس مستخفًّا بسخطهم، وملامتهم في حق اللَّه، وحفظ ما يرجع لرسوم القضاء ومن ذلك عملُه في العقد الذي شهد فيه

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣ ـ ١٨٤).

جملةٌ من أعلام المغرب، أيام كونهم بتونُس عند دخولها في الإيالة المرينيَّة؛ فردَّ شهادتهم وعوتب على ذلك؛ فقال: «أو ليس قد فرُّوا من الزحف، مع توفُّر الأسباب المانعة لهم شرعًا عن الوقوع في معرَّة الإدبار؟» ويشير إلى الكائنة الشنعاءِ التي كانت لهم بظاهر طريف مع الروم عام ٧٤١هـ.

ومن أخباره أنه، لمّا تغلب الشيخ أبو محمد عبداللَّه بن تافرَجِين على مدينة تونس دون قصبتها، عند خروج السلطان أبي الحسن أمير المسلمين عنها، بقصد مدافعة وفود العرب العادية على أرضها، فهزمت جيوشه، واستقرَّ هو ومن بقي معه من جنده محصورًا بداخل القيروان، فجاءَ في أثناءِ ذلك يوم الجمعة، فقال المتغلِّب على الأمر للخطيب بالمسجد الجامع بتونس: «اخطب بدعوة الأمير أبي العبَّاس بن أبي دبُّوس من الموحِّدين»، وكان في المسجد القاضي ابن عبدالسلام؛ فقال: «والسلطان المرينيُّ؟» فراجعه الشيخ بأنه في حكم الحصار داخل القيروان بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه. قال: «فتلزم إذًا مناصرتُه، والعملُ على الوفاءِ بما شرط له عند مبايعته» فردَّ عليه بأن الأخبار تواترت بعد ذلك بتلفه، وانتزاع ملكه، فقام الخطيب، وقال على تقدير صحَّة هذا النقل: «الفرعُ زال بزوال الأصل، انظروا ما يصلح بكم لخطبتكم»، وارتفعت الأصوات والمرجعات؛ فقطع القاضي الكلام بمبادرته إلى الخروج، وهو يقول: «لم يثبت لدينا ما يوجب العدول عن طاعة السلطان أبي الحسن، واستصحاب الحال حجَّة لنا وعلينا»، وكاد وقت صلاة الجمعة أن يفوت؛ فوجَّه عند ذلك المتغلّب على المدينة إلى القاضي ثقةً، يخبره باستمرار الأمر في الخطبة على ما كانت عليه؛ فدعا الخطيب وتمَّت الصلاة على الرسم المتقدم؛ وحصلت السلامة للقاضي بحسن نيَّته، وعدّ مخالفة فقهاءِ مدينته ـ جزاه اللَّه وإيَّاهم خير جزائه ـ وحدَّثني بهذه الحكاية غير واحد من الثقات الأثبات، منهم صاحبُنا الفقيه المتفنِّن الأصيل أبو زيد

عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرميُّ.

وأخبرني كذلك عن هذا القاضي ـ رحمه اللَّه ـ بما حاصلُه: إن الأمير أبا يحيى استحضره مع الجملة من صُدور الفقهاء بدار الخلافة، والمثول بين يديه، ليلة الميلاد الشريف النبوي، إذ كان قد أراد إقامة رسمه على العادة الغربيَّة، من الاحتفال في الأطعمة، وتزيين المحلّ، بحضور الأشراف، وتخيُّر القوَّالين للأشعار المقرونة بالأصوات المطربة؛ فحين كمل المقصود من المطلوب، وقعد السلطان على أريكة ملكه، ينظر في ترتيبه، والناسُ على منازلهم، بين قاعد وقائم، هزَّ المُسمِّع طرَّه، وأخذ يهنِّئهم بألحانه؛ وتبعه صاحبُ براعةٍ بعادته عن مساعدته، تزحزح القاضي أبو عبداللَّه عن مكانه، وأشار بالسلام على الأمير، وخرج من المجلس؛ فتبعه الفقهاءُ بجملتهم إلى مسجد القصر؛ فناموا به، فظنّ السلطان أنهم خرجوا لقضاءِ حاجاتهم؛ فأمر أحد وزرائه بتفقُّدهم والقيام بخدمتهم إلى عودتهم، وأعلم الوزيرُ الموجَّهُ لما ذكر القاضي بالغرض المأمور به؛ فقال له: «أصلحك اللَّه! هذه الليلة المباركة التي وجب شكر اللَّه عليها، وجمعنا السلطان ـ أبقاه اللَّه ـ من أجلها، لو شهدها نبينا المولود فيها ـ صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ لم يأذن لنا في الاجتماع على ما نحن فيه، من مسامحة بعضنا لبعض في اللهو، ورفع قناع الحياءِ بمحضر القاضي والفقهاءِ! وقد وقع الاتفاق من العلماء على أن المجاهرة بالذنب محظورةٌ، إلا أن تمسَّ إليها حاجة كالإقرار بما يوجب الحدَّ أو الكفارة. فليسلم لنا الأمير ـ أصلحه اللَّه ـ في القعود بمسجده هذا إلى الصباح! وإن كنَّا في مطالبة أُخَر من تبعات رياء، ودسائس أنفس، وضروب غرور، لكنَّا، كما شاء اللَّه، في مقام الاقتداءِ ـ لطف اللَّهُ بنا أجمعين بفضله» فعاد عند ذلك الوزير المرسل للخدمة الموصوفة إلى الأمير أبي يحيى، وأعلمه بالقصة؛ فأقام يسيراً، وقام من مجلسه، وأرسل إلى القاضي من ناب عنه في شكره، وشكر أصحابه، ولم يعد إلى مثل ذلك العمل بعد. وصار في كل

ليلة يأمر في صبيحة الليلة المباركة بتفريق طعام على الضعفاء، وإرفاق الفقراء، شكرًا للَّه»[١].

* **القاضي أبو عمر وعثمان بن موسى الجاني:**

من القضاة بمدينة مَلِّي من أرض الحبشة.

قال عنه الشيخ الفقيه أبو العباس، الساحلي الغرناطي أنه لقيه ببلده، وأنه كان من أهل الفضل والعدل، والقيام على العلم، والصرامة في الحكم.

قال الساحلي: ومن ذلك نازلة حدثت له في أحكام الدماء، فتحري فيها الحق المخلص بين يدي اللَّه، وهي أن أحد بني عمٍّ سلطانه ترتّبت قِبَله المطالبةُ بِدَم قتيلٍ كان قد أشهد العدول، وهو جريحٌ، بأنَّ دمه عنده، وتوفي إثر الشهادة عن عصبة من ولدٍ وإخوةٍ؛ فقاموا طالبين من السلطان النظر لهم في صاحبهم؛ فاستحضره عن أمره بمجلس الحكم الشرعي، وأعذرَ له فيما استظهر به أولياءُ دم القتيل، فادَّعى الدفع في ذلك، وتأجَّل آجالاً وسع فيها عليه. وانقرضت الأيام وقهرته الأحكام؛ فشكى القاضي للسلطان، وسأل منه الأخذ مع الفقهاءِ في قضيَّته؛ وقد كان صانَعَهم بجهده، واستظهر بإثبات عداوته بينه وبين من رماه بدمه، فجمعهم الأمير بحضرته، وأخذ معهم في نازلة ابن عمّه؛ فوقع الاتِّفاق منهم على الأخذ بمذهب الشافعي، أنه لا يقسم بمجرَّد قول المصاب: «دمي عند فلان». واستدلُّوا بالحديث الثابت في الصحيح الذي نصُّه: **«لو يُعطى الناس بدعواهم، لادَّعي ناسٌ دماء رجال وأموالهم»**. قالوا: وبخصوص في هذه النازلة، لما اقترن بها من الأسباب المرجحة للانتقال عن المذهب وذكروا مسألة عبداللَّه بن سهل وأنَّ رسول اللَّه

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٩٩ ـ ٢٠٢). أما الاحتفال بالمولد النبوي فما لم يكن دينًا على عهد محمد ﷺ لا يكون اليوم دينًا فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، وإن لم يسعنا ما وسع سلفنا فلا وسعتنا ـ رحمه اللَّه. نتبع ولا نبتدع.

ﷺ ! وداه من عنده بأنه ثقةٌ. فمال السلطان إلى موافقتهم، وأن تكون الغرامة من قبله؛ ولكنَّه قال لقاضيه: «ما عندك فيما اجتمع عليه أصحابك؟» فقال له: «أمدَّك اللَّه بإرشاده، وأراك الحق حقًّا، وأعانك على اتباعه! أنت مالكيُّ المذهب، وأهلُ بلادك كذلك، والانتقال من مذهب إلي مذهب آخر لا يسوغ إلا بعد شروط لم يحصل في نازلتها منها شرطٌ واحدٌ! وحديث القسامة أصلٌ من أصول الشرع، وركنٌ من أركان مصالح العباد، وبه أخذ جلُّ الأئمَّة والسلف من الصحابة والتابعين، وفقهاءُ الأمصار، والذي يجمل بك، أيُّها الملك، إمرارُ الحق بوجهه، ولو كان على نفسك، فضلاً عن ابن عمّك!»، قال: فأخذ برأي قاضيه، وأمر بابن عمّه؛ فدفع بذمَّته إلى أصحابه؛ فقتلوه بالقسامة. قال المُخبر: فحسب الناس ما صدر في النازلة عن الأمير والقاضي من المناقب الشريفة، والمآثر الحميدة، والأفعال الدالة على تعظيم الشريعة[1] .

*** القاضي المجاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أسد بن الفرات:**

«حكى ابن وضّاح أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات: «اعلم يا أخي إنما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك اللَّه من إنصافك وحسن حالك مما أظهرت من السنّة، وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم اللَّه بك وشدّ بك ظهر أهل السنة وقوّاك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم، وأذلّهم اللَّه بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين فأبشر أي أخي بثواب اللَّه، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب اللَّه وإحياء سنة رسول اللَّه ﷺ »[2] .

---

(١) المصدر السابق ص(٢٠٧ ـ ٢٠٨).

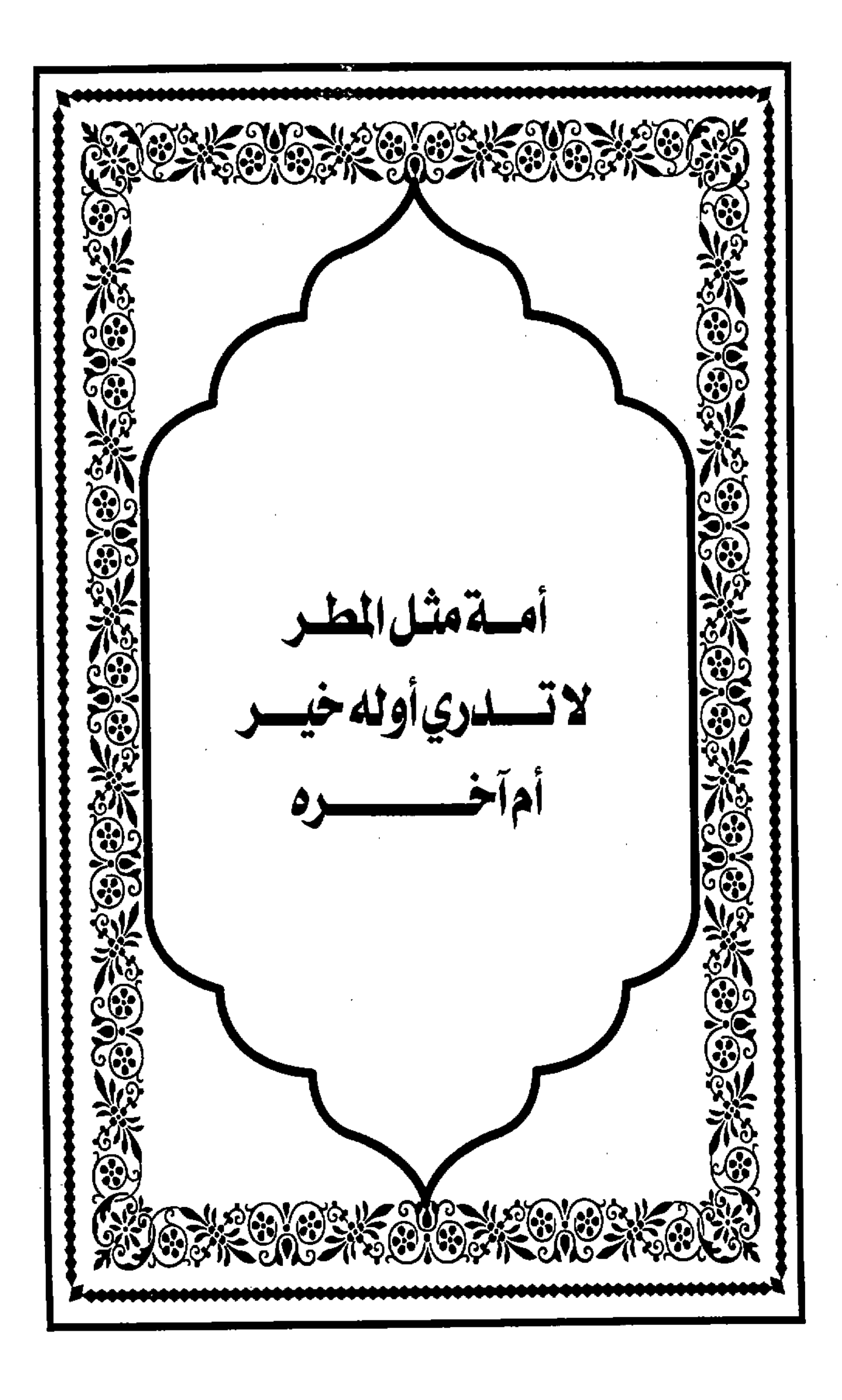
(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٣٥).

وذُكر أيضًا أنّ للَّه عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليًّا للَّه يذبّ عنها، وينطق بعلاماتها.. فاغتنم ذلك، وادع إلى السنّة حتى يكون لك في ذلك أُلفة، وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء الأثر، فاعمل على بصيرة ونيّة وحسبة، فيرد اللَّه بك المبتدع المفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفًا من نبيك ﷺ، فإنك لن تلقى اللَّه بعمل يشبهه.

وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب.. وقد وقعت اللعنة من رسول اللَّه ﷺ على أهل البدع، وأنّ اللَّه لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً ولا فريضةً ولا تطوعًا، وكلما ازدادوا اجتهادًا وصومًا وصلاةً ازدادوا من اللَّه بعدًا، فارفض مجالسهم وأذلّهم وأبعدهم كما أبعدهم اللَّه وأذلّهم رسول اللَّه ﷺ وأئمة الهدى بعده»[1].

* * *

(١) «البدع والنهي عنها» لابن وضاح ص(٢٨ ـ ٣٢).



أمة مثل المطر لا تدري أوله خير أم آخره

أمة مثل المطر لا تدري أوله خير أم آخره

* الشيخ الفقيه نصير الدين الحسيني البرهانبوري أحد علماء الهند الربانيين:

كانت قدماه ويده اليسرى مشلولة.

قال خافي خان في «منتخب اللباب»: «إنه كان يتنفّر عن اختلاط الأمراء فيقابلهم بوجه عبوس ولا يقبل نذورهم بل يعظهم بقول مرّ لينفروا عنه، قال: إن منورخان جاء يومًا في حضرته وكان واليًا على تلك الناحية فقال له نصير الدين: إني لا أعلم في وصولكم إليّ طائلاً غير أن فيلتكم وعساكركم تضيق على الناس طرقهم في ذهابهم وإيابهم ويُشركونني في الظلم واللوم، فليت شعري ما الحامل لكم على إيقاع الناس في الضيق لسدّ الطريق؟ فأجابه منورخان: إني أتردد إليكم لتجذبوني إليكم، فقال له: إني أذنبت ذنبًا كان عاقبة ذلك أن شلت قدماي وإحدى يديّ فإن استعددت لذلك فانتظر مكافأة سوء المعاملة لمخلوق اللّه سبحانه.

قال خافي خان: إن عناية اللّه خان كان من معتقديه فحرّض السلطان أن يجعل له شيئًا من بيت المال فأشار السلطان إلى خواجة أدهم الذي كان صدرًا بمدينة «برهانيور» أن يفتش عن حاله ثم يعرض على السلطان ما يناسب له من يومية أو شهرية، فذهب إليه أدهم وأقرأه رسالة السلطان، فقال له نصير الدين: لعلك أخطأت في مجيئك عندي؛ لأن الصفات الأربعة التي كتبوها في المراسلة لا توجد فيّ، أما السيادة فلا أنكرها ولا أدّعيها، ولكن الصفات الأخرى من العلم والصلاح والاستحقاق فليس لها عين ولا أثر في نفسي فلعلهم أرادوا بها غيري ممن يُسمّى باسمي، فانقبض الصدر من قوله

وتكدّر وقال: «لعل عندكم بضاعة التوكل، فقال: بلى إن مفاتيح رزقي بيد من يحتاج إليه مائة مائة آلاف مثل سيدك تحتاج إليه»[١].

*** الشيخ صادق أفندي الواعظ الحنفي والسلطان العثماني عبدالعزيز خان:**

كان الشيخ صادق الحنفي إمامًا كاملاً، وعالمًا عاملاً، متمسكًا بدينه، لا يخشى سطوة أمير مكابر، ولا إمام جائر، صدّاعًا في قوله، معتمدًا على اللَّه في قوّته وحوله، لا يميل مع نفسه إلى ملائم، ولا تأخذه في اللَّه لومة لائم. في سنة بضع وثمانين بعد المائتين والألف حضر لدار السلطنة العلية وعاصمة الأمة الإسلامية، في أيام خلافة السلطان عبدالعزيز خان، وكان دخول الشيخ صادق أوائل رمضان، فكان يقرأ درس الوعظ بأيا صوفيا إلى اليوم السابع والعشرين، وقد جرت العادة أن السلطان في ذلك اليوم يدور على الدروس، فمتى أتى لدرسٍ يختم المدرس الكلام، ويدعو للسلطان، فما زال السلطان يُجري العادة ومعه وكلاء الدولة العظام، وشيخ المسلمين والإسلام، إلى أن وصل لدرس الشيخ صادق، فلم يُجر العادة من الختم في الحال والدعاء، بل التفت إلى الوكلاء، وخاطبهم بكونهم أدخلوا على السلطان الغرور، وأبطلوا الشريعة، وارتكبوا سفاسف الأمور، ونكّسوا أعلام الدين، وقدّموا المخالفين على المؤمنين، وأطال الكلام، وتجاوز الحدّ في هذا المقام، والسلطان صاغ إليه، فحقد الوكلاء عليه، فبعد أن ختم ذهب، وقد أضمروا له كل غطب، ثم بعد ذلك اجتمعوا وذهبوا إلى السلطان، فدخلوا عليه وتكلموا في حق الشيخ صادق بما غيرّ قلب أمير المؤمنين عليه، وقالوا له: قد فعل ما أوجب توجيه المضرّة إليه، فلا بد من إعدامه، ليتأدب غيره عن التكلم بمثل كلامه، فقال أمير المؤمنين: نعم ولكن لا بد من مرافعتكم معه في مجلس شيخ

---

(١) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للسيد عبدالحي الندوي الحسني (٦/ ٣٩٢ - ٣٩٣).

الإسلام، لئلا يقول الناس: قُتِل ظلمًا فنقع بين العموم في الملام، فحينما أحسّ شيخ الإسلام، دخل خفية عن الوكلاء العظام، ولم يزل يتعطف السلطان ويقول له: إن قتلناه قيل بالعبارات الصحيحة: إن السلطان قد قتله لبذله النصيحة، ولكن نفيه أولى، ورأي أمير المؤمنين أعظم وأعلى، فأمر السلطان بنفيه في الحال، فأرسل إلى عكا من غير إمهال»[1].

*** زين الدين الفارقيّ والأفرم أمير دمشق:**

هو عبدالله بن مروان بن عبدالله بن فيروز الفارقي أبو محمد زين الدين. ولي دار الحديث الأشرفية بعد النووي.

❑ قال الذهبي: «كان فصيحًا متقنًا متحريًا، لديه فضيلة جيّدة مع دين وصيانة وقوة في الحق».

❑ قال صاحب «الدرر الكامنة»: «وقرأت بخط العثماني قاضي صفد أنه حضر دار العدل فرأى على الأفرم ـ أمير دمشق ـ قباء[2] حرير وخاتم فضة ودواة مذهبة، فقال: إذا سألني الله عن هذا ما حُجّتي؟ إذا قال لي: لِمَ لم تقل له إن هذا حرام بالإجماع؟ وبكى فأبكى الحاضرين والأفرم، وبادر إلى نزع القباء والخاتم، واستبدل بهما وبالدواة، قال: فكان آمرًا بالمعروف قائمًا بالحقوق[3].

*** شهاب الدين الزاهدي «حق كَو» ومحمد شاه تغلق:**

شهاب الدين الزاهدي هو الشيخ العالم شهاب الدين بن فخر الدين الزاهدي الميرتهيّ المشهور بـ «حق كَو» (معناه الصادق) كان من كبار المشايخ

---

(١) «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للشيخ عبدالرزاق البيطار (٢/ ٧٠١ ـ ٧٠٢).
(٢) نوع من الملابس.
(٣) «الدرر الكامنة في أعيان المائدة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (٢/ ٤٠٢).

في عصره، ثم سافر إلى دهلى، وقتله محمد شاه تغلق، قال محمد بن الحسن المندوي في «كلزار أبرار»: إن محمد شاه قال له يومًا من الأيام: إن النبوة لم تنقطع كالولاية، فاغتاظ به شهاب الدين ولم يملك نفسه فخلع نعله وضرب به وجه محمد شاه، فغضب عليه محمد شاه وأمر أن يلقوه في الخندق، فألقوه من القلعة فلم يمت، فألقوه حتى مات في المرة الثالثة رحمه اللَّه بفضله»[1].

* **علاء الدين البخاري:**

محمد بن محمد بن محمد العلاء أبو عبداللَّه البخاري العجميّ الحنفي.

«كان إذا حضر عنده أعيان الدولة بالغ في وعظهم والإغلاظ عليهم، بل ويراسل السلطان معهم بما هو أشد من الإغلاظ ويحضه على إزالة أشياء من المظالم مع كونه لا يحضر مجلسه وهو مع هذا لا يزداد إلا إجلالاً ورفعة ومهابة في القلوب»[2].

◻ قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في «إنبائه»: كان من أهل الدين والورع».

وكان يذهب إلى تكفير ابن عربي، وتكفير ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ وتصدى له حافظ الشام ابن ناصر الدين فذب عن شيخ الإسلام ابن تيمية وألفّ كتاب «الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام فهو كافر» عفا اللَّه عنه.

---

(١) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» لعبدالحي الندوي (٢/ ٦٣).

(٢) «الضوء اللامع» للسخاوي (٩/ ٢٩١).

* **الأقصرائي والأشرف قايتباي:**

هو العلاّمة الشيخ يحيى بن محمد بن إبراهيم أبو زكريا الأقصرائي الأصل - نسبة لأقصرا إحدى مدن الروم - القاهري الحنفي.

▫ قال عنه السخاوي: «تصدى للإقراء فانثالت عليه الفضلاء من كل مذهب فأخذوا عنه وارتحل الناس بسبب لقيه من غالب الأماكن، وأقرأ الفقه والأصلين[1] والتفسير والحديث والعربية والمعاني والبيان، وقُصِد بالفتاوى في النوازل الكبار وغيرها ونفع اللَّه به في ذلك كله.

واشتهر بحسن التعليم والإرشاد... والصدع في الحق بلسانه وقلمه ومشافهته للملوك بالمواعظ والتخويفات في المواطن التي لا يشركه في المعارضة فيها غيره فصار بهذه الأوصاف الحميدة والمناقب العديدة إلى ضخامة وعلو مكانة وأوامر مطاعة.

ولما همّ الأشرف قايتباي للاستيلاء على فائض الأوقاف ونحوه من الأمور التي رام إحداثها محتجًّا بالاحتياج في تجهيز العسكر لدفع بعض الخارجين، وجمع القضاة عنده بسبب ذلك، كان من جملة من حضر فقام بأعباء دفع هذه النازلة أعظم قيام وكفى اللَّه المؤمنين القتال، وما نهض غيره لمشاركته في ذلك، وكفّ اللَّه عنه ألسن المفسدين وأيديهم بحسن نيته وجميل سريرته، ولم يجد الأعداء سبيلاً إلى الحطّ من مقداره بل كان ذلك سببًا في ارتقائه، فإنه توعّك بعد ذلك، ووصل علمه إلى السلطان المشار إليه فنزل إليه في منزله فسلّم عليه وبالغ في التواضع معه.

وبالجملة فقلّ أن ترى العيون في مجموعه مثله وللناس فيه جمال. ولم يزل على جلالته ولكن ثقل أمره على الأشرف لمشافهته له مرة بعد أخرى بما

---

(١) أي أصول الفقه وأصول الدين.

لم ينهض غيره لذكره بحيث قال له بحضرتي مرة: لا تتلفّت لما في أيدي الناس، وعارض في المجلس المعقود بسبب الكنيسة عند الدوادار الكبير بل فارق المجلس وعزّ ذلك على المتقين...

ومات سادس عشر المحرم سنة ثمانين وصلى عليه في محفل شهده السلطان فمن دونه وتأسف الناس على فقده وكثر ثناؤهم عليه ولم يخلّف بعده مثله رحمه اللَّه»[1].

* شيخ الإسلام بدر الدين الغزي:

أبو البركات محمد بن محمد بن محمد الغزي القرشي الشافعي.

قصده نائب الشام مصطفى باشا فلم يجتمع به إلا بعد مرّات، فلما دخل عليه قبّل يده والتمس منه الدعاء فقال له: ألهمك اللَّه العدل، ولم يزده على ذلك، فكرر طلب الدعاء منه فلم يزده على قوله: ألهمك اللَّه العدل وكانت هذه دعوته لكل من قصده من الحكّام.

◘ واستأذن عليه درويش باشا نائب الشام فلم يأذن له إلا في المرة الثالثة فقبّل يده، وأشار إليه الشيخ أن يجلس معه على فراشه فأبى درويش باشا، وجلس بين يديه وطلب منه الدعاء فقال له: ألهمك اللَّه العدل، وأوصاه بالرعية، وقال له الباشا يا سيدي: ماذا تسمعون عني؟ فقال: الظلم، بلغني أن صوباشيك ضرب إنسانًا في تعزير حتى مات وضرب آخر فبالغ في ضربه فاستغاث باللَّه فلم يخلّ عنه فقال له: بحياة رأس درويش باشا فخلّى عنه، وهذا يدل على كفر كامن في قلبه وعتوّ وتجبّر، فأمر درويش باشا برفع صوباشيه[2] في الحال وغضب عليه وجاء بعد ذلك الصوباشي إلى الشيخ

(١) «الضوء اللامع» (١٠/ ٢٤٠ ـ ٢٤٣).

(٢) وظيفة عثمانية صاحبها وشيك أو نائب.

فزجره وطرده، وكان الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ إذا بلغه منكر بعث إلى الحكّام في إزالته، وأنكره بقدر طاقته، يصدع بالحق، ولا يخاف في اللَّه لومة لائم، ولا يحابي ولا يُداهن في فتاويه ولا في غيرها[1] .

*** الشيخ أبو المواهب الحنبلي وأمير دمشق محمد باشا بن كرد:**

أبو المواهب بن عبدالباقي بن عبدالباقي الحنبلي البعلي الدمشقي مفتي الحنابلة بدمشق، شيخ القرّاء والمحدثين.

❑ في سنة خمس عشرة ومائة وألف كان واليًا بدمشق محمد باشا بن كرد بيرم فأرسل إليه من طرف الدولة العلية أن يضبط بعلبك والعائد منها ويرسله إلى طرفهم لكونها كانت في يد شيخ الإسلام المولي فيض اللَّه مفتي الدولة العثمانية فحين قُتِل صارت للخزينة السلطانية العائد منها حتى الحرير وغيره، وكان لما وصل إليه الحرير طرحه على التجار بدمشق فذهب جماعة إلى الشيخ أبي المواهب وترجَّوْا منه رفع هذه المظلمة عنهم، فأرسل ورقة مع خادمه ابن القيسيّ إلى الباشا فلما وصل إليه هددّه فهرب من وجهه، فلما ذهب كان حاضراً في مجلس الباشا أحد أعيان جند دمشق وهو محمد أغا الترجمان وباش جاويش وغيرهما فأخبروه بمقام الشيخ وعرّفوه بحاله من النسك والعلم والعبادة والولاية. فلما تحقّق ذلك ـ وكان مراده أن يأخذ من الشيخ مالاً لما سمع بخبره من مزيد الثروة، أرسل خبراً: لا أحد يتعدى على التجار، ثم إن التجار وقعوا على الشيخ مرة ثانية، فأرسل ورقة أخرى إلى الباشا وذكر أن الرعية لا تحتمل الظلم، فإما أن ترفع هذه المظلمة وإما أن تهاجر من هذه البلدة والجمعة لا تنعقد عندكم، وأيضًا الحرير للسلطان لا لك، فلما وصلت إليه ترك مراده بعدما علم بمقام الشيخ وأن الرعية تقوم

(١) «الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزي (٣/ ٣ ـ ١٠).

عليه إذا فعل ذلك.

وكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ لا يخاف في اللَّه لومة لائم ولا يهاب الوزراء ولا غيرهم»[1].

* **الشيخ عبدالغفار الضرير الشافعي:**

◘ قال الحمصي: مات قتلاً في صلاة الجمعة ببلدة يُقال لها: مطبوس بالقرب من إسكندرية، قال: وسبب ذلك أن هذه البلدة كانت في إقطاع الأمير طراباي وبها رجل متدارك لمالها اسمه أبو عمرو فوقع بينه وبين أهل البلده لفسقه وظلمه، فشكوا حالهم للأمير طراباي، فأرسل أخاه للبلد يحرّر ذلك فلما حضر شكا أهل البلدة إليه ظلم أبي عمرو لهم فضرب أخو طراباي واحداً من أهل البلدة بالدبوس فرجمه أهل البلدة فأمر بضرب السيف فيهم فقتل منهم ما يزيد على ثلاثين نفرًا فقال الشيخ عبدالغفار: هذا ما يحلّ، فُضربت عنقه وأُلقي في البحر فساقه البحر إلى قرية تسمى كوم الأفراح فُدفن بها وكان قتله سنة ثلاث عشرة وتسعمائة[2].

* **القاضي مغيث الدين الحنفي اليبانويّ والسلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي:**

أحد كبار الفقهاء الحنفية، انتهت إليه رياسة العلم والعمل في عصر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجيّ.

قال له السلطان علاء الدين: الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة قبل أن أكون سلطانًا غنمتها بتحمّل المحن والمشاق فهل هي لي خاصة

---

(١) «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للشيخ محمد خليل المرادي (١/ ٦٧ ـ ٦٩).
(٢) «الكواكب السائرة» (١/ ٢٤٠).

لنفسي أو لبيت مال المسلمين؟ فأجاب القاضي: إن الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة غنمتها بعساكر المسلمين فهي لبيت مالهم، فلو كنت حصلتها بجهد نفسك على وجه يبيحه الشرع كانت تلك الأموال خاصة لك، فلما سمع السلطان ذلك غضب عليه وقال: كيف تقول؟ ألا يعلم رأسك ما تقول؟ الأموال التي أخذتها بجهد نفسي وقوة خاصتي من الخدم وحصلتها من الكفار الذين لا يعلمهم أحد في دهلي وما أدخلتها في بيت المال كيف تكون لبيت المال؟

❑ ثم سأله: كم لي ولأهلي وعيالي نصيب من بيت المال؟ فقال القاضي: إني أظن أن الموت قد دنا مني، فقال السلطان: لم تقول ذلك أيها القاضي؟ قال: لأن السلطان سألني عن مسألة إنْ أجبت عنها بما يوافق الشرع يقتلني، وإن أجبت بما يوافق هواه يدخلني اللَّه في النار يوم القيامة، فقال السلطان: إني لست بقاتلك فقل ما بدا لك. فقال: إن اقتدى السلطان بالخلفاء الراشدين وأراد رزق الآخرة، فله أن يأخذ من بيت المال ما وظفّه الشرع للمجاهدين في سبيل اللَّه، وهو أربع وثلاثون ومائتا تنكة لنفسه وأهل بيته، وإن قال السلطان: إن هذا القدر لا يكفيه لعزّه السلطنة فله أن يأخذ ما يعطي غيره من الأمراء، وإن أراد أن يأخذ أكثر من ذلك بما أفتاه علماء السوء فله أن يأخذ أكثر من ذلك كثرة يعيش بها أحسن مما يعيش الأمراء، وإياه وإياه أن يأخذ أكثر من ذلك، وأن يعطي نساءه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة من بيت المال وقرى كثيرة من أرض الخراج والملابس الثمينة والظروف الغالية والجواهر الكريمة! فإنها تكون نكالاً ووبالاً لك في الآخرة، فقال السلطان: ألا تخاف سيفي فتقول: إن ما نعطيه نساءنا حرام في الشرع؟ فقال: إني أخاف سيفك ولذلك أحسب عمامتي كفني فقال السلطان: إنك حرّمت عليّ كل ما سألتك عنه، فلعلك تحرم ما أفعله من التعزير والتشديد،

فإني أمرت في شاربي الخمر وبايعيها بالحبس في الآبار، وبقطع أعضاء الزناة وبقتل النساء الزواني، وإني لا أميّز الصالح من الطالح في البغاة فأقتلهم وأهلك نساءهم وأبناءهم، ومن يخون في بيت المال أمرت فيه أن يُحبس في السجن ويوضع في الأغلال والقيود ويضرب ويطعن حتى يدفع ما عليه، فنهض القاضي من المجلس وذهب إلى صف النعال ووضع جبينه على الأرض ونادي بأعلى صوته سواء قتلني السلطان أو أبقاني لم يبح له الشرع ذلك ولم يطلق يده في أن يفعل بالمجرمين ما يشاء، فكظم السلطان غيظه ودخل في الحرم[١] ، ورجع القاضي إلى بيته، ثم ودّع أهله وأقرباءه في الغد توديع المحتضرين وتصدّق واغتسل كغسل الميت وأتي قصر السلطنة ودخل على السلطان فقرّبه السلطان إلى نفسه وخلع عليه[٢] .

*** الشيخ بهاء الدين زاده وإبراهيم باشا الوزير :**

بهاء الدين زاده هو محمد بن بهاء الدين بن لطف اللَّه، الشيخ الإمام محيي الدين الحنفي لما مرض مفتي التخت السلطاني علاء الدين الجمالي وطال مرضه وعجز عن الكتابة قيل له اختر من العلماء من يكون مقامك فاختار الشيخ بهاء الدين زاده لوثوقه بفقهه وورعه وتقواه. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تأخذه في اللَّه لومة لائم؛ ووقع منه كلام في حق إبراهيم باشا الوزير بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحنق عليه الوزير فخافوا على الشيخ منه وأشاروا إليه أن يسكت عنه فقال: «غاية ما يقدر عليه القتل وهو شهادة والحبس وهو عزلة والنفي وهو هجرة»[٣] .

مات ـ رحمه اللَّه ـ ببلدة قيصرية بتركيا.

---

(١) أي دار نسائه وجواريه.

(٢) «الإعلام» (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٣).

(٣) «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٩ ـ ٣٠).

* **الشيخ أحمد بن محمد الهادي بن عبدالرحمن:**

جلس للإقراء بالمسجد الحرام، وكان متدرعًا جلباب الطاعة عاملاً بعلمه حافظًا للسانه وفهمه مواظبًا على السنن النبوية، كثير التلاوة ملازمًا للذكر مع غاية من الزهد والقناعة.

كان شديد الإنكار يثب على المنكر كأنه صاحب ثأر لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، ولا تأخذه رأفة في دين اللَّه، وإذا حضر مجلسًا احتاط الحاضرون في ستر المنكرات والمستهجنات وحكي أنه دخل على بعض أرباب الدولة وعنده من يضرب بالآلة فأسكت المستمعين ووعظ الحاضرين وأمرهم بالتوبة وكانت وفاته سنة خمس وأربعين وألف[1] .

* **الشيخ العيثاوي الدمشقي:**

محمد بن محمد بن أحمد العيثاوي الدمشقي كان متصلبًا في أمر الدين قوّالاً بالحق لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، ومما اتفق له أنه دخل مرّة على محافظ الشام في مصلحة فتشاغل الباشا عنه بأوراق فمسك الباشا من طوقه وجذبه وقال له: انظر في أمر هؤلاء الفقراء واقض مصلحتهم، فالتفت إليه وقضى له ما جاء فيه.

❑ ودخل مرة على حاكم آخر بسبب معاليم الجامع الأمويّ وكان سنان باشا المتولي عليه كتب بها دفترًا وأراد قطع شيء منها. فوجد الباشا ينظر في دفتر المتولي ويتأمله، فجذبه أيضًا من طوقه وقال له: لا تلتفت إلى ما كتبه هذا الظالم وكان حاضرًا المجلس، وانظر إلى عباد اللَّه بنور اللَّه، فعمل على مراده وترك ما أراد المتولي، وله من هذا القبيل أشياء أخر[2] .

---

(١) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للشيخ فضل اللَّه المحبي (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦).
(٢) «خلاصة الأثر» (٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

* **الإمام اليوسي والسلطان المنصور إسماعيل بن الشريف الحسني السجلماسي:**

هو سيف السنة أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي.

خُصّ عن أهل عصره بالصدع بالحق بين يدي خليفة الوقت اعتناءً به ومبالغة في نصحه راجيًا منه أن يكون على سيرة الخلفاء الراشدين.

وله مراسلات ومحاورات مع السلطان أبي النصر المنصور باللّه أمير المؤمنين إسماعيل بن الشريف الحسني السجلماسي:

كتب إليه في أحدهما:

«فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها مُلك للّه تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد للّه تعالى وإماء له، والسلطان واحد من العبيد، وقد ملّكه اللّه تعالى عبيده ابتلاءً وامتحانًا، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة اللّه في أرضه، وظل اللّه على عباده، وله الدرجة العالية عند اللّه تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير حق ومتعرّض لعقوبة اللّه تعالى الشديدة وسخطه. ولا يخفى على سيدنا حال من تسلّط على رعيته يروم تملّكهم بغير إذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه، ثم نقول إن على السلطان حقوقًا كثيرة لا تفي بها البطاقة، ونقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها:

الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق.

الثاني: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة اللّه، وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج من عدد وعدّة.

الثالث: الانتصاف للمظلوم من الظالم، وفي معناه كفّ كل يد عادية

عليهم منهم ومن غيرهم.

وهذه الثلاثة قد اختلّت كلها في دولة سيدنا، فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو بالغفلة؛ فإن تنبه وفعل فقد فاز وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة، وإلا فقد أدّينا الذي علينا.

□ فأمّا الأمر الأول: فليعلم سيدنا أن المال الذي يُجبى من الرعيّة قد أعدّه اللّه للمصالح التي ينظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمؤذنين والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح.

ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن الوصول إلى قبضها إلاّ بوكيل، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل، فإن استوفى الوكيل الدّين بلا زيادة ولا نقصان وأدّاه إلى اليتامى بحسب ما يجب لكلٍّ فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران: أجر القبض وأجر الدفع، وإن هو زاد على الدّين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم للمديان، وإن نقص بغير موجب فهو ظالم لليتيم وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم لهم، فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جرّوا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينًا ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم. فعلى السلطان أن يتفقّد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكلام من يزين له الوقت، فإن أكثر الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون اللّه ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب، وفي أفضل منهم قال جدّ سيدنا أمير المؤمنين علي كرّم اللّه وجهه:

«المغرور من غررتموه»، وأن يتفقّد المصالح، ويبسط يد الفضل على خواص الناس وأهل العلم والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل:

أفادتكمُ النعمــاءُ مني ثلاثــةً   يدي ولساني والضمير المحجّبا

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها وشيد بها المصالح فالعامة يدْعون له ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يروْن من إنفاق أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس.

وأيضًا السلطان متعرّض للسهام الراشقة من دعوات المظلومين من الرعية، فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلام والبقاء فقابل دعاء بدعاء والله الموفق.

◻ وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضًا، وذلك أنه لم يتأت في الوقت الآن عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها، فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاون أيّام مولانا الرشيد ـ رحمه الله، فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورُماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخًا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصيّ والمقاليع، وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركة وإعطائهم العدة كسائر الناس.

فعلى سيدنا أن يتفقّد السواحل كلها من القليعة إلى ماسة ويحرّضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم ورجالهم وعدتهم ويزيدهم مما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام وأهله ولا يولي فيها مَنْ همّته ملء بطنه والاتكاء على أريكته.

◻ وأما الأمر الثالث فقد اختل أيضًا؛ لأن المنتصبين للانتصاف بين

الناس هم العُمّال في البلدان وخُدّامهم وهم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه، فلا يقدر أحد أن يشتكي. فليتق سيدنا دعوة المظلوم فليس بينها وبين اللَّه حجاب، وليجتهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا.

* قال اللَّه تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾، ثم ذكر المنصورين وشرائط النصر فقال: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلّط عليهم من يُفسد عليهم الدولة علموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع إلى اللَّه تعالى وتفقّد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم إياه، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه المُلك ولا يستقيم وأن العدل يستقيم معه المُلك ولو مع الكفر، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا يتحافظون عليه من العدل في الرعية استصلاحًا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والآخرة...

● وقال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته**»[1].

● وقال ﷺ: «**ما من والٍ يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولتان، فإما عدل يفكّه وإما جور يُوبقه**». وعن علي بن أبي طالب كرّم اللَّه وجهه قال: رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره على الأبطح فقلت: يا أمير المؤمنين

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن ابن عمر.

أين تسير؟ قال: بعيرٌ شرد من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: أذللت الخلفاء من بعدك. فقال: لا تلمني، والذي بعث محمدًا بالحق عليه السلام لو أن عنقًا[1] ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة، ألا إنه لا حرمة لوالٍ ضيّع المسلمين، وقد رأى رضي الله عنه شيخًا يهوديًّا يسأل على الأبواب فقال عمر رضي الله عنه: ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية ما دمت شابًّا ثم ضيّعناك اليوم، وأمر أن يُجرى عليه قوته من بيت المال.

وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يُعطي وما يأتي وما يذر، وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على يد نبي، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير، ولما كانت هذه الأمة المشرّفة انقطعت النبوءة بنبينا خاتم النبيين صلى اللّه عليه وآله وسلم وعلى إخوانه النبيين، فلم يبق إلا العلماء يُقتدى بهم... فكان حقًّا على خلفاء هذه الملة أن يتبعوا العلماء ويتصرّفوا على أيديهم أخذًا وعطاء. وقد تُوفي النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، وكان قبل ذلك يبيع ويشتري بالسوق لعياله، فلما بُويع أخذ متاعه إلى السوق كعادته حتى ردّه علماء الصحابة وقالوا له: إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق، وفرضوا له ما يكفي عياله وجعلوا المال على يد أمين، وكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره. وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده. فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء، ولا يقتدي بأهل الأهواء».

وكان الخليفة مولانا إسماعيل المذكور يثني عليه خيرًا. ومما يُحكى عنه في ذلك أنه كان يقول: علماء الوقت على أربعة أقسام: قسم لا يخاف إلا من اللّه ولا يخاف منا ـ يعني نفسه ـ، وقسم يخاف من اللّه ومنا، وقسم

(١) العناق: أنثى المعز.

يخاف منا ولا يخاف من اللَّه، وقسم لا يخاف من اللَّه ولا منا» ويمثل للقسم الأول باليوسي.

وقد فاز اليوسي بدينه فلم يتحمّل بشيء من غمزات المسلمين إلا ما سعى لهم في المصالح وارتكاب المخاطرة في إرشاد السلطان إلى ما هو واجب عليه بأشد من الخطاب المتقدم في الرسالة المنقولة مشافهة حيث سعى للمسلمين في المصالح، ونصح الخليفة المذكور غير مرّة، وقد راجعه برسالة أخرى أطول من هذه جوابًا عن مانعته به بطانة السلطان الذين يلونه ويقربون منه، واجتمع معه وشافهه، وقضاياه معه كثيرة[1] .

* طالوت المعافري الفقيه المالكي والحكم بن هشام:

لما مضت الألسنة تتحدّث عن خروج الأمير الحكم بن هشام للصيد واصطحابه الندماء واستماعه للغناء وقراءته للكتب الفلسفية وزاد الأمر حتى تحدث المرجفون عن مجالس الخمر والكأس وألحان الولوع والصبابة، وحديث الجواري والغلمان وثار الفقهاء وأهل قرطبة على الأمير واستطاع الأمير إخماد ثورتهم وصلب ثلاثمائة من رؤسائهم، وذاق الفقهاء من الهول والشدة ما تركهم جزر السيوف، واختفى الفقيه المالكي طالوت بن عبدالغفار المعافري لدى بعض معارفه من أهل الكتاب حتى اهتدى الحكم إلى مكانه، واستشعر الحكم الندم على إفراطه في الانتقام، وما إن وقعت عينه على طالوت حتى أجلسه إلى كرسي بجواره وقال له في عتاب مهذب: «يا طالوت، أخبرني لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيد في البر والإكرام على ما كنت أفعله بك؟

هل قدمت عليّ قط لحاجة في نفسك أو لغيرك إلاّ سارعت إلى

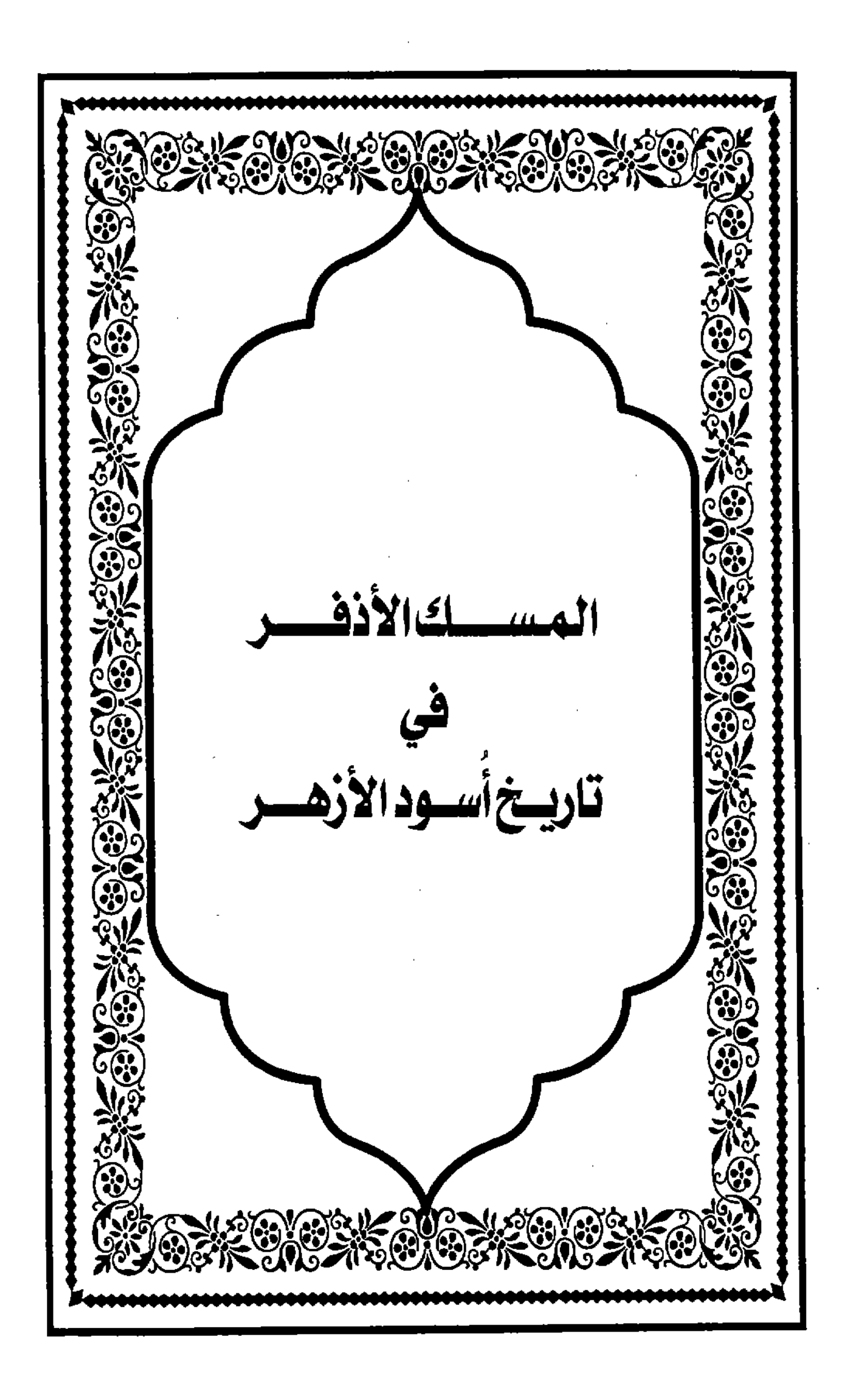
(١) «نشر المثاني» (٣/ ٢٥ ـ ٤٩).

إسعافك؟ ألم أعدك في علّتك مرات؟ ألم تتوفّ زوجتك فقصدت إلى بابك ومشيت في جنازتها راجلاً من الربض ثم انصرفت معك راجلاً حتى أدخلتك منزلك، فماذا بلغ منك، وهذا لي عندك، إن لم ترض إلا بسفك دمي وهتك ستري وإباحة حرمتي!

فأجاب طالوت في اعتداد: «ما أجد لنفسي في هذا الوقت مقالاً خيراً لي من الصدق، أبغضتك للَّه، فلم ينفعك عندي كل ما صنعته لأجلي».

رحمك اللَّه يا طالوت.

* * *



المسك الأذفر
في
تاريخ أُسود الأزهر

*** شيخ الإسلام ابن دقيق العيد والملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر ونائبه الأمير منكوتمر:**

ابن دقيق هو ابن دقيق في سمو العلماء الربانيين وجرأتهم في الحق، وتعددت في ذلك مواقفه العظيمة.

عرض عليه منصب قاضي القضاة فاعتذر عنه أبيًّا، ولكن الإلحاح المتزايد قد اضطره إلى القبول بعد أن اشترط على ذوي الأمر شروطًا تحفظ للقضاء كلمته النافذة وسطوته الغالبة دون تعويق.

تبوأ الإمام الورع مكانه القضائي فرأى بثاقب رأيه أن أمراء المماليك يبذلون وساطاتهم المتوالية الملحّة لدى القضاة، فأرسل منشورًا عامًا من تأليفه وبتوقيعه يدعو جميع القضاة إلى التزام الشرع، واطراح ما يؤثر على تنفيذه من وساطات ومحسوبيات، وشدّد النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام وخوّف بعذاب اللَّه والآخرة.

☐ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [التحريم: ٦].

هذه المكاتبة لمن وفّقه اللَّه لقبول النصيحة، وآتاه لما يقرّبه به قصدًا صالحًا ودنيا صحيحة، أصدرنا إليه بعد حمد اللَّه الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور، تذكرة بأمر ربك، فإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون.

فنحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا، فما أحد سواه بمغبون، عسى اللَّه أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار، فإني أخاف أن يتردى فيها فيجرّ من ولاّه والعياذ باللَّه معه، والمقتضى لإرسالها ما لحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم عما يجب للرب على المربوب، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة، واللَّه إن الأمر لعظيم وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمنًا ولا قرارًا ولا راحة، فاتق اللَّه الذي يراك حيت تقوم، واقصر أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم، وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمي وقد قال له قائل: ليتنا لم نُخلق فقال: (إذا وقعتم فاحتالوا).

كان الملك المنصور حسان الدين لاجين سلطان مصر سنة ٧٩٧ وقد أعطى مملوكه الأمير منكوتمر سلطة واسعة، إذ جعله نائب السلطنة، وأخذ يرشحه للقيام بالأمر من بعده، فأخذ الأمير ينكل بأعدائه، ويبعث الرهبة في النفوس والفزع في القلوب، وامتلأت الصدور حفيظة عليه وضيقًا به ومقتًا له، وكانت له رغبة في المال تتكاثر في نفسه بتكاثر ما يغصب، ولا يعرف القناعة.

وحبه الأعمى للمال دفعه ذات مرة إلى مواجهة ابن دقيق العيد.

وخلاصة القصة: أن تاجرًا كبيرًا من التجار مات وترك وراءه ثروة هائلة، فرأى منكوتمر أن يدّعي أن له أخًا سمّاه وعناه، وتقدّم به إلى القاضي ليأخذ الميراث، فإذا تمّ ذلك فإن الأمير يستطيع أن يستولى عليه من الأخ المزعوم لقاء هبة محدودة، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهولة الهينة في اعتقاد الأمير، فرأى أن يحتال لذلك، واختار أحد كبار خاصة الأمير «كرت» ووفده إلى قاضي القضاة فاستأذن مستخذيًا وسلّم، فقام له القاضي نصف قومة وردّ عليه السلام وأجلسه، فأخذ يتلطّف في الحديث

متوسلاً إلى إثبات أخوة التاجر بشهادة الأمير «منكوتمر» نائب السلطنة.

ولكن ابن دقيق العيد ـ نضّر اللَّه وجهه ـ ينظر إلى الأمير «كرت» مستخفًّا، وهو يقول: وماذا ينبني على شهادة منكوتمر؟

فيحمر وجه الرسول وهو يقول: هو عندنا وعندكم عدل يا مولاي!

فيصيح الشيخ: سبحان اللَّه، سبحان اللَّه ثم ينشد:

يقولون هذا عندنـــا غير جائـــز ومن أنتمو حتى يكون لكم عندُ

وكرر البيت ثلاث مرات، ثم قال: «واللَّه متى لم تقم عندي بينة شرعية تثبت أُخوّة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن أثبتها بحال».

□ وراجع الأمير كرت نفسه، فثار عليه ضميره، وصاح من فوره في مجلس الشيخ: لا إله إلا اللَّه، هذا هو الإسلام!!

□ مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يُخبره أن الأمير منكوتمر يريد الاجتماع به، فصاح في وجهه: قل له إن طاعتك ليست واجبة عليّ. ثم التفت إلى مَن حوله من القضاة، وقال: أشهدكم أني عزلت نفسي باسم اللَّه، وقولوا له يولّ غيري.

□ قال المقريزي في السلوك: وعاد الشيخ إلى داره وأغلق بابه وبعث نقباءه في مصر إلى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الأنكحة فقبلوا طائعين.

وقامت الضجة في البلاد، فقد عزل شيخ العلماء وقاضي القضاة نفسه من مباشرة أمور الناس، وأرسل إلى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة وعقد توثيق الزواج، ووصلت الضجة إلى الملك المنصور فهاج واضطرب وجعل يعنّف منكوتمر على نزقه وتسرّعه، ثم أرسل إلى ابن دقيق يستدعيه، فاعتذر، ولم ييأس السلطان، فواصل السعي وأرسل طوائف العلماء الوجهاء إلى الشيخ يستعطفونه ويرجونه في مقابلة السلطان وله أن يتمسّك برأيه كما يشاء.

وبعد لأي ذهب الإمام الورع الأشم، فقابل الملك المنصور، فتلقاه بحفاوة، وعزم عليه أن يجلس معه على كرسي واحد، فبسط الشيخ منديله، وكان خرقة من الكتان، فوق الحرير الموشى بالذهب على الكرسي، ثم جلس في اعتداد، فجعل السلطان يتلطف إليه ويتذلل، ويرجوه أن يعود إلى منصبه القضائي ويحكم بما يشاء، فقبل بعد حجاج. وانتهز السلطان فرصة قبوله فقال: يا سيدي، هذا ولدك منكوتمر فادع له اللَّه!!

فنظر ابن دقيق إلى منكوتمر ثم قال: منكوتمر لا يصلح، لن يجئ منه شيء. ثم قام لوجهه، وترك منديله على الكرسي، فتناول السلطان خرقته البالية، وأخذ يمسح بها وجهه، ثم تزاحم عليها الأمراء.

قال الراوي: فمن رأى تهافت السلطان على منديل الشيخ وتزاحم الأمراء على خرقته البالية، رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الإيمان.

*** شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وقضاة المذاهب وقانصوه الغوري سلطان مصر:**

علماء لا يخشون في اللَّه لومة لائم، يجبهون السلطان في مجلسه بما يردع أهواءه، فتثور ثائرته، ويعلن نقمته ثم يخرجون من مجلسه وقد أخلصوا ضمائرهم للَّه صادقين.

لقد نمى إلى «صاحب الحجاب»[1] أن رجلاً من الناس يأتي إلى بيت صديقه في غيبته وأنه على صلة منكرة بزوجته، فأخذ الحاجب للأمر أهبته وراقب المنزل حتى داهم الصديق مع معشوقته، وما زال بهما ضربًا وتبريحًا حتى أقرّا بالفاحشة، وإذ ذاك حُمِلا معًا على حمارين وطيف بهما في ملأ من الصبية والرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس، جريًا على المألوف من

(١) يقوم بمهمة مدير الأمن.

تقاليد هذا العصر ثم فُرضت عليهما غرامة فادحة قاما بأدائها في أسف نادم وخزي شنيع.

وكان من الميسور أن ينتهي الموقف دون أن يعقب صداه في دائرة السلطان! ولكن بعض الذين يحبون أن تشيع أصداء الفاحشة في كل مجلس! حتى في مجلس الغوري نفسه قد نقل الحادث إلى الغوري نفسه، ولكن الناقل المغرض أردف ذلك بأنه يأمل أن يصدر السلطان أمره برجم المذنبين فيكون ممن أحيا شريعة الإسلام من المماليك! وقد راقت الفكرة لدى الغوري، فحوّل المسألة إلى القضاء، وطلب أن يصدر قرار الرجم سريعًا لتقوم به الدولة على ملأ مشهود يحضره السلطان.

وقد طار النبأ إلى الرجل المسكين، فأشار عليه بعض ناصيحه أن يعدل عن إقراره، لأنه اعترف بالزنا تحت سياط الحاكم، والرجوع عن الإقرار حتى ولو لم يكن مع الإكراه، بل لدى الاختيار الكامل يمنع الحد كما أجمع عليه العلماء ولهم بصدد ذلك نصوص وأقيسة ووقائع لا تقبل التأويل.

فرجع الرجل عن إقراره، وكتب صاحبه فتوى طاف بها على العلماء بهذا الشأن فأجابوا جميعًا بتوقيعاتهم، وأعلنوا أن الرجوع عن الإقرار يسقط حدّ الزنا دون نزاع.

وارتكب الغوري الشطط، ودعا القضاة والعلماء لمناقشة الموضوع في مجلس خطير تصدّره السلطان!! واكتنفته الأسنة والحراب.

□ كان العلماء على بيّنة مما يحاك، فأجمعوا أمرهم على أن يقولوا كلمة الحق دون مبالاة، وكان شيخهم زكريا الأنصاري عضدهم في حومة الجدال، وثقوا في همته، واطمأنوا إلى مؤازرته.

والحق أن رأي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في هذه القضية مما يصعب على الغوري أن يهجنه ببعض التحامل أو الادعاء.

لقد ادّخر الحق لخذلان الغوري سهامًا صائبة، وقد فتح لها صدره في غطرسة كاذبة حين دعا العلماء إلى النقاش.

وشاء السلطان أن يوجه كلامه للشيخ زكريا الأنصاري بادئ ذي بدء بعد أن نظر في غضب إلى من حوله من العلماء، فصاح في غضب: كيف يا شيخ زكريا يضبط رجل في منزل صاحبه مع عشيقته ويقرّ بالجريمة ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع؟!

فسكت زكريا الأنصاري قليلاً، وقال أحد تلاميذة من القضاة: «للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه وقد كان الرسول ﷺ يراجع المعترفين فيقول لأحدهم: لعلك كذا ولعلك كذا، فيفسح له السبيل».

فاحمر وجه الغوري وتوقدت عيناه من الغيظ وصرخ يقول: أنا ولي الأمر، لي الحق في إصدار الحكم بالرجم، وليس لكم أن تقفوا أمامي باسم الدين.

فانبرى قاضٍ متحمس يقول: نعم لك الحق أن تصدر الحكم إذا كان متفقًا مع الشرع الكريم، فإذا أصررت على رجم المتهمْين فأنت مذنب وعليك ديتهما. وارتج المجلس الحاشد إثر هذه العبارة ارتجاجًا عنيفًا فأظهر بعض أمراء المماليك كلمات نابية منكرة، وتطوّر أحمقهم فسحب العالم من ثيابه وأجبره على الخروج، أما السلطان فقد وقف متغيظًا يضرب الأرض بقدمه، ويلوّح بسيفه متهددًا متوعدًا، وقد ندت منه عبارات ما كانت تصدر من شيخ محنّك كبير، ثم التفت إلى الشيخ زكريا وصاح: وأنت يا شيخ الإسلام ما تقول؟ فرد الشيخ زكريا ـ وكان قد جاوز التسعين، لكنه احتفظ بقوة الأداء، وارتفاع الصوت، وكأن الحق أعاد إليه شباب حنجرته، فقال: إن الرجوع بعد الاعتراف يُسقط الحق، وجمهور الأئمة على ذلك، وفي مقدمتهم صاحب

المذهب ﷺ فأظهر السلطان استهزاءه وصاح متهكمًا: هل هذا ما ترتضيه ذمتك يا شيخ الإسلام؟ فردّ الشيخ زكريا: ليس هذا ما ترتضيه ذمتي وحدي، ولكنه ما ارتضته ذمة ساكن مصر الإمام الشافعي! صاحب المذهب، وذمته الشريفة لا تقبل التجريح بحال! فزاد غضب الغوري وردّ متعجّلاً: أنت شيخ قد كبرت وضعف عقلك، أما أنتم أيها القضاة فلا أحب أن أراكم بعد الآن، وقد عزلتكم جميعًا عن القضاء!. وخرج السلطان مزبدًا سابًّا لاغيًا، فانفض المجلس أسوأ انفضاض!! ثم هتف الغوري ببعض أعوانه فأصدر أمره بمصادرة أموال البعض، ونفي البعض الآخر إلى الواحات، وضرب نائب مذهب الشافعي الشيخ الزنكلوني مع أولاده بالعصا، حتى كادوا يموتون؛ لأنه في اعتقاد السلطان قد هيّأ للمتهم سبيل الرجوع عن الاعتراف، وبذلك أمكن للقضاء معارضته على رءوس الأشهاد. أما المتهمان فقد صدر الأمر بشنقهما علنًا وتعليق جثتيهما يومين كاملين، ليرى الناس في مصر قلة حيلة القضاة، وهل استطاعوا أن ينتصروا على السلطان؟!

* الشيخ علي الصعيدي وعلي بك الكبير:

كان الشيخ علي الصعيدي ذا مهابة توجب على علي بك الكبير أن يقبّل يده، وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتي بتحريمه، فصار علي بك يحرص على أن يُخفي أدوات التدخين إذا علم بمجيئه خشية من غضبه، وكان الناس يلجأون إليه إذا مسّهم الضرّ، فيسجّل شكاواهم في صحيفة خاصة، ويتحدث مع الحاكم في كل شكوى على حدة، ولا يُلقي بالاً لتضايقه البارز في قطوب وجهه، بل كان يصيح في وجهه قائلاً: «لا تأسف، فالدنيا فانية، وسيسألنا اللَّه عن تأخرنا في نصحك إن لم نفعل»، ثم يمسك بيده قائلاً: «أنا

---

(١) انظر «سيرة عمر مكرم» لمحمد فريد أبو حديد - و«تاريخ الجبرتي».

خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب»!.

وقد لاحظ تلكؤًا في إجابة بعض مطالبه فخرج غاضبًا، ونفر الناس وراءه وارتبك الأمير فحاول اللحاق به معتذرًا، فأصرّ الشيخ على ألا يعود وأخذ يتلو قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

*** الشيخ الدردير ـ رحمه اللَّه ـ:**

من كبار علماء الأزهر في أيام دولة الخلافة العثمانية وله صولات وجولات في مجابهة الظلم والطغيان سجلها له الجبرتي في تاريخه:

ولعلّ أهمها موقفه من الأمير يوسف الكبير حين منع الأوقاف الخيرية عن طلبة العلم من المغاربة، فرفعوا الشكوى إلى القاضي فحكم لهم بما يستحقون، وكبرُ على الأمير أن يُذعن، فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالإذعان، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرًا مَن حمله فكان ما تحدّث به الجبرتي حين قال: «ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع، فاجتمعوا في صبحها، وأبطلوا الدروس والأذان وأقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء».

وكانت وقفة عصيبة رجع فيها الحق إلى أصحابه على أيدي علماء الدين وعلى رأسهم الشيخ الدردير.

*** الشيخ سليمان المنصوري: لا يُسلَّم للإمام في فعل يُخالف الشرع الكريم:**

أرسل السلطان التركي سنة ١١٤٨ أمرًا خاصًا بإلغاء بعض الأوقاف الخيرية، مطالبًا بوجوب نقلها إلى دائرة الوالي، ليضيفها بالتالي إلى ما يُرسل إلى الأستانة من الأموال، وانعقد مجلس الديوان، فقرأ القاضي العثماني

منشور الخلافة، ثم عقّب بقوله: «أمر السلطان لا يُخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف»، ولكن الشيخ سليمان المنصوري ـ أحد أعضاء المجلس من علماء الأزهر ـ يقف فيقول في صراحه:

«يا شيخ الإسلام، هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان، وفعْل النائب كفعْل السلطان، وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين، وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة، فلا يجوز إبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك، فلا يجوز لأحد يؤمن باللَّه ورسوله أن يُبطله، وإنْ أمر ولي الأمر بإبطاله لا يسلم له ذلك ويُخالف أمره؛ لأن ذلك مخالفة للشرع، ولا يسلم للإمام في فعل يخالف الشرع الكريم».

❑ يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد تعليقًا على هذه الحادثة الجريئة: وقد كانت وقفة الشيخ الجليل سببًا في عدول الحكومة عمّا كانت عازمة عليه، ولا يسع الإنسان إلا الإعجاب بمثل هذه الدقة في القول، وهذا الاتزان في المنطق، وهذه الجرأة في الحق[1] .

*** عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ الذي يصدع بالحق:**

عاش الجبرتي أيام حكم محمد علي الحالك السواد، اغتال وسلب وذبح وأرهب، أحال الحياة في عيني صاحب الحق ظلامًا دامسًا تتخلله العقارب والهوام، وتكتنفه المخاطر والحتوف.

لقد تحدّث الجبرتي في الجزء الأول والثاني من تاريخه عن عهد المماليك، فذكر بدقة ما لمسه من أساليب المشاحنة والمنافسة بين الرؤساء والأتباع، وألمّ إلمامًا مسهبًا بدسائس الأمراء والسناجق، وتكالبهم على المال

(١) انظر «سيرة عمر مكرم» لمحمد فريد أبو حديد.

والجاه، وفصّل مصارعهم الرهيبة، وما جلبوه على مصر من محن ونكبات، ووالى طعناته الدامية إلى محمد جركس، ومراد، وعلي الكبير، فبيّن كيف كان أتباعهم يأخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن، فإذا امتنع أحد التجّار قتلوه ونهبوا متجره، وشرح كيف كانوا يخطفون النساء والغلمان، ويدخلون منازل الناس ثم لا ينصرفون حتى ينالوا الثياب والأغلال والأموال، وكيف تجرّأ هؤلاء الأوغاد بتحريض أمرائهم على نهب مصوغات الذهب والفضة من الصاغة، وغصب نفائس الحليّ من صدور النساء في الحمامات، بعد التهجم عليهن هجومًا آثما ينكره الإسلام وتأباه الأخلاق.

ما حاد الجبرتي عن الصدق في تاريخه ولم يداهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، وتعذّر عليه أن يجد متنفَّسًا لقلمه في أمد تتحكم به الفردية الطاغية تحكمًا قاهرًا، ولو أغمض عينيه لخان رسالته وهاجت عليه نوازعه بالتأنيب والتقريع، وصمم على أن يجتاز طريقه الوعر مهما امتلأ بالأشواك والصخور!! ومهما تعرّض إلى مهاوٍ سحيقة يكتنفها الويل والثبور!!

وحين تكلم عن محمد علي وكان حاكمًا على مصر لم يغفل الحديث عن اشتعال الغلاء اشتعالاً كاد يُسلم الشعب إلى مجاعة دهياء، وكان أليمًا أن يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم وطائفة من أفاضل العلماء والأعيان، وقد جعل من مصادرة الأموال سيلاً ينحدر دافقًا إلى خزائنه، مما ضيّق الخناق على أصحاب المتاجر والمصانع فأخذوا يتنفّسون في جو خانق كريه وجنود الباشا المسلحون يجددون مآسي الفرنسيين، فينتهكون الحرمات ويتباهون بالمعاصي، ويعبثون بالمتاجر والأسواق، بل إن نجل الباشا إبراهيم يقتدي بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبًّا رهيبًا سجّله الجبرتي حين قال:ـ

«ثم سافر إبراهيم راجعًا إلى الصعيد، ليتم ما بقي عليه لأهله من العذاب الشديد، فقد فعل بهم فعل التتار، عندما جالوا بالأقطار، وأذلّ أعزة أهلها، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل، سنّه دون العشرين عامًا، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه، لم يؤدبه مؤدب، ولا يعرف شريعة، ولا مأمورات ولا منهيّات».

إنها الجرأة الصادقة تدفع الرجل إلى تأنيب القساة الطغاة، ولو تضافرت الأقلام على إنصاف الحق، ما وجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض في الشهوات دون أن يسمع غير الإطراء الكاذب، والرياء المقيت، وقد كان الجبرتي جريئًا، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازي الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفاظ ويلهب الصدور، في وقت وُجد به أناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة، وجلائل حافلة تتعلق بها الآمال، وخيال الباطل فسيح مديد.

ذاع نقد الجبرتي، وتناقل الناس ما سطّره عن محمد علي وإبراهيم، ثم عن أشياعهما من الأصهار المتجبرين، كمحمد الدفتردار، وسليمان أغا السلحدار، وكلاهما كان طاغوتًا رهيبًا لا يذر من شيء يأتي عليه، بل طالما استمد من سلطان الوالي رهبة قاتلة، تذل النفوس وتُلجم الأفواه، فما الذي يكافأ به الجبرتي إزاء صراحته في عالم تهون لديه الأرواح الإنسانية هوانًا يلحقها بالحشرات والهوام؟

إن النتيجة الرهيبة متوقعة محتومة، فلا يعقل أن تنكمش الأحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بقوة أو ترهب بنفوذ.

ولا ريب أن المؤرخ كان يعرف تمام المعرفة في أي طريق يسير! أو إلى أي مهوى ينحدر! وهنا موطن الأسوة ومجال العبرة! هنا مكمن العظمة في أفذاذ أماثل، يقدّمون أرواحهم قربانًا للعدالة والإنصاف، وينصبون إقدامهم

مثلاً حيًّا للبطولة والفداء! ولو لم تكن للجبرتي هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف من الأفراد يجامل الطغيان ويتملّق العدوان، ويقضي حياة ذليلة ضارعة تنتهي به إلى موت آسف لهيف، ويمرّ مماته الهيّن مرورًا ساكنًا شاحبًا، فما بكت عليه أرض وما تفتّحت لاستقباله سماء! أما كيف تمّت المأساة فقد اختلف فيها الكُتّاب، فهناك روايتان متباعدتان:ـ

❑ رواية تقول: إن حكم الإعدام نُفّذ في المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال في طريق موحش بهيم، بتحريض من محمد علي وتنفيذ سليمان أغا السلحدار.

❑ ورواية تقول: إن الاغتيال قد وُجِّه إلى خليل الجبرتي نجل المؤرخ، فتفجّع والده عليه، وكفّ ما بقي من بصره حتى لحق بولده بعد أيام.

والرواية الأولى أقرب الروايتين إلى المنطق.

وأصبح الجبرتي مثلاً يُحتذى، وذكرى تتعطّر بها الأجيال والعاقبة للمتقين[١].

* **الشيخ عبدالحميد الجزائري والمندوب السامي الفرنسي:**

استدعى المندوب السامي الفرنسي ـ في سورية ـ الشيخ عبدالحميد الجزائري، وقال له: إما أن تُقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار وإلا أرسلتُ جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفثُ فيه هذه السموم ضدَّنا، وإخمادِ أصواتك المنكَرة. فأجاب الشيخ عبدالحميد: أيُّها المسيُو الحاكم، إنك لا تستطيع ذلك. واستشاط المسيو غضبًا، وقال: كيف لا أستطيع؟ قال الشيخ: إذا كنتُ في عرسٍ علّمتُ المحتفلين، وإذا كنتُ في مأتمٍ وعظتُ المُعزِّين، وإن جلستُ في

(١) انظر «علماء في وجه الطغيان» للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي ص(٧٦ ـ ٩٧) ـ هدية مجلة الأزهر.

قطار علَّمتُ المسافرين، وإن دخلتُ السجن أرشدتُ المسجونين، وإن قتلتموني ألهبتُ مشاعِر المواطنين، وخيرٌ لك أيها المسيو ألا تتعرض للأمة في دينها ولغتها[1]

* **أحد علماءِ الأزهر والخديوي إسماعيل: «منك يا إسماعيل، لا منَّا»:**

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالتِ الهزائم على مصر ـ لوقوع الخلاف بين قُوَّاد جيوشها ـ ضاق صدر الخديوي لذلك، فركب يومًا مع شريف باشا، وهو مُحرج، فأراد أن يفرِّج عن نفسه، فقال: لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلمُّ بك مُلمَّة تريد أن تدفعها؟ فقال: يا أفندنيا، إن اللَّه عوَّدني إذا حاق بي شيءٌ من هذا أن ألجأ إلى «صحيح البخاري»، يقرؤه لي علماءٌ أطهارُ الأنفاس، فيفرج اللَّه عني. قال: فكلَّم شيخ الأزهر، وكان الشيخ العروسي، فجمع له من صلحاء العلماء جمعًا، أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر. قال: ومع ذلك، ظلَّت أخبار الهزائم تتوالى، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء، وقال لهم محنقًا: إما أن هذا الذي تقرءونه ليس بـ «صحيح البخاري»، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح؛ فإن اللَّه لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئًا. فَوَجَم العلماء لذلك. وابتدره شيخٌ من آخر الصفِّ يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ولَتنهونَّ عن المنكر، أو لَيُسلِّطنَّ اللَّه عليكم شرارَكم، فيدعو خيارُكم، فلا يُستجاب لهم**»[2].

وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا، ولم يَنبِسَا بكلمة. وأخذ العلماء

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» لعبداللَّه ناصح علوان.

(٢) رواه البزار والطبراني في «الأوسط»

يلومون القائل ويؤنِّبونه. فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل: أين الشيخ القائل للخديوي ما قال؟ فقال: أنا. فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يَلُومون الشيخ يُودِّعونه وداعَ من لا يأملون أن يرجع. وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره، فإذا به قاعد في البهو وأمامه كرسي، أجلس عليه الشيخ وقال: أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر. فأعاد الشيخ كلمته وردَّد الحديث وشرحه، فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟ قال له: يا أفندينا، أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يُبيح الربا؟! أليس الزنا برخصة؟! أليس الخمر مباحًا؟! وعدّد له منكراتٍ تجري بلا إنكارٍ، وقال: فكيف تنتظر النصر من السماء؟! فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب، وهذه مدنيَّتهم؟ قال: إذن، فما ذنب البخاري، وما حِيلة العلماء؟! ففكّر الخديوي مليًّا، وأطرق طويلاً، ثم قال: صدقتَ. وأمر، فرتِّبت له في الرزنامجة ثلاثون جنيهًا[1].

*** الشيخ محمد أبو الأنوار وحسن باشا الجزائرلي:**

يحكي لنا الشيخ الجبرتي «أن حسن باشا الجزائرلي لما قَدِم مصر من قِبَل السلطنة العثمانية وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية واستباح أموالهم، وقبض على نسائهم وأولادهم، وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعمًا أنهم أرقّاء لبيت المال... لمّا فعل ذلك اجتمع الأشياخ، وذهبوا إليه، فكان المخاطب له الشيخ محمد أبو الأنوار قائلاً له: «أنت أتيت إلى هذه البلدة، وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل، ورفع الظلم - كما تقول - أو لبيْع الأحرار وأمهات الأولاد، وهتك الحريم؟!!».

قال: هؤلاء أرقاء لبيت المال!!

(١) من كتاب «من أخلاق العلماء».

فقال الشيخ: هذا لا يجوز، ولم يقل به أحد!!

فاستشاط الوالي غيظًا شديدًا، وطلب كاتب ديوانه، وقال له: اكتب أسماء هؤلاء ـ يعني الشيوخ ـ وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره.

فقال له السيد محمود البنوفري: اكتب ما تُريد.. بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا!! فأُفحم الوالي وانكفّ عن إتمام قصده.

وتتبّع الوالي أموال الأمراء وودائعهم، وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند الشيخ أبي الأنوار وديعة، فأرسل الوالي يطلبها.. فامتنع عن دفعها قائلاً له: إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسي وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها على قيد الحياة!!

فاشتد غيظ الباشا منه، وقصد البطش به، فحماه اللَّه منه ببركة الانتصار للحق، فكان الباشا يقول:

«لم أر في جميع الممالك التي وليتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل؛ فإنه أحرق قلبي»[1] .

*** الشيخ العدوي أمام السلطان: «ذَكَرَ دينَه ونسيَ دنياه»:**

عندما زار السلطان العثماني عبدالعزيز مصر في عهد إسماعيل باشا كان إسماعيل حَفِيًّا بالزيارة؛ لأنها كانت جزءاً من برنامجه للحصول على لقب خديوي، مع عدَّة امتيازات في نظام الحكم بمصر. وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السَّراي، ولما كانت للمقابلة السَّنية تقاليدُ، منها أن يُنحني الداخل إلى الأرض، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام، فقد كان حتمًا على رجال السراي أن يدرِّبوا العلماء على طريقة المقابلة عدَّة أيام؛ كي لا يُخطئوا في حضرة السلطان. وعندما

(١) «عفواً يا فضيلة الإمام الأكبر» لمحمد عبداللَّه السمان ص(٦٥ ـ ٦٦).

حان الموعد، دخل السادة العلماء الأجلاء فنسُوا دينهم واشتروا به دنياهم، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات، وخرجوا مُوجِّهين وجوهَهم إلى الخليفة، كما أمرهم رجال التشريفات، إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العدوي، ذكَر دينَه ونسي دنياه، واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا للَّه، ودخل مرفوعَ الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ، دعاه إلى تقوى اللَّه، والخوف من عذابه، والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهى سلَّم، وخرج مرفوع الرأس. وأُسقط في يَد الخديوي ورجال السراي، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم، وأن السلطان لا بدّ غاضبٌ، فضائعةٌ تلك الجهود التي بذلوا، والآمال التي نسجوا. ولكنّ كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدًى، فلا بدَّ أن تصدع القلوب قوية حارّة، كما نبعت من مكمنها قوية حارّة، وهكذا كان، فقال السلطان: ليس عندكم إلا هذا العالم. وخلَع عليه دون سواه[1].

* **الشيخ العدوي أمام المحكمة: «لم يَعُدْ جديراً بأن يحكمنا»:**

كان الشيخ الأزهري حسن العدوي أحد الذين شاركوا في الثورة العرابية، فلما حلَّت الهزيمة وقبض على عرابي والعرابيين، كان العدوي واحدًا من الذين قُدِّموا للمحاكمة أمام المحكمة التي كانت مؤلَّفة من لفيف من الباشوات، ومن رجال الخديوي. ووقف الشيخ ـ الذي قَارَب سنَّ الثمانين ـ أمام المحكمة، وسأله رئيسها إسماعيل باشا أيوب بصوتٍ غليظ جافٍّ: هل وقَّعتَ باسمك، أو ختمتَ بخاتَمك قراراً يقضي أن أفندينا المعظَّم سُمُو الخديوي توفيق باشا يستحقُّ العزل؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السِّنِّ

(١) «مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام»، نقلاً عن «التصوف الإسلامي» لزكي مبارك.

يستعيد حَمِيَّة الشباب وحماستَه، فنظر إلى أيوب باشا نظرةً ثابتةً حادَّة، واتَّكأ بذراعيه على منضدة أمامه، وقال: أيُّهَا الباشا، إنني لم أر الورقة التي تتحدث عنها، ولهذا فلن أجيب على سؤالك عما إذا كنتُ قد وقَّعتُها، ولكنني أقول لك ما يأتي: إنه إذا أحضرتَ لي الآن ورقةً تحتوي على مثل هذا المعنى الذي ذكرتَه، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمُها بخاتمي في حضورك، الآن أيُّها الباشا. ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلاً: إذا كنتم مسلمين، فهل تستطيعون أن تُنكروا أن توفيق باشا ـ وقد خان بلاده، وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم ـ لم يعد جديراً بأن يكون حاكمًا لنا. واصفرَّ وجه الباشا رئيس المحكمة، الذي كان يظنُّ أنه يُخيف المحكومين، ولم ينطق بكلمة واحدة يردُّ بها على الرجل المُسنِّ الجريء، وأومأ إلى حُرَّاس المحكمة أن يأخذوه ويَخرَجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلى قريته، واعتقلوه فيها[1].

*** أحد علماء الأزهر والسلطان: «مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَه»:**

لما قَدمَ السلطان عبدالعزيز مصر وزار الجامع الأزهر وصحبَه الخديوي إسماعيل، فَلَحَظَ الخديوي على شيخ بالجامع كأنه غيرُ مُهتمٍّ، فهو مسندٌ ظهره، مادٌّ رجله، فأسرع بالسلطان عنه، ثم كلَّف أحد رجاله ـ وقد أراه الشيخَ ـ أن يذهب له بصُرَّةٍ، يريد أن يعرف حاله، فلما جاء الرسولُ ليعطيه قبضَ الشيخُ عنه يده، وقال له: قل لمن أرسلك: إن من يمدُّ رجله لا يمدُّ يده[2].

---

(١) جريدة أخبار اليوم ٨/ ١٩٨١م.

(٢) كتاب: «أخلاق العلماء». والسلطان عبدالعزيز هو ابن السلطان محمود الثاني ابن السلطان سليم الثالث، وُلد عام ١٨٣٠م وتُوفي عام ١٨٧٦م، انسلخت على أيامه رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الإمبراطورية العثمانية.

□ وصدق الشاعر حيث يقول:

لا يغرنّك من المـ ـرءِ قميصٌ رقّعهْ
أو إزار فـوق كعـ ـب الساق منه رَفعهْ
أو جبينٌ لاح فيه أثـر قد قلعهْ
ولدى الدرهم فانظرْ غيّه أو ورعهْ

*** الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر والملك فاروق:**

عاش الشيخ عبدالمجيد في عصر يسوده الاستعمار الإنجليزي الذي استولى على مصر، وفساد داخلي يمثله الملك والقصر والحاشية، وحزبية متناحرة.

ولم يسكت الشيخ كغيره، بل جاهر بالدعوة إلى نبذ الحزبية، وعارض في صراحة واضحة من يروْن مشايعة القصر ومسايرته، ورأى أن واجبه الألزم يفرض عليه أن يكون ممن يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر، فأعلن رأيه في السياسة الطائشة.

وقد دفعته رجولته أن يعلن رأيه الصريح في القصر الباغي والحزبية العمياء وهو شيخ الأزهر دون أن يحرص على منصب زائل أو يخاف مغبة متربصة.

ولم يكن القصر يجهل ما للشيخ من صلابة في الحق وإباء للضيْم، فقد ذاق فاروق من حملاته السافرة قبل المشيخة وبعدها ما أرّق مضجعه، وذكرت مجلة المصور مقالاً بعنوان «مات الشيخ عبدالمجيد سليم» بتاريخ ١٤ من أكتوبر ١٩٥٤م جاء فيه أن الشيخ إذ كان مفتيًا للديار المصرية تلقّى سؤالاً عن حكم الشرع في رجل يراقص النساء ويشرب الخمر في الحفلات، ويرتكب أعمالاً يحرّمها الإسلام، وقد أدرك المفتي أن المقصود بهذا السؤال هو فاروق،

ولكنه لم يتراجع، بل أصدر فتوى جريئة وصف فيها المسئول عنه وصفًا يشين ويجرح. ويقول المصوّر: إن الدوائر الرسمية والسياسية قد اضطربت لهذه الفتوى واتصل الملك السابق بالشيخ المراغي شيخ الأزهر فطلب إليه أن يطلع منذ الآن على كل فتوى يصدرها الشيخ عبدالمجيد قبل السماح لها بالذيوع!

ولم تكد الأيام تمرّ على تربّص حذر من القصر بالشيخ وآرائه حتى حاول فاروق أن يعين المغفور له الأستاذ مصطفى عبدالرازق شيخًا للأزهر، وكان القانون الرسمي للمشيخة لا يسمح بذلك؛ لأن الأستاذ مصطفى عبدالرازق لم يكن عضوًا في جماعة كبار العلماء، كما أن تعيينه في هذا المنصب الخطير يعتبر دفعًا جديدًا للأزهر في أتون السياسة الحزبية المتصارعة؛ لأن الرجل عضو بارز في حزب الأحرار الدستوريين ووزير من كبار وزرائه، وله في السياسة هوى خاص يميل مع قوم دون آخرين، فلا بد أن يكون عصره امتدادًا محتومًا لسياسة الأستاذ المراغي في الانضمام إلى القصر وشيعته.

لذلك نجد الشيخ عبدالمجيد ـ رحمه اللَّه ـ يرفض في عنف هذا التعيين، وقد استدعاه النقراشي باشا كما ذكرت مجلة «المصور» وحاول أن يغريه بالمال إذ كان للشيخ عدة آلاف من الجنيهات بوزارة المالية مكافأة شخصية على مشيخته للأحناف بالأزهر مدة طويلة، وقد تجمدت تلك المرتبات بالوزارة لاعتراضها على أن يجمع الشيخ بين مرتبيْن في وقت واحد، فلوّح له رئيس الوزراء بصرف تلك الألوف المتجمعة سريعًا إذا وافق على تعيين مصطفى عبدالرازق، فغضب الشيخ في وجهه غضبةً أزعجته وصاح به في انفعال: أتريد أن تساومني في الحق؟ ثم خرج ساخطًا دون استئذان، ولم ييأس القصر بعد، فأوفد إليه بعض رجاله يهدده بالعاقبة ويقول في صراحة: إن معارضة الملك خطر عليك! فقال الشيخ في إيمان: أسيحولُ

هذا الخطر بيني وبين المسجد؟ فخجل رسول القصر ولم يُجب.

وكان الشيخ جريئًا حين أعلن نبأ هذه المحادثة بإمضائه في بيان أصدره للناس!

◻ أما حملته على استهتار فاروق ومجونه فقد كانت شديدة، ففي الوقت الذي تسابق فيه الزعماء إلى تمجيد فاروق كان شيخ الأزهر يصيح صيحته الغاضبة: (تقتير هنا وتبذير هناك) منددًا بما ينفقه الملك في «كابري» من الكنوز على الخمور والقمار والنساء، وانتهز رجال الحكومة الفرصة فطاروا بهذه الكلمات إلى فاروق، فأُقيل الشيخ من منصبه، وقد ثبتت محبته في القلوب، وما ضرّه عزل دنيء عن منصب رسمي يسمو بالشيخ دون أن يسمو به، فهو من عظمته وعزته فوق المناصب.

*** الشيخ حسن الطويل والخديوي توفيق ورياض باشا:**

العالم الأزهري الجليل كان من عزّة النفس والثقة باللَّه على جانب رفيع دخل عليه رياض باشا وهو يدرّس لطلابه بدار العلوم فما غيّر موقفه أو بدّل جلسته، وحين همّ الزائر بالخروج قال له الأستاذ: لماذا لا أكون وزيرًا معكم يا باشا؟ فدهش الزائر وقال: أي وزارة تريد؟ فقال: وزارة المالية لأستبيح من أموالها ما تستبيحون!!

وكانت لطمةً أليمة تُوجَّه إلى حاكم لم يألف التهكّم والاستخفاف به، فخرج ثائرًا غاضبًا واستدعى ناظر المعارف علي مبارك ليعجّل بفصله من وظيفته، ولكن يدًا أعلى من يد رياض باشا تقف في وجهه فيتراجع عن غطرسته العاتيه مدحورًا وقد آثر ألا يزور مدرسة أو معهدًا بعد ذلك[1].

◻ هذا الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل قد طُلب منه أن يرتدي

(١) «من أخلاق العلماء» للأستاذ محمد سليمان ص(١٨١).

ملابس خاصة ليُقابل بها الخديوي توفيق وحان الموعد المرتقب فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية، ثم قدّمها للخديوي قائلاً في بساطة: إن كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذان، وإن كنت تريد حسن الطويل!! ثم قال الشيخ لجلسائه: كيف أتجمّل لتوفيق بلباس لا أتجمّل به لربي في الصلاة؟![1] .

* الشيخ الإنبابي شيخ الجامع الأزهر واللورد كرومر:

دخل اللورد كرومر على الشيخ الإنبابي محيّيًا، فصافحه الشيخ من جلوس، فاستعظم اللورد ما صنع وسأله: ألست تقوم للخديوي؟ فقال: نعم؛ لأن الخديو وليّ الأمر، وهو منّا ولست مثله لدينا في شيء[2] .

لم يقل الشيخ ذلك تزلّفًا للخديوي، فهو العالم الجريء الذي جابه توفيقًا وأفتى بعزله ومروقه دون تحفّظ أو اكتراث.

❑ ووقع الجواب من اللورد موقع الهيبة والإعظام في آن واحد... ثم دوّن الحادث في تقرير بعث به إلى الحكومة البريطانية.

* الشيخ النواوي شيخ الأزهر وحكومة مصطفى فهمي:

وهناك الشيخ النواوي شيخ الجامع الأزهر، فقد أرادت حكومة مصطفى فهمي أن تضعف القضاء الشرعي إجابة لرغبة المعتمد البريطاني، فدعت لتعديل اللائحة الشرعية مستندة إلى نفوذ المستعمر كعهدها في حكمها الطويل البهيم! ولكن الشيخ النواوي يحمل على المشروع بكلمة موجزة فتطير في الأمة كل مطير ويتأهب الكُتّاب لنقده نقدًا جارحًا، فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير، ولو كان هذا الموقف لزعيم سياسي لظلّت

(١) «علماء في وجه الطغيان» ص(١٢٣ ـ ١٢٤).
(٢) «من أخلاق العلماء» ص(١٨٢).

صحفنا المنصفة!! تردّده بين الحين والحين[١] .

* الشيخ الشربيني واللورد كرومر:

«تولى الشيخ الشربيني ـ رحمة اللَّه عليه ـ مشيخة الأزهر في وقت اشتد فيه الصراع بين الاستعمار البريطاني الذي كان يمثله اللورد كرومر، وبين الوطنية الأصيلة المستمدة من الدين والأخلاق.. وكان الأزهر في تلك الأثناء هو القلعة الحصينة العتيدة بجنود الوطن والإيمان والكفاح، وكان الاستعمار الغاشم لا يهاب شيئًا أكثر من سلطان العلماء؛ لأن قوة الشعب حينذاك كانت مستمدة من عزتهم وصدقهم.. وكان اللورد كرومر يرى ـ على خد فهمه ـ أن تفاهمه مع الشيخ الشربيني مما يخفف حدة الصراع الرهيب.. فأراد أن يقابل شيخ الأزهر في منزله.

وفي الوقت الذي حدّده الإمام حضر اللورد ومعه زوجته.. وحرص الإمام الأكبر على عدم القيام له إذا دخل عليه؛ لأنه لا يليق بشيخ الأزهر أن يقوم لكافر ظالم، فأمر خدمه بأن يدخلوهما في حجرة الانتظار في الدور الأرضي من المنزل.. وبعد برهة نزل إليه الشيخ فقام له اللورد وزوجته، وكان ذلك هو المطلوب، فسلّم عليه، ولم يسلّم على زوجته!!

وأخذ كرومر يتودد إلى الشيخ، ويتزلّف إليه ويتملّقه.. والإمام لا يعيره التفاتًا أو اهتمامًا بما يقول!! بل إنه أعطى ظهره لزوجة اللورد كي لا يراها.. فاعتبر اللورد أن ذلك إهانة له ولزوجته على وجه الخصوص.. ولكنه لم يستطع أن ينصرف.. ثم طلب من الشيخ أن يأذن لزوجته كي تصعد إلى الطابق العلوي من المنزل لزيارة حرم الإمام، ولتجلس معها حتى

---

(١) انظر «علماء في وجه الطغيان» ص(١٢٥)، و«في ميزان الإسلام» للدكتور محمد رجب البيومي (٢/٢٠٧) من سلسلة «إسلاميات».

تنتهي المقابلة. . ! !

ولكن الشيخ أبى. . وأجابه على الفور في عنف فقال: أنا آسف إنها تحرم على نسائنا المسلمات كحرمة الرجل الأجنبي سواء بسواء، لاختلاطها بالرجال!!

وهنا لم يستطع اللورد إلا أن يسرع في الانصراف مدحورًا. . ثم أبلغ حكومته بخطورة بقاء الإمام في منصبه كشيخ للأزهر. . ولم يلبث الإمام قليلاً حتى ترك منصبه غير آسف. . وفضّل أن يفوز برضى اللَّه عز وجل ورضى رسوله ﷺ ورضى بلاده، على أن يفوز برضى عميد الاستعمار وحكومته. . ولو كان من وراء ذلك ملك الدنيا»[1] .

*** الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية:**

لطم ـ رحمه اللَّه ـ الاستعمار البريطاني لطمة قاسية حين أصدر فتوى دينية وطنية في مقاطعة الإنجليز فسرت مسرى النار في الهشيم.

هذا الشيخ الجليل رفض ثروة مغرية قُدِّمت إليه حين أصدر فتوى إسلامية في وقف من الأوقاف وقال كلمته الجليلة «العلم في الإسلام لا يُباع»[2] .

* الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ووالد الشيخ أحمد محمد شاكر يقوم بعد صلاة الجمعة ويعلن للناس أمام السلطان حسين بطلان صلاتهم ويأمرهم أن يعيدوها ظهراً:

□ قال الشيخ أحمد محمد شاكر في مقالاته «كلمة الحق»:

---

(١) «كتمان الحق» ص(١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) «علماء في وجه الطغيان» ص(١٢٧).

«كان الشيخ طه حسين طالبًا بالجامعة المصرية القديمة، حين كانت متشرّفة برياسة سموّ الأمير فؤاد «حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد ـ رحمه اللَّه ـ»، وتقرّر إرساله في بعثة إلى أوربا، فأراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين ـ رحمه اللَّه ـ أن يكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالاً كريمًا، وحباه هدية قيّمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف، خطيب فصيح متكلم مقتدر هو الشيخ محمد المهدي خطيب مسجد عزبان، وكان السلطان حسين ـ رحمه اللَّه ـ مواظبًا على صلاة الجمعة، في حفل فخم جليل، يحضره العلماء والوزراء والكبراء.

فصلّى الجمعة يومًا ما، بمسجد المدبولي القريب من قصر عابدين العامر، وندبت وزارة الأوقاف ذلك الخطيب لذلك اليوم. وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوّه بما أكرم الشيخ طه حسين، وحُقّ له أن يفعل، ولكن خانته فصاحته، وغلبه حبّ التغالي في المدح، فزلّ زلّة لم تقم له قائمة من بعدها، إذ قال أثناء خطبته: «جاءه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى».

وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقًا ـ رحمه اللَّه، فقام بعد الصلاة يعلن الناس في المسجد أن صلاتهم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الظهر فأعادوها؛ ذلك أن الخطيب كفر بما شتم به رسول اللَّه ﷺ تعريضًا لا تصريحًا. وجاء الخطيب الأحمق الجاهل يريد أن يتملق عظمة السلطان ـ رحمه اللَّه، فمدحه بما يوهم السامع أنه يريد إظهار منقبة لعظمته، بالقياس إلى ما عاتب اللَّه عليه رسوله، واستغفر اللَّه من حكاية هذا، فكان صنع الخطيب المسكين تعريضًا برسول اللَّه ﷺ لا يرضى به مسلم، وفي مقدمة من ينكره السلطان نفسه.

ثم ذهب الوالد ـ رحمه اللَّه ـ فوراً إلى قصر عابدين العامر، وقابل محمود شكري باشا، وهو له صديق حميم، وكان رئيس الديوان إذ ذاك، وطلب منه أن يرفع الأمر إلى عظمة السلطان، وأن يبلّغه حكم الشرع في هذا بوجوب إعادة الصلاة التي بطلت بكفر الخطيب ولم يتردّد شكري باشا في قبول ما حُمِّل من الأمانة، واعتقد أن عظمة السلطان لم يتردد في قبول حكم الشرع بإعادة الصلاة. . .

ولكن اللَّه لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا، قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى، فأُقسِم باللَّه، لقد رأيته بعيني رأسي، بعد بضع سنين، وبعد أن كان متعاليًّا متنفّخًا، مستعزًّا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء، رأيته مهينًا ذليلاً، خادمًا على باب مسجد من مساجد القاهرة يتلقّى نعال المصلين يحفظها في ذلة وصغار»[1] .

* الشيخ الجليل محمد الخضر حسين شيخ الأزهر :

□ قال الشيخ محمد عبداللَّه السمّان :ـ

«كان الشيخ الجليل «محمد الخضر حسين» ـ وكنت على صلة وثيقة به في جمعيته «الهداية الإسلامية التي كان يرأسها، وكان الشيخ بسيوني مديراً لمكتبه. . قال لي الشيخ بسيوني ـ رحمه اللَّه ـ: إن الشيخ إثر تولّيه المشيخة كتب «استقالة» غير مؤرخة من صورتين احتفظ بإحداهما في مكتبه، وأعطاني الأخرى قائلاً لي: إذا رأيتني ضعيفًا في موقف من المواقف فابعث بالصورة التي معك إلى المسئولين نيابة عني. . وهذه مسئوليتك أمام اللَّه.

وفي عام ١٩٥٣م حدث اعتداء فرنسا على سلطان المغرب محمد الخامس لمواقفه الوطنية، وأُبعد عن بلاده، لكن بعض القبائل العميلة

---

(١) «كلمه الحق» للشيخ أحمد محمد شاكر ص(١٤٩ ـ ١٥٣) ـ مكتبة السنة.

للاستعمار الفرنسي آزرت المعتدي، وعقد الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين جلسة لهيئة كبار العلماء وأصدر بيانًا شديد اللهجة ضد عدوان فرنسا على السلطان الشرعي، واعتبر البيان أن العملاء الخونة خارجون عن الإسلام لموالاتهم للعدو الكافر المغتصب!! وأرسل البيان إلى جريدة الأهرام التي عُرفت بولائها لكل حكومة وعرضته على المسئولين الذين طلبوا إرجاء نشره، في الصباح لم يجد الشيخ بيان هيئة كبار العلماء منشورًا في الجريدة، فأرفق مع استقالته صورة من البيان وأرسلها إلى رئيس الجمهورية.. وكان أن نُشِر البيان كاملاً في اليوم التالي تجنبًا لمصادمات قد تحدث مع الأزهر شيوخًا وطلابًا حين تُشاع الاستقالة.

ورحل هؤلاء الشيوخ العظام.. الذين لم تخلّدهم الكراسي التي كانوا يجلسون عليها، وإنما خلّدتهم مواقفهم، واعتزازهم كورثة للأنبياء»[1].

□ وكتب الشيخ محمد فهمي عبدالوهاب في كتابه الطيب «كتمان الحق» ص(٩٢): «لقد كان فقيد الإسلام والمسلمين فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخًا للأزهر فجدّد ـ وهو المسنّ الهرم ـ للأزهر بعض شبابه، وبثّ فيه رُوحًا من كرامة النفس وكرامة العلم، وكرامة العلماء!!

فلقد حدث أن استدعاه وزير من وزراء الدولة، ولكن فضيلته أبى وقال: لا يملك دعوتي إلى مكتبه إلا رئيس الدولة!!

وليس ذلك بعجيب من عالم صادق، بذل حياته كلها للجهاد في سبيل الحق، واستمرأ النكال والتعذيب من أجل إيمانه.. وحكم عليه بالإعدام في بلده فهاجر من بلد إلى بلد.. تاركًا خلفه مفاتن الدنيا يزيّنها له الغاصبون الظالمون.. وهو يدعّم لأمته كرامة الدين والوطن!! ومن ثم رأينا كيف يذهب

(١) «عفوًا يا فضيلة الإمام الأكبر» لمحمد عبدالله السمّان ص(٤٦ ـ ٤٧) ـ طبع دار الاعتصام.

الوزير المذكور إلى مكتب فضيلته في اليوم التالي معتذرًا!! أجل.. إن المسألة هنا كانت كرامة نفس، وكرامة دين في وقت واحد.

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «سار أبو بكر الصديق ﷺ بعد النبي ﷺ بسيرة القرآن فلم تشغله مقاليد الخلافة في يده أن يقوم خطيبًا على ملأ من الناس المسلمين بقوله: «أيها الناس قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء اللَّه تعالى»، ثم قال: «أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، فعيّن بهاته الخطبة للحكومة الإسلامية مركزًا ثابتًا تدير عليه أمور سلطتها وذلك قوله: «أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله، فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، وفتح في وجوه الرّعية فرجًا يرددون منها أنفاس الحرية مع أولي الأمر، وأمر بالإنكار والمعارضة عندما تنحرف تلك السلطة عن مركزها يمينًا أو شمالاً وذلك قوله: «وإن أسأت فقوّموني»[1].

*** الحرية في خطاب الأمراء:**

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «من صعّد نظره في عصر الخلفاء الراشدين يجد السبب الذي ارتقى بالإسلام وانسجم به في سبيل المدنية هو ما انعقد بين الدين والخلافة من الاتحاد والوفاق، ومن ضرب بنظره فيما يشاء من الدول التي حمي فيها وطيس الاستبداد يجد المحرّك لتلك الريح السموم والعيثر المشئوم ما اعترض بين هاتين السلطتين من الاختلاف.

كان موضع العناية ومحل القصد من الإمارة في نظر أولئك الخلفاء

---

(١) «الحرية في الإسلام» للشيخ محمد الخضر حسين ص(٢٩) ـ دار الاعتصام.

ومن حذا حذوهم كعمر بن عبدالعزيز هو خدمة الدين الذي هو خادم للعدالة التي هي خادمة لصلاح العالم قال الشيخ قبادو التونسي:

وما الجاه إلا خادم الملك لائذًا وما المُلك إلا خادم الشرع حزمهُ

وما الشرع إلا خادم الحق مرشدا وبالحق قام الكون وانزاح ظلمهُ

ولمّا انطوت أحشاؤهم على هذا المقصد الجميل أطلقوا سراح الرّعية في أمرهم بالمعروف وإحضارهم النصيحة مثل ما سبق في خطبة أبي بكر الصديق ﷺ وكقول عمر بن الخطاب ﷺ: «أعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف وإحضاري النصيحة وأعينوني على أنفسكم بالطاعة»، وكانوا يوسعون صدورهم للمقالات التي توجه إليهم على وجه النصيحة والتعريض بخطأ الاجتهاد، وإن كانت حادة اللهجة قارضة العبارة.

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ﷺ وكان أميرًا على قنسرين، ولم يجد عمر بدًّا من الاعتذار عن ذلك بمحضر ملإٍ من المسلمين حذرًا مما عسى أن يقدح في بعض الظنون، فقام وخطب خطبةً في شأن العطاء وألقى في آخرها بالمعذرة فقال: وإني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته منه، وأمرت أبا عبيدة بن الجراح. فقام أبو عمر بن حفص وكان ابن عم عمر لخالد ـ فقال: واللَّه ما اعتذرت يا عمر، ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول اللَّه ﷺ إلى أن قال: وقطعت رحمًا وحسدت ابن العم. فقال عمر ﷺ: «إنك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك». ولم يزد على أن التمس لمناقشته وجهًا وردّه ردًّا لينّا.

وأخيرًا قدم خالد بن الوليد إلى عمر ﷺ، وحصحص الحق أنه نقيّ الراحة بري العهدة مما ظُنَّ به وبذلك كتب عمر إلى الأمصار.

ثم خلف من بعد أولئك خلف عرفوا أن فطرة الدين وطبيعته لا تتحمّل

شهواتهم العريضة وألفوا بلاط الملك فسيح الأرجاء بعيد ما بين المناكب ولكنه لا يساعفهم على أغراضهم وتتبّع خطواتهم ما دامت أوصاله ملتحمة بالإرادة الدينية، ولم يهتدوا حيلة إلى فارق بينهما سوى أن يسدّوا منافس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون دعاة الإصلاح، وابتكروا ضروبًا من الخسف وأفانين من الإرهاق كانوا يهجمون بها على الناس هجوم الليل إذا يغشى، وإذا سمعوا مناديًا ينادي ليحق الحق ويُبطل الباطل كلموه بألسنة السيوف.

◻ ولما أبق الملك من حضانة الدين وخفقت عليه راية الاستبداد خالط الأفئدة رعب وأوجال كأنما مُزِجَتْ بطينتها، فبعد أن كان راعي الغنم يفد من البادية وعصاه على عاتقه فيخاطب أمير المومنين بيا أبا بكر ويا عمر ويا عثمان، ويتصرف معه في أساليب الخطاب بقرارة جأش وطلاقة لسان وسكينة في الأعضاء أصبح سيد قومه يقف بين يدي أحد الكبراء في دولة الحجاج فينتفض فؤاده رعبًا ويتلجلج لسانه رهبةً وترتعد فرائصه وجلاً يخشى أن يكون فريسة لبوادر الاستبداد.

ولا نجهل أن القرون السالفة تمخضت فولدت رجالاً تمتلئ أفئدتهم غيرة على الحق والعدالة، فصغرت في أعينهم أبّهة الملك وازدروا بما يكتنفها من أدوات الاستبداد فجاهروا بالنصيحة المرّة وحفّفوا من ويلات المنكر نصيبًا وافرًا كالقاضي أبي الحسن منذر بن سعيد البلوطي المتوفى سنة ٣٥٥ وكنت تعرّضت إلى نبذة من سيرته في مجلة السعادة عدد ١٧، ومثل القاضي أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب الحوادث والبدع، ولكن هؤلاء الرجال لم يبلغوا النصاب الكافي لإصلاح شأن أمة عظيمة وما كانوا إلا أمثلة نادرة يضربها اللّه لدعاة الإصلاح لعلهم يتذكرون»[1] .

---

(١) «الحرية في الإسلام» للشيخ محمد الخضر حسين ص(٦٧ ـ ٦٩).

وأصل هذا الكُتيِّب محاضرة ألقاها الشيخ بنادي جمعية قدماء تلامذة الصادقية مساء يوم =

ونختم مواقف الشيخ العطرة بموقف عظيم، يوم جاءه موفد يساومه على دينه، فأجابه «قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن وقد ضمنهما اللَّه لي. وهذه استقالي تحت تصرفكم»[(١)] .

*** شيخ المحدثين بمصر أبو الأشبال أحمد محمد شاكر وصدعه بكلمة الحق:**

شهدته مجلة الهدي النبوي أسدًا يذبّ عن دينه في وقت صمت فيه الكل.. وصدع بكلمة الحق في مسائل صمت عنها الشجاع من الناس؛ وهدر بالكتاب والسنة وكان مثالاً للعالم العامل الذي لا يخشى في اللَّه لومة لائم، وكل مقالاته تدل على ذلك. وصان للقضاء الشرعي هيبته، فقد كان قاضيًا شرعيًّا أكثر من ثلاثين سنة حتى توفي في يوم السبت ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ.

*** كلمة الحق:**

انظر إليه للَّه دره وهو يقول:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

ما أقلّ ما قلنا (كلمة الحق) في مواقف الرجال. وما أكثر ما قصّرنا في ذلك، وإن لم يكن خوفًا فضعفًا، ونستغفر اللَّه، وأرى أن قد آن الأوانُ لنقولها ما استطعنا. كفَّارةً عما سَلَف من تقصير، وعما أسلفتُ من ذنوب، ليس لها إلا عفو اللَّه ورحمتُه. والعمرُ يجري بنا سريعًا، والحياةُ توشك أن تبلغ منتهاها.

وأرى أن قد آن الأوانُ لنقولها ما استطعنا، وبلادُنا، بلادُ الإسلام،

= السبت ١٧ من ربيع الثاني سنة ١٣٢٤هـ وهو يومئذ القاضي بمدينة بنزرت.

(١) «علماء ومنكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب (١/ ٣٧٦).

تنحدر في مجرى السَّيل، إلى هُوَّةٍ لا قَرار لها، هُوَّةِ الإلحاد والإباحية والانحلال. فإن لم نَقِفْ منهم موقف النذير، وإن لم نأخذ بحُجَزِهم عن النار، انحدرنا معهم، وأصابنا من عَقَابيل ذلك ما يصيبُهم، وكان علينا من الإثم أضعافُ ما حُمِّلوا.

* ذلك بأن اللَّه أخذ علينا الميثاقَ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وذلك بأن اللَّه ضرب لنا المثل بأشقى الأمم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

* وذلك بأن اللَّه وصفنا ـ معشرَ المسلمين ـ بأننا خيرُ الأُمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فإن فقدنا ما جعلنا اللَّه به خيرَ الأُمم، كنا كمثل أشقاها، وليس من منزلةٍ هناك بينهما.

* وذلك بأن اللَّه يقول: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

● وذلك بأن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ألا لا يمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناسِ أن يقول بحقٍّ إذا رآه أو شَهِدَهُ، فإنه لا يُقرِّبُ مَنْ أجَلٍ، ولا يُباعِدُ من رِزْقٍ، أَنْ يقولَ بحقٍّ، أو يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ**»[1] .

● وذلك بأن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم نفسَه**»، قالوا: يا رسول اللَّه، كيف يحقر أحدُنا نفسَه؟ قال: «**يَرَى أمراً للَّه عليه فيه مقالٌ، ثم**

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١١٤٩٤) بإسناد صحيح.

لا يقولُ فيه، فيقول اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ له يومَ القيامة: ما مَنَعَكَ أن تقولَ فِيَّ كذا وكذا؟ فيقولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فيقُولُ: فَإِيَّايَ كنتَ أَحقَّ أن تَخْشَى»[1] .

□ نريد أن نقول (كلمة الحق) في شئون المسلمين كلها. نريد أن ننافح عن الإسلام ما استطعنا، بالقول الفصل، والكلمة الصريحة، لا نخشى فيما نقول أحدًا إلا اللَّه. إذ نقول ما نقول في حدود ما أذن اللَّه لنا به، بل ما أوجب علينا أن نقوله، بهَدْيِ كتاب ربنا وسنة رسوله.

نريد أن نحارب الوثنية الحديثة والشِّرك الحديث، اللذين شاعا في بلادنا وفي أكثر بلاد الإسلام، تقليدًا لأُوربة الوثنية الملحدة، كما حارب سلفُنا الصالحُ الوثنيةَ القديمة والشرك القديم.

نريد أن ننافح عن القرآن، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب اللَّه بين أظهرنا، فمن متأولٍ لآياته غيرِ مؤمن به، يريد أن يَقسِرَها عليه غير ما يدل على صريح اللفظ في كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به، أو ما أُشرِبَتْه نفسه، من عقائد أوربة ووثنيتها وإلحادها، أو يُقَرِّبَهُ إلى عاداتهم وآدابهم ـ إن كانت لهم آداب ـ ليجعل الإسلام دينًا عصريًّا في نظره ونظر ساداته الذين ارتضعَ لِبَانَهم، أو رُبِّيَ في أحضانهم!!

ومن منكر لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأُ يحاور ويداور، ليجعل عالم الغيب كله موافقًا لظواهر ما رأى من سنن الكون، إن كان يَرَى، أو على الأصح لما فهم أن أوربة ترى!! نعم، لا بأس عليه ـ عنده ـ أن يؤمن بشيء مما وراء المادة، إن أثبته السادة الأُوربيون، ولو كان من خرافات استحضار الأرواح!!.

ومن جاهل لا يفقه في الإسلام شيئًا، ثم لا يستحي أن يتلاعب

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ٢٥٢) بإسناد صحيح.

بقراءات القرآن وألفاظه المعجزة السامية، فيكذِّب كلَّ الأئمة والحفاظ فيما حفظوا ورووا. تقليداً لعصبية الإفرنج التي يريدون بها أن يهدموا هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليجعلوه مثل ما لديهم من كتب.

وهكذا مما نَرى وتَرَوْن.

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين. وأن نحارب ما أحدث (النسوانُ) وأنصارُ (النسوان) من منكرات الإباحية والمجون والفجور والدعارة، هؤلاء (النسوان) اللائي ليس لهنَّ رجال، إلاَّ رجالاً (يُشْبِهْنَ) الرجال!! هذه الحركة النسائية الماجنة، التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين، والمخنثون من الرجال، والمترجلات من النساء، التي يهدمون بها كل خلق كريم، يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات، وإلى الشهوات فقط.

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين، والصالحات من المؤمنات: الذين بقي في نفوسهم الحفاظُ والغيرة ومقوّماتُ الرجولة، واللائي بقي في نفوسهنَّ الحياء والعفة والتصوُّن - إلى العمل الجدِّيّ الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي المصون، إلى حجابها الذي أمر اللَّه به ورسوله، طوعًا أو كَرهًا.

* نريد أن نثابر على ما دَعَونَا وندعو إليه من العودة إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله في قضائنا كله، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجيّ الذي ضُرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين، واللَّه تعالى يقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا**﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

* ثم يقول: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

◘ نريد أن نتحدث في السياسة، السياسة العليا للأُمم الإسلامية، التي تجعلهم (أُمةً واحدة)، كما وصفهم اللَّه في كتابه، نسمو بها على بدعة القوميات، وعلى أهواء الأحزاب. نريد أن نُبصِّر المسلمين وزعماءَهم بموقعهم من هذه الدنيا بين الأُمم، وتكالب الأُمم عليهم بغيًا وعدوًا، وعصبية وكراهية الإسلام أولاً وقبل كل شيء.

◘ نريد أن نعمل على تحرير عقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية، ومن روح التمرد والإلحاد، وأن نريهم أثر ذلك في أُوربة وأمريكا، اللتين يقلدانهما تقليد القردة، وأن نريهم أثر ذلك في أنفسهم وأخلاقهم ودينهم.

◘ نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة، التي اصطنعها كتَّاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون! يظنون أنَّ هذا من حسن السياسة، ومن الدعوة إلى الحق «بالحكمة والموعظة الحسنة» اللتين أمر اللَّه بهما! وما كان هذا منهما قط، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص على عرض الحياة الدنيا.

◘ وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتَّامين أو منفِّرين. معاذ اللَّه، و«لَيسَ المُؤمنُ بالطعَّانِ ولا اللَّعَّان، ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيءِ» كما قال رسول اللَّه ﷺ[1]. ولكنا نريد أن نقولَ الحق واضحًا غير ملتوٍ، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة، بأحسن عبارة نستطيعها، ولكنَّا نربأ بأنفسنا وبإخواننا، أن نصِفَ رجلاً يعلن عداءه للإسلام، أو يرفض شريعة اللَّه ورسوله ـ مثلاً ـ

---

(١) رواه الترمذي (٣/ ١٣٨) من شرح المباركفوري، وأحمد في «المسند» (٣٨٣٩، ٣٩٤٨).

بأنه «صديقنا»، واللَّه سبحانه نهانا عن ذلك نهيًا حازمًا في كتابه ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستخذي، فنصفَ أُمةً من الأُمم تضرب المسلمين بالحديد والنار، وتهتك أعراضهم وتنتهب أموالهم، بأنها أُمة «صديقة» أو بأنها أُمة «الحرية والنور»، إذا كان من فعلها مع إخواننا أنها أُمة «الاستعباد والنار»! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم، من علمائنا ـ نعم من علمائنا ـ ومن كبرائنا وزعمائنا ووزرائنا! واللَّه المستعان.

◻ نريد أن نمهد للمسلمين سبيل العزة التي جعلها اللَّه لهم ومن حقهم إذا اتصفوا بما وصفهم به: أن يكونوا «مؤمنين». نريد أن نوقظهم وندعوهم إلى دينهم بهذا الصوت الضعيف، صوت مجلتنا[1] هذه المتواضعة. ولكننا نرجو أن يدوّىَ هذا الصوت الضعيف يومًا ما، فيملأً العالم الإسلامي، ويبلغ أطراف الأرض، بما اعتزمنا من نية صادقة، نرجو أن تكون خالصةً للَّه وحده، جهادًا في سبيل اللَّه. إن شاء اللَّه.

فإن عجزنا أو ذهبنا، فلن يعدم الإسلام رجلاً أو رجالاً خيرًا منَّا، يرفعون هذا اللواء، فلا يزال خفاقًا إلى السماء، بإذن اللَّه...

*** قوله عن الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر قبل طردهم نهائيًّا من مصر:**

◻ قال رحمه اللَّه:

بَيَانٌ إلى الأُمَّة المصريَّة خَاصَّةً،
وإلى الأُمَمِ العَرَبَيَّة والإسلاميَّة عَامَّةً:

أما وقد استبان الأمر بيننا وبين أعدائنا من الإنجليز وأحلافهم، استبان

(١) نشرت هذه المقالات في مجلة الهدي النبوي المجلد الخامس عشر والسادس عشر وقت أن كان العلامة الشيخ أحمد شاكر رئيسًا لتحريرها وكانت تُنشر تحت عنوان «كلمة الحق».

لأبناء الأعداء منَّا، الذين ارتضعوا لبانهم، ولعبيد الأعداء منَّا، الذين أسلموا إليهم عقولهم ومقادهم. ولم نكن نحن الذين نشأنا على الفطرة الإسلامية الصحيحة في شك من توقع ما كان، ومن توقّع أشدّ منه مما سيكون!

أمّا وقد استبان الأمر، أمّا وقد أعلنت الأمة المصرية كلُّها رأيها وإرادتها، أمّا وقد أعلن الأزهر رأيه الصحيح في معاملة الأعداء ونصرتهم:-

فإن الواجب أن يعرف المسلمون القواعد الصحيحة في شرعة اللَّه، في أحكام القتال وما يتعلق به، معرفة واضحة يستطيع معها كل واحد تقريبًا أن يفرق بين العدوّ وغير العدوّ، وأن يعرف ما يجوز له في القتال وما لا يجوز، وما يجب عليه وما يحرم. حتى يكون عمل المسلم في الجهاد عملاً صحيحًا سليمًا، خالصًا لوجه اللَّه وحده، إن انتصر انتصر مسلمًا، له أجر المجاهد في الدنيا والآخرة، وإن قُتل قُتل شهيدًا.

إن الإنجليز أعلنوها على المسلمين في مصر حربًا سافرًا غادرةً، حرب عدوان واستعلاء، وأعلنوها على المسلمين في السودان حربًا مقنّعةً مغلَّفة بغلاف المصلحة للسودان وأهله، مزوّقةً بحلية الحكم الذاتي الذي خدع به المصريون من قبل.

وقد رأينا ما يصنع الإنجليز في منطقة قناة السويس وما يقاربها من البلاد، من قتل المدنيين الآمنين، والغدر بالنساء والأطفال، والعدوان على رجال الأمن ورجال القضاء، حتى لا يكاد ينجو من عدوانهم صغير أو كبير.

فأعلنوا بذلك عداءهم صريحًا واضحًا، لا لبس فيه ولا مجاملة ولا مداورة. فصارت بذلك دماؤهم وأموالهم حلالاً للمسلمين. يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وُجدوا - مدنيين كانوا أو عسكريين. فكلهم عدوّ، وكلهم محارب مقاتل. وقد استمرءوا الغدر والعدوان، حتى إن نساءهم وفتيانهم ليطلقون النار من النوافذ

والشرفات، في الإسماعيلية والسويس وبورسعيد، على المارين المسالمين، دون خجل أو حياء. وهم قوم جبناء، يفرون حيث يجدون القوي المناضل، يستأسدون حيث يجدون الرِّخوَ المُستضعَف. فلا يجوز لمسلم أن يُستضعَفَ أمامهم أو يريهم جانب اللين والعفو ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**﴾.

ولقد نهانا رسول اللَّه ﷺ عن قتل النساء في الحرب. وهو نهى معلل بعلة واضحة صريحة: أنهن غير مقاتلات. فقد مرّ رسول اللَّه ﷺ في بعض غزواته على امرأة مقتولة، فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**» ثم نهى عن قتل النساء.

أمّا الآن، ونساؤهم مجنَّدات، يحاربن مع الرجال جنبًا إلى جنب، وغير المجنَّدات منهن مسترجلات، يطلقن النار على المسلمين دون زاجر أو رادع، فإن قتلهن حلال، بل واجب، للدفاع عن الدين والنفس والبلد. إلا أن تكون امرأة ضعيفة لا تستطيع شيئًا.

وكذلك الحال مع الصبيان دون البلوغ، والشيوخ الهالكين الضعفاء: من قاتل منهم أو اعتدى قُتل، ومن لم يفعل فلا يعرضنَّ أحد له بسوء، إلا أن يؤخذوا هم والنساء أسرى. وسنذكر حكم الأسرى، إن شاء اللَّه.

وقد قلنا: «يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وجدوا، مدنيين أو عسكريين»، ونحن نقصد إلى كل حرف من معنى هذه الجملة. فأينما كان المسلم، ومن أي جنس كان من الأجناس والأُمم، وجب عليه ما يجب علينا في مصر والسودان. حتى المسلمين من الإنجليز في بلادهم ـ إن كانوا مسلمين حقًّا ـ يجب عليهم ما يجب على المسلمين من غيرهم ما استطاعوا. فإن لم يستطيعوا وجبت عليهم الهجرة من بلاد الأعداء، أو من البلاد التي لا يستطيعون فيها حرب العدو بما

أمرهم اللَّه.

فإن الإسلام جنسية واحدة ـ بتعبير هذا العصر ـ وهو يلغي الفوارق الجنسية والقومية بين متبعيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، والأدلة على ذلك متواترة متضافرة، وهو شيء معلوم من الدين بالضرورة، لا يشك فيه أحد من المسلمين، بل إن الإفرنج ليعرفون هذا معرفة اليقين. ولم يتشكك فيه إلا الذين رباهم الإفرنج منَّا واصطنعوهم لأنفسهم حربًا على دينهم وعلى أُمتهم، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٨].

فلم يستثن اللَّه من وجوب الهجرة على كل مسلم في بلاد أعداء اللَّه إلا الضعفاء ضعفًا حقيقيًا، لا يعرفون ما يصنعون، ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا.

* لم يقبل اللَّه عذرًا من أحد، بمال ولا ولد، ولا مصالح ولا علاقات: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فسرد اللَّه جميع الأعذار والتعلات التي ينتحلها المترددون المتخاذلون، ثم رفضها كلها، لم يقبل منها عذرًا ولا تعلَّة.

فليسمع هذا وليضعه نصب عينيه كل مسلم في مصر والسودان، والهند وباكستان، وكل بلد يحكمه الإنجليز الأعداء، أو يدخل في نطاق نفوذهم، من سائر أقطار الأرض، ومن أي جنس أو لونٍ كانوا.

أما التعاون مع الإنجليز، بأي نوع من أنواع التعاون، قلَّ أو كثر، فهو الردّة الجامحة، والكفر الصُّراح. لا يقبل فيه اعتذار، ولا ينفع معه تأول، ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء، ولا سياسة خرقاء، ولا مجاملة هي النفاق. سواء أكان ذلك من أفراد أو حكومات أو زعماء. كلهم في الكفر والردة سواء. إلا من جهل وأخطأ، ثم استدرك أمره فتاب واتخذ سبيل المؤمنين؛ فأُولئك عسى اللَّه أن يتوب عليهم. إن أخلصوا من قلوبهم للَّه، لا لسياسة ولا للناس.

وأظنني قد استطعت الإبانة عن حكم قتال الإنجليز وعن حكم التعاون معهم بأي لون من ألوان التعاون أو المعاملة، حتى يستطيع أن يفقهه كل مسلم يقرأ العربية، من أي طبقات الناس كان، وفي أي بقعة من الأرض يكون.

وأظن أن كل قارئ لا يشك الآن، في أنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى بيان أو دليل: أن شأن الفرنسيين في هذا المعنى شأن الإنجليز، بالنسبة لكل مسلم على وجه الأرض. فإن عداء الفرنسيين للمسلمين، وعصبيتهم الجامحة في العمل على محو الإسلام، وعلى حرب الإسلام، أضعاف عصبية الإنجليز وعدائهم. بل هم حمقى في العصبية والعداء، وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي لهم فيه حكم أو نفوذ، ويرتكبون من الجرائم والفظائع ما تصغر معه جرائم الإنجليز ووحشيتهم وتتضاءل. فهم والإنجليز في الحكم سواء: دماؤهم وأموالهم حلال في كل مكان، ولا يجوز لمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنواع التعاون، وإن التعاون معهم حكمه حكم التعاون مع الإنجليز: الردة والخروج

من الإسلام جملة، أيًّا كان لون المتعاون معهم أو نوعه أو جنسه.

وما كنت يومًا بالأحمق ولا بالغِرِّ، فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام، فتقطع العلاقات السياسية أو الثقافية أو الاقتصادية مع الإنجليز أو مع الفرنسيين.

ولكني أُريد أن أبصر المسلمين بمواقع أقدامهم، وبما أمرهم اللَّه به، وبما أعدَّ لهم من ذل في الدنيا وعذاب في الآخرة، إذا أعطوا مقاد أنفسهم وعقولهم لأعداء اللَّه.

وأُريد أن أعرفهم حكم اللَّه في هذا التعاون مع أعدائهم، الذين استذلوهم وحاربوهم في دينهم وفي بلادهم. وأُريد أن أعرفهم عواقب هذه الردة التي يتمرغ في حمأتها كل من أصرّ على التعاون مع الأعداء.

ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض: أنه إذ تعاون مع أعداء الإسلام مُستَعبِدِي المسلمين، من الإنجليز والفرنسيين وأحلافهم وأشباههم، بأيٍّ نوع من أنواع التعاون، أو سالمهم فلم يحاربهم بما استطاع، فضلاً عن أن ينصرهم بالقول أو العمل على إخوانهم في الدين، إنه إن فعل شيئًا من ذلك ثم صلى فصلاتهُ باطلة، أو تطهر بوضوء أو غُسل أو تيمُّم فطُهوره باطل، أو صام فرضًا أو نفلاً فصومه باطل، أو حَجَّ فحجُّه باطل، أو أدى زكاةً مفروضة، أو أخرج صدقة تطوعًا، فزكاتُه باطلة مردودة عليه، أو تعبد لربه بأيّ عبادة فعبادتُه باطلة مردودة عليه، ليس له في شيء من ذلك أجر، بل عليه فيه الإثم والوِزر.

ألا فليعلم كل مسلم: أنه إذا ركب هذا المركب الدنيء فقد حبِطَ عملُهُ، من كل عبادَة تعبد بها لربه قبل أن يرتكس في حمأة هذه الردَّة التي رضي لنفسه، ومعاذَ اللَّه أن يرضى بها مسلمٌ حقيقٌ بهذا الوصف العظيم، يؤمن باللَّه وبرسوله.

ذلك بأن الإيمان شرط في صحة كل عبادة، وفي قبولها، كما هو بديهي معلومٌ من الدين بالضرورة، لا يخالف فيه أحد من المسلمين.

* وذلك بأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

* وذلك بأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* وذلك بأنَّه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٣].

* وذلك بأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٥ - ٣٥].

ألا فليعلم كل مسلم وكل مسلمة أن هؤلاء الذين يخرجون على دينهم ويناصرون أعداءهم، من تزوّج منهم فزواجه باطل بطلانًا أصليًّا، لا يلحقه تصحيح، ولا يترتب عليه أيّ أثر من آثار النكاح من ثبوت نسب وميراث وغير ذلك. وأن من كان منهم متزوجًا بطل زواجه كذلك، وأن من تاب منهم ورجع إلى ربه وإلى دينه، وحارب عدوه ونصر أُمته، لم تكن المرأة التي تزوج حال الردة ولم تكن المرأة التي ارتدّ وهي في عقد نكاحه ـ: زوجًا له، ولا هي في عصمته، وأنه يجب عليه بعد التوبة أن يستأنف زواجه بها، فيعقد عليها عقدًا صحيحًا شرعيًّا. كما هو بديهي واضح.

ألا فليحتطِ النساءُ المسلماتُ، في أي بقعة من بقاع الأرض، وليتوثَّقْن قبل الزواج من أن الذين يتقدمون لنكاحهنّ ليسوا من هذه الفئة المنبوذة الخارجة عن الدين، حيطةً لأنفسهنّ ولأعراضهن، أن يعاشرن رجالاً يظنونهنّ أزواجًا وليسوا بأزواج، بأن زواجَهم باطل في دين اللّه.

ألاَ فليعلم النساءُ المسلماتُ، اللائي ابتلاهنّ اللّه بأزواج ارتكَسُوا في حَمْأَة هذه الرِدّة، أن قد بَطل نكاحهنّ، وصِرْن محرَّمات على هؤلاء الرجال، ليسوا لهنّ بأزواج، حتى يتوبوا توبةً صحيحة عملية، ثم يتزوجوهنّ زواجًا جديدًا صحيحًا.

ألا فليعلم النساء المسلماتُ، أنَّ من رضيت منهنّ بالزواج من رجل هذه

حالُه، وهي تعلم حاله، أو رضيت بالبقاء مع زوج تعرف فيه هذه الردّة ـ: فإن حكمها وحكمه في الردّة سواء.

ومعاذ اللَّه أن تَرْضى النساءُ المسلمات لأنفسهن ولأعراضهنّ ولأنساب أولادهن ولدينهنّ شيئًا من هذا.

ألا إن الأمر جِدٌّ ليس بالهزل، وما يغني فيه قانون يصدر بعقوبة المتعاونين مع الأعداء. فما أكثر الحيل للخروج من نصوص القوانين، وما أكثر الطرق لتبرئة المجرمين، بالشبهة المصطنعة، وباللَّحن في الحجة.

ولكنّ الأُمة مسئولة عن إقامة دينها، والعملِ على نصرته في كل وقت وحين. والأفرادُ مسئولون بين يدي اللَّه يوم القيامة عما تجترحه أيديهم، وعما تنطوي عليه قلوبهم.

فلينظر كل امرئ لنفسه، وليكن سياجًا لدينه من عبث العابثين وخيانة الخائنين.

وكل مسلم إنما هو على ثغر من ثغور الإسلام، فليَحْذَرْ أن يؤتَى الإسلامُ من قِبلَه.

وإنما النصر من عند اللَّه، ولينْصُرنَّ اللَّه من ينصُره.

* الشيخ أحمد شاكر وعبدالعزيز فهمي باشا:

□ قال عنه الشيخ شاكر: «هذا الرجل الذي أُشرب في قلبه قوانين الإفرنج حتى لا يسع غيرها، لم يكد يمسك القلم حتى خلق فرصة، لا أدري كيف خلقها، لإبراز ما يحمل قلبه من ضغن على التشريع الإسلامي، ولتقديس قوانين الإفرنج والإشادة بها وللذود عنها».

يقول: «وقد بدأ معالي الباشا استدلاله بكلمة منكرة «أن الدين للَّه، وأما سياسة الإنسان فللإنسان» وما هذه الكلمة إلا تحريف أو تحوير لكلمة

ليست إسلامية، وليست عربية، كلمة فيها خنوع وخور واستسلام لاستبداد القياصرة، لا يرضاها مسلم ولا يرضاها عربي.

❑ نعم: إن الدين كله للَّه، وإن الأمر كله للَّه، ولكن هذا الرجل والذين يظاهرونه يريدون أن يفهموا الدين على غير ما يعرف المسلمون، وعلى غير ما أنزل اللَّه في القرآن، وعلى لسان الرسول ﷺ. يريدون أن ينفثوا في روع الأغرار والجاهلين أن الدين هو العقائد والعبادات فقط، وأن ما سواهما من التشريع ليس من أمر الدين، عدوًا منهم وبغْيًا، واستكبارًا وعُتوًا على المسلمين، بل جهلاً وعجزًا، ثم استكانة وذلاً للسادة الأوربيين «ذوي العقول الجبارة»!!.

❑ ولطالما سمعنا اعتذار المسرفين على أنفسهم، ممن يأبوْن العود بالأمة إلى تشريعها الإسلامي، ولطالما جادلناهم، فما رأينا أحدًا منهم أجرأ على اللَّه وعلى الدين من هذا الباحث العلاّمة!.

ما زعم لنا واحد منهم قط «أن الدين للَّه، وأما سياسة الإنسان فللإنسان» وأن «الحاكم في الإسلام عليه أن يسوس الناس على ما يحقق مصالحهم، مؤسسًا عمله على الحق والعدل، على أن لا يمسّ العقائد وفرائض العبادات»؛ لأن معنى هذا الكلام الخروج بالإسلام عن حقيقته، وجعله دين عبادة فقط، وإنكار ما في القرآن والسنة الصحيحة من الأحكام في كل شئون الإنسان.

والقرآن مملوء بأحكام وقواعد جليلة، في المسائل المدنية والتجارية، وأحكام الحرب والسلم، وأحكام القتال والغنائم والأسرى، وبنصوص صريحة في الحدود والقصاص.

فمن زعم أنه دين عبادة فقط فقد أنكر كل هذا، وأعظم على اللَّه الفرية، وظن أن لشخص كائنًا من كان، أو لهيئة كائنة من كانت، أن تنسخ

ما أوجب اللَّه من طاعته والعمل بأحكامه. وما قال هذا مسلم قط ولا يقول، ومن قاله فقد خرج من الإسلام جملة ورفضه كله، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

□ ثم يقول الشيخ أحمد شاكر: «أعجب ما في الأمر أن يسأل معالي الباشا السيد محب الدين الخطيب «هل يرى في تلك النظم والقوانين ما يخالف شيئًا من عقائد المسلمين أو يعطّل فرضًا من فرائض الدين؟» وسأجيبه أنا جوابًا حاسمًا:ـ

«نعم، إن القوانين الإفرنجية والنظم الأوربية، فيها كثير مما يخالف عقائد المسلمين، وفيها تعطيل لكثير من فروض الدين.

□ فيها إباحة الخمور علنًا، والترخيص رسميًّا ببيعها، بتصريح كتابي يوقّع عليه وزير من وزراء الدولة أو موظف كبير من موظفيها. بل إن فريقًا من رجال الدولة الكبار لا يخجلون أن تدار عليهم الخمور في حفلات رسمية، ينفق عليها من أموال الدولة، بحجة أن هذا إكرام لمدعوّيهم من الأجانب، أو بما شئت من حجج تجرّدت من الحياء، حتى إن الدهماء ومن يسمونهم بسمة «الطبقة الراقية» اقتدوا بساداتهم وكبرائهم، واستغلوا هذه القوانين فيما يُذهب عقولهم ويذيب أموالهم، فانحطُّوا إلى الدرك الأسفل.

وفيها إباحة الميسر بكل أنواعه بشروط ورخص وضعوها.

فخربت البيوت، واختلت الأعصاب والعقول مما هو مشاهد، يعجز قلمي عن وصفه.

□ وفيها إباحة الفجور بطرق عجيبة من حماية الفجّار من الرجال والنساء من سلطان الآباء والأولياء، بحجة حماية الحرية الشخصية، ثم ما في الحانات والمواخير، ثم اختلاط الرجال والنساء، ثم المصايف وما فيها من البلاء، ثم هذه المراقص العامة والخاصة، بل المراقص التي تُنفِق عليها الدولة

في الحفلات والتمثيل اقتداءً بالسادة الأوربيين «ذوي العقول الجبّارة التي كشفت الكهرباء والراديو ومعجزات الطيران»!.

☐ وفيها إبطال الحدود التي نزل بها القرآن كلها مسايرةً لروح التطور العصري، واتباعًا لمبادئ التشريع الحديث! وتَبًّا لهذا التشريع الحديث وسحقًا.

☐ وفيها إهدار الدماء في القتلى، باشتراط شروط لم ينزل بها كتاب ولا سنة، في الحكم بالقصاص، مثل شرط سبق الإصرار مع العمد الموجب وحده للقصاص في شرعة الإسلام.

ومثل البحث فيما يسمونه «الظروف المخففة» و«درس نفسيّة الجاني وظروفه» ومثل جعل حق العفو للدولة، لا لوليّ الدم الذي جعل اللَّه له وحده حق العفو بنص القرآن، فأهدرت الدماء، وفشا القتل للثأر، حتى لا رادع، والأمة والحكومة والصحف وغيرها تتساءل عن علة ازدياد جرائم القتل، والعلة في هذه القوانين التي خالفت العرف والدين. إلى غير ذلك مما لا نستطيع أن نحصيه في هذه الكلمة وكل هذه الأشياء وأمثالها تحليل لما حرَّم اللَّه، واستهانة بحدود اللَّه، وانفلات من الإسلام، وكلها حرب على عقائد المسلمين، وكلها تعطيل لفروض الدين.

☐ ثم قال الشيخ أحمد شاكر: «ولسنا ننعَى على هذه القوانين كل جزئية فيها، بالضرورة، ففيها فروع في مسائل مفصّلة، تدخل تحت القواعد العامة في الكتاب والسنة، ولكنا ننكر المصدر الذي أُخذت منه، وهو مصدر لا يجوز لمسلم أن يجعله إمامًا في التشريع، وقد أُمِر أن يتحاكم إلى اللَّه ورسوله. فالكتاب والسنة وحدهما هما الإمام، نستنبط منهما وفي حدودهما ما يوافق كل عصر وكل مكان، مسترشدين بالعقل وقواعد العدل. ولكنا نسخط على الروح الذي يُملي هذه القوانين ويوحي بها، روح الإلحاد والتمرّد

على الإسلام، في كثير من المسائل الخطيرة، والقواعد الأساسية فلا يُبالى واضعوها أن يخرجوا على القرآن، وعلى البديهي من قواعد الإسلام، وأن يصبغوها صبغة أوربية، مسيحية أو وثنية، إذا ما أرضَوْا عنهم أعداءهم، ونالوا ثناءهم، ولم يخرجوا على مبادئ التشريع الحديث!!

وهم في نظر الشرع، مخطئون إذا ما أصابوا، مجرمون إذا ما أخطئوا. أصابوا عن غير طريق الصواب، إذْ لم يضعوا الكتاب والسنة نصب أعينهم، بل أعرضوا عنهما ابتغاء مرضاة غير اللَّه، جهلوهما جهلاً عجيبًا، وأخطئوا عامدين أن يُخالفوا ما أمرهم به ربهم، ساخطين إذ ما دُعُوا إلى اللَّه ورسوله ليحكم بينهم.

❑ ثم قال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه ـ:

«والفرية الكبرى أن يرمي معالي الباشا فقهاءنا وأئمتنا السابقين بما يخرجهم من الدين! فإنه سأل محب الدين:ـ

«هل يحسبُ أن فقهاءنا الأكرمين، لو كان اللَّه مدّ في أجلهم إلى اليوم، كانوا يأخذون في سياستنا بغير الموجود الآن من القوانين؟».

ونحن نجيبه الجواب الحاسم الصحيح: أن سلفنا الصالح لو مدّ اللَّه في أجلهم إلى اليوم، ما رضُوا عن هذه القوانين، وما خنعوا لها وما استكانوا بل ما جرؤ أحد أن يفكّر في وضعها لبلاد المسلمين، وليس الذي ينفي عنهم عار هذه السبّة هو الذي يكذب عليهم علنًا، وهم أجلّ في أنفسهم وفي نفوس المسلمين من أن يصدق عليهم ما رماهم به معاليه، ومن ظن بهم غير ذلك، فقد جهل العلم والدين، وأنكر التاريخ، أو قال غير الحق، زراية بهم وإسرافًا عليهم، وهو يعلم أن الحق غير ما قال.

ثم قال له: إن الرجل الحازم يعرف كيف يرجع إلى الحق علنًا، كما حاد عنه علنًا، فإن أبيْت فلا تنس بيت بشر ابن أبي حازم:

ولا يُنجي من الغَمَرات إلا ... بُرَاكاء القتال أو الفرار

* أسطورة وجود شيء في الإسلام يُدْعى «رجال الدين»:

☐ قال الشيخ أحمد شاكر: «لطالما حاولت نقض هذه الأسطورة، أسطورة وجود شيء في الإسلام يُدعى «رجال الدين»!! من ذلك ما قلته في محاضرة أعددتها لأُلقيها يوم ٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ (٣ أبريل سنة ١٩٤١) ومنعني من إلقائها الوزير القائم على الأحكام العرفية الإنجليزية إذ ذاك، وهو حسين سرّي باشا رئيس الوزراء. وكان مما قلتُ فيها عن آثار القوانين الإفرنجية في نفوس متعلميها:-

«كان لها أثر بيّن بارز في التعليم، فقسّمت المتعلمين المثقفين منا قسمين، أو جعلتهم معسكريْن: فالذين عُلِّموا تعليمًا مدنيًّا، ورُبُّوا تربية أجنبية، يعظمون هذه القوانين وينتصرون لها ولما وضعت من نظم ومبادئ وقواعد، يرون أنهم أهل العلم والمعرفة والتقدم وكثير منهم يُسرف في العصبية لها، والإنكار لما خالفها من شريعته الإسلامية، حتى ما كان منصوصًا محكمًا قطعيًّا في القرآن، وحتى بديهيات الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، ويزدري الفريق الآخر ويستضعفهم، واخترعوا له اسمًا اقتبسوه مما رأوا أو سمعوا في أوربة المسيحية، فسمّوهم «رجال الدين» وليس في الإسلام شيء يُسمّى «رجال الدين» بل كل مسلم يجب عليه أن يكون رجل الدين والدنيا»[1] .

* الشيخ شاكر قذى في أعين الملاحدة:

كان الشيخ أحمد شاكر مجاهدًا طوال حياته ضد الحركة النسوية خاصة، وضد مهاجمي الإسلام والمتلاعبين به عامة. كان قذى في أعين لا ندري كيف تبصر وشجى في حلق جمعيات التبشير وصحف الدعاية.

(١) هذه المحاضرة الممنوعة نُشرت في مجلة الهدي النبوي في العدد ٦ من المجلد ٥.

◘ قال ـ رحمه اللَّه ـ في تعليقه على حديث رسول اللَّه ﷺ : «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء»[١] :ـ «فلينظر السفهاء الحمقى أنصار المرأة في عصرنا! من الملحدين، ومن الجاهلين الجرآء الذين يدّعون العلم بما لا يعلمون، ممن أخرجوا المرأة المسلمة من خدرها إلى الطرقات والجامعات والمصانع والملاهي، الذين يريدون إفساد الخلق الإسلامي السامي، ويفترون على اللَّه ورسوله، أن الإسلام سوّى المرأة بالرجل، ولم يحجبها عن مخالطة الرجال! لينظروا كيف صان اللَّه ورسوله المرأة المسلمة عن أن يظهر صوتها حتى في الصلاة، ولكن القوم لا يستحيون! قاتلهم اللَّه أنّى يؤفكون»[٢] .

* أبو الأشبال الليث الشيخ أحمد شاكر يزأر في عرينه:

لقد كان أبو الأشبال الشيخ أحمد شاكر له من كنيته واسمه أوفر نصيب فحين أصدر مجلس الوزراء في يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ مشروعًا بقانون لتنظيم المحاكم الدينية لغير المسلمين وفي مادته الثامنه نصّ على أن «تغيير دين أحد الخصوم أثناء سير الدعوى لا يؤثر في اختصاص المحكمة التي رُفِع إليها النزاع وفقًا لأحكام هذا القانون»، وألقى الشيخ شاكر كلمة في اجتماع الجمعية العمومية لقضاة محكمة مصر الشرعية صباح يوم الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٨ كلمة قال فيها:

«معنى هذا بالقول الصريح: أن الرجل إذا دخل دين الإسلام أثناء التقاضي كان للمحكمة الأخرى غير المسلمة أن تحكم بتطليق زوجته منه حكمًا تقرّه الدولة. وأن المرأة إذا أسلمت أثناء التقاضي حكمت عليها المحكمة غير المسلمة بالدخول في طاعة زوجها الذي أبى الإسلام، ونفذّت

---

(١) انظر «مسند الإمام أحمد» بتعليق الشيخ شاكر (١٣/ ٩) رقم (٧٢٨٣).

(٢) انظر «مسند الإمام أحمد» بتعليق الشيخ شاكر (١٣/ ٩) رقم (٧٢٨٣).

قوات الدولة الإسلامية هذا الحكم ومكّنت غير المسلم من المرأة المسلمة إلى غير ذلك مما يعرض لكم من الحوادث كل يوم.

ثم قال: إن محمدًا ﷺ، وهو الأمين المأمون، وهو سيد الأوفياء بالعهود، عاهد قريشًا يوم الحديبية، أن لا يأتيه أحد من مكة إلاّ ردّه إليهم، وإن كان مؤمنًا، وقد أوفى بعهد، فردّ أبا جندل بن سهيل وغيره، وفاء بالعهد، ثم جاء نساء مؤمنات مهاجرات من مكة، فأتى أهلهن يسألونه الوفاء بعهده، فمنعه اللَّه من ذلك، وأمره أن لا يرد النساء إليهم فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ**﴾ [الممتحنة: ١٠].

أفيُراد من المسلمين بعد هذا النص القرآني القاطع أن يخرجوا على دينهم، فيسلّموا المرأة التي أسلمت إلى الرجل ليس من أهل ملتها؟! اللَّهم إن هذا لا يُرضيك، وإنا نأبى أن نخضع له.

أنتم حماة الشرع، أنتم وسائر العلماء، وعليكم جميعًا عبء الدفاع عنه، والذبّ عن حوضه، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

✍ **أيها الإخوان:**

إن الواجب على العلماء الآن أن يقولوها كلمة صريحة واضحة خالصة لوجه اللَّه، أن هذه المادة عدوان على الإسلام، وخروج على كتاب اللَّه، وأنها إذا أُقرّت نهائيًّا كانت ردّة وانفصامًا عن الدين، لا حكم لها غير ذلك. واعلموا أن لا عذر لكم عند اللَّه وعند الناس في السكوت عنها، وأن اللَّه سبحانه قال لخير الناس بعد الأنبياء وهم أصحاب محمد، في شأن أهون من هذا، وهو النفقة في سبيل اللَّه، ولستم أكرم على اللَّه منهم، قال لهم:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته».

*** الشيخ أحمد شاكر وقضية فلسطين:**

□ قال الشيخ في تحيته للمؤتمر العربي في قضية فلسطين:

«إن هؤلاء الأذلاء[1] كتب اللَّه عليهم الجلاء، فقد أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة وأرباضها، ثم جلاهم الفاروق عن الحجاز، ثم سكت عنهم المسلمون، بل حموهم حين رأوهم مضطهدين مستضعفين، فلما عادوا سيرتهم من البغي والعدوان، أعادهم اللَّه سيرتهم من الجلاء، فجلاهم الألمان والطليان عن بلادهم؛ وستكون عاقبة أمرهم ـ إن شاء اللَّه ـ أن يجليهم المسلمون عن كل بلاد الإسلام.

إن أوربة لم تتمكن من دول الإسلام في فترة ضعفهم إلا حين أرهبتهم بغُول التعصب، حتى صار كل مسلم يتخاذل عن دينه وعن شريعته، خشية أن يتهم بالتعصب ثم ألقت بينهم بدعة القوميات، لتفتنهم عن وحدتهم وقوتهم.

ولقد قال الزعيم الخطير، صاحب المعالي محمد علي علوبة باشا، بالأمس بالمؤتمر كلمة خالدة أرجو أن تكون على ذكر منا دائمًا قال: «وليعلم اليهود أنهم إذا فرحوا اليوم بظفر يستند إلى حراب غيرهم فإنهم سيندمون لا محالة يوم تغيب هذه الحراب عنهم، وأحداث الدهر كثيرة، والفرص آتية لا ريب فيها، ومن أنذر فقد أعذر».

وإني أعتقد أن هذه الكلمة مما يلهم اللَّه بعض عباده؛ فهي عبرة لمن

---

(١) يعني اليهود.

شاء أن يعتبر، وهي نذير لمن شاء أن يتدبر النذر وأستغفر اللَّه لي ولكم»[1].

* الشيخ شاكر وصوته الهادر في تعدد الزوجات:

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «نبتت في عصرنا هذا الذي نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل، نصرانية العاطفة، ربّاهم الإفرنج في ديارنا وديارهم، وأرضعوهم عقائدهم، صريحة تارة، وممزوجة تارات، حتى لبّسوا عليهم تفكيرهم، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية، فصار هجِّيراهم وديدنهم أن ينكروا تعدد الزوجات، وأن يروه عملاً بشعًا غير مستساغ في نظرهم! فمنهم من يصرِّح، ومنهم من يجمجم.

وزاد الأمر وطمّ، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التي تنتسب للإسلام وضعت في بلادها قانونًا منعت فيه تعدد الزوجات[2] جملة، بل صرّحت تلك الحكومة باللفظ المنكر: أن تعدد الزوجات ـ عندهم ـ صار حرامًا. ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المجرم صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام، تجري عليهم وعلى مَنْ يرضى عن عملهم كل أحكام الرّدة المعروفة، التي يعرفها كل مسلم، بل لعلهم يعرفون ويدخلون في الكفر والردّه عامدين عالمين..».

ثم جعل الشيخ العلاّمة يعرض شبهات القوم ويفنّدها شبهة شبهة إلى أن قال: «فيا أيها المسلمون:

لا يستجرينكم الشيطان، ولا يخدعنكم أتباعه وأتباع عابديه، فتستخفوا بهذه الفاحشة التي يريدون أن يذيعوها فيكم، وبهذا الكفر الصريح الذي

---

(١) انظر كتاب «كلمة الحق» للشيخ أحمد محمد شاكر ص(١٩٥ ـ ١٩٨) ـ طبع مكتبة السنة.

(٢) يشير بذلك إلى الحكومة التونسية في عصره.

يريدون أن يوقعوكم فيه، فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه، كما يريدون أن يوهموكم، وإنما هي مسألة في صميم العقيدة: أتصرون على إسلامكم وعلى التشريع الذي أنزله اللّٰه إليكم وأمركم بطاعته في شأنكم كله؛ أم تُعرضون عنهما ـ والعياذ باللّٰه ـ فتتردّوا في حمأة الكفر، وتتعرضوا لسخط اللّٰه ورسوله؟ هذا هو الأمر على حقيقته.

إن هؤلاء القوم.. الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات ـ لا يتورّع أكثرهم عن اتخاذ العدد الجم من العشيقات والأخدان، وأمرهم معروف مشهور، بل إن بعضهم لا يستحي من إذاعة مباذله وقاذوراته في الصحف والكتب، ثم يرفع علم الاجتهاد في الشريعة والدين، ويزري بالإسلام والمسلمين.

إن اللّٰه حين أحلّ تعدد الزوجات.. بالنص الصريح في القرآن ـ أحلّه في شريعته الباقية على الدهر، كل زمان وكل عصر. وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، فلم يعزب عن علمه ـ عز وجل ـ ما وقع من الأحداث في هذا العصر، ولا ما سيقع فيما يكون في العصور القادمة. ولو كان هذا الحكم مما يتغيّر بتغيّر الزمان ـ كما يزعم الملحدون الهدّامون ـ لنص على ذلك في كتابه أو في سنة رسوله: ﴿**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

والإسلام بريء من الرهبانية، وبريء من الكهنوت، فلا يملك أحد أن ينسخ حكمًا أحكمه اللّٰه في كتابه أو في سنة رسوله. ولا يملك أحد أن يحرّم شيئًا أحله اللّٰه، ولا أن يحلّ شيئًا حرّمه اللّٰه. لا يملك ذلك خليفة ولا ملك، ولا أمير ولا وزير، بل لا يملك ذلك جمهور الأئمة سواء بإجماع أم بأكثرية. الواجب عليهم جميعًا الخضوع لحكم اللّٰه، والسمع والطاعة.

* اسمعوا قول اللّٰه: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ**

وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

* وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

ألا فلتعلمنَّ أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه، أو تقييده بقيود لم ترد في الكتاب ولا في السنة، إنما يفتري على اللَّه الكذب.

ألا فلتعلمن أن «كل امرئ حسيب نفسه»، فلينظر امرؤ لنفسه أنَّى يصدر وأنَّى يرد. وقد أبلغت. والحمد للَّه رب العالمين»(١).

* للَّه درّك من إمام:

☐ يقول ـ رحمه اللَّه ـ معلقًا في عمدة التفاسير (٢/ ١٩٦) عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

«. . . وها هو ذا القرآن الكريم يحرّم الربا كله أشد التحريم، ويفسره التفسير الواضح الذي لا يحتمل تأويلاً: أنه ما زاد على رأس المال، وتؤكده الأحاديث الصحاح في التحريم والتفسير.

ويتوعد اللَّه آكلي الربا أشد الوعيد: بالحرب من اللَّه ورسوله، يتوعّد آكلي الكثير والقليل، بل يتوعد آكلي ﴿ ما بقي من الربا ﴾ ليشمل أقل القليل.

وها هي ذي أقوال الصحابة والتابعين، في استتابة المرابين، ثم وجوب قتلهم إن لم يتوبوا عنه ـ فقهًا منهم دقيقًا لمعنى الآية في إعلام المرابين، هذا

---

(١) انظر «كلمة الحق» للشيخ أحمد شاكر ص(٣٠٣ ـ ٣١٤) ـ مكتبة السنة.

فيمن يفعل دون مجاهرة باستحلال الربا.

أما المستحلّ ما حرم اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله، المعلوم تحريمه من الدين بالضرورة فلا يشك مسلم من عامة المسلمين في أنه مرتد خارج من الإسلام، مباح الدم بالردة عن الإسلام، لا بأكل الربا والإصرار عليه فقط.

فانظروا - أيها المسلمون إن كنتم مسلمين - إلى بلاد الإسلام في كافة أقطار الأرض إلا قليلاً، وقد ضُرِبت عليها القوانين الكافرة الملعونة، المقتبسة من قوانين أوربة الوثنية الملحدة، التي استباحت الربا استباحة صريحة بألفاظها ورُوحها، والتي يتلاعب فيها واضعوها بالألفاظ، بتسمية «الربا»: «فائدة».. حتى لقد رأينا ممن ينتسب إلى الإسلام، من رجال هذه القوانين ومن غيرهم ممن لا يفقهون.. من يُجادل عن هذه الفائدة، ويرمي علماء الإسلام بالجهل والجمود، إن لم يقبلوا هذه المحاولات لإباحة الربا.

أيها المسلمون! إن اللَّه لم يتوعد في القرآن بالحرب على معصية من المعاصي غير الربا، فانظروا إلى أنفسكم وأممكم ودينكم.

ولن يغلب اللَّه غالب».

*** الشيخ شاكر وقوله الهادر في جزاء من اتبع اليهود والنصارى:**

□ قال - رحمه اللَّه - في «عمدة التفاسير» (١/ ٢٢٧) عند قول اللَّه تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

«عصم اللَّه المسلمين منذ أن هداهم اللَّه للإسلام إلى قريب من عصرنا هذا - من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارى، إلا ما يكون من حوادث فردية، أكثرها من المعاصي العملية.

ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى، فزادوا في التشبه بهم قليلاً قليلاً. ثم وُجد من أهل العلم فيهم ومن أهل الرأي.. من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع، فصاروا يتقرّبون شيئًا فشيئًا لسادتهم، بتأويل القرآن والسنة، وتحريف معانيهما، ليقاربوا بين شريعتهم المطهرة، وشرائع تلك الأمم الضالة المغضوب عليها... بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا، فكان في علمائنا وكتّابنا مَن ينكر الغيب أو أكثره، فيتأولون صفة الملائكة، ووصف الجن، ويُنكرون المعجزات النبوية عامة.. لأنها لم ترد في القرآن، زعموا! ثم يحرّفون المعنى فيما ثبت منهما في القرآن أو السنة المتواترة. ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرّمات، يصرّحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة.

ثم صاروا ينبزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التي هدانا اللَّه إليها ورسوله بالتقاليد وبالرجعية لينفروا الناس منها، وقامت في عصرنا هذه الدعوة سافرة وقحة إلى تغيير الشريعة النقية في تعدد الزوجات والطلاق والمواريث.

بل إن من يحمل «شهادة العالمية» من الأزهر كتب في الصحف من غير حياء: «إن الإسلام يُحرِّم تعدد الزوجات»! وضَعُف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه، خشية أن يغضب مَنْ وراءه ومَنْ ينصره في كُفره وافترائه على اللَّه.

وحتى إن بعض الصحف القوية الماجنة الداعرة لتدعو إلى الزنا علنًا، دون أن يردعها أحد، بل إن بعضهم ليصرِّح بمنع العلماء من الكتابة في المسائل «الاجتماعية».

والصحف الأُخرى لا ترضى أن تنشر لأحدٍ من العلماء دَفْعًا لهذا الكفر

البواح، بل إن نسوانًا ماجناتٍ فاجراتٍ ينشرن في الصحف الدعوة السافرة إلى الفجور بعد انتشار السفور.

فلئن لم يدفع المسلمون ـ أو المتسبون للإسلام ـ هذه المنكرات عن دينهم وعن بلادهم، ليسلطنَّ اللَّه عليهم عدوهم، وليستأصلن شأفتهم، وليستبدلنّ بهم قومًا غيرهم، ثم لن يكونوا أمثالهم»[1] .

رحمك اللَّه أبا الأشبال ومحدث الديار ورزقك الفردوس الأعلى، وسقى أعظمك الطاهرات.

❑ وللَّه درّ شوقي حين يقول فيك وفي علماء الأزهر العاملين بعلمهم:

واخشع مليًّا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرًا وماجوا أبحرا

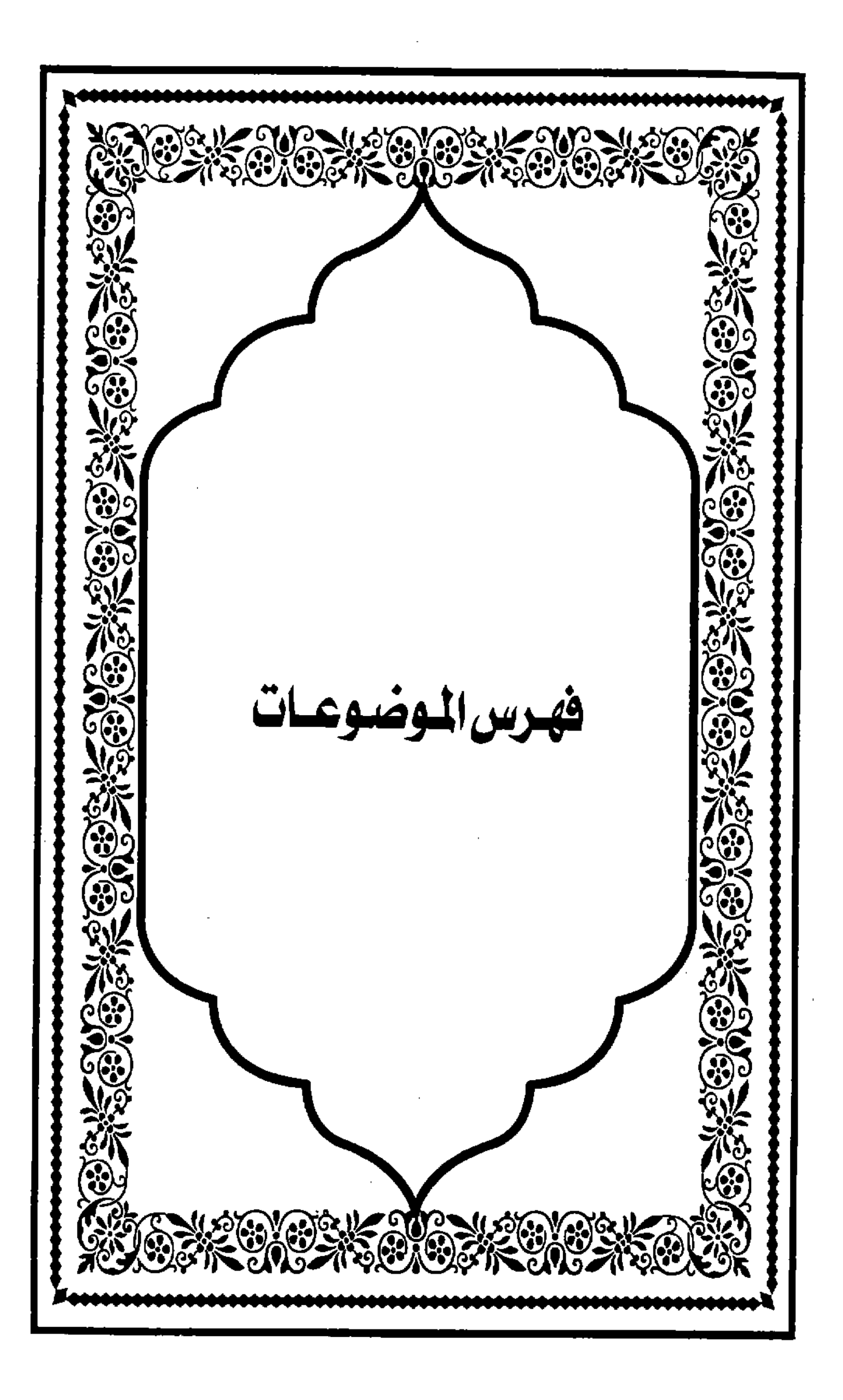
كانوا أجلّ من الملوك جلالة ... وأعز سلطانًا وأفخم مظهرا

زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرمُ الأمان وكان ظلهم الذرا

من كل بحرٍ في الشريعة ذاخر ... ويُريكه الخلق العظيم غضنفرا

* * *

(١) ما حوته ترجمة الشيخ أحمد شاكر من أقوال له مبثوثة في كتبه ومقالاته التي جمعتها مكتبة السنة في كتابين «كلمة الحق» و«حكم الجاهلية».



فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

* * *